

النُّسَاء



الرَّوَايَةُ كَامِلَةٌ

فِي خَمْسَةِ مَجَلَّدَاتٍ

البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم
فيكتور هيغو

المجلد الثاني

نقله إلى العربية
مُنِير العَبَّاسِي

دار العلم للملايين
بيروت

البؤساء

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

اَلْقِسْمُ الثَّانِي

كُونِيْتٌ

الكتاب الأول

واترلو

١

ما الذي تلتقيه وانت مقبل من نيفيل

في العام الماضي (١٨٦١) ، ذات صباح جميل من ايام نوار ، كان احد المسافرين - وهو الرجل الذي يروي هذه القصة - يتجه من « نيفيل » الى « لاهوب » . كان يرتحل سعياً على قدميه ، سالكاً - بين صفين من الاشجار - طريقاً عريضة معبدة تتعرج فوق تلال كانت تتعاقب واحدة اثر اخرى ، فتزحفها حيناً ، وتهبط بها حيناً ، مثل امواج هائلة . كان قد اجتاز « ليلوا » و « بوا - سينور - ايزاك » . لقد رأى في ناحية الغرب قبة كنيسة « برين لالو » المصنوعة من حجر الآردواز ،

والتي يشبه شكلها شكل إناء مقلوب . وكان قد خلف وراءه منذ لحظة غابة على شرف من الارض . وعند زاوية احدى الطرق الضيقة المختصرة ، الى جانب ضرب من المعلم النخيل الحامل هذا الكلام : « باب المدينة القديم رقم ٤ » كانت حانة على واجهتها هذه الالفة : حانة الرياح الاربعة ، ايشابو ، مقهى خصوصي .

وعلى ثمن فرسخ وراء هذه الحانة انتهى المسافر الى قعر وادٍ صغير حيث كان جدول يجري تحت قنطرة قائمة عند الطريق المردومة . وكانت باقة الاشجار ، المتناثرة ولكنها شديدة الخضرة ، والمائلة صفحة الوادي من احد جانبي الطريق - كانت هذه الباقة تبدد عند الجانب الآخر في المروج ، وتنبسط في فوضى دمتة نحو « برين لالو » .

هناك ، الى اليمين ، وعلى حافة الطريق ، كان فندق امام بابه كارتة ذات اربع عجلات ، وحزمة ضخمة من عيدان حشيشة الدينار ، ومحرثات ، وركام من العواصج الجافة قرب سياج من الاشجار الشائكة ، وشيء من الكلس يرسل الدخان في حفرة مربعة ، وسلم ملقاة في محاذاة سقيفة عتيقة ذات مداود للثمن . كانت فتاة صغيرة تقنع الاعشاب الضارة من حقل كانت الريح تعبث فيه باعلان كبير اخضر ، لعله كان خاصاً بمسرح متجول يقدم الروايات لمناسبة سوق سنوية ما . وعند زاوية الفندق ، الى جانب مستنقع صغير كان يُبحر فيه أسبطل من البط ، اقتحم احد الازقة المليئة بالاخاديد قلب الادغال ، فاضاع فيها نفسه . لقد اتخذ ذلك المسافر هذه السبيل .

وبعد ان خطا مئة خطوة ، مجتازاً بسور يرقى الى القرن الخامس عشر تعلوه واجهة مثلثة حادة الزاوية مشيدة بالآجر المنسق على نحو يظهر التضاد بين اجزائه ، وجد نفسه تجاه باب كبير مبني من حجارة مقنطرة ، ذي كوة في اعلاه مستقيمة الاضلاع ، على طراز لويس الرابع عشر الوقور ، يحيط بها من جانبيها نقشان مدوران مستويان .

وفوق هذا الباب كانت واجهة كالحة ؛ وعلى خط عمودي مسع الواجهة كان جدار يمس الباب أو يكاد ، ويدعمه بزاوية قائمة مقتضبة . وعلى المرج المنبسط امام الباب انطرحت ثلاث بحارف كبيرة مسدنة انبثقت من خلالها ، على احسن ما استطاعت ، رياحين نوار كلها . كان الباب موصداً . وكان مغلقاً بمصراعين متداعيين للسقوط ، مزدانين بقارعة غنيقة صدئة .

كانت الشمس فاتنة . وكانت الافنان ترتعش ارتعاشة نوار الرفيقة التي تبدو وكأنها ناشئة عن اعشاش الطير لا عن الريح . وكان طائر متأنق ، لهله ان يكون عاشقاً ، يتغنى بياس في شجرة عالية . وتمهل المسافر ، وتأمل الحجر الذي الى يسار الباب ، قرب الارض ، دارساً تجويفاً كبيراً دائرياً يشبه جوف كرة . وفي تلك اللحظة فُتح مصراعاً الباب ، وخرجت منه امرأة ريفية . وبصُرت بالمسافر ، وأدركت أي شيء كان يدرس . وقالت :

« إن احدى قذائف المدفعية الفرنسية هي التي فعلت ذلك . »
ثم اضافت :

« وما تراه هناك ، في مكان أعلى ، في الباب ، قرب أحد المسامير ، هو ثقب احدثته بندقية ضخمة من ذلك النوع المعروف بالبنادق البشكنسية . * إن البندقية لم تستطع ان تحرق الحشب . »
فقال المسافر :

« وما اسم هذا المكان ؟ »

فقال الفلاحة :

« هو غومون . »

ورفع المسافر رأسه . وخطا بضع خطوات ، وأنشأ ينظر من فوق الأسبجة .

* نبة الى مقاطعة «البشكنس» أو «الباسك» في أسبانية .

لقد رأى عند الأفق ، من خلال الاشجار ، شبه أكمة ، ورأى فوق هذه الأكمة شيئاً بدا ، من بعيد ، وكأنه أسد .
كان في ساحة القتال بواترلو .

٢

هوغومون

هوغومون - كانت تلك هي البقعة المشؤومة ، وبدء المقاومة ، وأول عائق لقيه في واترلو حطاب أوروبا العظيم ذاك ، الذي ندعوه نابليون . أول عقدة تعترض سبيل الفأس .
كانت حصناً ، أما اليوم فلم تعد أكثر من مزرعة . وكانت هوغومون Hougomont تعرف عند جامعي النفائس الاثرية والمتاجرين بها بـ « هيغومون » Hugomons . وكان قد شيد هذا المعقل الاقطاعي هوغو ، سيد سوميريل ، وهو نفسه الذي وقف الاوقاف لوظيفة القس السادسة في دير « فيليير » . ودفع المسافر الباب ، ودفر برفقه عربة عتيقة كانت تحت مدخل مسقوف ، وتقدم الى الفناء .

كان أول ما لفت نظره في هذه الساحة باب يرقى الى القرن السادس عشر ، بدا وكأنه قنطرة بعد ان تساقط كل شيء من حوله . إن المشهد الأثري لينشأ في كثير من الاحيان عن الحراب . وقرب القنطرة انفتح باب آخر في الجدار ذو أغلاق * من عهد هنري الرابع يكشف عن اشجار في بستان . والى جانب هذا الباب كانت مزبلة ، ومعاول ، ومجارف ، وبضع عربات من ذوات الدولابين ، ويثر قديمة ببلاطها وبكرتها الحديدية ، ومهر يذب ، وديك رومي ينشر ريش زيمكة ، * جمع غلق ، وهو الحجر الذي تملق به فجوة رأس القنطرة .

ومعبد يعلوه برج أجراس صغير ، وشجرة إيجاص منوّرة معرّشة على جدار المعبد . ذلك هو الفناء الذي كان احتلاله 'حلم' نابوليون . ولو قد وفق الى الاستيلاء على تلك الزاوية من الارض اذن لكان من الجائز ان تهبه الدنيا كلها . إن ثمة دجاجات تنثر التراب بمنافيرها . وإنك لتسمع زججرة . ذلك كلب كبير يكشر عن أسنانه ، ويحلبّ يحلبّ الانكليز . لقد أبلى الأنكليز بلاء حسناً هناك . إن سرايا الحرس الاربعة التي قادها كوك احتفظت بمواقعها سبع ساعات في وجه جيش سنّ عليها هجوماً ضارباً .

وهوغومون ، حين تُرى على مخطّط هندي ينتظم الابنية والاراضي المورّة ، عبارة عن مستطيل غير متنسق بُترت احدى زواياه . في تلك الزاوية يقوم الباب الجنوبي ، بحميه هذا السور الذي يمين عليها في مدى البندقية الأقصر . إن لهوغومون باين : الباب الجنوبي ، وهو باب الحصن ، والباب الشمالي وهو باب المزرعة . ولقد وجّه نابوليون اخاه جيروم لاحتلال هوغومون . لقد 'سُيرت' عليه فرق 'غويسينو' * و 'فوا' ** و 'باشو' *** ولقد 'جرت' الكثرة الكبيرة من قوات 'راي' **** ضده ، فهزمت عنده . واستنفدت قنابل كيلرمان ***** على جزء السور البطوليّ ذاك . وكان قهر هوغومون

* Guilleminot جنرال وسياسي فرنسي . (١٧٧٤ - ١٨٤٠)

** Foy جنرال فرنسي (١٧٧٥ - ١٨٢٥) غطى انسحاب الجيش من اسبانية ، وشارك في معركة واترلو وجرح فيها .

*** Bachelu قائد فرنسي من نواد نابوليون الذين شاركوا في هذه المعركة ايضاً .

**** Reille مارشال فرنسي (١٧٧٥ - ١٨٦٠) أبلى بلاء حسناً في واترلو اكسبه مجداً عظيماً .

***** Francois - Etienne Kellermann قائد فرسان فرنسي (١٧٧٠ - ١٨٢٥) توشح بالنجد في معركة مارانتو ثم في معركة لوتزن وواترلو .

من الشمال اكثر مما يطيقه لواء « بودوين » ؛ ولم توفق فرقة « سوا » الى غير تهديمها من الجنوب . لقد عجزت عن الاستيلاء عليها .
وانما تقوم ابنية المزرعة على الجانب الجنوبي من الفناء . ان جزءاً صغيراً من الباب الشمالي الجنوبي ، وقد حطمه الفرنسيون ، ليتدلى متأرجحاً من السور . انه مؤلف من اربعة الواح خشبية مسطرة على عارضتين ، حيث يستطيع المرء ان يقين ندوب * الهجوم .
والباب الشمالي ، الذي استولى عليه الفرنسيون ، والذي اضيفت اليه قطعة جديدة تعويضاً عن المصراع المتدلي من السور ينهض نصف منفتح عند ادنى الفناء . لقد 'فصل' على شكل مربع في جدار اسفله حجري وأعلاه آجري ، يحيط بالفناء من ناحية الشمال . إنه جدار كارتني ** بسيط ، كذلك الذي نجده في جميع المزارع الصغيرة ، يتألف من مصراعين ضخمين مصنوعين من الواح غلاظ . ووراء ذلك تنبسط المروج . لقد كان النزاع على هذا المدخل ضارباً . وطوال فترة غير قصيرة كان في إمكان المرء ان يرى ، على قائمة الباب ، بصمات الايدي الدامية على اختلافها . فهناك كان بودوين قد صرع .

إن عاصفة الصراع لا تزال في هذا الفناء ؛ وان الهول لا يزال مشهوداً هناك . إن الدمار الناشئ عن القتال لتجبراً في تلك البقعة . هذا يحيا ، وهذا يموت ؛ لكن ذلك كان بالامس . إن الجدران لتحتضر ، وإن الحجارة لتتساقط ، وإن التلثم لتصبح . ان الحفر جراحات . وان الاشجار ، وقد انحنى وارتعشت ، تبدو وكأنها تبذل جهودها لكي تفر .

هذا الفناء كان ، في عام ١٨١٥ ، في حالٍ خيرٍ من حاله اليوم .

* النذبة : اثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد . وجما ندب . وجمع الجمع ندوب .

** نسبة الى الكتاة وهي عربية الوسط ذات الدولابين ، او ذات الاربعة دواليب .

كانت الابنية التي دُكِّت منذ ذلك الحين تشكل استحكامات ، وزوايا ، وزوايا مثله .

كان الانكليز متحصنين هناك خلف المتاريس ؛ ووفق الفرنسيون الى اختراق هذه المتاريس ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بموقعهم الجديد . والى جانب المعبد ، ينهض جناح من الحصن - الاثر الوحيد الباقي من قصر هوغومون الاقطاعي - على محور منقض ، بل ان المرء ليستطيع القول انه ينهض مبقوراً مجرداً من احشائه . لقد اتُخذ من الحصن برجاً مركزياً للمقاومة ، واتخذ من المعبد معقلاً خبيراً ذا منافذ لاطلاق النار من البنادق . لقد عمل القوم على ان يُغني بعضهم بعضاً . لقد صُرع الفرنسيون بنيوان البنادق تنصب عليهم من كل ناحية ، من وراء الاسوار ، من سطوح اهراء الخنطة ، من أغوار الأقيية ، من خلال كل نافذة ، من خلال كل منفذ من منافذ الهواء ، من خلال كل فرجة بين الحجارة ، فحملوا حزم الحطب واحرقوا الاسوار والرجال : لقد اجابوا على نيران البنادق والمدافع بنيوان الحريق .

وفي وسع المرء ان يلمح في الجناح الحرب ، من خلال النوافذ المقضبة بالحديد ، الغرف المهتمة من بناء رئيسي مشيد بالآجر ؛ وكان الحرس الانكليزي يكمن للفرنسيين في هذه الغرف . إن السلم اللولبية المصدوعة من الاساس الى السطح تبدو مثل داخل صدقة مكسورة . ولتلك السلم منبسطان . وكان الانكليز ، وقد حوصروا في السلم ، واحتشدوا فوق درجاتها العليا ، قد ازالوا الدرجات الدنيا . وكانت هذه صفائح عراضاً من حجير ازرق تُرى الآن مركومة بين القُرَاص . إن اثنتي عشرة درجة لا تزال عالقة بالسور ، ولقد نُقِشت على أولاهها صررة خُطَاف ثلاثي الشُعَب . وهذه الدرجات التي لا سبيل الى بلوغها مكيئة في مغارزها ؛ وكل ما بقي يشبه فكاً أذرد . * ان ثمة

* الأورد : من ذهب اسنانه كاه .

شجرتين هرميتين ؛ احدهما ميتة ، والاخرى جريجة الساق ولا تورق الا في نيسان . ومنذ سنة ١٨٥٠ شرعت تنمو عبر السلم .

ووقعت مذبح في المعبد . إن الجزء الداخلي ، وقد استعاد سكينته ، لغريب حقاً . فلم يُحتفل فيه بقداش منذ تلك المجزرة . ومع ذلك فلا يزال المذبح قائماً - إنه مذبح من خشب غليظ مُسند الى جدار من حجر لم تعالجه يد الصناعة . اربعة جدران مبيضة بماء الكلس ؛ باب مواجه للمذبح ؛ نافذتان صغيرتان مقنطرتان ؛ وعلى الباب ثمال المصلوب خشبي ضخم ، وفوق ثمال المصلوب فتحة مربعة سدّت بجزمة من التين ؛ وعلى الارض في احدى الزوايا إطار نافذة مزجج قد تكسّر كله : كذلك هي هذه الكنيسة . وقرب المذبح عُلق ثمال خشبي للقديسة آنّ يرجع عهده الى القرن الخامس عشر . اما رأس يسوع الطفل فكانت قد اطاحت به طلقة بندقية . لقد هيمن الفرنسيون ، لحظة ، على المعبد ثم أخرجوا منه ، فأضرموا النار فيه . وملأت ألسنة اللهب هذه الحربة المتداعية فأمست اتوناً . لقد اشتعل باب المعبد ، واشتعل ارضيته ، ولكن المسيح الخشبي لم يشتعل . لقد التهمت النار قدميه اللتين لا نرى منها بعد غير بقية مودّة ، ثم وقفت عند هذا الحد . معجزة - كذلك يقول اهل المنطقة . أما يسوع الطفل ، الذي اقتطع رأسه ، فلم يُخالفه الحظ بقدر ما حالف المسيح .

إن الجدران مغطاة بالنقوش . فأمام قدمي المسيح نقرأ هذا الاسم : هينكينيز Henquinez . ثم نقرأ هذه الاسماء : الكونت دو ريو مايور .

المركز والمركيزة دو آلامارو (هابانا) Conde de Rio Maior . Marques y Marquesa de Almagro (Habana) وهناك اسماء فرنسية ملحقة بعلامات تعجب ، إشارة الغضب . لقد يُبّض الجدار بماء الكلس عام ١٨٤٩ . كانت الامم تهن بعضها بعضاً على صفحته .

وعند باب هذا المعبد بالذات التفتت جثة بمكة بيدها فأساً .

كانت هي جثة الملازم الثاني ليفروس .

وحين يغادر المرء المعبد يرى الى يساره بئراً . إن في هذا الفناء بئرين . وقد تتساءل : لم لا يوجد دلو وبكرة لهذه البئر ؟ لأن احداً ما عاد يستقي الماء منها الان . ولكن لم لا يستقون الماء منها ؟ لأنها مملأى بالهياكل العظمية .

أما آخر من متع الماء من هذه البئر فكان غيلوم فان كيلسوم . كان ريفياً يعيش في هوغومون ، وكان بستانياً هناك . وفي ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ، فرت أسرته ، واختبأت في الغابات .

وآوت الغابة المحيطة بدير « فيليز » هذه الاسرة البائسة المشتتة عدة أيام وعدة ليالٍ . وحتى اليوم 'يستطيع المرء ان يتبين بعض الآثار ، من مثل جذوع الاشجار المحترقة ، التي تعين مستقر هؤلاء المشردين البائسين ، المرتعدي الاوصال ، في أعماق الأجمة .

وظل غيلوم فان كيلسوم في هوغومون « لكي يحرس الحصن » ، واختبأ في أحد الاقبية . وعثر عليه الانكليز هناك . فانتزعوه من مخبأه . وبوابل من الضربات 'سدتت اليه بعرض السيف اكراه الجنود هذا الرجل المروّع على ان يخدمهم . كانوا عطاشاً ، فجاءهم غيلوم هذا بالماء . وإنما استسقى الماء لهم من هذه البئر . وشرب كثير منهم آخر جرعاتهم . وكان لا بدّ لهذه البئر ، حيث شربت جمهرة من القتلى ، من ان تموت هي ايضاً .

وبعد انتهاء المعركة قضت الحاجة بالتعجيل في دفن الجثث . إن للموت أسلوبه في تنغيص النصر على المنتصرين ، فهو يُتبع المجد بالطاعون . والטיפوس ملحق من ملحقات النصر . وهذه البئر كانت عميقة ، فجعلها القوم قبراً . لقد أُلقي فيها ثلاثئة قتيل . ولعل ذلك كان بأكثر مما ينبغي من السرعة . هل كانوا كلهم امواتاً ؟ الاسطورة تقول لا . والذي يبدو انه في الليلة التي تلت دفنهم سمعت اصوات واهنة تنطلق من البئر

مستغنية .

والبئر معزولة في وسط الفناء . وانما تحيط بها من جهات ثلاث جدران ثلاثة تُشيد نصف كل منها من حجر ونصفه الآخر من آجر ، وتثبت مثل حجاب واقٍ من الهواء (بارافان) ، مشبهةً برجاً صغيراً مرتباً . اما الجهة الرابعة فكانت مفتوحة . ومن تلك الجهة كان الناس يمتحون الماء . وللجدار الخلفي شبه كوة لا شكل لها ، ولعلها ثقب ناشئ عن احدى القذائف . ولهذا البرج سقف لم يبق منه غير العوارض الخشبية الضخمة . والحديد الذي يدعم الجدار الايمن على شكل صليب . وتحتوي فوق البئر ، قنصلُ العين في بناء اسطواني آجري صيق غلاء اكوام من الظلمات . وحول البئر كلها تختفي الاجزاء الدنيا من الجدران خلف القُرَاص .

وليس يوجد امام هذه البئر تلك الصفيحة العريضة من الحجر الازرق التي تُصطنع كحاجز واقٍ في جميع آبار بلجيكة . لقد استعاض عن الحجر الازرق بعارضة تستند اليها خمس قطع او ست قطع خشبية مشوّهة ، كثيرة العقد متصلة ، تشبه عظاماً ضخمة . لم يبق ثمة لا دلو ، ولا سلسلة ، ولا بكرة . ولكن الحوض الحجري الخاص بالمياه الفائضة لا يزال هناك . إن ماء المطر ليجمع في هذا الحوض ، وبين الفينة والفينة يقدُ اليه من الغابة المجاورة طائرٌ ما ، فيشرب ، ويتخذ سبيله في الجو .

ان بيتاً واحداً بين هذه الحرائب ، هو بيت صاحب المزرعة ، لا يزال أهلاً بالسكان . وباب هذا البيت ينفتح على الفناء . والى جانب صفيحة جملة قوطية خاصة بموضع المفتاح من القفل كانت فوق هذا الباب حفنة من حديد مائلة الى امام " قصد بها الى ان تكون حلية على شكل ورق البرسيم . وفي اللحظة التي امسك فيها الملازم المانوفري « ويلدا » بهذه الحفنة ليجد ملجأ في المزرعة قطع يده جندي فرنسي بضربة فأس .

وكان البستاني السابق ، فان كيلسوم ، الذي توفي منذ عهد طويل ،
 جَدَّ الاسرة التي تحتل هذا البيت . إن امرأة ذات شعر اشيب تقول
 لك : « لقد كنتُ هناك . كان عمري ثلاث سنوات . لقد خافت اخوتي ؛
 وهي اكبر مني سنّاً ، وصرخت . وانتقلوا بنا الى الغابات . لقد كنت
 بين ذراعي امي . لقد الصقوا آذانهم بالارض لكي يصفوا . اما انا ،
 فقلدت المدفع ورحت اقول : « بووم ! بووم ! » .

إن احد ابواب الفناء ، ذاك الذي يقوم الى اليسار ، يفتح كما
 ذكرنا من قبل على البستان .

والبستان فطيع . إنه ذو اقسام ثلاثة ، بل ان استطاعة المرء ان
 يقول إنه ذو فصول ثلاثة . فالقسم الاول حديقة ، والقسم الثاني
 هو البستان ، والقسم الثالث غابة . وهذه الاقسام الثلاثة مور
 مشترك ؛ فالى جانب المدخل تقوم ابنية الحصن والمزرعة ، والى اليسار
 سياج ، والى اليمين جدار ، والى الورا جدار ، والجدار اليمين آجري ،
 اما الجدار الخلفي فحجري . وانما يدخل المرء الى الحديقة اولاً . انها
 منحدره ، نمت فيها شجرات عنب الذئب ؛ وغطتها النباتات البرية ،
 وتنتهي بسطيحة فغمة من حجر منحوت ، اعمدة درايزونها مزدوجة
 الشخانة . كانت حديقة جديرة بسيد عظيم ، 'نسقت على الطراز الفرنسي
 الاول الذي سبق طراز عصرنا ، ولكنها اليوم خراب وعوسج . ان
 ركائزها المربعة والمستطيلة تعلوها كُرّات تبدو وكأنها قذائف مدفعية
 حجرية . وفي امكاننا ان نحصي ثلاثة واربعين عموداً من اعمدة الدرايزون
 لا تزال في مواضعها . اما ساورها فنطرح على العشب . وهي كلها
 تقريباً تتكشف عن خدوش من اثر نيران البنادق . إن عمود الدرايزون
 المحطم ليظل منتصباً مثل رجل مكسورة .

وفي هذه الحديقة التي هي اشد انخفاضاً من البستان اضطر ستة من
 رجال فرقة المشاة الفرنسية الخفيفة الاولى كانوا قد دخلوا الى هناك

وتعذر عليهم الفرار بعد ان وقعوا في الشرك كما تقع الدببة في وجرتها - اضطر هؤلاء الرجال الستة الى ان يخوضوا المعركة ضد سريتين هانوفريتين * كانت احدهما مسلحة بالكاربينات * * واصطف الهانوفريون على طول اعمدة الدرايزون هذه ، وانشأوا يطلقون النار من أعلى . واجابه المشاة الفرنسيون من ادنى ، وكانوا ستة مقابل اثنين ، وكانوا باسليين لا يقيهم غير شجرات غيب الذئب ، فاحتاجوا الى ربع ساعة لكي يموتوا .

وتصعد بضع خطوات ، ومن الحديقة تنتقل الى البستان الحقيقي . هناك ، في هذه الامتار القليلة المربعة ، صُرع الف وخمسة رجل في اقل من ساعة . ان الجدار يبدو مستعداً لاستئناف القتال . وإنت المرامي * * * الثانية والثلاثين التي فتحتها الانكليز على مرتفعات متفاوتة من ذلك الجدار لا تزال هناك . والى جانب المرمى السادس عشر يقوم قبران انكليزيان من الصوان . وليس ثمة من مرامٍ إلا في الجدار الجنوبي ؛ لقد جاء الهجوم الرئيسي من هناك . وهذا الجدار محبوب من الخارج بسياج كبير من الاشجار الشائكة . ووصل الفرنسيون ، معتقدين انهم لن يجدوا في طريقهم غير السياج . فعبروه ، فوجدوا هذا الجدار يعترضهم ، فهو عقبة وهو كمين ، ووجدوا الحرس الانكليزي خلفه ، واذا بالرامي الثانية والثلاثين كصب عليهم نارها دفعة واحدة - عاصفة من القنابل والرصاص . وتحطمت فرقة د سوا ، هناك . لقد بدأت وترلو على هذا النحو .

ومع ذلك فقد تم الاستيلاء على البستان . ولم يكن عند الفرنسيين

* نسبة الى هانوفر بالهانية . وكانت في ذلك العهد مملكة مستقلة ، ثم غدت مقاطعة بروسية بعد الحرب النموية البروسية (سنة ١٨٦٦) .

* * الكاربين carbine ضرب من البنادق القصيرة الخفيفة .

*** جمع مرمى ، ويقصد به هنا تلك الكوة التي تفتح في جدار الحصن لكي تطلق منها القذائف .

سلام للتسور ، فسلقوا الجدار بأظافرهم . لقد حاربوا ، متلاصقي
الاجساد ، تحت الاشجار . ولقد نُقع هذا العشب كله بالدماء .
وهناك مُحقق فوج من افواج ناسو * ، عدته سبعة رجل محققاً
خاطفاً . وفي الخارج ، نلم السور الذي سُدتْ ضده وحدتا كيلومان
المدفعيتان ، من أثر القذائف .

وهذا البستان سريع الاستجابة ، شئت غيره من البساتين ، لشهر
نوار . ان له براعه الذهبية واقاحيه الصغيرة . إن العشب هناك عالٍ ؛
وخيل المحراث تزعى . وان حبال السَّبَّيب ** التي تجف عليها
الملابس الداخلية لتخترق المسافات الفاصلة ما بين الاشجار ، مكرهة
المارة على ان يجنوا رؤوسهم . انك تسير فوق تلك الارض المهمة ،
فتسبح قدمك في أجحار المناجد *** وفي وسط العشب تلحظ جذع
شجرة مقتلع الجذور ، منطرحاً على الارض ، ولكنه لا يزال
يخصو ضر . لقد أسند المايجور بلاكان ظهره الى هذا الجذع وهو يلفظ
أنفاسه الأخيرة . وتحت شجرة كبيرة مجاورة سقط الجنرال الالماني ،
دوبلا ، وهو من امرة فرنسية فرّت عند إلغاء براءة نانت **** والى
جانباها تماماً تنحني شجرة تفاح هرمة مريضة ضمّدت بعصابة من التبن
والصلصال . وجميع شجرات التفاح تقريباً تنساقط على الارض تحت ثقل

* Nasseau دولة المانية ألحقت ببروسية بعد الحرب النموية البروسية عام ١٨٦٦ .

** السبب من الفرس شعر الذنب والناصية .

*** جمع خلد من غير لفظه ، وهو الفأر الاعمى الذي يعيش تحت الارض وليس
له عيان ولا أذان .

**** Edit de Nantes هي البراءة التي اصدرها الملك هنري الرابع ، عام ١٥٩٨
ومنع فيها البروتستانت حق ممارسة شعائرهم الدينية ، ولكن الملك لويس الرابع عشر
ألغاهما سنة ١٦٨٥ ، وقد أدى هذا الالغاء الى هجرة عدد كبير من البروتستانت
الى خارج الاراضي الفرنسية .

الشيخوخة . وليس ثمة واحدة لا تتكشف عن اثر من كُرّة مدفع او طلقة
بندقية . إن هياكل الاشجار المينة العظيمة لتكثر في هذا البستان . وإن
الغربان لتطير على الاغصان . ووراء هذا البستان غابة ملأى بالنفّس .
مصرع بودوين ؛ إصابة « فوا » بجرح ؛ الحريق ؛ المجزرة ؛ المذبحة ؛
جدول يتكون من دم انكليزيّ ، ومن دم ألمانيّ ، ومن دم فرنسيّ
امتزجت في غضب عارم ؛ بثر مليئة بالجثث ؛ تحطيم سرية ناسو وسرية
برونزويك ؛ مصرع دوبلا ؛ مصرع بلاكان ؛ إصابة الحرس الانكليزي
بالتشوّه الجسماني ؛ هلاك عشرين فوجاً فرنسياً من أصل اربعين فوجاً
من قوات « راي » ؛ ثلاثة آلاف رجل قتلوا بمجدّ السيف ، في طلل
هوغومون هذا وحده ، وأنضوا بالجراح ، وذبحوا ، وصرعوا برصاص
البنادق ، وأحرقوا بالنيران ... وكل ذلك لكي يستطيع ريفي أن
يقول ، اليوم ، لأحد السياح : « سيدي ، أعطني ثلاثة فرنكات ،
إذا أحببت ، أشرح لك مسألة واترلو ! »

٣

١٨ حزيران ، ١٨١٥

فلنرجع الى الراء ، فذلك حق من حقوق القاصّ ، ولنضع أنفسنا
في عام ١٨١٥ ، قبيل تلك الحقبة التي استهلّت بها القصة التي روينها
في القسم الاول من هذا الكتاب .

لو ان المطر لم يحطّل ليل ١٧ - ١٨ حزيران سنة ١٨١٥ إذن لكان
مستقبل اوروبة قد تغير . إن بضع قطرات من الماء اكثر أو اقل
جنحت بنابوليون الى السقوط . فلكي تكون واترلو خاتمة اوستوليتر لم
تكن العناية الالهية في حاجة الى غير قليل من المطر ، فاذا بسحابة

تجتاز السماء في غير أوانها تكفي لانهايار عالم .
إن معركة واترلو - وهذا ما أعطى بلوخر * فرصة الوصول ... لم
يكن في الامكان أن 'تستهل' قبل الساعة الحادية عشرة والنصف . لماذا ؟
لان الارض كانت ندية دمتة . وكان من الضروري انتظارها حتى
تثبّت بعض الشيء لكي تستطيع المدفعية ان تعمل .

كان نابوليون ضابط مدفعية ، وهو لم ينس ذلك قط . وانما كان
أساس هذا القائد القدير المعجز هو ذلك الرجل الذي قال في التقرير
الذي رفعه الى حكومة الادارة حول ابي فير ** : « هذه الكوة من
كروات مدافعنا قتلت ستة رجال . » كانت كل خططه الحربية
موضوعة للقذائف . وكان تركيز المدفعية على نقطة ما ، هو مفتاح
النصر عنده . كان يعامل استراتيجيية القائد العدو معامته لقلعة تشرف
على مدينة ، فهو يهاجمها بالمدافع . كان يُنظر النقطة الضعيفة بالقنابل ،
وكان يُحجم عقدة المعركة ويحلها بالمدافع . كانت ثمة 'حُسن رماية في
عبريته . إن تحطيم القوات المجتمعة في مربعات ، وسحق الكتائب ،
وقطع الخطوط ، وتفتيت الحشود وبعثرتها - كل ذلك كان نابوليون
يتوصل الى تحقيقه بان يضرب ، ويضرب ، ويضرب من غير انقطاع ، وكان
يعهد في اداء هذا الواجب الى قذيفة المدفع . طريقة رهيبة استطاعت ، وقد
أردفت بالعبرية ، ان تجعل من جبار ملاكمة الحرب هذا ، الكالنج الوجه ،
رجلاً لا سبيل الى قهره طوال خمسة عشر عاماً .

وفي الثامن عشر من حزيران ، عام ١٨١٥ ، اعتمد على مدفعيته

* Blücher جنرال بروسي (١٧٤٢ - ١٨١٩) لمع نجمه خلال حملة فريسة
(١٨١٤) . هزمه نابوليون في لينبي (١٨١٥) ولكنه وفق الى ان ينجد ولفنتون
في واترلو وبذلك رجّح كفته في المعركة ، وكان ميزانها حتى ذلك الحين متأرجحاً
بين نابوليون ووليفنتون .

** المعركة التي انتصر فيها نابوليون على الممالك عام (١٧٩٩) اثناء الحملة
الفرنسية على مصر .

أكثر وأكثر لأنه كان يتمتع بالتفوق العددي من هذه الناحية . كانت
ولينغتون لا يملك غير مئة وتسعة وخمسين مدفعاً ؛ أما نابوليون فكان
يملك مئتين وأربعين .

ولو قد كانت الأرض جافة ، ولو قد تمكنت المدفعية من أن
تتحرك ، إذن لكان في إمكان القتال أن يبدأ في الساعة السادسة صباحاً ،
وإذن لكانت المعركة قد 'كسبت' واختُتِمت في الساعة الثانية ، قبل
ساعتين من ترجيح البروسيين كفة الميزان .

إلى أي مدى تقع مسؤولية الانهزام في هذه المعركة على عاتق نابوليون ؟
أينبغي أن يُعزى غرق السفينة إلى الربان ؟

هل كان انحطاط نابوليون الماديّ الواضح مصحوباً آنذاك بانحطاط
ذهني ما ؟ هل استطاعت العشرون السنة التي قضاها في ميدان القتال أن
تُبلي النصل كما أبليت الغمد ، وتوهن الروح كما أوهنت الجسد ؟ هل
أحسن القائد البارع بطيف الجندي المشرح يُطلع رأسه في ذات نفسه
على نحو مفضّب ؟ وبكلمة ، هل كانت تلك العبقرية ، كما اعتقد كثير
من المؤرخين ، تزح تحت وطأة الحسوف ؟ هل أخذ بأسباب الغيظ لكي
يخفي ضعفه عن نفسه ؟ هل بدأ يترنح ، ذاهلاً ، في وجه عاصفة
مفاجئة ؟ هل أمسى غافلاً - وهو خطأ جسيم يرتكبه جنرال - عن
الخطر الذي يتهدهده ؟ وفي هذه الطبقة من عظماء الرجال أولى الشائب
الذين نستطيع أن ندعوهم عمالقة القتال ، هل ثمة سنّ تصاب العبقرية فيها
بقصر البصر ؟ إن الشيخوخة لا سلطان لها على عباقرة المثل الأعلى .
فلأن يتقدم المرء في السنّ يعني ، بالنسبة إلى أضراب دانتي وميكال أنجلو ،
أن يزداد عظمة . فهل يعني تقدّم المرء في السنّ ، بالنسبة إلى أضراب
هنبيل ونابوليون ، أن يتخلف في ميدان العظمة ؟ أكان نابوليون قد
كفّد حسن النصر المباشر ؟ هل قد أمسى عاجزاً عن أن يتبين التهلكة
منذ اليوم ، وعن أن يتكهّن بوقوع الشراك منذ اليوم ، وعن أن

يرى شفا الهاوية المنهار؟ أكان قد فَقَدَ القدرة على استرواح الكوارث؟
أكان نابوليون - وهو الذي عرف في ما مضى جميع مسالك النصر ،
والذي كان يومئذ اليها ، من أعلى عربته المومضة ، بأصبع ذات
سلطان - قد أصيب بذهول كالحمله على ان يسوق ركب كتابه
لصاحب الى الهاوية ؟ هل استبدّ به ، في السادسة والاربعين ، خبل
رفيع ؟ أكان سائقُ القَدَرِ الجبارُ هذا قد أمسى مجرد منهوّر هائل ؟
لسنا نظن ذلك .

لقد كانت الحطة التي رسمها للمعركة ، باعتراف الجميع ، رائعة من
الروائع . أن يزحف مباشرة الى قلب الخط الخليف ، ويحرق العدو ،
ويشطره شطرين ، فيدفع الشطر البريطاني الى « هال » * ، ويدفع الشطر
البروسي الى « تونفر » * ، ويجعل ولينغتون وبلوخر شقين ، وينتزع
« مون سان جان » ، ويستولي على بروكسل ، ويلقى بالألماني في
الراين ، ويقذف بالانكليزي الى البحر . كل ذلك كان ، عند نابوليون ،
منطوياً في هذه المعركة . اما ما ينشأ عن هذا ففي ميسور كل امرئ
أن يراه .

وليس من ريب في انا لا نعتزم أن نقدّم ، هنا ، تاريخ واترلو .
إن المشاهد التي أدت الى نشوء المأساة التي نرويها تتصل بهذه المعركة ،
ولكن هذا التاريخ للمعركة ليس موضوعنا . والى هذا فقد روي ذلك
التاريخ ، وعلى نحو أستاذي بارع . رواه نابوليون مثلاً وجهة نظر ،
وروته جبهة من المؤرخين * مثلاً وجهة نظر أخرى . اما نحن فسنترك
المؤرخين يتنازعون . نحن لسنا غير شاهد من بعيد ؛ غير عابر يتخذ سبيله في
السهل ؛ غير طالب منحني فوق هذه الارض المعجونة باللحم البشري ،

* « هال » و « تونفر » من اعمال بلجيكة .

* م والتر سكوت ، لامارتين ، فولابيل ، شارا ، كنبه ، تير [هذه الحاشية

منقولة عن الاصل الفرنسي .]

ولعلنا ان نخدع عن نفسنا فنحسب المظاهر حقائق . وليس من حقنا ان أن نقاوم ، باسم العلم ، مجموعة من الحقائق لا ريب في ان فيها شيئاً من الوهم . وليس عندنا لا الخبرة العسكرية ولا المقدرة الاستراتيجية التي تميز لنا ان نفترض مذهباً منسّق الاجزاء . والذي نراه ان سلسلة من المصادفات هيئت في واترلو على قائدي الجيشين . وحين يكون الكلام على القَدَر ، هذا المتهم الخفي ، نحكم مثل الشعب ، ذلك القاضي الساذج .

Σ

A

ليس على اولئك الذين يرغبون في ان يتصوروا ، بوضوح ، معركة واترلو إلا ان يطرحوا على الارض ، في اذهانهم ، حرف A مرسوماً بصورته الكبرى * فالقائمة اليسرى من الـ A هي الطريق من نيفيل ، والقائمة اليمنى هي الطريق من جيناب ، والقاطعة الموصلة ما بين قائمتي الـ A هي الطريق الفائرة من اوهرين الى برين لالو . وقمة الـ A هي « مون سان جان » ؛ إن ولينغتون هناك . والنقطة السفلى من الذراع اليسرى هي هوغومون ؛ إن « راي » هناك مع جيروم نابوليون . اما النقطة السفلى من الذراع اليمنى فهي « لا بيل » آليانس ؛ ان نابوليون هناك . وتحت النقطة التي تلتقي فيها قاطعة الـ A بالقائمة اليمنى وتحترفها - تحت هذه النقطة بقليل تقع « لا هاي سانت » . في حين ان منتصف هذه القاطعة هو على وجه الضبط ، النقطة التي قبلت فيها كلمة المعركة الاخيرة . وهناك وضع الأسد ، الرمز للإلارادي لبطولة الحرس الامبراطوري السامية .

* اي majuscule كما يعبر الفرنسيون .

والمثلث الذي تشتمل عليه قمة الـ A ، بين القائمتين والقاطعة ، هو
«نجد» «مون سان جان» . كان الصراع على هذا النجد هو كل
المعركة .

وانتشر جناحا الجيشين الى يمين الطريقين من جناب ومن نيفيل
والى يسارهما . فاذا بـ «ديرلون» * يواجه «بيكتون» ** ، واذا
بـ «راي» ، يواجه «هيل» ** .

وخلف رأس الـ A ، خلف «نجد» «مون سان جان» ، تقع غابة سوا في .
أما فيما يتصل بالسهل نفسه فينبغي ان نتخيل رقعة من الارض
واسعة متموجة وكل ثني يشرف على الثني الذي يليه ، وجميع هذه
التموجات تصعد نحو «مون سان جان» ، وتنتهي ثمة الى الغابة .
والجيشان العدوان في ساحة القتال اشبه ما يكونان بمصارعين . إن
اذرعها مرفوعة . وان احدهما يحاول ان يطرح الآخر ارضاً . إنهما
يتشبهان بكل شيء . فالدغل نقطة ارتكاز ، وزاوية الجدار متواس ؛
لأن الموقع السيء التحصين اذا امتدت اليه كتيبة ما ، زلت بها القدم .
إن انخفاضاً في السهل ، وحركة من حركات التربة ، وان زقافاً معترضاً
ملائماً ، وإن غابة من الغابات ، وشعباً من الشعب قد ثبتت عقب
هذا العملاق الذي ندعوه جيشاً ، وتنجمه من السقوط . ومن يغادر
الميدان فذاك هو المهزوم . ومن هنا كان حتماً على القائد المسؤول ان
يفحص اصغر باقة من العشب ، وان يُنعم النظر في اكثر النتوءات
ضالة .

وكان كل من القائدين قد درس ، في عناية ، سهل «مون سان
جان» الذي ندعوه اليوم سهل واترلو . وكان ولينفتون ، بحكمة
* Drouet d'Erlon مارشال فرنسة (١٧٦٥ - ١٨٤٤) وقد ابلى بلاء حناً في
معركة واترلو .

** Picton و Hill من القادة الانكليز الذين شاركوا في معركة واترلو .

متبصرة ، قد درس هذا السهل في السنة المنصرمة ، بوصفه موقعاً يمكن ان تدور فيه رحى معركة عظيمة . وعلى هذه الارض ، ومن اجل هذه المبارزة كان وليفتون في الجانب الافضل ، وكاث نابوليون في الجانب الاسوأ . كان الجيش الانكليزي في الجزء الاعلى من الارض ، وكان الجيش الفرنسي في الجزء الادنى منها .

وانه ليكاد يكون سطحياً ان نرمم هنا رسماً تخطيطياً صورة نابوليون بمتطياً صهوة جواده ، والمنظار في يده ، فوق راية روستوم ، فجرَ اليوم الثامن عشر من عام ١٨١٥ . فقبل ان نوميء اليه كان الناس كلهم قد رأوه . إن هذا الوجه الجانبي الهاديء تحت القبعة الصفيرة الخاصة بمدرسة بريين* ، وهذا الثوب العسكري الاخضر ، وجانب المدالية الابيض الذي يحجب النجوم على صدره ، والمعطف الرمادي الذي يحجب الكتفتين** ، وزاوية العصاة الحربية الحمراء تحت الصدر ، والبطلون الجلدي ، والجلود الابيض بسرجه الفخمي الارجواني المزدانة زواياه بحروف N *** متوجة وبندور ، وحذاء الفرسان العالي الساق فوق جورب من حرير ، والمهنازين الفضين ، وسيف مارانغو**** - إن هذه الصورة الكاملة للقصر الأخير لتعيش في الخيالات كلها ، يصفق لها نصف العالم ، وينظر اليها نصفه الآخر في عبوس .

لقد فُحِرت هذه الصورة ، دهرأ طويلاً ، بالضياء ، ولقد راث عليها قنامٌ تقليدي يُلمّ بمعظم الابطال ، ويحجب الحقيقة دائماً الى حين

* Brie - le - Château بلدة فرنسية كان فيها ، خلال القرن الثامن عشر ، مدرسة حرية درس فيها نابوليون .

** الكثافة كلمة اصطلحتها لثودي معنى epaulette وهي ، هنا ، ما يكون على كنف الجندي من زينة .

** : هو كما لا يخفى الحرف الاول من اسم نابوليون بالرسم الفرنسي .

**** Marengo قرية ابطالية جرت فيها معركة شهيرة اتصر فيها نابوليون على

القوات النموية (١٤ حزيران ١٨٠٠)

قد يطول وقد يقصر . أما اليوم ، فالتاريخ مشرق وكامل .
إن ضوء التاريخ هذا لا يرحم . إن له هذه الخاصة الغريبة الالهية
وهي : أنه مهما يكن مشرقاً ساطعاً ، بل لانه على وجه الدقة مشرق
ساطع ، يلقي ظلاً حيث نرى الشعاع تماماً . إنه يجعل من الرجل
الواحد طيفين مختلفين ، فيهاجم احدهما الآخر ويقتص منه ، وتتصارع
ظلمة الطاغية مع بهاء القائد العسكري . ومن هنا ينشأ مقياس أصح
لأعطاء الحكم الاخير حول قيمة الشعوب . فبابل المستهكة تضع من
قدر الاسكندر ؛ ورومة المثقلة بالاغلال تضع من قدر قيصر ؛
وبيت المقدس الذبيحة تضع من قدر تيطوس . ان الطغيان يتبع الطاغية .
ومن تعاسة المرء ان يختلف وراءه ظلمة لها شكله هو .

٥

«الشيء المظلم» في المعارك

إن الناس جميعاً يعرفون وجه هذه المعركة الاول ؛ يعرفون البداية
العسيرة ، الغامضة ، المترددة ، المهذدة لكل من الجيشين ، وإن يكن
تهديدها للانكليز أشد من تهديدها للفرنسيين .
كان المطر قد هطل طوال الليل ؛ وكان قد جعل الارض دمشة
لينة . كانت المياه مجتمعة ههنا وهناك في تجاويف السهل وكأنها في
احواض ؛ وفي بعض المواطن غرقت الدواليب حتى المحاور . وكانت
السيور المطوقة بطون الخيل تقطر وحلاً سائلاً . ولولا الحنطة والجاودار
الذان نشرتهما جبهة من العربات المنطلقة ، فلأ أثلام الارض وأقاما
مهاداً تحت الدواليب ، اذن لكنت كل حركة ، وبخاصة في الاودية
الواقعة نحو بابلوت ، أمراً متعذراً .

وابتدا القتال في ساعة متأخرة . كان من عادة نابوليون ، كما شرحنا ، أن يمك بكامل مدفعيته في يده وكأنها مسدس ، مصوباً النيران الى هذه النقطة من المعركة حيناً ، والى تلك النقطة حيناً . وكان قد رغب في الانتظار حتى تتمكن مدفعية الميدان من ان تجري وتعدو في حرية . ولكي يتم ذلك كان يتعين على الشمس ان تبرز وتخفف التربة . ولكن الشمس لم تبرز . إنه الآن في ساحة غير ساحة اوستوليتز . وحين أطلقت النار من المدفع الاول نظر القائد الانكليزي ، كولفيل ، الى ساعته ، ولاحظ انها كانت الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين .

واقتتحت المعركة بهجوم ضار ، ولعله ان يكون اشدّ ضراوة بما كان الامبراطور يودّ ، شتّه الجناح الفرنسي الايسر على هوغومون . وفي الوقت نفسه هاجم نابوليون الوسط ملقياً لواء « كيوت » على « لا هاي سانت » ، وزحف « بي » بالجناح الفرنسي اليمين على الجناح الانكليزي الايسر المستند الى بابلوت .

وكان في الهجوم على هوغومون شيء من المخادعة . لقد رمى الى استدراج ولينغتون الى هناك وحمله على الانحراف نحو الشمال - تلك كانت الحطة . ولقد كان خليقاً بتلك الحطة ان تنجح لو لم تثبت سرايا الحرس البريطاني الاربع ، والبلجيكيون الشجعان من فرقة « بيبونشية » في مراكزهم ثباتاً عنيداً ، وبذلك وفروا على ولينغتون حشد قواته في تلك النقطة ، ومكنوه من أن يكتفي بدمهم بربع سرايا اضافية من الحرس وبفوج من افواج بروتزويك لبس غير .

أما هجوم الجناح الفرنسي اليمين على بابلوت فكان مقصوداً به ان يسحق الجناح الانكليزي الايسر ، ويقطع طريق بروكل ، ويصدّ البروسيين عن سيلهم اذا ما أقبلوا ، ويستولي على « مون سان جان » ، وان يردّ ولينغتون كرة أخرى الى هوغومون ، ومن هناك الى برين لالو ، ومن هناك الى « هال » . لم يكن ثمة ما هو أوضح من ذلك .

وباستثناء بعض الاحداث الثانوية ، تكمل هذا الهجوم بالنجاح . لقد انتزعت بابلوت ؛ ولقد احتلت « لا هاي سانت » .

وهنا مسألة ينبغي ان ننصّ عليها . كان بين المشاة الانكليز ، وبخاصة في فوج كمت ، عدد كبير من المجندين الجدد . ولقد تكشّف هؤلاء الجنود الفتيان أمام رجّالتنا الرهيبة عن بطولة . ذلك ان قلة تمرّسهم حملتهم على ان يسلّكوا في القتال مسلّكاً باسلاً . ولقد أدّوا خدمة ممتازة ، على الخصوص ، بوصفهم مناوشين . والجندي حين يكون مناوشاً يُترك شأنه الى حد ما ، ويصبح اذا جاز التعبير قائداً نفسه . لقد أظهر هؤلاء المجندون الجدد شيئاً من الابتداع والجيشان الفرنسيين . لقد تكشّف هؤلاء الرجّالة الاغرار عن حماسة . وأغضب ذلك ولينفتون . وبعد الاستيلاء على « لا هاي سانت » ، تأرجحت المعركة .

إن في ذلك اليوم ، من الظهر حتى الساعة الرابعة ، فترة غامضة . فمنتصف هذه المعركة يكاد يكون غير واضح ، وهو يشارك القتال في إظلامه . كانت الشمس تخرج الى الغروب ، وكان في مبدورك أن تلحظ تقلّلاً واسعاً في هذا الضباب الكثيف ؛ وسراباً باعثاً على الدوار ، وادوات حرية تكاد تكون غير معروفة اليوم ، و « القلابق » * المتوهجة ، والجيوب الجلدية المنسدلة المتصلة بمناطق السيوف ، والحِمالات المتصالبة ، والصناديق المثقلة بالقذائف ، والملابس العسكرية الخاصة بقوات الفرسان الخفيفة ، والاحذية الحمراء العالية الساق ذوات الألف ثنية ، والقلائس الثقيلة المكلّلة بالاهدا بالحزونية الشكل ، ورجّالة برونزويك الذين يكادون ان يكونوا سوداً ، ممتزجين برجّالة انكلترا القرمزيين ؛ والجنود الانكليز وعلى اردانهم وسائد دائرية كبيرة بيضاء بدلاً من الكتافات ، والفرسان الهانوفرين بقلانسهم الجلدية المستطيلة ذات العصائب النحاسية والأعراف

* جمع قلبق ، وهو لباس الرأس التركي المعروف . وقد وردت الكلمة هكذا

في الاصل الفرنسي colbacks

المصنوعة من السيبب الاحمر ، والاسكتلنديين برُكبيهم العارية ، وارديتهم ذات المربعات ، وساقيات * رماة قنابلنا العريضة البيضاء ؛ لوحات فنية ، لا خطوط استراتيجية ، فهي في حاجة الى سلفاتور روزا * * * الى غريبوفال * * *

ان مقداراً ما من العاصفة ليحتج دائماً بالمعارك الحربية *Quid obscurum* *quid divinum* . * * * وكل مؤرخ يرسم الملامح التي تروق له في هذا المهرج والمرج . ومهما تكن تدابير القادة العسكريين من اجل الفوز فان لتصادم الحشود الملحة رداتٍ لا سبيل الى احصائها . فعند القتال تتداخل خططنا القائدين احدهما في الاخرى ، وتنشوء احدهما بالآخرى . إن هذه النقطة من ميدان القتال تلتهم عدداً من المحاربين اعظم من ذلك الذي تلتهمه تلك النقطة ، كما تتشرب التربة الماء على نحو اسرع او ابطأ تبعاً لطاقتها الاسفنجية . فانت مضطراً الى ان تصب هناك مقداراً من الجنود اكبر مما ترغب فيه . نفقات لم تكن متوقعة . ان خط القتال ليمتوج ويتلوى كالخيط ؛ وان سيولاً من الدم لتجري على نحو غير منطقي ؛ وان جبهات الجيوش لتتراجع ؛ وان السرايا الخائضة الميدان او المنسحبة منه لتحدث رؤوساً وخليجاناً ؛ كل هذه الممالك تتذبذب ، واحدة في وجه الاخرى ، على نحو موصول . فحيث كانت الرجالة ، تقبل المدفعية ؛ وحيث كانت المدفعية ، تندفع الحباله ؛ وما الافواج المقاتلة غير دخان . لقد كان شيء ما ، هناك . إبحث عنه ؛ لقد ولتسى .

* الساقية كلمة وضعناها لما يعرف بـ « الطماق » او لفافة الساق (guêtre)

* * * Salvator Rosa رسام من نابولي ، ونقاش ، وشاعر ، وموسيقي (١٦١٥ - ١٦٧٣) وقد اشتهر برسم المعارك والمواقع الحربية .

* * * Gribauval جنرال مدغمي فرنسي (١٧١٥ - ١٧٨٩) ابتكر طرازاً من المدافع تفوقت بفضل المدفعية الفرنسية على مدفعات سائر الجيوش الاوروبية في مطلع عهد الثورة .

* * * * * تعبير لاتيني معناه : شيء مظلم ، شيء آسي .

إن فجوات الغابة تنتقل من مكان الى مكان ، وان التفضتات القائمة لتتقدم وتتراجع ، وان ضرباً من ربح القبور ليندفع الى امام ، ويرند الى وراء ، وينفخ ويبدد هذه المجموع الفاجعة . ما القتال الذي تتلاحم فيه الاجساد ؟ انه ذبذبة . ان الحطة الرياضية الجامدة لتروي قصة دقيقة واحدة لا قصة يوم كامل . وتصوير معركة ما ، يحتاج الى اولئك الرسامين الجبابرة الذين تنطوي ربشتهم على هيولى * إن رامبرانت ** خير من فان در مولن *** . ان فان در مولن ، الدقيق عند الظهر ، يكذب في الساعة الثالثة . الهندسة تخدع ؛ والأعصار وحده هو الصادق . وهذا ما يعطي فولار**** الحق في ان يناقض بوليبيوس***** وينبغي أن نضيف أن ثمة دائماً لحظة معينة تنحط فيها المعركة الى ضرب من المبارزة ، وتنزع الى تجزئة نفسها ، وتتوزع الى تفاصيل تتصل - اذا استعرنا تعبير نابوليون نفسه - « بسيرة الافواج ، اكثر بما تتصل بتاريخ الجيش . » وواضح ان للمؤرخ ، في هذه الحال ، الحق في الاختصار . إنه لا يستطيع ان يضع يده على غير خطوط الصراع الرئيسية . ولم يقيض قط لأياً راوية ، مهما يكن حيي الضير ، ان يحدد على نحو مطلق شكل هذه السحابة الرهبة التي ندعوها معركة . وهذا ، الذي يصح في جميع الاصطدامات الكبيرة المسلحة ، ينطبق

* الهول (chaos) اختلاط عناصر المادة في اوائل الكون .

** Rembrandt الرسام الهولندي المشهور (١٦٠٦ - ١٦٦٩)

*** Van Der Meulen رسام من الفلاندر (١٦٣٤ - ١٦٩٠) ، رسم المعارك

التي وقعت خلال عهد الملك لويس الرابع عشر .

**** Jean - Charles Folard خبير فرنسي في شؤون الحرب (١٦٦٩ - ١٧٥٢) وله كتاب

علق فيه على تاريخ بوليبيوس الذي يشير اليه المؤلف ، وهو بعنوان تعليقات على بوليبيوس . Commentaires sur Polybe

***** Polybe مؤرخ اغريقي (توفي حوال سنة ١٢٥ ق.م) ويعتبر كتابه « التاريخ »

الذي يقع في اربعين مجلداً من ذخائر التراث القديم الكبرى .

على واترلو بخاصة .
وايأ ما كان ، فعند الأصيل ، في لحظة ما ، تحدثت المعركة .

٦

الساعة الرابعة بعد الظهر

حوالى الساعة الرابعة كان وضع الجيش الانكليزي حرجاً . كان
البرنس اوف اورانج يقود القلب ، وكان « هيل » يقود الجناح الايمن ، وكان
« بيكتون » يقود الجناح الايسر . وصاح البرنس اوف اورانج ،
في يأس وجراءة ، مخاطباً القوات الهولندية البلجيكية : « فاستو !
برونزويك ! لا تتراجعوا قط ! » كان « هيل » قد ارتد ، وقد استبدت
به الاعياء ، متوكئاً على قوات ولينغتون . وكان « بيكتون » قد قضى
نحبه . ففي اللحظة التي انتزع فيها الانكليز الراية رقم ١٠٥ من الفرنسيين
قتل الفرنسيون الجنرال بيكتون بقذيفة اخترقت رأسه . وبالنسبة الى
ولينغتون كانت للمعركة نقطتا ارتكاز : هوغومون و « لاهاي سانت » .
كانت هوغومون لا تزال صامدة ، ولكنها تتهترق . وكانت « لاهاي
سانت » قد سقطت . ومن الفوج الألماني الذي دافع عنها ، لم يبق
على قيد الحياة غير اثنين واربعين رجلاً ؛ كان جميع الضباط ، ما خلا
خمسة ، قد قتلوا أو أسروا . لقد دُبح ثلاثة آلاف مقاتل في مخزن
الحبوب ذاك . وكان رقيب في الحرس الانكليزي ، مصارع انكلترا الاول
الذي اشتهر عند رفاقه بالرجل الذي لا « يجرح » ، قد قتل بيد طبيب فرنسي
ضليل الجسم . كان « بيورنغ » قد زحزح عن موقعه ، وكان « آلتن »
قد ضرب بجدة السيف .
كانت رايات كثيرة قد فقدت ، احداها خاصة بفرقة « آلتن » ،

والاخرى خاصة بفوج « لونبورغ » * وكان يحملها أمير من أسرة « دو بون » . ولم يبقَ احدٌ من الاسكتلنديين الرماديين . وكانت خيالة بونسوني الثقيلة قد مُزقت إرباً إرباً . وإنما انسحب هؤلاء الفرسان للشجعان في وجه رمّاحة « برو » ، وداوعي « ترافير » . ومن خيلهم الألف والمتين لم ينجُ غير ستمئة . ومن ثلاثة عقّداء طُرح عقيدان اثنان ارضاً ، فأما هاملتون فكان جريحاً ، وأما « ماتر » فكان حريماً . وكان بونسوني قد سقط ، بعد ان مزقته سبع طعنات من احد الرماح . كان « غوردون » ميتاً ، وكان « مارش » ميتاً . لقد حُطّمت فرقتان اثنتان ، هما الفرقة الخامسة ، والفرقة السادسة .

واذ امتلئت هوغومون ، وانتزعت « لا هاي سانت » لم يبق ثمة غير عقدة واحدة ، القلب . كانت هذه العقدة لا تزال صامدة ، وكان ولينغتون يدعمها بالامداد . لقد استدعى « هيل » الى هناك ، وكانت في « ميرب براين » ، واستدعى « شاسيه » وكان في « برين لالو » . كان قلب الجيش الانكليزي ، المقعّر بعض الشيء ، الكثيف جداً ، المحكم جداً ، يحتلّ موقعاً منيعاً . لقد احتلّ نجد « مون سان جان » وقد قامت القرية وراءه ، وقام المنحدر أمامه ، وكان شديد التحدّر آنذاك . وفي المؤخرة ، كان يتكئ على هذا البيت الجعري الحصين ، الذي كان وقتئذ من ممتلكات الدولة في نيفيل والذي كان يميز ملتقى الطرق : بناء يرقى الى القرن السادس عشر ، وطيد الى درجة جعلت قذائف المدافع تنبو عنه من غير ان تصيبه بأذى . وحوالى النجد كله كان الانكليز قد شذبوا الأسبجة هنا وهناك ، جاعلين قُرَجاً بين الزعرور ، مقعّمين ثم مدفع بين غصنين ، محدثين في الادغال كوى يسترسون خلفها . كانت مدفعيتهم في المكنن الواقع تحت الأجمة . وكان هذا العمل الفادر المباح ، من غير شك ، في الحرب التي تجيز

* Lunebourg مدينة بروسية في هانوفر .

نصب الأشرار ، متقناً الى درجة جعلت هاكسو * الذي وجهه الامبراطور في الساعة التاسعة صباحاً لكي يستكشف مدفعية العدو لا يرى منها شيئاً ، فانقلب الى نابوليون ليقول له إنه لم يكن ثمة عائق غير المتراسين اللذين يعترضان طريقي « نيفيل » و « جيناب » . وانما جرى ذلك في الايام التي تبلغ فيها سنابل القمح ارتفاعاً حسناً . فعند حافة النجد جثم فوج من لواء « كمت » ، هو الفوج الخامس والتسعون المسلح بالكاربينات ، وسط القمح العالي .

واذ تمتع قلب الجيش الانكليزي الهولندي بهذه الحماية وهذا السناد فقد كان في موقع منيع .

وكان الخطر على هذا الموقع يتمثل في غابة سوانثي التي كانت ملاصقة آنذاك لساحة القتال ، والتي كان يشطرها مستنقعا غرونندال وبواتسפור . فلم يكن في وسع الجيش ان يتراجع هناك من غير ان ينشئت شمله ويُبنى بالهزيمة . كانت الكتابب جديرة بأن تفتخ في الحال ، وكانت المدفعية خليقة بأن تضع في المستنقعات . كان التراجع ، في رأي كثير من أهل الصناعة الحربية - بخالفهم في ذلك آخرون ، من غير شك - يعني الهزيمة التي لا تبقي ولا تذر .

وأمدت ولينغتون هذا القلب بلواء من ألوية « شاسيه » جيء به من الجناح الايمن ، وآخر من ألوية « وينك » جيء به من الجناح الايسر بالاضافة الى فصيل كلينتون . ودعم قوائمه الانكليزية ، وسرايا « هالكيت » ، ولواء « مينثيل » ، وحرس « مايتلند » برجلة « برونزوبك » ، ومجندي « ناسو » ، وهانوفرني « كيلمانسيغ » ، وألمان « أومبيدا » . كان الجناح الايمن ، كما يقول شاروا ** ، قد أميل الى ما وراء القلب .

* Haxo جنرال ومهندس عسكري فرنسي (١٧٧٤ - ١٨٣٨)

** Charraa كولونيل فرنسي (١٨١٠ - ١٨٦٥) وضع عام ١٨٥٧ كتاباً هاماً عن معركة واترلو .

وُقُتعت وحدة "مدفعية هائلة باكياس رمل حيث يقوم اليوم ما يدعى بـ « متحف واترلو » . وكان عند ولينغتون بالإضافة الى هذا ، وفي منخفض من الارض ، حرس « سومرست » الحيلة ، وعدتهم الف وأربعمئة . وكان هؤلاء يؤلفون النصف الآخر من سلاح الفرسان الانكليزي ذاك ذي الشهرة البعيدة التي يستحقها أحسن استحقاق . لقد قضي على بونسونبي ، ولكن سومرست كان لا يزال هناك .

وكانت الوحدة المدفعية ، الجدير بها لو أُنمت ان تكون متراًساً تقريباً ، مُعدّة خلف جدار حديقة شديد الانخفاض . وقد غُطيت على عَجَل باكياس الرمل ، وبمنخفض من الارض كبير . ولكن هذا العمل لم يتم . انهم لم يجدوا متسعاً من الوقت لتسيجه . كان ولينغتون قلقاً ولكنه ثبت الجنان ، وكان بمنطياً صهوة جواده . وقد ظل هناك طوال النهار ، محتفظاً بالوضع نفسه ، امام مطحنة « مون سان جان » القديمة التي لا تزال قائمة ، وتحت شجرة دردار استراها منذ ذلك الحين رجل انكليزي ، من المولعين بتخريب الآثار القديمة ، بمثني فرنك ، وقطعها وذهب بها . كان ولينغتون باسلاً على نحو خالٍ من الشعور . لقد انهمرت القذائف انهار المطر . وكانت غوردون ، الضابط العامل في خدمته ، قد صُرع اللحظة الى جانبه . وأراه اللورد « هيل » قبلة صغيرة منفجرة وقال : « ماهي تعليماتك ، ايها اللورد ، وما الاوامر التي تتركها لنا اذا ما سمعت لنفسك بان 'نقتل' ؟ » فاجابه ولينغتون : « أن تنسجوا على منوالي . » وقال لـ « كلينتون » ، في ايجاز : « اصمدوا هنا حتى الرجل الاخير . » كان واضحاً ان كفة الفرنسيين آخذة في الرجحان ، فصاح ولينغتون برفاقه القدماء في

تلافيرا * وفيتوريا ** وسالامانكة *** : « ايها الغلمان ! يجب ان لا نهزم ! فكروا بانكلترة العجوز ! » .

وحوالى الساعة الرابعة ترنح الخط الانكليزي الى الورا . وفجأة لم يُرَ على ذروة النجد غير جنود المدفعية ومطلقى النار بتواتر ، اما الباقون فقد اختفوا . كانت كتائب الجند قد تقهقرت في وجه قنابل الفرنسيين وقدائفهم ، وارندت الى واد لا يزال يقطعه الى اليوم بمرّ الابقار في مزرعة « مون سان جان » . وحدثت حركة تراجعية ، فقد كانت جبهة القتال الانكليزية تنهار . ورجع ولينغتون القهقري .

وصاح نابوليون :

« لقد بدأت الهزيمة ! »

٧

نابوليون طلق المحيا

ولم يكن الامبراطور ، برغم مرضه وتضايقه فوق صهوة جواده من ألم محليّ ، طلق المحيا في يوم من الايام باكثر مما كان في ذلك النهار . فنذ الصباح وأسارير وجهه الفامضة تقترّ عن ابتسامة . ان تلك النفس العميقة المقنّعة بالرخام اضاءت من غير تبصّر في الثامن عشر من حزيران ، ١٨١٥ . وإن الرجل الذي كان كالح الوجّه في أوستوليتز ، كان جذلان

* Talavera مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون على الفرنسيين عام ١٨٠٩

** Vittoria مدينة اسبانية ايضاً انتصر فيها ولينغتون على القوات الفرنسية في ٢١

حزيران عام ١٨١٣

*** Salamanca مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون ايضاً على القوات الفرنسية ،

سنة ١٨١٢

في واترلو . إن اكبر الرجال الذين اختارهم الله للعظام يتكشّفون عن هذه المتناقضات . ولكن مباحثنا يظلها القتام . فالابتسامة الكاملة لله وحده .

« يضحك قيصر ، ويبكي بومبيوس » Ridet Caesar , Pompeius flebit
ذلك ما قاله رجال الفرقة المعروفة بفرقة الـ « فولميناتريكس » *
إن بومبيوس ما كان ينبغي له هذه المرة ان يبكي ، ولكن من الثابت ان قيصر قد ضحك .

منذ الليلة البارحة ، وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، بينما كان يرود - على صهوة جواده ، في قلب العاصفة ونحت المطر ، وإلى جانبه برتران - تلك الكتبان المجاورة لـ « روسوم » وقد أهبجه ان يرى خط النيران الانكليزية الطويل يضيء الأفق من « فريشون » الى « برين لالو » - منذ تلك الليلة ، بدا له ان القدر الذي عين له هو موعداً في يوم معلوم فوق ساحة واترلو هذه ، قد أقبل في الموعد المضروب . لقد اوقف جواده ، وظلّ فترة من الوقت جامداً لا يتحرك ، يراقب البرق ويصفي الى الرعد . وقد سمع هذا القدري ينطق في غمرة الظلام بهذه العبارة الخفية : « نحن متفقان » . لقد خدع نابوليون . إنها ما عاد ، بعد ، متفقين .

لم تكن عيناه قد أغمضتا دقيقة واحدة . لقد حملت اليه كل لحظة من لحظات تلك الليلة بهجة جديدة . وكان قد طاف بخط الحرس الامامي كله ، ووقف هنا وهناك ليتحدث الى الفرسان المكلفين بالحراسة . وعند الساعة الثانية والنصف ، قرب غابة هوغوموث ، سمع وقع خطى كتيبة تسير . وخيل اليه لحظة ان وليفتنون ينكص على عقبيه . وقال : « إنه حوس المؤخرة الانكليزي يشرع في الرحيل . سوف أسر الستة آلاف انكليزي الذين وصلوا الان الى اوستاند » . وتحدث في غير ما تحفظ .

لقد استعاد توقّد الذهن ذاك الذي أبداه يوم هبط البرّ في أول آذار ، حين لفت نظر المارشال الكبير الى فلاح خليج جوان المتحمس ، صائحاً : « حسنّاً ، برتوان * ، ها قد عثرنا على المدد من اول الطريق ! » وفي ليل ١٧ حزيران تندّر على ولينغتون ، فقال : « هذا الانكليزي الضئيل الجسم في حاجة الى ان يتلقّى درساً ! » وتضاعف المطر . وقصف الرعد فيما كان الامبراطور يتكلم .

وفي الساعة الثالثة والنصف صباحاً تبدّد وهم من أوهامه . فقد أعلمه بعض الضباط الذي وجّهوا للاستكشاف أن العدو ما كان يأتي بأي حركة . إن شيئاً ما ، لم يتحرك ؛ وإن نارا من نيران المعسكر لم تطفأ . كان الجيش الانكليزي نائماً . وكان الصمت العميق يخيم على الارض . لم يكن ثمة ضجة ما ، إلا في السماء . وعند الساعة الرابعة جاءه الكشافون بأحد الفلاحين . وكان هذا الفلاح قد عمل دليلاً مرشداً لأحد ألوية الحيلة الانكليزية ، لعله لواء فيفيان في طريقه الى التمرکز في قرية أوهين ، في أقصى اليسار . وعند الساعة الخامسة أبلغه هاربات بلجيكيان من الجندية انها فارقا مريتيهما اللحظة ، وإن الجيش الانكليزي كان يتوقع نشوب المعركة .

وصاح نابوليون :

« فليهنأوا بذلك ! إني لافضل ان أقطعهم إرباً إرباً على ان اردّهم على أعقابهم . »

وفي الصباح ، ترجّل في الوحل ، عند المنحدر الواقع على زاوية الطريق من بلانسنوا ، واستقدم من مزرعة « روسوم » طاولة مطبخ وكرسياً ريفياً ، وجلس ، متخذاً من حزمة من التبن بساطاً ، ونشر

* Bertrand جنرال فرنسي (١٧٧٣ - ١٨٤٤) ، وقد اشتهر باخلاسه لنابوليون اخلاصاً عظيماً نجلى في أنه لحق به الى جزيرة ألبا وال سانت هيلانة ، ومن هناك تنكّر وفاته سنة ١٨٤٠ .

على الطاولة خريطة ميدان القتال قائلاً : « سولت » * : « رقعة شطرنج جيدة ! »

وبسبب من مطر الليل لم تصل قوافل المؤن ، التي ساخت عجلاتها في الطرق التدية ، مع انبلاج الفجر . ولم تكن اعين الجند قد اغتمضت ، وكانوا مبتلين لم يذوقوا شيئاً من طعام . وبرغم هذا كله هتف نابوليون جدراناً قائلاً : « في » : « سوف نكسب المعركة تسعين في المئة . » وعند الساعة الثامنة حُلِلَ الفطور الى الامبراطور . كان قد دعا عدداً من الجنرالات الى تناول الطعام معه . وفيما هم يفترون روى بعضهم ان ولينغتون كان في الليلة قبل البارحة يشهد حفلة راقصة في بروكسل اقامتها دوقه ريتشموند . فقال سولت ، وهو رجل حرب شرس ذو وجه كروجه رئيس اساقفة : « الحفلة الراقصة سوف تقام اليوم ! » وكان الامبراطور قد مازح « في » الذي قال : « لن يكون ولينغتون من البساطة بحيث ينتظر جلاتكم . » ذلك كانت دأبه عادة . يقول فلوري دو شابلون : « كان مولعاً بالمزاح . » ويقول غورغو : « كانت البشاشة المداعبة أساس شخصيته . » ويقول بنجان كونستان : « كان خصب الفكاهة ، وكانت فكاهته قوية ، مضحكة اكثر منها ظريفة . » ومثل هذه الروح البهجة حين تكون لعملاق من العملاقة تستحق ان يؤكد عليها . كان يدعو رماة القنابل (grenadiers) العاملين في جيشه « المتذمرين » (Les Grognaards) ؛ وكان يقرص آذانهم ، ويشد بشواربهم . « إن الامبراطور ما كان يعمل شيئاً غير خداعنا والمكربنا . » تلك هي كلمة واحد منهم . وخلال الرحلة الحفية من جزيرة ألبا الى فرنسا ، في اليوم السابع والعشرين من شباط ، وفي عرض البحر ، التقى « زيفير » المركب الشراعي الحربي الفرنسي بال « اينكونستان » المركب الشراعي الحربي الذي كان نابوليون يختبئاً

* Soult مارشال فرنسا (١٧٦٩ - ١٨٥١) وقد لمح لجمه في اوستريتز وفي اسبانية .

فيه . فسأل رجاله رجالاً هذا المركب الأخير عن انباء نابوليون ،
الامبراطور ، الذي كان لا يزال يزين قبعته حتى هذه اللحظة بتلك الشارة
المستديرة البيضاء والارجوانية المرشوشة بالنحل التي اصطنعها في جزيرة
ألبا ؛ فما كان منه إلا ان تناول بوق الكلام ، وهو يضحك ، واجاب
بنفسه : « الامبراطور في حال جيدة . » ، إن من يضحك بهذه الطريقة
يكون على دالة مع الأحداث . ولقد عرف نابوليون عدداً من نوبات
الضحك هذه أثناء فطوره في واترلو . وبعد الفطور استجمع افكاره
طوال ربع ساعة . ثم إن جنرالين قعدا على حزمة التبن ، وفي يد كل
منها قلم ، وعلى ركبته ورقة ، وأنشأ الامبراطور يلي مواقع الجنود
استعداداً للقتال .

وفي الساعة التاسعة ، لحظة انتشار الجيش الفرنسي (وقد نُظِمَ في
صفوف خمسة وصدر اليه الأمر بالحركة -- فالجند صفان ، والمدفعية بين
الوأمين ، والموسيقى في الطليعة تقدم الأكرام العسكري بقرع الطبول
ونفخ الابواق) جباراً ، مترامياً ، مبتهجاً ، بجرأ من الحوَذ والسيوف
والحراب عند الافق ، في تلك اللحظة صاح الامبراطور طرباً ، معبداً
كلمته مرتين :

« رائع ! رائع ! »

وبين الساعة التاسعة والساعة العاشرة والنصف كان الجيش كله ، وهو في
ما يبدو مستغرباً صعب التصديق ، قد اتخذ مواقعه ، مصطفأ في صفوف
سته ، مشكلاً - اذا اصطنعنا تعبير الامبراطور نفسه - « صورة
سته من حرف v » . وبعد لحظات من تكوين جبهة المعركة ، وفي
غمرة من ذلك الصمت العميق الذي يسبق القتال كما يسبق العاصفة ،
رأى الامبراطور الى وحدات المدفعية الثلاث ذات القذائف التي تزن كل
منها اثني عشر رطلاً - رأى اليها تتحرك ، وكانت قد فُصلت نزولاً
عند إرادته من فيالتي « ديرون » و « راي » و « لوبو » لكي تستهل

القتال بالمهجوم على « مون مان جان » عند متلقى طريقي « نيفيل »
و « جيناب » ، فربّت على كتف هاكسو قائلاً : .

— « ها هي ذي اربع وعشرون فتاة حناء ، أيها الجنرال ! »

واذ كان واثقاً من النصر ، فقد ابتسم مشجعاً سرية التعصينات
من الفيلق الأول لدن مرت امامه ، وكان قد عهد اليها في ان تقيم
المناريس في « مون مان جان » حالما يتم الاستيلاء على القرية . ولم
يعكّر هذه الطمأنينة كلها غير كلمة تنضح بالرحمة المتغطرة ؛ فما إن
وأى اولئك الاسكتلنديين الرماديين الرائعين يجتشدون الى يساره ، على
جباهم البهية ، في بقعة يقوم فيها اليوم ضريح ضخم ، حتى قال :

— « يا للخسارة ! »

ثم امتطى صهوة جواده ، وانطلق مخلّفاً روسوم وراه ، واختار
لمراقبة المعركة رابية معشوشبة ضيقة ، الى يمين الطريق من جيناب الى
بروكسل ، كانت هي محطته الثانية خلال المعركة . اما محطته الثالثة ،
فلك التي اتخذها لنفسه في الساعة السابعة مساء ، بين « لا بيل » آليانس
و « لا هاي سانت » ففطيرة . إنها أكمة مرتفعة لا تزال قائمة الى اليوم ،
وكان الحرس قد احتشد خلفها في منخفض من السهل . وحول هذه
الأكمة ارتدت القذائف فوق الطريق المعبدة حتى كادت تصيب نابوليون .
كان صغير القنابل والكُرّات فوق رأسه ، شأنه في « برين » . ولقد
التقط بعضهم حيث انتصبت قوائم جواده تقريباً ، عدداً من القنابل
المسحوقة ، ونصال السيوف البالية ، والقذائف المشوهة التي اكلمها
الصدأ . ومنذ بضع سنوات أخرجت من بطن الثرى ، هناك ، قنبلة
يبلغ وزنها ستين رطلاً ، وكانت لا تزال مشحونة ، وقد كُسِر
فتيلها على مستواها . وفي هذه اللحظة الاخيرة بالذات قال الامبراطور
لدليله ، لاكوست ، وهو فلاح حقود ، مروّع ، مشدود الى سرج

فارس من الفرسان ، كان يستدير كلما انفجرت قنبلة ويحاول ان يحتجب خلف نابوليون : « أيها الابله ، هذا شيء معيب . انك تعرض نفسك للموت برصاصة تصيبك في ظهرك ! » ولقد وجد كاتب هذه السطور هو نفسه في منحدر تلك الاكمة السريع التفتت ، بعد ان قلب التراب ، بقايا قنبلة انخلت بفعل الصدا الذي تراكم عليها طوال ست واربعين سنة ، كما وجد بعض كسر الحديد التي تحطمت بين اصابعه مثل اغصان الدبوغ *

ان تموجات السهول المنحدرة على وجوه مختلفة حيث التقى نابوليون ووليفتون لم تكن كما كانت في الثامن عشر من حزيران ١٨١٥ . هذا شيء لا يجبهه احد . ذلك أنهم بأخذهم من ذلك الميدان المشؤوم ما يصنعون به نصباً له غيروا شكله الحقيقي . فاذا التاريخ ، وقد شوش ، لا يعرف نفسه بعد ، في ذلك المكان . لقد ارادوا تمجيده فشوهوه . ولقد صاح وليفتون حين رأى الى وائرلو بعد سنتين : « لقد غيروا ميدان معركتي ! » فحيث ينهض اليوم ذلك الحرم من التراب الذي يعلوه الاسد ، كانت قنّة تتحدّر نحو طريق نيفيلّ تتحدّراً بسهل سلوكه ، على حين كان تتحدّرها ، فوق طريق جيناب وعرأ جداً . واليوم لا يزال في الامكان ان يقاس ارتفاع هذا المنحدر بعلو اكنتي المدفنين الكبيرين اللذين يطوّقان الطريق من جيناب الى بروكسل : القبر الانكليزي الى اليسار ، والقبر الألماني الى اليمين . وليس ثمة قبر فرنسي . فالسهل كله قبر لفرنسة . وبفضل آلاف وآلاف من أحمال التربة التي استعملت في التلة البالغ ارتفاعها مئة وخمسين قدماً ، ومحيطها نصف ميل ، أمسى الوصول الى تجدر « مون سان جان » ميسوراً في انحدار رقيق . ذلك انه كان ، يوم المعركة ، وبخاصة من ناحية « لاهاي سانت » ، وعرأ صعب المرتقى . والحق ان ذلك الجرف كان متحدّراً الى درجة

* الدبوغ ضرب من الشجر يستخرج من أغصانه صلب قرمزي وهو يستعمل في الدباغة .

جعلت المدفعية الانكليزية لا ترى المزرعة التي تحتها في فعر الوادي ، مركز الصراع . وفي ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ، كان المطر قد زاد هذا المنحدر وعرة ، وكان الوحل قد جعل ارتقاءه اكثر صعوبة . إنه لم يعد مضيئاً وحسب ، ولكن أقدام الرجال كانت تسيخ في الطين فعلاً . وعلى طول ذروة النجد امتدّ شبه خندق ما كان في ميسور المراقب البعيد ان يتيّنه .

اي شيء كان ذلك الخندق ؟ سوف نجيب عن هذا السؤال . إن « برين لالو » قرية من قرى بلجيكة ؛ وإن « أوهين » قرية أخرى . وهاتان القريتان ، وكلتاها محجوبة بانعطاف الارض ، متصلتان بطريق يبلغ طولها نحواً من فرسخ ونصف وتخترق سهلاً غير مستوٍ ، فهي كثيراً ما تدفن نفسها في التلال مثل ثلم من الأتلام ، وذلك ما كان يجعل من هذه الطريق ممبلاً ، في بعض المواطن . وفي عام ١٨١٥ اخترقت هذه الطريق ، شأنها اليوم ، قمة «مونت سان جان» بين الطريقين من جيناب ومن نيفيل . بيد أنها اليوم على مستوى السهل ، في حين أنها كانت آنذاك طريقاً غائرة . لقد أزيل منحدرها لأقامة الأكمة التذكارية . وإنما كانت تلك الطريق ، ولا تزال ، خندقاً ، في القسم الاعظم من امتدادها . خندقاً يبلغ عمقه في بعض المواطن اثني عشر قدماً ، ويشدّ تحدّر جوانبه الى حد يجعلها تنهار ههنا وههناك ، وبخاصة في الشتاء ، تحت الامطار . ولقد وقعت هناك عدة حوادث اصطدام . فقد كانت الطريق من الضيق ، عند مدخل « برين لالو » بحيث سحقت احدى العربات عابراً سبيل ، على ما يؤخذ من صليب حجرى قائم قرب المقبرة مدون عليه اسم الميت : « ميسو برنار »

دوبري ، تاجو من بروكسل ، وتاريخ الحادث ، شباط ١٦٣٧ *
 وكانت من العمق ، عند نجد « مون سان جان » بحيث «سحق» هناك
 عابر سبيل آخر ، ماتيو نيكيس ، عام ١٧٨٣ ، بسبب من انهيار أحد
 جانبيها ، على ما يؤخذ من صليب حجري ثانٍ . لقد ذهب استصلاح
 الأرض برأس هذا الصليب ، ولكن قاعدته المنكوسة لا تزال ترى عند
 الجانب المنحدر الى يسار الطريق بين « لا هاي سانت » ومزرعة « مون
 سان جان » .

وفي يوم المعركة ، كانت هذه الطريق الفائرة التي لا يسم شيء عن
 وجودها ، والمحيطه بذروة « مون سان جان » - «خندق» في قمة
 المنحدر ، أثر من آثار مرور العربات مخفية في الأرض - نقول في يوم
 المعركة كانت هذه الطريق غير منظورة ، يعني فظيعة .

وانما يجري الكلام المنقوش على الحجر هكذا :

له البالغ الرحمة البالغ العظمة
 هنا «سحق»
 بسوء الحظ
 تحت عجلات احدى العربات
 مسيو برنار
 دوبري ، تاجو
 من بروكسل (كلمة غير مقروءة)
 شباط سنة ١٦٣٧

الامبراطور يوجه سؤالاً

الى الدليل لا كوست

واذن . ففي صباح واترلو كان نابوليون مسروراً .

وكان على صواب . فقد كانت الحطة التي وضعها للمعركة خطة رائعة حقاً .

حتى اذا استهلّت المعركة لم يكن في تقلّباتها الشديدة الاختلاف ، وفي صمود هوغومون ، وعزاد « لاهاي سانت » ، ومصرع « بودوين » ، وإقصاء « فوا » عن الميدان ، بعد ان امسى عاجزاً عن القتال ، والسور غير المرتقب الذي تحطم عليه لواء « سوا » ، وطيش « غويمينو » المشؤوم وقد نفذت قنابله ونفذ باروده ، وغوص المدفعية في الوحل ، والخمسة عشر مدفعاً غير المحفورة التي اوقع بها « اوكسبريدج » في طريق غائرة ، والاثر الضئيل الذي احدثته القنابل الساقطة داخل الخطوط الانكليزية اذ كانت تدفن نفسها في التربة المنقوعة بالمطر فلا توفق الى اكثر من إحداث براكين من الوحل بحيث تحوّل الانفجار الى رشاش ، وعدم جدوى الهجوم المضلل الذي شنّه « بيريه » على « برين لولو » ، والقضاء على سلاح الفرسان هذا ، المؤلف من خمس عشرة كوكبة قضاء شبه كامل ، وعدم انتعاج الجناح الانكليزي اليمين إلا قليلاً ، وعدم اصابة الجناح الايسر باكثر من أذى ضئيل ، وغلطة « في » الغربية التي تتمثل في حشده الفصائل الاربع التي يتألف منها الفيلق الاول بدلاً من ان ينشرها ويباعد ما بينها ، وعمق الصفوف السبعة والعشرين وجبهة المثني رجل التي قدّمت على هذا النحو طعاماً للقذائف ، والفجوات

الرابعة التي احدثتها القنابل في هذه الحشود ، وانقطاع الاتصال بين كتاب الجيش المهاجمة ، والمدفعية المنحرفة التي 'كشفت جناحها فجأة' ، ووقوع 'بورجوا' و 'دوتزيلو' و 'دوريت' في الشرك ، و 'د' 'كيبو' على عقبه ، واصابة الملازم الاول ، 'فيو' ، ذلك الجبار المنبثق من مدرسة البوليتكنيك ، يجرح في اللحظة التي كان يحطم خلالها ، بضربات فأس ، باب 'لا هاي سانت' تحت النار المنصبة من المتراس الانكليزي الذي يسد منعطف الطريق من جيناب الى بروكل ، ووقوع فصل 'ماركوتيه' بين حجري الرجالة والحياة ، وتصويب 'بست' و 'باك' النار اليه ، من على مدى الذراع في حقل القمح ، وتضريب 'بونسوني' اعناق رجاله بمجد السيف ، وتسمير وحدته المدفعية المؤلفة من سبعة مدافع ، وصمود أمير ساكس - وايمار * في 'فريشمون' و 'سموهين' واحتفاظه بهما على الرغم من الكونت ديرون ، وانتزاع راية الفوج الخامس بعد المئة ، وراية الفوج الخامس والاربعين ، وهذا الفارس البروسي الاسود الذي جاء به كشافة الكتيبة المنقلة المؤلفة من ثلاثة قناص يضربون في المنطقة الواقعة ما بين 'وافر' و 'بلانسوا' ، والاشياء المقلقة التي قالها هذا الفارس ، وتأخر 'غروشي' ، والالف والخمسة رجل الذين 'قتلوا' في بستان هوغومون في اقل من ساعة ، والالف والثمانيه رجل الذين صرعوا في فترة اشد قصراً حول 'لا هاي سانت' - لم يكن في هذه الاحداث العاصفة كلها ، التي مرت مثل معائب المعركة امام نابوليون ، ما كدر محبته ، او عكّر انطباعة اليقين الامبراطوري عليه . فقد تعود نابوليون ان يمدق الى الحرب تحديقاً . انه ما كان 'يجري جمع التفاصيل الموجبة رقماً رقماً' . فلم تكن الارقام لتهه الا اذا اعطت هذا الحاصل : النصر . وعلى الرغم من ان طلائع المعركة كانت مبهمة فلم يزعجه ذلك ، وكيف يزعجه وهو

* ارشيدوقية سابقة في المانية الوسطى .

الذي اعتقد انه سيد النهاية ومالكها ؟ كان يعرف كيف ينتظر ، معتبراً نفسه في عصمة من الطواريء ، معاملاً القدر كما يعامل الندّ الندّ . لقد بدا وكأنه يقول لهذا القدر : « انت لن تجرؤ . »
 وحين اختلط نور النهار بظلام الليل استشعر نابوليون انه مصون في الخير ، متجاوزاً عنه في الشر . كانت له او كان يعتقد ان له - موافقة على الاحداث ، بل مشاركة فيها تعدلُ الفكرة القائلة بالعصمة من الجروح ، عند القدماء .

واياً ما كان ، فحين يكون وراء المرء « بيريزينا » * و « لايبسيك » ** و « فونتينبلو » *** يبدو وكأن من الجائر ان يشك في واترلو . ان اكفهراراً خفياً قد شرع يظهر في اعماق السماء . لحظة ارتدّ ولينغتون اخذت نابوليون هزة الطرب . لقد رأى تجدد « مون مان جان » يعمرى فجأة ، ورأى جبهة الجيش الانكليزي تختفي . واجتمع شمل هذا الجيش كرة أخرى ولكنه ظلّ متوارباً . ونهض الامبراطور في ركابه نصف نهضة . لقد اخترق وميض النصر عينيه . لقد حصر ولينغتون في غابة سواني* وحطمت قواته - تلك كانت الهزيمة الحاسمة نزلها فرسة بانكلترة . ذلك كان الانتقام لـ « كريسي » ****

* Bérésina نهر في روسية البيضاء اشتهر بعبور الجيش الفرنسي له من ٢٦ - ٢٩ تشرين الثاني عام ١٨١٢ .

** المدينة الالمانية المعروفة وقد نشبت فيها معركة بين الفرنسيين والحلفاء (معركة الالم) اضطر نابوليون على اثرها الى الجلاء عن المانية (سنة ١٨١٣)

*** اشارة الى « معاهدة فونتينبلو » التي سوت ، في ١١ نيسان ١٨١٤ ، بعد استقالة نابوليون الاول ، وضع الامبراطور ووضع أسرته .

**** Grécy - en - Ponthieu بلدة في شمال فرنسا جرت فيها موقعة بين الفرنسيين بقيادة فيليب دو فالوا والانكليز بقيادة ادورد الثالث سنة ١٣٤٦ وكان النصر فيها حليف الانكليز .

و « برانييه » * ، و « مالبلاكيه » ** و « رامبي » *** كان بطل
 مارانغو بمحو عار « آزينكور » . ****
 وانشأ الامبراطور يتأمل هذا التطور الفظيع الذي طرأ على الموقف ،
 وأجال منظاره للمرة الاخيرة فوق كل نقطة من ساحة القتال . ونظر
 اليه حرسه - وكانوا واقفين خلفه وسلاحهم على أرجلهم - في ضرب من
 العبادة . كان يفكر . كان يدرس السفوح ، ويلاحظ المنحدرات ،
 ويتفحص الغابة الصغيرة ، وحقل الجاودار المربع ، والمجاز الضيق . لقد
 بدا وكأنه 'يحصي كل دغل من الادغال . ونظر فترة من الزمن الى
 المتاريس الانكليزية القائمة على الطريقين ، وكانا ركامين ضخمين من
 الاشجار ، احدهما على طريق جيناب ، فوق « لا هاي سانت » ،
 وهو مسلح بمدفعين كانا وحدهما - بين المدفعية الانكليزية كلها - اللذين
 يريان قعر ساحة القتال ، والآخر على طريق نيفيل حيث التمت حراب
 لواء « شاسيه » الهولندية . ولاحظ قرب ذلك المتراس كنيسة القديس
 نقولا العتيقة ، المدهونة باللون الابيض ، والقائمة عند زاوية الطريق
 المختصرة المتجهة نحو « برين لالو » . وانحنى وهمس في اذن الدليل ،
 لاكوست . واوما الدليل برأسه ايماءة نفي ، اغلب الظن انها كانت خادعة .
 ونحس الامبراطور وفكّر .

* حيث انتصر ادورد الشهير بالامير الاسود (وهو ابن ادورد الثالث) على
 ملك فرنسا جان الثاني الملقب بالشجاع ، سنة ١٣٥٦ وأسر .
 ** Malplaquet في أقصى الشمال الفرنسي حيث هزم الانكليز الفرنسيين في ١١
 ايلول سنة ١٧٠٩ .

*** Ramillies - Offus من اعمال بلجيكة حيث انتصر مارلبورو على مارشال
 فرنسا فيلاروا عام ١٧٠٦ .
 **** Azincourt في منطقة ال « با دو كاليه » شمالي فرنسا حيث هزم الانكليز
 بقيادة هنري الخامس القوات الفرنسية وعلى رأسها دوق اورليان (٢٥ تشرين الاول
 عام ١٤١٥) .

كان ولينغتون قد انقلب على عقبيه . ولم يبقَ غير إنجاز هذا الارتداد بضربة ماحقة .
وفجأة التفت نابوليون ، ووجهه ، على جناح السرعة ، رسولاً الى باريس ليعلن ان المعركة قد كُسبت .
كان نابوليون واحداً من اولئك العباقرة الذين تصدر عنهم الرعود .
وكان قد وجد صاعقه .
وأصدر أمره الى دارعي « ميلهو » * بالاستيلاء على نجد « مون سان جان » .

٩

ما لم يكن متوقعاً

كانوا ثلاثة آلاف وخمسة رجل . ولقد شكلوا جبهة تبليغ نصف ميل . كانوا رجالاً عمالقة على صهوات جياد ذات جسوم هائلة . وكانت تنتظمهم ستّ وعشرون كوكبة ، ومن ورائهم فصيل « لوفيفر دينويت » ** وهم مئة وستة من رجال الدرك المختارين ، وقناصة الحرس وعدّتهم ألف ومئة وسبعة وتسعون رجلاً ، وفرمان الحرس الرماحة وعدّتهم ثمانئة وثمانون . كانوا يلبسون الخوذ من غير سبيب ، والدروع المصنوعة من الحديد المطروق ، وقد شدّوا مسدسات الفرمان في غلاقتها الجلدية الى مقدّم السرج ، وتسليحوا بالسيوف الطويلة المنقوسة.

* Milhaud جنرال فرنسي اشتهر بجراسته البطولية على رأس قواته الدارعة .
(١٨٣٣ - ١٧٦٨)

** Lefebvre - Desnouettes جنرال فرنسي (١٧٧٣ - ١٨٢٢) ابلى في وائرلو بلاء حسناً ، ثم هاجر الى اميركة بعد عودة آل بوربون الى العرش .

وفي الصباح ، كانوا موضع اعجاب الجيش كله عندما أقبلوا في كثافة عند الساعة التاسعة ، وقد ضجّت الابواق وأنشد جنود الموسيقى كلهم : « فلنسر على سلامة الامبراطورية » * ، وسارت احدى وحداتهم المدفعية الى جانبهم ، والأخرى في وسطهم ، واندفعوا في صفين بين طريق جيناب و « فريشون » ، واخذوا مواقعهم في ذلك الخط الثاني الجبار الذي اقامه نابوليون في كثير من الحكمة ، والذي كان له - وقد واكبه في أقصى يساره دارعو كيلرمان وفي أقصى يمينه دارعو ميلهو - جناحان من حديد اذا جاز التعبير .

وحمل اليهم ضابط الارتباط برنار أمر الامبراطور . وشهر « في » سيفه ووضع نفسه على رأسهم . وشرعت كتائب الفرسان الهائلة تتحرك . وعند ذلك رثي مشهد مروّع .

لقد اندفعت هذه الحيلة كلها ، مشهورة السيوف ، خفاقة الرايات ، صادحة الابواق ، في حركة واحدة وكأن افرادها رجل واحد وقد شكّل كل فصيل صفاً - وفي مثل دقة آلة برونزية هادمة تشق ثلثة في جدار - وهبطت كتيب « لا بيل » آليانس ، وغطست في ذلك العمق الهائل الذي سبق لكثير من الرجال ان سقطوا فيه ، واختفت في الدخان ، ثم نهضت من هذه الدجّة ، وبرزت كرة ثانية عند الجانب الآخر ، وهي لا تزال كثيفة متلازمة ، مصعّدة بأقصى الحجب ، وسط سحابة من قذائف المدفعية انبعجت فوقها في مرتقى « نيجد » مون سانت جان ، الموحد الخفيف . لقد برزت كالحلّة ، مهدّدة ، ثبته الجنات . وخلال الفترات الفاصلة ما بين انطلاق التيران الجماعي من البنادق وانطلاقها من المدافع ، كان في ميسور المرء أن يسمع صدى هذا الوطأ الجبار .

* Veillons au salut de l'Empire أغنية وطنية كانت من أول أغنيات الثورة الفرنسية . والواقع ان « الامبراطورية » هنا تعني « الدولة » . وقد 'خضع كثير من بعنوان هذه الأغنية لحسبها من انشيد عهد الامبراطورية الاول .

واد كانا فصيلين فقد شكّلا صفين . كان فصيل « واتييه » الى اليمين ، وفصيل « دولور » الى اليسار . ومن بعيد ، كان يجيّل الى الناظر انها افعوانان فولاذيان هائلان يتمددان نحو قنّة النجد . لقد اخترق ذلك المعركة وكأنه اعجوبة من الاعاجيب .

ان شيئاً مثل هذا لم تشاهده العيون منذ استيلاء سلاح الفرسان الثقيل على متاريس الـ « موسكوبا » . * إن مورا ** لم يكن هناك . ولكن كان هناك « ني » . لقد بدا وكأن هذا الحشد قد امسى غولاً ، وكأننا كانت له نفس واحدة ليس غير . لقد تموجت كل كوكبة ، وانتفضت مثل حلقة الأخطبوط . كان ممكناً ان يُروا من خلال الدخان الكثيف ، اذ كان ممزقاً ههنا وهناك . انها فوضى من الحوذ والصيحات والسيوف ، ووثب خيل ضارب بين المدافع ونفحات الابواق - جلبة فظيعة منظمة . وفوق ذلك كله ، كانت الدروع ، وكانت اشبه بجراشف أفعى هديرية ذات سبعة رؤوس .

هذه الاخبار تبدو وكأننا اخبار عصر آخر . ولا ريب في ان شيئاً مثل هذا المشهد قد برز في الملاحم الأورفية القديمة التي تتحدث عن الرجال الحيل ، عن اولئك المحبولين الاقدمين الذين كانوا يتصورون انهم قد مسخوا جياداً ، عن اولئك الجبابرة ذوي الوجوه البشرية ، والصدور الشبيهة بصدور الحيل ، الذين تسوّر خبيثهم الاولمب *** ، الخفيفين ، الرفيعين ، المعصومين عن الجراح ، والذين هم آلهة وبهائم في

* نهر في روسيا الوسطى جرت عنده معركة دامية بين الفرنسيين والروس عام ١٨١٢ ، وكان النصر فيها حليف الفرنسيين .

** Murat صهر نابليون ، وكان جنرالاً لامعاً من قادة سلاح الفرسان . وقد ابلى بلاءً حسناً في معركة الاهرام وفي معركة الـ « موسكوبا » التي يشير اليها المؤلف (١٧٦٧ - ١٨١٥)

*** جبل في بلاد الاغريق القديمة يقع بين مقدونيا واسبانيا وكانت الاساطير ترسم انه مقر الآلهة .

آن معاً .

إنها لمصادفة عديدة عجيبة . كان قد استقبل هذه الكوكبات الست^١ والعشرين ستة^٢ وعشرون فوجاً . وخلف قنة النجد ووراء حجاب من المدفعية المقتنعة كان الرجال الانكليز يشكلون ثلاثة عشر مربعاً ، في كل مربع فوجان ، وعلى خطين - في الاول سبعة مربعات ، وفي الثاني ستة - واعقاب البنادق الى الاكتاف ، والعيون على « قمحات » البنادق - فهم ينتظرون هادئين ، صامتين ، غير متحركين . لم يكن في ميسورهم ان يروا الدارعين ، ولم يكن في ميسور الدارعين ان يروهم . لقد اصغوا الى ارتفاع هذا المد^٣ من الرجال . لقد سمعوا صدى الثلاثة الآلاف جواد ، المتعاطم شيئاً بعد شيء ، ووقع حوافرها التناوبية المتسقة ، في حجب كامل ، وجلجلة الدروع ، وقعقة السيوف ، وشبه هدير ضارٍ . وران الصمت الخفيف لحظة^٤ . وفجأة بدا فوق القنة صف طويل من الاذرع المرفوعة التي تهز السيوف ، بنحوذها وابواقها ورباطها ، وثلاثة آلاف وجه ذي شارب اشيب تهتف : « يحيي الامبراطور ! » لقد تفجرت هذه الحيلة كلها فوق النجد ، فكان ذلك اشبه باستهلال زلزلة .

وفجأة - ذلك شيء فاجع - الى يسار الانكليز ، والى يميننا ، ارتدت طليعة الدارعين في جلبة مهتاجة مروعة . ذلك بأن هؤلاء الدارعين ما كادوا يبلغون أوج القنة ، مطلقى الاعنة لحيلهم ، وقد عصفت بهم الحاسة البالغة ، واتخذوا سبيلهم نحو القضاء على المربعات والمدافع ، حتى رأوا ان بينهم وبين الانكليز حفرة ، بل قبراً . تلك كانت طريق « أوهين » الغائرة .

كانت لحظة^٥ مخيفة . كان الوادي هناك ، فاغراً فاه ، على نحو غير متوقع ، تحت حوافر الخيل تقريباً ، وقد بلغ عمقه قامتين بين منحدره المزدوج . ودفع الصف الثاني الصف الأول ، ودفع الصف الثالث

الصف الثاني . وَسَبَتِ * الحيل ، وارتدت الى وراء ، وانقلبت على أروافها ، وزلقت بقوائمها كلها في الهواء ، طارحةً فرسانها مكدّسةً إياهم على الارض . لم يكن ثمة وسيلة الى الانسحاب . ولم تكن الكتيبة كلها غير قذيفة . إن القوة المكتسبة لسحق الانكليز قد سحقت الفرنسيين . وما كان في ميسور الوادي المتحجر القلب ان يدعن إلا بعد ان امتلأ ؛ لقد تدرج الفرسان والجياد فيه على نحو فوضوي ، ساحقاً احدهما الآخر ، وقد تمازجت لحومهم في تلك الهوة الرهيبة . وحين طفع هذا القبر بالرجال الأحياء مشى الباقون فوقهم واجتازوا بالمكان . لقد سقطت لواء « دو بوا » تقريباً في هذه الهوة .

ومن هنا بدأ نابوليون يخسر المعركة .

ان ثمة رواية محلية ، مغالٍ فيها من غير شك ، تذهب الى القول بأن ألفي فرس وألفاً وخمسة رجل دُفِنوا في طريق اوهين الغائرة . ومن المحتمل ان يكون هذا الرقم شاملاً سائر تلك الجثث التي طُرحت في هذا الوادي خلال اليوم الذي تلا المعركة .

وينبغي ان ننصّ بالمناسبة على أن لواء « دو بوا » هذا الذي امتحن على هذا النحو المشؤوم هو الذي حمل ، قبل ذلك بساعة ، حملةً عنيفة على العدو ، فانتزع راية فوج لونبورغ .

وكان نابوليون ، قبل ان يصدر أمره الى دارعي « ميلو » بالهجوم ، قد درس طبيعة الارض ، ولكنه لم يستطع ان يرى هذه الطريق الغائرة التي لم تحدث ولو مجرد تغصّن على سطح التجد . ومع ذلك فقد اُفتت نظره تلك الكنيسة الصغيرة البيضاء المتصلة بطريق نيفيل ، فوجّه سؤلاً الى الدليل لأكوست ؛ وانما فعل ذلك في أغلب الظن بعد أن تراءى له ان ثمة عقبةً ما . وكان الدليل قد أجاب بقوله لا . ولعل في ميسور المرء ان يقول ان الكارثة التي حلت بنابوليون إنما انبثقت من هزة

« شبا الجواد يشبو : قام على رجله .

رأس هذا الفلاح .

وكان لا بدّ من وقوع كوارث اخرى .

أكان من الممكن ان يكسب نابوليون هذه المعركة ؟ نحن نجيب بقولنا لا . لماذا ؟ بسبب من ولينغتون ؟ بسبب من بلوخر ؟ لا . بسبب من الله .

فلأن ينتصر نابوليون في واترلو شيء لم يكن في قانون القرن التاسع عشر . كانت سلسلة جديدة من الحقائق على وشك الوقوع ، سلسلة لم يكن لنابوليون ايما مكان فيها . وكانت نية الاحداث السببة قد تجلت منذ زمن طويل .

لقد حان سقوط هذا الرجل الهائل .

ان وطأة هذا الرجل المفرطة على المصير الانساني قد أخلّت بالتوازن ، فقد كان هذا الفرد يساوي ، وحده ، المجموع الكوني . وهذا الفيض من كامل الحيوية البشرية المركّز في رأس واحد ، وهذه الدنيا الممتطية دماغ رجل واحد ، خلق بها ان يصبحاً شؤماً على الحضارة اذا استمر . لقد آن للعدالة العليا النزعة ان تدبر الامر . واغلب الظن ان المباديء والعناصر التي تقوم عليها الجاذبيات القياسية في النظام الاخلاقي وفي النظام المادي جميعاً ، قد بدأت تتزمر . فالدماء التي يتصاعد منها البخار ، والمدافن المزدحمة بسكانها ، والامهات السافحات الدمع ، كل اولئك محامون يخيفون . ان ثمة ، حين تشكو الارض ضيقاً شديداً ، انثاء خفية تنبعث من الاعماق ، فتسمعها السماء .

لقد شكّى نابوليون الى اللانهاية ، وكان سقوطه امراً مقررّاً .

لقد أغضب الله .

إن واترلو ليست معركة على الاطلاق . إنها تغيير جبهة الكون .

نجد «مون سان جان»

وفي الوقت نفسه كانت المدفعية قد اكتشفت .
لقد أطلق ستون مدفعاً واطلقت المربعات الثلاثة عشر نيرانها على
الدارعين مرعدة مومضة . وأدّى دلولر ، الجنرال الشجاع ، النجدة
العسكرية للمدفعية الانكليزية .

وفي مرة بالغة اتخذت المدفعية الانكليزية المتنقلة كلها موقفاً لها في
المربعات . ولم يجد الدارعون متسعاً من الوقت يأخذون فيه نفساً .
لقد قضت كارثة الطريق الفائرة على عدد كبير منهم ولكنها لم تفت في
عضدهم . لقد كانوا رجالاً كلما نقص عددهم كبرت قلوبهم .
إن كتيبة « واتيه » وحدها هي التي أصابها النكبة . أما كتيبة
دولور التي كان « في » قد حملها على الانحراف نحو اليسار ، وكأنا
أشعره قلبه بوجود الشراك ، فقد وصلت كاملة .

وانقضّ الدارعون على المربعات الانكليزية .
الحيل تلامس بطونها الارض ، والأعنة مطلقه ، والسيوف بين
الاسنان ، والمسدسات في الأيدي - كذلك بدأ الهجوم .
إن ثمة لحظات في المعركة تقسي النفس أثناءها الرجل حتى ليتحول
الجندي الى غمائل ، وحتى ليصبح لحمه كله صواناً . لقد أبت الافواج
الانكليزية ، وقد هوجمت في يأس ، ان ترتدّ خطوه واحدة الى وراء .
وكان ذلك فظيماً .

لقد هوجمت جوانب المربعات الانكليزية كلها في آنٍ معاً . لقد
احاطت بها عاصفة من جنون . وظلت هذه الرجالة الباردة ثبته الجنان .
فأما الصف الاول ، وكان راكعاً على ركبته على الارض ، فاستقبل

الدارعين على رؤوس الحراب ، واما الصف الثاني فأطلق عليهم النار من بنادقه . وخلف الصف الثاني شحن المدفيعات مدافعهم ، وانفجرت طلعة المربع ، لكي تفصح المجال لانطلاق القذائف المحمومة ، ثم انغلقت كرة اخرى . وكان جواب الدارين أن انقضوا على الرجال في قوة ماحقة . لقد سببت جياهم الضخام ، وتخطت الصفوف في خطى واسعة ، ووثبت فوق الحراب ، ثم سقطت - جبارة - وسط هذه الجدران الحية الاربعة . وحدثت القذائف فجوات في صفوف الدارين ، وحدث الدارعون ثلماً في المربعات . لقد اختفت صفوف من الجند بعد أن سُحِقت اجسادها تحت سناك الخيل . ولقد عُيِّت الحراب في بطون هؤلاء السناطرة * ، ومن هنا تلك الجراح الشائنة التي يغلب على الظن أن احداً لم يشهد ضرباً لها من قبل . وانكشفت المربعات على نفسها ، وقد قرضتها هذه الخيالة المجنونة ، من غير ان تتحرك او تتردد . كانت تملك معيناً من القذائف لا ينضب ، فهي تفجرتها ابدآ وسط العدو المهاجم . كان مشهداً رهيباً . إن هذه المربعات لم تعد أفواجاً من الجند ؛ لقد أمست فوهات براكين . وهؤلاء الدارعون لم يعودوا خيالة ؛ لقد أمسوا إعصاراً . كان كل مربع بركاناً تهاجمه سحابة . ولقد اضطرت اللحم والصواعق .

وقضي قضاءً شبه كامل ، من الصدمة الاولى ، على المربع الذي في اقصى اليمين ، وهو اكثر المربعات تعرضاً للخطر ، بوصفه قائماً في الميدان الطلق . وكان مؤلفاً من رجال السرية الخامسة والسبعين الجبلين الاسكتلنديين . وفيما كانت عملية الاستئصال دائرة كان النافخ بمزمار القرية ، قاعداً في الوسط فوق احد الطبول ، وقد غفل غفلة عميقة عن كل ما حوله ، خافضاً عينه الكثبة الملأى بظلال الغابات والبحيرات ،

* Centaurs جمع « سنطرا » ، وهو في الميثولوجيا مخلوق وهي نصفه إنسان ونصفه الآخر فرس .

وكان واضعاً زمماره الاسكتلندي * تحت ذراعه ، عازفاً أنغام الجبل .
لقد مات هؤلاء الاسكتلنديون وهم يفكرون بـ « بن لوثيرات » ، كما
مات الاغريق وهم يذكرون « آرغوس » . ثم إن سيف احد
الدارعين هوى على الزمار وعلى الذراع التي تحمله فقطع الاغنية بأن
قتل المغني .

وتعيتن على الدارعين وقد غدا عددهم ضئيلاً نسبياً ، بعد كارثة الوادي ،
ان يواجهوا كامل الجيش الانكليزي تقريباً . ولكنهم ضاعفوا انفسهم ،
فاذا بكل رجل يعدل عشرة . ومع ذلك فقد ارتدت بعض الافواج
الهانوفرية الى الوراء . ورأى ولينغتون ذلك وتذكر خياله . ولو ان
نابوليون تذكر ، في تلك اللحظة نفسها ، رجاله إذن لكب المعركة .
لقد كان هذا السهو هو غلطته الكبيرة المشؤومة .

وفجأة وجد الدارعون المهاجمون انهم مهاجمون . لقد انقضت
الحجالة الانكليزية على ظهورهم . كانت المربعات امامهم ، وكان سومرست
وراءهم . سومرست بحرسه الفرسان البالغ عددهم ألفاً واربعمئة . وكان
الى يمين سومرست « دورنبورغ » بخياله الالمان الخفاف ، السلاح والى
يساره « تريب » على رأس حاملي الكاريينات البلجيكيين . واضطر
الدارعون ، وقد هوجوا من الجبهة ومن الجناح ، ومن أمام ومن
وراء ، وبواسطة الرجالة والحجالة معاً ، اضطروا الى ان يديروا وجوههم
الى الجهات جميعاً . وما ضرهم ؟ كانوا إعصاراً . وغدت بطولتهم بمنفعة
على الوصف .

والى هذا ، فقد كانت خلفهم تلك المدفعية المرعدة ابدأ . وكانت
ذلك كله ضرورياً لكي 'يجرح امثال هؤلاء الرجال في الظهر . إن أحد

* وهو مؤلف من كيس الهواء مصنوع من جلد مزيت ومغطى بقماش من صوف متصل
بفوهة انبوبة ينفخ بواسطتها المازف فيمتلي الكيس هواء ، ويتصل به زممار ذو
ثقبين مختلفين لتوقيع الانغام .

دروعهم ، وقد ثقبته عند صفحة الكتف اليسرى طلقة مسدس ، محفوظة في مجموعة متحف واترلو .

ان امثال هؤلاء الفرنسيين لا يبارحهم غير امثال هؤلاء الانكليز .
انه لم يعد نزاعاً . لقد أمسى ظلاماً ، هيجاناً ، فورة نفوس وبطولات توقع الدوار في الرأس ، وإعصاراً من يريق السيوف . وفي لحظة ، لم يبق من فرسان الحرس الألف والاربعمئة غير ثمانية . وخرّ « فولر » وهو ملازمهم الاول صريعاً . واندفع « في » ، مع الرماحة وقناصة « لوفيفر دينوويت » . واحتل الفرنسيون « نيجد » « مون سان جان » ، ثم فقدوه ، ثم عاودوا احتلاله . وترك الدارعون الحياطة لكي ينقلبوا الى الرجالة ، والاصح ان نقول ان هذه الجهرة الرهيبة كلها اضطرت من غير ان يُقتل ايّ من الفريقين الفريق الآخر . وواصلت المربعات صمودها . لقد سُنّ اثنا عشر هجوماً . وقُتلت اربعة جياد تحت « في » . وانطرح نصف الدارعين على ارض النجد . ودام هذا الصراع ساعتين . وزعزع الجيش الانكليزي على نحو راعب . ولا ريب في ان الدارعين كان خليقاً بهم ، لو لم توهن من عزائمهم تلك الصدمة الاولى التي اصابتهم اثر كارثة الطريق الفائرة ، ان يسحقوا الوسط ، ويقرروا النصر . واذهلت هذه الحياطة الرائعة « كلينتون » الذي سبق ان رأى « تالافيرا » * و « باداغوز » ** . وأعجب ولينغتون بها على الرغم من انه كان ثلاثة ارباع منهزم ، إعجاباً بطولياً ، وقال في صوت خفيض :

- « باهر ! »

وافنى الدارعون سبعة مربعات من ثلاثة عشر ، وانتزعوا أو ستمروا ستين مدفعاً ، واستولوا على ستّ من ربات الافواج الانكليزية ، حملها

* مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون على الفرنسيين ، عام ١٨٠٩

** مدينة اسبانية استولى عليها الفرنسيون ، بقيادة الجنرال سوك ، عام ١٨١١

ثلاثة دارعين وثلاثة قناصين من الحرس الى الامبراطور ، امام مزرعة
« لايل آليانس » .

كان وضع لينغتون يزداد سوءاً . لقد كانت هذه المعركة المعجبة
أشبه شيء بمبارزة بين جريجين مغيظين يفقد كل منهما دمه كاه ، ومع
ذلك فهو يواصل الكفاح والمقاومة . ايّ الفريقين سوف يسقط على
الارض قبل الآخر ؟

واستمر الصراع من اجل النجد .

الى اي مدى تقدم الدارعون ؟ ليس في ميسور احد ان يجيب .
ولكن شيئاً واحداً لا يعتبره الريب : ففي اليوم الذي تلا المعركة
« وجد دارع » وجواده ميتين تحت هيكل قبان العشب المجفف في « مون
سان جان » عند ملتقى طرق « نيفيل » ، و « جيناب » ، و « لا
هولب » ، و « بروكسل » . وكان هذا الفارس قد اخترق الخطوط
الانكليزية . وإن واحداً من الرجال الذين انتشلوا هذه الجثة لا يزال
يحيا في « مون سان جان » . إنه يدعى دوهاز . ولقد كان آنذاك في
الثامنة عشرة من عمره .

واستمر ولينغتون انه هُزم . كانت الازمة وشيكة .

ولم يوفق الدارعون ، بمعنى ان الوسط لم يُسحق . كان كل من
الفريقين مجتهد النجد ، ولم يكن ايّ منهما مجتهد ، وفي الحق انه ظلّ
في المحل الاول في أيدي الانكليز . كان ولينغتون يملك القرية والسهل
الذي يتوجها . وكان « في » لا يملك غير القنّة والمنحدر . لقد بدا
كلّ من الفريقين راسخ الجذور في هذه التربة الفاجعة .

ولكن إضعاف الانكليز بدا « عضالاً » . كان النزف الذي اصاب هذا
الجيش فظيماً . فقد طلب « كمت » ، في الجناح الايسر ، ان يُنجد
بعض الامداد . فاجابه ولينغتون : « مستحيل » يجب ان نموت فوق
الارض التي فتحناها الآن ! » ، وفي اللحظة نفسها تقريباً - مصادفة

فريدة تصور الحسارة الفادحة التي حلت بالجيشين جميعاً - ارسل «ني» الى نابوليون طالباً ان يمدّه بقوة من الرجال ، فصاح نابوليون : « رجاله ! ومن اين ينتظر مني أن اجيشه بهم ؟ اريد مني ان اخلفهم له ؟ » .

وعلى اية حال ، فقد كان الجيش الانكليزي هو الاشدّ مرضاً . ذلك بان الهجمات الضارية التي شنتها هذه الكتائب ذات الدروع الحديدية والصدور الفولاذية كانت قد سحقّت الرجال سحقاً . كان في وجود نفر قليل من الجند حول راية من الرايات اشارة الى موقع سرية من سرايا الجيش . وامست الافواج الآن تحت إمرة رؤساء (كابيتين) او ملازمين اولين . لقد حطم فصل « آلتن » ، وكان قد اصابه ضرر كبير في « لاهاي سانت » ، تحطيماً يكاد يكون كاملاً . وغطى البلجيكيون البواسل الذين انتظمهم لواء « فان كلوز » سهل الجاودار على طول طريق نيفيل . ولم يبق غير القليل القليل من رماة القنابل الهولنديين اولئك ، الذين انضموا الى صفوفنا عام ١٨١١ ، في اسبانية ، وقاتلوا ضد ولينغتون ، والذين انضموا عام ١٨١٥ الى صفوف الانكليز وقاتلوا ضد نابوليون . كانت الحسارة في الضباط بالغة . كان اللورد اوكسبريدج ، الذي دفن رجله في اليوم التالي ، قد اصيب بكسر في الركبة . واذا كان صراع الدارعين هذا قد ادى ، عند الجانب الفرنسي ، الى ان يصبح « دولور » ، و « ليرينيه » ، و « كولبير » و « دنوب » ، و « ترافير » ، و « بلانكار » عاجزين عن القتال ، فمن الجانب الانكليزي جرح « آلتن » ، وجرح « بيرن » ، وقتل « ديلاسي » ، وقتل « فان ميرلن » ، وصرع « أومبتيدا » ، واصيبت هيئة اركان حرب ولينغتون كلها باعظم الحسارة ، وفالت انكلترة النصيب الاسوأ في هذا التوازن الدامي . كانت السرية الثانية من سرايا الحرس المشاة قد فقدت خمسة عُقداً ، واربعة رؤساء ، وثلاث رايات . وكان الفوج

الاول من فرقة الرجال الثلاثين قد فقد اربعة وعشرين ضابطاً ومئة واثني عشر جندياً . وكان اربعة وعشرون من ضباط القوات الاسكتلندية الجبلية قد 'جرحوا' ، وثمانية عشر ضابطاً قد 'قتلوا' ، واربعمئة وخمسون جندياً قد 'ذبحوا' . وكانت خيالة كومبرلاند الهانوفرية ، وهي سرية كاملة على رأسها 'الزعيم هاكه' ، الذي حوكم فيما بعد و'عزل' ، قد انقلبت على أعقابها قبل بدء القتال ، وولت هاربة في غابة 'سوانثي' ، ناشرة الذعر حتى بروكسل . ولم تكد الكارئات ، وشاحنات الذخيرة الحربية ، وناقلات الامتعة ، وعربات الاسعاف الملائى بالجرحى ، لم تكد هذه كلها ترى الفرنسيين يتقدمون ، ويقربون من الغابة ، حتى ولت على جناح السرعة . وصاح الهولنديون ، وقد انقضت عليهم سيوف الفرسان الفرنسيين : « الى القتال ! » . ومن « فيرت كوكو » الى « غرونديل » ، وعلى مسافة فرسخين تقريباً في اتجاه بروكسل ، غصت الطرق ، وفقاً لشهادة شهود لا يزالون احياء ، بالفارين من الجند . وكان هذا الذعر من الشدة بحيث بلغ البرنس دو كوندية * في « مالين » ولويس الثامن عشر في « غان » . وباستثناء الاحتياطي الضيئل المرتب صفوفاً متتابعة خلف المستشفى المقام في مزرعة « مون سان جان » ولواءي « فيفيان » و « فانديلور » المواكبين للجناح الايسر ، لم يبق عند ولينغتون شيء من الحيلة . وكان عدد من المدافع ملقى على الارض مفكك الاجزاء . تلك حقائق يعترف بها سيبورن . ويذهب برينغل ، مبالغاً في الكارثة ، الى حد القول إن الجيش الانكليزي الهولندي لم يسلم منه غير اربعة وثلاثين الف رجل . واحتفظ الدوق الحديدي ** بجهوده ، ولكن شفتيه كانتا شاحبتين . وظن المفوض

* من امراء اسرة بوربون الفرنسية المالكة ، وكان قد هاجر من فرنسا عام ١٧٩٢ وشكل في كولنتر وعلى ضفاف الراين الجيش الموسوم بجيش دو كوندية .
 ** الدوق الحديدي Iron Duke هو اللقب الذي 'خلع' على ولينغتون لقوته الجسدية وإرادته التي لا تلين .

النسوي ، فينان ، والمفوض الاسباني ، آلافا ، اللذان شهدا المعركة الى جانب هيئة الاركان الانكليزية ، ان الدوق هالك لا محالة . وعند الساعة الخامسة سحب ولينغتون ساعته ، وسمع يفهم بهذه الكلمات الكالحة : « بلوخو ، او الليل ! » .

وفي هذه اللحظة تقريباً التمع صف من الحراب بعيد فوق الربى القائمة وراء فريشمون .

تلك هي نقطة التحول في هذه المأساة العملاقة .

١١

دليل رديء لنابوليون

ودليل جيد لبولوف *

كلنا نعرف غاظة نابوليون الموجهة ؛ كان يرجو أن يصل غروشي *** ، فوصل بلوخو ؛ الموت بدلاً من الحياة .

إن للقدر مثل هذه الانحرافات . ففيما كان نابوليون ينتظر ان يتربع على عرش العالم ، اذا به يلمح جزيرة القديسة هيلانة .

لو ان راعي البقر الصغير الذي أوشد بولوف ، ساعد بلوخو الأيمن ، نصحه بأن ينطلق من الغابة التي فوق فريشمون بدلاً من الغابة التي تحت

* Bulow جنرال بروسي (١٧٥٥ - ١٨١٦) شارك مشاركة فعالة في معركة كني ليسغ وواترلو .

** Grouchy مارشال فرنسي (١٧٦٦ - ١٨٤٧) ، وقد عهد اليه عشية واترلو بمطاردة البروسيين المهزومين في ليني ، ولكنه تركهم ينجون بانفسهم ويلتحقون بالانكليز ، على حين ظل هو بعيداً عن ميدان المعركة . وقد أنشب على ترده هذا الذي يعدّه الفرنسيون إجرامياً تقريباً .

بلانسوا اذن لكان من الجائز أن يتغير شكل القرن التاسع عشر .
كان خليقاً بنابوليون ، في هذه الحال ، ان يكسب المعركة . ذلك
بأن ايا طريق غير الطريق الممتدة تحت بلانسوا كانت خليقة بأن تقود
الجيش البروسي الى واد تعجز المدفعية عن اجتيازه ، وإذن لما وصل بولوف .
ولو قد تأخر ساعة - بذلك يصريح الجنرال البروسي موفلنج - لما
وجد بولوفر ولينغتون صامداً . « كان الحلفاء قد خسروا المعركة » .
كان وصول بولوف قد حان ، كما رأينا . وكان قد تأخر كثيراً .
لقد عسكر في الفضاء الطلق في « ديون لو مون » ، وانطلق عند
الضحى . ولكن الطرق كانت غير سالكة ، وكان فصيله يفتوح في
الوحل . لقد ساخت المدافع في التلثم حتى مراكز دوابها . وإلى
ذلك ، فقد تعين عليه أن يعبر الـ « ديل » * على جسر « فافر » ،
الضيق . وكان الفرنسيون قد أضرموا النار في الشارع المؤدي الى الجسر .
واذ لم يكن في ميسور عربات المؤن وناقلات المدافع أن تمر بين صفين
من البيوت المحترقة فقد اضطر إلى الانتظار حتى « محمد النيران » . كان
النهار قد انتصف قبل ان يصل بولوف الى « شابل سان لامير » .
ولو قد بدأ القتال قبل ساعتين اثنتين اذن لانهى في الساعة الرابعة ،
وإذن لبلغ بولوفر الميدان وقد كسب نابوليون المعركة . هكذا هي
هذه المصادفات الهائلة التي حفظت النسبة ما بينها الى لا نهاية لا نستطيع
ان ندركها .

فمنذ الظهيرة كان الامبراطور قد لمح بمنظاره الحربي قبل أيّ من رجاله
جميعاً عند أقصى الافق شيئاً ستمر انتباهه . وكان قد قال : « لاني ارى
هناك سحابة تبدو لي جيوشاً » . ثم سأل دوق دالماسية ** : « سولت ،

* La Dyle نهر في بلجيكة .

** هو اللب الذي عرف به « سولت » بعد معاهدة « تلييت » التي وقعت
عام ١٨٠٧ بين نابوليون ، وألكسندر الاول امبراطور روسيا ، وبروسية .

ماذا ترى نحو شابيل سان لامبير ؟ ، وادار المارشال منظاره في ذلك الاتجاه ، واجاب : « خمسة آلاف رجل ، او ستة آلاف رجل ، يا مولاي . إنه غروشي من غير ريب . » وفي غضون هذا ، ظلّ ذلك الشيء جامداً وسط الضباب الكثيف . وفحصت مناظير اركان الحرب كلهم تلك « السحابة » التي اشار اليها الامبراطور . وقال بعضهم : « إنها كتائب تقف متسلسلة . » وقال معظمهم : « إنها اشجار . » والحقّ ان السحابة كانت جامدة لا تتحرك . وعهد الامبراطور الى فصل « دومون » المؤلف من خيالة خفيفة في استكشاف هذه النقطة الغامضة .

في الواقع ان بولوف لم يتحرك . كانت طليعة قواته ضعيفة جداً ، ولم تكن قادرة على شيء . . لقد تعيّن عليه ان ينتظر جماع جيشه ، ولقد أمرَ بأن يركّز قواته قبل ان يتقدّم الى خط القتال . ولكن في الساعة الخامسة ، أصدر بلوخر أمره الى بولوف - وقد رأى الى الخطر يهدّد ولينغتون - بأن يشنّ الهجوم ، ونطق بهذه الكلمة الرائعة :

« يجب ان نعطي الجيش الانكليزي فرصة للتنفس . »

وما هي الا برهة قصيرة حتى انتشرت فصائل « لوستين » ، و « هيار » ، و « هاكه » و « رايسيل » أمام فيلق « لوبو » ، وانطلقت خيالة الامير وليم البروسي من غابة باريس ، وكانت النار تأكل بلدة بلانسنوا ، وشرعت قذائف المدافع البروسية تتساقط كالمنظر حتى بين صفوف الحرس الاحتياطي خلف نابوليون .

الحرس

والبقية معروفة : غارة الجيش الثالث ، وتشوش المعركة ، وإرعاد ستة وثمانين مدفعاً على نحو مفاجيء ، وبجيء بيرش الاول مع بولوف ، وخيالة زايثن يقودها بلوخر بنفسه ، وارتداد الفرنسيين الى الوراء ، وطرد د ماركونيه ، من نيجد أوهين ، وإخراج د دوروت ، من « بابيلوت » ، ونكوص د دونزيو ، و « كييو » ، والمهجوم على قوات د لوبو ، هجوماً جانبياً ، ومفاجأة كتابنا المحطمة بمعركة جديدة عند هبوط الليل ، وانتقال الخط الانكليزي كله من الدفاع الى الهجوم وزحفه الى الامام ، والفجوة الهائلة التي حدثت في الجيش الفرنسي ، وتعاون المدفعية الانكليزية والمدفعية البروسية ، والافناء ، والكارثة التي حلت بمقدمة الجيش ، والكارثة التي حلت بالجنح ، ودخول الحرس خط القتال وسط هذا الانهيار الفظيع .

واذ استشعروا انهم ذاهبون لملاقاة الموت فقد صاحوا : « فليحي الامبراطور ! » وليس في التاريخ شيء يهز المشاعر اكثر من حشجة الموت هذه المتفجرة في هتافات .

كانت السماء محجوبة بالغيوم طوال النهار . وفجأة ، وفي هذه اللحظة بالذات - كانت الساعة الثامنة مساء - انقضت الغيوم عند الافق ، ومن خلال شجرات الدردار القائمة على طريق نيفيل تدفق ضياء الشمس المحتضرة الأحمر الكالغ . كانت هذه الشمس قد اشرقت ، صباحاً ، على اوسترلitz . وفي هذا الجهد الأخير ، كان كل فوج من أفواج الحرس يقوده جنرال . كان هناك « فرييان » ، و « ومبشيل » ، « دروغيه » ، و « هارليه » ، و « ماليه » ، و « بوريه دو مورفان » . وحين

برزت قبعات رماة القنابل من الحرس - تلك القبعات الطويلة ذات الصفايح
النسرية - منسقةً، مصطفةً، رابطة الجأش، وسط دخان ذلك الصراع،
استشعر العدو الاحترام لفرنسة. لقد حسب انه رأى عشرين انتصاراً
تدخل ميدان القتال، منشورة الاجنحة، فاذا باولئك الذين كانوا
غالبين بحسبون انفسهم مغلوبين، فينقلبوا على أعقابهم. ولكن وليفتن
صاح: « انهضوا، أيها الحرس، وسددوا النار اليهم! » ونهضت
سرية الحرس الأنكليزية الحمراء، الجائئة خلف الاسيجة، وصبت وابلاً
من القنابل على الراية المثلثة الالوان الحافقة حول نسورنا. واندفعوا
جميعاً الى امام، وبدأت الهزيمة الكبرى. واستشعر الحرس الامبراطوري
ان الجيش يتقهقر من حولهم في الظلام، كما استشعروا زلزلة الانهزام
المائلة. لقد سمعوا « الفواو! الفواو! » التي حلت محل « فليحي
الامبراطور! » ومع هروب الجند من ورائهم، استمروا في اندفاعهم
الى امام، تسحقهم المدافع اكثر فاكثراً، وبتلقفهم الموت أسرع
فأسرع عند كل خطوة. لم يكن ثمة لا مترددون، ولا جبناء. كان
النفر في هذه الفرقة يضاهي الجنرال بطولة. إن رجلاً واحداً من أفرادها
لم ينكص أمام الانتحار.

وتعرض « ني » يائساً، متحققاً بكامل عظمة الموت المرتضى،
لختلف المخاطر في هذه العاصفة. لقد قتل جواده الخامس من تحته. لقد
صاح والعرق يقطر منه، والنار في عينيه، والزبد على شففيه، وقد
فككت ازرار ستورته العسكرية، وقطعت احدى كتافيه على نحو جزئي
بضربة سيف من أحد الحرس الفرسان، واخترت قنبلةً صفيحة التي
تمثل نسراً كبيراً، وسال الدم منه، وتلوث جسده بالونحل، واتشح
بالبهاء، ولوحت يده بسيف مكسور: « تعالوا وانظروا كيف يموت
ماوشال من مارشالات فرنسة في ساحة المعركة! » ولكن على غير
طائل. إنه لم يمت. وعصفت به القسوة والغیظ. وطرح على « درويبه

ديزلون ، هذا السؤال : « ماذا ! ألتـ تبذل جهدك لكي تموت ؟ »
 وصاح وسط هذه الرجالة كلها التي تسحق حفنة من الجند : « أليس ثمة شيء ،
 إذن ، من اجلي ؟ أوه ! اني أتمنى لو ان جميع هذه القذائف الانكليزية
 قد دُفنت في جسدي ! » يا لك من رجل بالئ ! لقد ادُخِرْتَ للقنابل
 الفرنسية !

١٣

النكبة

كان الانهزام من وراء الحرس فاجعاً .
 لقد انكفأ الجيش 'فجاءة' ، ومن الجهات جميعاً في آن معاً ، من
 هوغومون ، من « لا هاي سانت » ، من بايلوت ، من بلانسوا .
 وأُتبع صيحة « خيانة ! » بصيحة « الفوار الفوار ! » ، إن الجيش
 المتحلل أشبه شيء بالثلج الذي يذوب . فكل شيء يلتوي ، ويتصدع ،
 ويقضض ، وبطفو ، ويندحرج ، ويسقط ، ويتصادم ، ويسرع ،
 ويفوص . ويستعير « ني » جواداً ، ويشب عليه ، من غير قبعة ،
 او ربطة عنق ، او سيف ، وينطلق الى طريق بروكسل ممكاً
 بالانكليز والفرنسيين على السواء . انه يحاول الابقاء على الجيش . انه
 يدعوهم الى العودة ؛ إنه يعتفهم ؛ إنه يصارع الهزيمة . ويفرّ الجند منه
 صائحين : « فليحي المارشال في ! » ، ونحيي سريتنا « دوروت »
 وتروحان ، مذعورتين ، تتقاذفها سيوف الفرسان الالمان ونيوان ألوية
 « كبت » ، و « بست » ، و « باك » ، و « رايلانت » . والحق
 ان الهزيمة اسوأ المعارك . فالاصدقاء يذبح بعضهم بعضاً لكي يفرّوا ،
 وكتائب الخيالة وافواج المشاة يسحق بعضها بعضاً ويشئت بعضها بعضاً ،

زَبَدُ المعركة الضخم . إن الفيضان ليحرف « لوبو » من ناحية ، و « ربي » من ناحية أخرى . وعبثاً يحاول نابوليون أن يُقيم بالبقية الباقية من حرسه سدوداً . عبثاً يقذف بكوكبة فرسانه الاحتياطية في جهد أخير . ويتقهقر « كيبوت » في وجه « فيفيان » ، و « كيلرمان » في وجه « فاندولور » ، و « لوبو » في وجه « بولاو » ، و « موران » في وجه « بيرش » ، و « دومسون » و « سويرفيك » في وجه الأمير غليوم البروسي . ويخرّج « غوبو » الذي قاد خيالة الامبراطور تحقيقاً للمهمة التي عهد إليه بها ، تحت سنابك الخيل الانكليزية . ويسرع نابوليون الى الجنود المدبرين ، ويخطب فيهم ، ويحضهم ، ويهددهم ، ويتوسل اليهم . وتظلّ جميع تلك الافواه التي هتفت في الصباح « فليحي الامبراطور » فاعرةً مشدوّهة . إن جنوده لا يكادون يعرفونه . وإن الخيالة البروسية ، التي أقبلت اللحظة ، لتندفع الى امام ، وتلقي بنفسها على العدو ، وتعمل سيفها ، وتقطع ، وتحتزّ ، وتقتل ، وتبيد . إن الدوابّ المقرونة لتتبّ ، وإن المدافع لتعنى بنفسها ، وإن جنود القطر ليحلتون الخيل من العربات ويمتطون متونها هارين ؛ وإن العربات لتطرح على الارض وقد انتصبت عجلاتها الاربع في الهواء ، فهي تعترض الطريق ، وهي تشارك في المذبحة . إن الجنود لينسحقون ، وإنهم ليداسوث . إنهم يمشون على الاحياء وعلى الاموات . إن الأذرع لمبتورة . وإن جبهة توقع الدوار في الرأس لتملأ الطرق ، والازقة ، والجسور ، والسهول ، والتلال ، والاودية ، والغابات ، التي غصّت بهذا الفرار يقوم به اربعون ألف رجل . لقد أُلقيت الصيحات ، وأُلقي اليأس ، وأُلقيت الاكياس والبنادق في الجاودار : مجازة شقّ بحدّ السيف . لم يعد ثمة رفاق ، ولم يعد ثمة ضباط ، ولم يعد ثمة جنرالات ، هلع لا سبيل الى وصفه . كان « زايّن » يُعمل السيف في جسم فرسة من غير ما عناء . وكان الأسود قد أصبحوا بحامير * . كذلك كان هذا الفرار .

* جمع يعمور . واليعمور دابة تشبه العنز .

وفي جيناب بُذل جهدٌ للعودة ، لتكوين جبهة ، للمقاومة . وجمع « لوبو » شمل ثلاثئة رجل . وكان مدخل القرية قد «سُدّ» بالمتاريس . ولكن ما ان انطلقت اول مجموعة من القذائف البروسية حتى عاودوا الفرار جميعاً ، وأسرَ «لوبو» . إن آثار تلك القذائف لا تزال تبدو اليوم على جدار مثلث جانبيّ عتيق من خربة قائمة الى يمين الطريق ، على مسيرة بضع دقائق من مدخل جيناب . وانقض البروسيون على جيناب ، وقد عصف بهم الغيظ من غير شك لهزال الفتح الذي تمّ لهم . وكان التعقب رهيباً . فقد اصدر بلوخر امره بالابادة . وكان «روغيه» قدوةً سيئة في هذا المضمار حين هدّد بالموت كل رامي قنابل فرنسي يسوق اليه أسيراً بروسياً . ولكن بلوخر فاق روغيه . فقد القي القبض على «دوهيزم» ، جنرال الحرس القتيان ، عند باب فندق في جيناب ، فسلم سيفه الى فارس من «فرسان الموت» ، فما كان من هذا الفارس إلا ان اخذ السيف وقتل الأسير . لقد أكمل النصر بذبح المغلوبين . فلنعاقب ، ما دمنا نحن التاريخ : لقد تسربل بلوخر بالعار . وكانت هذه الوحشية ذروة الكارثة . واجتازت فلول المنهزمين البائسة «جيناب» ، واجتازت «كاتربرا» ، واجتازت «غوزيلي» ، واجتازت «فران» ، واجتازت «شارلروا» ، واجتازت «توين» ، ولم تقف إلا عند الحدود . وأأسفاه ! ومن الذي كان يفرّ الآن على هذا النحو ؟ الجيش العظيم .

هذا الجنون ، هذا الهول ، هذا الانهيار الذي اصاب أسمى شجاعة 'قدّر لها ان 'تدهش التاريخ ، أيمن ان يكون هذا كله من غير سبب ؟ لا . ان ظلّ يد يعني هائلة ليخيم على واترلو . إنه يوم القدر . لقد هيمنت قوة فوق الانسان على ذلك اليوم . ومن هنا ، فقدامت الرشد بالذعر . ومن هنا استسلام هذه النفوس الكبيرة كلها . لقد سقط اولئك الذين فتحوا اوروبة على الارض ، بعد ان لم يجدوا شيئاً اضافياً

يقولونه او يعملونه ، مستشعرين وجوداً رهيباً في الظلام . *Hoc erat in fatis* *
في ذلك اليوم ، تغير مستقبل الجنس البشري . إن واتولو هي مفصل
الباب الذي دار عليه القرن التاسع عشر . فقد كان زوال الرجل العظيم
ضرورياً لمجيء القرن العظيم . ولقد تولى القيام بهذه المهمة كائنٌ ما ، لا
يُنَاقَش في ارادته . وهكذا يُفصح 'ذعر' الابطال عن نفسه . إن في
معركة واتولو اكثر من سحابة ، إن فيها شهاباً . لقد مرّ الرب من
فوقها .

وفيما الليل يهبط على ساحة قرب جيناب* أوقف « برنار » و « برتوان » ،
بعد ان امسكا بذيل معطفه ، رجلاً شكساً ذاهلاً كالحج الوجه كان التيار
قد استاقه حتى تلك النقطة ، ثم ترّجل وأمرّ زمام فرسه تحت ذراعه
ورجع ادراجه وحيداً شارد النظرات نحو واتولو . كان هو نابوليون ،
وكان يحاول الهجوم كرة اخرى : عملاق* يسير ، وهو نائم ، في فجرة
هذا الحلم المنهار .

١٤

المربع الأخير

كانت بضعة مربعات من الحرس قد صمدت حتى الليل ، غير متحركة
وسط تيار الانهزام ، فكأنها الصخور وسط المياه الجارية . لقد دنا
الليل ، ودنا الموت ايضاً ، ولكنها انتظرت هذا الظلام المزدوج ،
واستلمت غير متزعزعة لعناقه . كانت كل سرية ، وقد انعزلت عن
سائر السرايا ، وانقطع كل اتصال لها بالجيش ، الذي كان ينهار في

* تعبير لاتيني من كلام هوراس مئاة : « ذلك ما كنت ارغب فيه » .
وهو يذكر حين يتحدث عن أمنية يكون في تحقيقها استجابة لجميع الرغبات .

الجهات جميعاً - كانت كل سرية تموت وحدها . لقد اتخذت تلك السرايا مواقع لهذا الصراع النهائي : بعضها فوق روائي رسوم وبعضها في سهل « مون سان جان » . وهناك ، حشرت هذه المربعات الكالحة مهجورة ، مغلوبة ، فظيعة - على نحو رهيب . كانت « أولم » * و « واغرام » ** و « جينا » *** و « فريدلاند » **** تموت فيها .

وعند الفسق ، حوالى الساعة التاسعة مساءً ، وعلى سفح نجد « مون سان جان » لم يبق غير مربع واحد . في هذا الوادي المشؤوم ، وعند قعر ذلك المنحدر الذي تسلقه الدارعون والذي ازدحمت فيه الآن الحشود الانكليزية ، وتحت النيران المركزة التي صوبتها مدفعية العدو المنتصرة ، وتحت عاصفة رهيبة من القذائف ، واصل هذا المربع القتال . كان يقوده ضابط مغمور يدعى كامبرون . وعند كل طلقة ، كان هذا المربع يتناقص ولكنه يرد على النار . كان يرد على قذيفة المدفع برصاص البندقية ، مضيقاً جدرانه الاربعة على نحو موصول . ومن بعيد ، كان الجنود الفارون يسمعون وسط الظلام - وقد وقفوا لحظة لاهئين - هذا الرعد الكثيب يتضاءل .

وحين أمسى ذلك الفيلق مجرد حفنة من الرجال ليس غير ، حين أمسى رايهم مجرد خرقه ليس غير ، حين أمسى بنادقهم ، وقد

* Ulm مدينة من مدن ووتنبيرغ ، الدولة الالمانية القديمة ، وتقع على الدانوب واشتهرت بالمعركة التي دارت فيها (٢٠ تشرين الاول ١٨٠٥) بين النمويين والفرنسيين وانتهت بهزيمة القوات النموية ، يقودها الجنرال « ماك » Mack في وجه نابوليون .

** Wagram قرية في النمسا ، قرب فيينا ، حيث انتصر نابوليون انتصاراً باهراً على الارشيدوق شارل ، في ٦ غوز ١٨٠٩ .

*** Jena مدينة المانية انتصر فيها نابوليون على البروسيين (١٤ تشرين الاول ١٨٠٦)

**** Friedland احدى مدن بروسية الشرقية ، وقد انتصر فيها نابوليون على الروس (١٤ حزيران ١٧٠٨) وعلى اثر هذه المعركة عقدت معاهدة تليبت الشهيرة .

أعوزتها الذخيرة ، مجرد عصيّ ليس غير ، حين امسى وكام الاموات اكبر من مجموع الأحياء ، دبّ في نفوس الفاتحين ضربٌ من الذعر المقدس حول هؤلاء الشهداء العظام ، واعتصمت المدفعية الانكليزية - وقد وقفت لتأخذ نفساً - بجبل الصمت . كان ذلك نوعاً من الاستراحة . ذلك بان هؤلاء المقاتلين وجدوا حولهم شبه جماعة من الاشباح ، وخيالات الرجال الداكنة على صهوات الحيل ، وصورة المدافع الجانبية السوداء ، والسماء البيضاء وقد تبدت من خلال الدواليب وعربات المدافع . لقد تقدم نحوهم رأس المنية الهائل الذي يلعبه الابطال دائماً وسط دخان المعركة ، وحدّق اليهم . لقد سمعوا في ظلمة الفسق شحن المدافع بالقذائف ؛ وطوقت الفتائل المشعّلة رؤوسهم وكأنها عيون الانوار في الليل ، وواكبت المدفعية الانكليزية جميع القضايت المزودة رؤوسها بفتائل لاطلاق النار من المدافع ، وفجأه انبرى جنرال انكليزي تأثر بتلك البطولة ، فأمسك بلحظة الموت المتدلية فوق رؤوس هؤلاء الرجال ، وكان هذا الجنرال هو « كولفيل » عند بعضهم و « ميتلاند » عند بعضهم الآخر - وصاح مخاطباً اياهم : « ايها الفرنسيون البواسل ، استسلموا ! » فأجابه كامبرون : « خراء ! »

١٥

كامبرون

إن الاحترام للقاريء الفرنسي يقضي بأن لا نكرر على مسعاه كلمة قد تكون اروع ما نطق به فرنسيّ مدى الدهر . فمن المحظور علينا ان نتخلى عن الاسلوب الرفيع في التاريخ . ولكننا ، على مسؤوليتنا ، ننتهك حرمة هذا الحظر .

واذن ، فقد كان بين هؤلاء العالقة جبار ، إنه كامبرون .
واي شيء اعظم من ان تقول تلك الكلمة ، ثم تموت بعد ذلك !
لأنّ تقبلك الموت يعدل الموت . وليس الخطأ على هذا الرجل اذا كان
قد صمّر وسط عاصفة من القذائف .

ان الرجل الذي كسب معركة واترلو ليس نابوليون المنقلب على
عقبه ، وليس ولينغتون المنكفيء في الساعة الرابعة ، اليائس في الساعة
الخامسة . وليس بلوخر الذي لم يقاتل قط . إن الرجل الذي كسب
معركة واترلو هو كامبرون ..

فلأن تفجّر مثل هذه الكلمة في وجه الصاعقة التي تقتلك يعني النصر .
ولأن تردّ على الكارثة بهذا الجواب ؛ أن تقول هذا للقدّر ؛ ان
يقدم هذه القاعدة لأسد المستقبل ؛ أن تصفع بهذه الاجابة مطر
الليلة الباوحة ، وجدار هوغومون الحاش ، وطريق أوهرين
الغاز ، وتأخر غروشي ، ووصول بلوخر ؛ ان تكون ساخراً
امام عتبة القبر ؛ أن تسلك وكأنك تريد ان نظل واقفاً بعد ان
يتحتم عليك السقوط على الارض ؛ ان تفرق بمقطعين اثنين التحالف
الاوروبي ؛ أن تقدّم الى الملوك هذه المراحض التي عرفها القياصرة من
قبل ؛ ان تجعل آخر الكلمات أولها بان تضمّ اليها مجد فرنسا ؛ ان
تختم واترلو ، في سفاهة ، بثلاثة المرفع * ؛ ان تكمل ليونيداس **
بـ « رابليه » *** ؛ ان تلخص هذا النصر بكلمة عليا لا يمكن ان

* هو آخر ايام الكارفال عند الطوائف الفرية .

** ليونيداس الاول ملك اسبارطة من ٤٩٠ - ٤٨٠ ق . م وهو بطل فجاج الـ
« تيرمويل » في تالية وقد دافع عنها ضد الفرس وليس معه غير ثلاثة رجل . واذا
لم يستطع ملك الفرس ان يصدق ان في ميسور هذه الحفنة من الرجال ان تصده
عن سبيله يمت الى ليونيداس رسالة يقول فيها : « الق سلاحك ! » فكتب الاسبارطي
في ادنى الرسالة : « تمال وخذه ! »

*** Rabelais الاديب الفرنسي الانساني الشهير (١٤٩٤ - ١٥٥٣) ولم يكن
يحيد حرجاً في ان يضمن كتاباته بعض الالفاظ البذيئة .

تلفظ ؛ ان تخسر الميدان وتحتفظ بالتاريخ ؛ أن تكون الضحكة الى جانبك بعد هذه المجزرة كلها - أن تفعل ذلك كله شيء عظيم فائق كل حد .

إنها إهانة للصاعقة . وفي ذلك ما يسمو الى مرتبة العظمة الاشيلية . ان كلمة كامبرون هذه لتختلف أثراً كأثر الانقصاص . انها انكسار قلبٍ بالسخرية ؛ انها طِفاح الحشرة الذي ينفجر . من الذي غَلَبَ ؟ ولينفتون ؟ لا . فلولاً بلوخر لهلك . بلوخر ؟ لا . فلول لم يبدأ ولينفتون لما كان في مبدور بلوخر ان يُنهي . إن كامبرون هذا ، إن عابر اللحظة الاخيرة هذا ، إن هذا الجندي المغمور ، إن صغير الحرب هذا المتناهي في الصغر ليحس بان ثمة كذبة في كارثة - شيء مرير على نحو مزدوج - وفي اللحظة التي كان ينفجر خلالها من الفِيط 'تقدّم' اليه هذه السخرية اللاذعة : الحياة ! فكيف يستطيع ان يملك نفسه ؟ إنهم كلهم هناك ، ملوك اوروبة جميعاً ، والجنرالات السعداء ، والجوبتيرات * المرعدون . إن معهم مئة الف من الجنود المنتصرين ، وان خلف المئة الف ، مليوناً . إن مدافعهم ، وقد أشعلت فتائلها ، لتفجر أفواها . لقد داسوا د الحرس الامبراطوري ، و د الجيش العظيم ، باقدامهم . لقد سحقوا نابوليون ، ولم يبقَ غير كامبرون وحده . لم يبق احد غير حشرة الارض هذه لكي تحنّج . ولسوف يحنّج . ثم إنه يبحث عن كلمة كما يبحث المرء عن سيف . ويُزبد فيه ، فيكون هذا الزبد هو الكلمة . فأمام هذا النصر الاعجوبي الهزبل ، امام هذا النصر الذي لا منتصرين فيه ، يتصدّر هذا الرجل اليأس . انه يقاسي ضخامته ، ولكنه يستجلي عدَميته ، فلا يزيد على ان يبصق عليه . واذا كانت يروح تحت ثقل الارقام والقوة المادية ، يعثر في روحه على تعبير - الغاظ .

* جمع جوبتير ، او المشتري ، وهو في الميثولوجيا الرومانية أبو الآلهة وسبدم ؛ ويقابله « زيوس » عند الاغريق .

ونكرر ما قلناه من قبل : إن قول ذلك ، إن عمل ذلك ، إن العثور على ذلك ، يجعل كامبرون هو المنتصر .

لقد نفذت روح الايام العظيمة الى هذا الرجل المغمور ، عند تلك اللحظة المشؤومة . ويجد كامبرون كلمة واترلو ، كما يجد روجيه دو ليل * المارسييز ، بألغام علوي . ان ومضة من الساعة الالهية لتنتقل ، فتمر من فوق هذين الرجلين فيرتعدان ، فأما احدهما فينشد النشيد الأسمى ، وأما الآخر فيطلق الصيحة الفظيعة . وهذه الكلمة ذات السخرية الجبارة ، لا يقذف بها كامبرون في وجه اوروبه وحسب ، باسم الامبراطورية ، فجدير بهذا ان يكون قليلاً . إنه يقذف بها في وجه الماضي ، باسم الثورة . ونسمع تلك الكلمة ، ويكتشف الناس ، في كامبرون ، روح العرافة القديمة . لقد بدت وكأنها خطاب لدانتون ، او زارة لكليير . **

وردّا على كلمة كامبرون هذه أجاب الصوت الانكليزي : « النار ! » والتهبت المدافع ، وارتجفت التلة ، ومن جميع الافواه النحاسية انطلق فيء من القذائف نهائي ، مروّع . والتف دخان عريض باهت البياض على ضوء القمر الطالع ، وحين تبدد الدخان لم يبق ثمة شيء . لقد أبيت تلك البقية الخفيفة ؛ لقد لقي الحرس حنقهم . كانت جدران المتراس الحيّ الاربعة قد انهارت ، فما يكاد المرء يتبين هنا وهناك اختلاجة بين الجنث . وهكذا قضت الفياقق الفرنسية ، وهي اكبر من الفياقق الرومانية ، نخبها ، في « مون سان جان » ، فوق ارض منقوعة بالمطر والدم ، في حقول القمح القاعة ، حيث يمرّ اليوم عند الساعة الرابعة

* Roger de l'Alé وهو الذي وضع ، عام ١٧٩٢ ، نشيد فرسة الوطني ، المارسييز :
Marseillaise

** Kléber جنرال فرنسي (١٧٥٣ - ١٨٠٠) تولى قيادة الحملة الفرنسية على مصر بعد عودة بوناپرت . وقد قتل بيد احد المماليك .

صباحاً ، جوزيف الذي يقود عربة البريد من نيفيل ، صافراً مبتهجاً
وهو يُلهب حصانه بالسوط .

١٦

كم بارة في الليرة ؟

إن معركة واترلو لغز . إنها مغلقةٌ دون أفهام الذين كسبوها والذين
خسروها على السواء . لقد كانت في نظر نابوليون ، ذعراً * ولم يكن
بلوخر ليروى فيها غير نار . أما ولينغتون فليس يفهم منها شيئاً . أنظر
الى التقارير . إن البيانات الرسمية لمضطربة ، وإن الشروح لغامضة .
الاولى تتلجلج ، والاخرى تتلعثم . لقد جزأ جوميني معركة واترلو
أدواراً اربعة . وقسمها موفلنغ الى ثلاث من دورات الحظ . أما شاراً
فكان هو وحده - برغم اختلافنا معه في الرأي ، في بعض النقاط -
الذي ادرك بثاقب نظره الملامح المميّزة لكارثة العبقرية الانسانية تلك
في صراعها مع القدر الالهي . على حين ان سائر المؤرخين يعيهم
البهاء ، فهم يتلمسون طريقهم في ذلك الظلام . إنه في الحق يومٌ ساطعٌ
كالبرق ، يومٌ سقوط الملكية العسكرية الذي جرّ وراءه - وبألدهشة
الملوك ! - الممالك جميعاً ؛ يومٌ انهيار القوة ، وانهازام الحرب .
وفي هذا الحدث ، الحامل طابع الضرورة فوق البشرية ، لم يكن
دور الانسان شيئاً مذكوراً .

* « لقد اختُتِمت معركة ، وأكمل يوم ، وأصلحت مقاييس فاسدة ، وضمت
للدن اتمارات أعظم - ولكن كل ذلك ضاع في لحظة من الدهر . »

(نابوليون ؛ أماليّ سانت هيلانة .)

[هذه الحاشية منقولة عن الاصل الفرنسي]

أبؤدي انتزاع واترلو من ولينفتون ومن بلوخر الى انتزاع شيء من انكلترة والمانيه ؟ لا . إن أياً من انكلترة المجيدة أو المانية الجلييلة ليست هي المقصودة في مشكلة واترلو . ومن نعم السماء أن الشعوب لا تتأثر بمحظوظ السيف الفاجعة . فلا المانية ، ولا انكلترة ، ولا فرنة حُبست في غمد . ففي هذه الحقة التي كانت واترلو فيها صليلَ سيوف ليس غير ، كانت المانية تزهو ، فوق بلوخر ، بـ « غوته » ، وكانت انكلترة تزهو ، فوق ولينفتون ، بـ « بايرون » . إن نهضة فكرية واسعة لتمييز عصرنا ، وإن لانكلترة وألمانية نصيباً رائعاً في هذا الفجر . إنها عظيستان لأنها تفكران . وإن المستوى الذي يرفعان الحضارة اليه جوهريّ فيها . إنه ينبثق من ذاتيهما ، لا من حادثة بعينها . إن التقدم الذي حققناه في القرن التاسع عشر لا ينبع من واترلو . فالشعوب المتبريرة وحدها هي التي تنعم بنموّ مفاجيء بعد إحرازها نصراً ما . إنه صَلفُ السيول الزائل وقد نفختها العاصفة . أما الشعوب المتمدنة ، وبخاصة في زماننا هذا ، فلا يرفع من قدرها أو يحطّ منه حسن طالع قائد عسكري أو سوء طالعهِ . إن ثقلها النوعي في الجنس البشري لينشأ عن شيء أكثر من الحرب . إن شرفها — والحمد لله — وكرامتها ، وضياءها ، وعبقريتها ، ليست ارقاماً يستطيع الابطال والفاخون — اولئك المقامرون — ان يقدفوا بها في يانصيب المعارك . وكثيراً ما تكون المعركة الخاسرة تقدماً مجرّز . مقدار اقلّ من المجد ، يقابله مقدار أكثر من الحرية . إن الطبل ليصمت ، وإن العقل ليتكلم . تلك هي اللعبة التي يربح فيها الفريقُ الخاسر . فلنتحدث إذن عن واترلو ، في برود ، من الجانبين . فلنرجع ما للعظّة الى الحظّة ، ولنرجع ما لله الى الله . ما هي واترلو ؟ نصّر ؟ لا . إنها يانصيب .

يانصيب ربحته اوروبة ، ودفعته فرنة .

ولم يكن كثيراً ان يقام تمثال اسدٍ هناك .

وواترلو ، فوق هذا ، أعجب موقعة في التاريخ . نابوليون ووليفتون :
لنهما ليسا عدوين ، إنما نقيضان . فلم يُقيم الله في يوم من الأيام - وهو
المولع بالمتناقضات - مغامرة أكثر روعة ، والتقاء أشدّ خروجاً على نسق
العادة . فمن جانب ، كانت الدقة ، والتبصر ، والهندسة ، والفطنة ،
والتقهر المضمون ، والاحتياطي المقتصد فيه ، ورباطة الجأش العنيدة ،
وطريقة ثبته الجنان ، واستراتيجية تقوم على الاستفادة من الأرض ، وفنّ
حربيّ يهدف الى اقامة الموازنة بين الافواج ، ومجزرة تساق الى خط
القتال ، وحرب تدار والساعة في اليد ، وعدم ترك شيء - على نحو
إرادي - للمصادفة ، وشجاعة كلاسيكية قديمة ، والضبط المطلق .
ومن جانب آخر ، كان الحدس ، والالهام ، والاعجوبة العسكرية ،
والغريزة فوق البشرية ، واللمعة الملتبهة ، وشيء خفيّ مجذوق كالنسر ،
ويصق كالصاعقة ، وفنّ مدهش في اندفاع ينضج بالاحتقار ، وجميع
اعاجيب النفس البعيدة الغور ، والألفة مع القدر ، ودعوة النهر والسهل
والغابة والكثيب ، بل إكراهها بمعنى من المعاني ، على الخضوع ،
وذهاب الطاغية الى حدّ فرض طفئانه على ميدان المعركة ، والايّمان
بطالع مقرون الى العلم الاستراتيجي فهو يزيد ، ولكنه يكدره . كان
وليفتون « باريم » * الحرب ، وكان نابوليون « ميكال آنجها » ** ،
وهذه المرة غلب الحساب العبقري .

كان كل من الفريقين ينتظر شخصاً ما . وكان الحاسب الدقيق هو
الذي نجح . نابوليون انتظر غروشي ، فلم يجيء . ووليفتون انتظر
بلوخر ، وقد جاء .

إن وليفتون هو الحرب الكلاسيكية تنتقم . وكان نابوليون ، وهو
في فجره ، قد التقاها في ايطالية ، وهزمها بسمو . لقد فرّت البومة

* B.F.Barème رياضي شهير وضع جدول حسابات حاضرة للاستعمال ، عرف باسمه .
** ميكال آنج ، العبقري الايطالي الشهير ، وكان رساماً ، ونقاشاً ، ومعماراً وشاعراً في آن معاً .

المعجوز من وجه العقاب الشاب . ان الفن الحربي القديم لم يُصعق
 فيحسب ، ولكنه أهين إهانة قاتلة . من كان هذا الكورسيكي ذو الستة
 والعشرين ربيعاً ؟ ما معنى هذا الجاهل الباهر الذي كان كل شيء ضده ،
 ولا شيء معه ، والذي لم يكن عنده مؤن ، ولا ذخائر ، ولا مدافع ،
 ولا احذية ، والذي كان من غير شيء تقريباً فليس معه غير حفنة من
 الرجال يواجه بها الحشود الغفيرة ، ومع ذلك فقد هجم على اوروبا
 المتحالفة وكسب ، على نحو غير معقول ، انتصارات كانت مستحيلة ؟
 من اين اقبل هذا المجنون الصاعق الذي وُفق من غير ان يأخذ نفساً
 تقريباً ، وفي يده مجموعة المقاتلين نفسها ، الى ان يسحق جيوش
 امبراطور المانية الحجة ، واحداً إثر واحد ، منكساً د بوليو ، *
 على د آلفينزي ، ** ، و د وورمر ، *** على د بوليو ،
 و د ميلاس ، **** على د وورمر ، ، و د ماك ، ***** على
 د ميلاس ، ؟ من هذا الوافد الجديد على دنيا الحرب بوقاحة كوقاحة
 الكواكب ؟ لقد اصدت المدرسة الحربية الاكاديمية حرماً ضده فيما هي
 تولي فراراً . ومن هنا تلك الكراهية الحقود التي ابدتها نظام الحرب
 القديم نحو الجديد ، والحسام الصحيح نحو السيف المتألق ، ورقة
 الشطرنج نحو العبقرية . وفي ١٨ حزيران سنة ١٨١٥ كانت لهذه الكراهية

* Beaulieu جنرال نموي (١٧٢٥ - ١٨١٩) اشترك في حرب السنوات
 السبع ، وهزمه بوناپرت في ايطالية .
 ** Alvinzy جنرال نموي (١٧٣٥ - ١٨١٠) هزمه بوناپرت في آر كولا
 عام ١٧٩٦ وفي ريفولي عام ١٧٩٧ .
 *** Wurmsier جنرال نموي (١٧٢٤ - ١٧٩٧) هزمه بوناپرت في كاستيليون من
 اعمال ايطالية .
 **** Melas جنرال نموي (١٧٢٩ - ١٨٠٦) هزم في مارانغو .
 ***** Mack جنرال نموي (١٧٥٢ - ١٨٢٨) وقد حاصره نابليون في « أولم »
 فاستسلم هو وجنوده الثلاثون الفاً من غير قتال .

الكلمة الاخيرة ، وتحت « لودي » * و « مونتيلو » **
و « مونتينوت » *** و « مانتو » **** و « ماراغنو »
و « آر كولا » ***** كتبت : واترلو . انتصار العادي ، وإنه
لعذب في نفوس الاكثريات . وارتضى القدر هذه السخرية . ففي ساعة
سقوطه وجد نابليون نفسه امام « وورمر » كرة اخرى ، ولكن
« وورمر » كان غض العود هذه المرة .

والحق انه لم يكن محتاجاً الى أكثر من تبييض شعر ولينغتون لكي
يرى « وورمر » رأي العين .

إن واترلو معركة من الطراز الاول كسبها قائده من الطراز الثاني.
وإن ما ينبغي ان نعجب به في معركة واترلو هو انكلترة ، هو
الصلابة الانكليزية ، هو العزم الانكليزي ، هو الدم الانكليزي . إن
الشيء الرفيع الذي كان لانكلترة هناك - وأرجو ان لا يسوها ذلك -
هو ذاتها . إنه لم يكن قائدها ، ولكن جيشها .

لقد وجّه ولينغتون ، في عقوق عجيب ، رسالة الى اللورد باثورست ،
صرّح فيها بأن جيشه ، ذلك الجيش الذي قاتل في ١٨ حزيران ١٨١٥ ،
كان « جيشاً بغيضاً » . فما رأي هذا المجتمع الداكن من العظام
الدفينة تحت اخاديد واترلو ، في ذلك ؟

لقد كانت انكلترة متواضعة ، اكثر مما ينبغي ، إزاء ولينغتون .

* Lodi مدينة في ايطالية انتصر فيها بونابرت على النمويين عام ١٧٩٦

** Montebello قرية ايطالية هزم فيها النمويون مرتين ، الاولى على يد القائد لان Lannes
سنة ١٨٠٠ والثانية على يد الجنرال فوري Forey عام ١٨٠٩ وأما يشير المؤلف الى الهزيمة الاولى .

*** Montenotte قرية في ايطالية ، انتصر فيها بونابرت على قوات بوليو النموية عام ١٧٩٦

**** Mantoue مدينة ايطالية حصينة استولى عليها بونابرت عام ١٧٩٧

***** Arcola من اعمال ايطالية ، حيث هزم بونابرت النمويين واضهر بسالة شخصية
فائقة (١٧ تشرين الثاني سنة ١٧٩٦) .

والواقع ان في تعظيم ولينغتون الى هذا الحد انتقاصاً من قدر انكلترة . فليس ولينغتون غير بطل مثل سائر الأبطال . ولكن هذه القوات الاسكتلندية الرمادية ، هؤلاء الحرس الفرسان ، هذه السرايا التي قادها « ميتلاند » و « ميتشيل » ، هؤلاء الرجال الذين قادهم « باك » و « كيمت » ، وهذه الحيالة التي على رأسها « بونسوني » و « سومرست » ، هؤلاء الاسكتلنديون الجلبون العازفون على مزاميرهم تحت وابل القذائف ، وافواج « رايلانت » هذه ، هؤلاء المهندون الجدد الذين ما يكادون يعرفون كيف يطلقون النار من البندقية ، والذين صمدوا في وجه افواج « إيسلنغ » * و « ريفولي » ** ولكن ذلك كله هو العظيم حقاً . لقد كان ولينغتون غيباً ، وتلك موهبته ، ونحن لا ننتقص من قدرها . بيد أن اصغر جندي من جنوده الرجالة او من جنوده الحيالة تكشف عن صلابة لا تقل عن صلابته . كان الجندي الحديدي يعدل « الدوق الحديدي » . *** اما نحن ، فكلّ نجيدنا ينصبّ على الجندي الانكليزي ، والجيش الانكليزي ، والشعب الانكليزي . واذا لم يكن بدءاً من إقامة نُصْب لذكرى انتصار ، فإن انكلترة هي التي تستحق هذا النصب . ولقد كان نصبُ واترلو خليقاً بأن يكون اقرب الى تمثيل الواقع لو رفع الى الفهم تمثال أمة ، لا وجه رجُل . ولكن انكلترة العظيمة هذه سوف تغضب لما سنقوله هنا . إنها لا تزال تحتفظ ، بعد عام ١٦٨٨ **** ، وهو عامها ، وبعد عام ١٧٨٩ *****

* Esaling قرية غوية ، انتصر فيها الفرنسيون على النمسيين سنة ١٨٠٩ .

** Rivoli قرية ايطالية هزم فيها بوناپرت النمسيين سنة ١٧٩٧ .

*** يقصد ولينغتون .

**** هو العام الذي ثار فيه الشعب الانكليزي على الملك جيمس الثاني ، وخلمه . وتعرف هذه الثورة بالثورة المجيدة . وقد كان من نتائجها اصدار البرلمان « بيان الحقوق » المشهور .

***** عام الثورة الفرنسية .

وهو عامنا ، بالوهم الاقطاعي . إنها تؤمن بالحق الموروث ، وبنظام
المراتب . وهذا الشعب ، الذي لا يفوقه احدٌ قوةً ومجداً ، يستزّ
بنفسه كدولة لا كشعب . والانكليز يغالون في ذلك الى درجة تجعلهم
يخضعون ، بوصفهم شعباً ، خضوعاً إرادياً ، ويرثسون عليهم لورداً من
اللوردات . فأما العامل فهم 'يمييزون' ازدراءه ، وأما الجندي فهم يمييزون
جلده بالسياط . وغن نذكر أنه في معركة إنكرمان * انقذ
جندي ، برتبة رقيب ، الجيش كله ، في ما يبدو ، ومع ذلك فلم
يكن في ميسور اللورد راغلان ** ان ينوّه باسمه ، لأن المرتبة
العسكرية الانكليزية لا تسمح بأن يشاد في التقارير باسم أيما بطل لما
يصل الى مرتبة الضباط .

إن ما يعجبنا فوق كل شيء ، في واقعة مثل واترلو ، براعة الحظ
الاعجوبة . هطول المطر ليلاً ، جدار هوغومون ، طريق أوهين الفائرة ،
صمم غروشي عن صوت المدفع ، دليل نابوليون الذي يجذعه ، ودليل
بولوف الذي يهديه سواء السبيل - كل هذا الطوفان قد سبق على نحو
رائع عجيب .

وعلى الجملة - ولنقل ذلك - فإن واترلو مذبحة أكثر منها معركة .
فبين جميع المعارك العظمى كانت واترلو هي صاحبة أقصر جبهة
بالنسبة الى عدد الجند الذين خاضوا غمرة القتال . فجبهة نابوليون ثلاثة
ارباع الفرسنج ، وجبهة ولينغتون نصف فرسخ *** واثنان وسبعون ألف
مقاتل في كل من الجبهتين . ومن هذه الكثافة انبثقت المهزلة .
لقد أُجري إحصاء أثبتت على ضوءه هذه النسبة : - الخسائر في

* Inkermann إحدى مدن القرم ، حيث هزم الفرنسيون والانكليز القوات
الروسية في معركة ضارية . (٥ تشرين الثاني ١٨٥٤)

** Raglan جنرال انكليزي (١٧٨٨ - ١٨٥٥) وقد قاد الجيش الانكليزي في

حرب القرم ، ومات بالكوليرا في حصار سياستوبول .

*** او ميلان وميل وكسف .

الرجال : في اوسترليتز ، الفرنسيون ، اربعة عشر بالمئة ؛ الروس ، ثلاثون بالمئة ؛ النمسيون ، اربعة واربعون بالمئة . في واغرام ، الفرنسيون ، ثلاثة عشر بالمئة ، النمسيون ، اربعة عشر بالمئة . في الموسكوها ، الفرنسيون ، سبعة وثلاثون بالمئة ، الروس ، اربعة واربعون بالمئة . في بوتزين * ، الفرنسيون ، ثلاثة عشر بالمئة ، الروس والبروسيون ، اربعة عشر بالمئة . في واترلو ، الفرنسيون ، ستة وخمسون بالمئة ، الحلفاء ، واحد وثلاثون بالمئة . المعدل الوسطي في واترلو ، واحد واربعون بالمئة . مئة واربعة واربعون الف مقاتل ، ستون الف قتيل .

ويرين' على ساحة واترلو اليوم ذلك الهدوء الذي هو ملك الارض ، دعامة الانسان المعصومة عن التأثر . إنها تشبه ايما سهل آخر .

يبد ان ضرباً من الضباب الوهمي ينبعث منه في الليل ، ولو ان مسافراً اجتاز به ، لو انه نظر ، لو انه اصغى ، لو انه حلم مثل فرجيل في سهول فيليبي ** المشؤومة ، إذن لاستبدت به هلوسة الكارثة . إن يوم ١٨ حزيران الفظيع ليشكل له من جديد . وتتلأشى نلة النصب الاصطناعية ، ويتبدد هذا الاسد ، كائناً ما كان ، ويستعيد ميدان القتال حقيقته ، وتموج صفوف الرجال في السهل ، ويعبر الافق خببٌ ضارٍ ، ويرى الحالم الذاهل وميض السيوف ، وبريق الحراب ، وانفجار القنابل ، وقمازج الرعود الفظيع ، ويسمع ، مثل حشرة في أعماق قبر ، ضجة « المعركة الطفيف » الغامضة . هذه الظلال هي رماة القنابل ، هذه البوارق هي الدارعون ، هذا الهيكل العظمي هو نابوليون ، هذا الهيكل العظمي هو ولينغتون . كل هذا وهمي ، ومع ذلك فهو يتصادم ويصطرع . وتغدو الاودية ارجوانية ، وترتجف الاشجار ،

* Bautzen مدينة المانية اشتهر فيها نابوليون على البروسيين والروس عام ١٨١٣ .

** في مقدونية ، على مقربة من البحر ، حيث هزمت قوات انطونيوس واوكتافيوس قوات بروتوس وكاسيوس عام ٤٢ ق.م .

ويعصف الفوران حتى بالسحب ؛ وفي الظلمة ، تبدو جميع هذه الروابي الوحشية - « مون سان جان » ، و « هوغومون » و « فريشون » و « بابلوت » ، و « بلانسنوا » ، وكأنها متوجة على نحو مضطرب بعواصف من الاشباح يقني بعضها بعضاً .

١٧

أينبغي لنا أن نستحسن واترلو ؟

إن ثمة مدرسة متحررة تتمتع باحترام كبير لا تبغض واترلو على الإطلاق . إننا لسنا من هؤلاء . فواترلو ليست ، عندنا ، غير موعده الحرية المشدوه . ولأن ينطلق نسر كهذا من بيضة كهذه لهو من غير ريب شيء غير متوقع .

ان واترلو - اذا وضعنا انفسنا في أعلى 'فَنَن' المسألة - هي عمداً انتصاراً مضاد للثورة . إنها اوروبة ضد فرنسة . انها بطرسبرج ، وبرلين ، وفيينا ضد باريس . انها « الوضع الراهن » *Statu quo* ضد المبادرة . انها ١٤ تموز ١٧٨٩ يُهاجَم من خلال ٢٠ آذار ١٨١٥* . انها العدة التي أعدتها الممالك ضد الانتفاضة الفرنسية الجامعة . يجب ان يُباد ، آخر الامر ، هذ الشعب العريض الآخذ بأسباب الثورة منذ ستة وعشرين عاماً - هكذا كان الحلم . انها تضامن دوقات برونيك ، ودوقات ناستو ، وآل رومانوف ، وآل هوهنزيون ، وآل هبسبورغ مع آل بوربون . ان واترلو لتودف وراءها الحقّ الالهي . صحيح أن الامبراطورية ، وقد كانت ديكتاتورية ، أكرهت الملكية ، بالرجع

* هو اليوم الذي دخل فيه نابليون باريس اثر عودته من منفاه بجزيرة البا .

الطبيعي للأشياء ، على ان تكون متحررة ؛ وأن نظاماً دستورياً قد انبثق - على نحو غير مباشر - عن واترلو ، بما أثار اعظم الاسف عند الفاتحين . والحق ان الثورة لا يمكن ان تُقهر ، وانها بسبب من كونها السّية المنشأ ومحتومة على نحو مطلق تعاود الظهور من غير انقطاع ؛ لقد ظهرت - قبل واترلو - في بونايرت يحطم العروش العتيقة ، وظهرت - بعد واترلو - في لويس الثامن عشر يمنح الدستور ويخضع له . لقد اقام بونايرت سائق عربية على عرش نابولي ، وأقام جندياً برتبة رقيب على عرش الدويد ، مصطنعاً اللامساواة لأظهار المساواة . ولقد وقع لويس الثامن عشر ، بدووه ، في سان أووين ، على اعلان حقوق الانسان . أتريد ان تدرك ما الثورة ؟ سمّتها تقدماً . أتريد أن تدرك ما هو التقدم ؟ سمّته الغد . ان الغد يقوم بعمله على نحو لا يقاوم وهو يقوم به منذ اليوم . وهو يبلغ غاياته ، أبداً ، بوسائل غير متوقعة . انه يستعمل ولينفتون لكي يصنع « فوا » * الذي لم يكن غير جندي ، غير خطيب . ويسقط « فوا » في هوغومون ، ولكنه ينهض كرة أخرى على منبر الخطابة . وهكذا يمضي التقدم الى أمام . وليس من وسيلة تخطئ عند هذا العاقل . انه يكتف وفقاً لعمله الالهي من غير ان يحار أو يقلق ، الرجل الذي اجتاز الالب بخطى عراض ، ومريض الـ « بير ايليزيه » العجوز الطيب المترنح . انه يفيد من المصاب بداء مفاصل الارجل كما يفيد من الفاتح في ؛ - الخارج ، ومن المصاب بداء مفاصل الأرجل في الداخل . ان واترلو ، بأعاقبتها تقويض العروش الاوروبية بحد السيف ، لم يكن لها من نتيجة غير مواصلة العمل الثوري من طريق أخرى . أما وقد انتهت مهمة ارباب السيوف ، فقد جاء دور المفكرين . ان العصر الذي رغبت واترلو في ان توفقه قد استأنف سيره وتابع طريقه . لقد قهرت الحرية هذا النصر المشؤوم .

* Foy جنرال فرنسي غطى انحطاب الجيش من اسبانية ١٨١٤ وجرح في واترلو (١٧٧٥ - ١٨٢٥)

وجمّاع القول الذي لا ريب فيه ان ذلك الذي انتصر في واترلو ؛ ذلك الذي ابتسم من وراء ولينفتون ؛ ذلك الذي حمل اليه عصي مارشالات أوروبا كلها وفيها ، كما قيل ، عصا مارشال فرنسا ؛ ذلك الذي كرت ، في ابتهاج ، عربات التراب الملأى بالعظام لاقامة رابضة الاسد ؛ ذلك الذي خط ، مظفراً ، فوق قاعدة التمثال تلك هذا التاريخ : ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ؛ ذلك الذي شجع بلوخر على ان يعمل السيف في رؤوس الجند الفارين ؛ ذلك الذي اطلّ على فرنسا ، من قمة نخبه ، مون سان جان ، ، وكأنه يطل على فريسة ، لم يكن غير الثورة المضادة . إن الثورة المضادة هي التي غفمت بهذه الكلمة المردولة : التجزئة . حتى إذا وصلت الى باريس ، رأّت فوهة البركان عن كسب . لقد استشعرت ان هذا الرماد يحرق قدميها ، فغيرت رأسها . لقد انقلبت على عقيها وهي تتلعم بدستور .

إن علينا ان لا نرى في واترلو إلا ما هو في واترلو . إنها خلوة من الحرية المقصودة او المتمتدة . ذلك ان الثورة المضادة كانت متحورة على نحو لا ارادي ، كما كان نابليون ، بسبب من ظاهرة مقابلة ، ثورياً على نحو غير ارادي . في ١٨ حزيران ١٨١٥ أسقط روبسبير ، وكان بمثابة صهوة جواده ، عن السرج .

١٨

نكسة الحق الألهي

انتهت الديكتاتورية ، وانهار النظام الاوروبي كله . لقد غرقت الامبراطورية في ظلمة تشبه تلك التي غرق فيها العالم الروماني المحتضر . ولقد نهضت كرة اخرى من الهاوية كما نهضت ايام البرابرة . مع فارق وحيد هو ان بربرية عام ١٨١٥ ، التي ينبغي ان تدعى باسمها

الخاص ، الثورة المضادة ، كانت قصيرة النفس ، فما لبثت ان استبد بها
اللاهث ، ونسيت ما ارادت قوله . والواقع ان الامبراطورية - ويجب ان
نعترف بذلك - قد بُكي عليها ، وان الاعين التي بكت عليها كانت
باسلة . واذا كانت المجد في الحسام الذي جعل صولجاناً ، فقد كانت
الامبراطورية هي المجد نفسه . لقد نشرت فوق الارض كل الضياء الذي
يستطيع الطفيان ان يمنعه - ضياء قائم . بل فلنذهب الى حد القول :
ضياء مظلم . واذا قيس بالنهار الحقيقي كان ليلاً . ولقد كان لزوال
الليل هذا مثلُ اثر الكسوف .

ورجع لويس الثامن عشر الى باريس . ومحا الرقص حلقات
حلقات في ٨ تموز * حماسة العشرين من اذار . لقد غدا الكورسيكي **
نقيض البيارني *** وامست راية قبة التويليري بيضاء . وارتقى المنفي
العرش . واتخذت منضدة هارتويل الصنوبرية مكانها امام الاربعة المزدانة
بزنابق لويس الرابع عشر . وتحدث الناس عن « بوفين » ****
و « فونتونوي » ***** وكاننا وقعنا امس ، بعد ان آلت الشيخوخة
باوستوليتز . وتأخى المذبح والعرش في جلال . وتوطد في فرنسا وفي
القارة شكل من اشكال المجتمع التي لا يكاد الشك يتطرق الى انها
تمتعت باعظم قسط من الامن في القرن التاسع عشر . واصطنعت اوروبا

* يوم سقوط نابوليون واعادة اسرة بوربون الى العرش في شخص لويس الثامن
عشر ، سنة ١٨١٥ .

** أي نابوليون بونابرت .

*** Béarnais نسبة الى الـ Béarn وهي مقاطعة فرنسية قديمة في نافار قدر لها
بواسطة هنري الرابع ان توحد فرنسا عام ١٦٠٧ والبيارني هو هنري الرابع رأس
اسرة بوربون .

**** Bouvines في الشمال الفرنسي حيث هزم فيليب اوغت الامبراطور اوتون
الرابع الجرمانى ، سنة ١٢١٤ .

***** Fontenoy من اعمال بلييكة حيث هزم البارشال دوساكس الانكليز
والهولنديين في ١١ نوار سنة ١٧٤٥ .

شعار القبعة الابيض . وغدا تريستايون * شهيراً . وظهر رمز *non pluribus impar* كرة اخرى في اشعة واجهة ثكنات الـ «كي دورسيه» .
 فحينما كان من قبل حرس امبراطوري ، كان بيت احمر . وكان قوس كاروسيل ، وقد أثقل بالانتصارات المكسوبة على نحو اخرق ، وأمسى غريباً في هذا العهد الجديد ، وأخذه في اغلب الظن بعض الحجل من مارانغو وآركولا - قد انسلّ من المسألة بتمثال دوق آنغوليم . وكانت جبانة « لا مادلين » ؛ وهي مقبرة عام ٩٣ العمومية ، مغطاة بالرخام واليشب ** ، اذ كان وفات لويس السادس عشر وماري انطوانيت في ذلك الثرى . وفي خندق الـ «فينسين» برز من التربة نصب من انصبة المدافن يعيد الى الذاكرة ان دوق آنغوين *** مات في الشهر نفسه الذي توج خلاله نابوليون . والواقع ان البابا بيوس السابع ، الذي قام بمهمة التكريس هذه ، قبيل وفاته ، قد بارك السقوط في سكون ، كما بارك الصعود . وفي شونبرون كان خيال صغير في الرابعة من عمره ، وكان من الشغب ان ينادى ملك رومة . وانما تمت هذه الاشياء كلها ، وعاد هؤلاء الملوك الى عروشهم ، ووضع سيد اوروبة في قفص ، وامسى النظام Régime القديم هو النظام الجديد ، وغيّر كل ظلام الارض وكل ضياء الارض مكانها ، لانه في اصيل يوم من ايام الصيف قال احد الرعاة لرجل بروسي في غابة : « مُرّ من هنا لا من هناك ! » .

كان عام ١٨١٥ هذا ضرباً من نيسان مظلم . لقد اتخذت الحقائق

* Trestailon احد زعماء المصابات الملكية ، وقد عاث فساداً في ضواحي « نيم » و « اوزيس » .

** اليشب : حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه اصفى منه .

*** Duc d'Enghien (١٧٧٢ - ١٨٠٤) ابن لويس هنري جوزيف ، أمير كونديه ، وقد امر نابوليون به فاقتيد الى باريس وقتل رمياً بالرصاص في فينين .

العتيقة السقيمة السامة ، أشكالاً جديدة . فتروج الكذب ثورة ١٧٨٩ ؛
وتقتع الحق الإلهي بدستور ؛ وأضحت التلفيقات دستورية ؛ واصطنعت
الاحقاد ، والحرافات ، والمواريث ، بفضل المادة ١٤ المشدودة الى القلب ،
طلأ من الحرية . ثعابين تبدل جلودها .

كان نابوليون قد عظم الانسان وصغره في آن معاً : ففي ظل
هذا العهد الماديّ العظيم تلقى المثل الأعلى (Idéal) اسم الايديولوجية
(Idéologie) الغريب . وانما لقلّة نبصر خطيرة ان يعمل رجل عظيم على
نحويل المستقبل الى هزأة . ومع ذلك ، فان الشعوب - هذا الغذاء
الذي يلتهمه المدفع ، والذي هو مولع اعظم الولوع بالمدفعي - راحت
تبحث عنه . أين هو ؟ ماذا يعمل ؟ وقال زائر لأحد مشوّهي مارانفو
وواترلو : « لقد مات نابوليون . فصاح الجندي : « هو قد مات !
أوافق أنت من ذلك ؟ » لقد تحدت الخيالات هذا الرجل المهزوم .
كان قلب أوروبا ، بعد واترلو ، مظلماً ولقد ظل شيء هائل فارغاً ، فترة
طويلة ، بعد زوال نابوليون .

وطرح الملوك انفسهم في هذا الفراغ . وأفادت أوروبا العجوز من
ذلك لكي تتخذ شكلاً جديداً . لقد عقدت تحالفه مقدسة . (Sainte Alliance) *
وكانت ساحة واترلو المشؤومة قد قالت مقدماً « بيل آليانس »
(Belle Alliance) **

وفي حضرة أوروبا هذه العتيقة المجددة ، وتجاهها ، أخذت في الظهور
ملامح فرنسا الجديدة . لقد برز المستقبل الذي كان موضع سخيرة

* هي المحالفة التي عقدت عام ١٨١٥ بين روسيا والنمسا وبروسيا لمواجهة النزعات
التحررية والقومية في إيطاليا والمانيا .

** حيث كان نابوليون على رأس قواته في واترلو . راجع تفصيل مواقع الجند
اثناء هذه المعركة في الفصل الرابع من هذا الكتاب الاول ، وعنوانه (A) .
والتجاور اللفظي واضح بين اسم هذا الموقع La Belle Alliance واسم تلك المحالفة
La Sainte Alliance

الامبراطور . وكان على جبينه هذا النجم - الحرية . وتلفتت نحوه عيون الاجيال الناشئة الملتهبة . ومن عجب ان الناس أولعوا في آن واحد بهذا المستقبل ، الحرية ، وبهذا الماضي ، نابوليون . كانت الهزيمة قد عظمت المغلوب . وبدا نابوليون ، وقد سقط ، أسمى من نابوليون وفي يده مقاليد السلطة . وعصف الذعر بأولئك الذين انتصروا . وفرضت انكسار الحراسة عليه بواسطة هودسون لوف * على حين راقبته فرنسة من خلال « مونشينو » . وأمسك ذراعاه المتصالبان قلقاً للعروش . ودعاه الكسندر ** أرقى . وإنما نشأ هذا الذعر من مقدار الثورة التي انطوى عليها صدره . وهذا هو تفسير النزعة التحررية البونابرتية وعذرها . لقد زلزل هذا الشعب العالم العتيق . ولقد حكم الملوك ، في تضايق ، وصخرة « القديسة هيلانة » تلوح لهم في الافق .

وفيا كان نابوليون يعالج سكرات الموت في لونفوود كان الستون الف رجل الذين صُرعوا في ساحة واترلو يُنتنون في هدوء ، وقد انتشر شيء من سلامهم في العالم . ومنهم صنع مؤتمر فيينا معاهدات ١٨١٥ ، ودعت اوروبا ذلك « العودة الى الاصل » .

تلك هي واترلو .

ولكن ما ضرَّ اللانهاية ؟ إن هذه العاصفة كلها ، هذه السحابة كلها ، هذه الحرب ، ثم هذا السلم ، وهذا الظلام كله لا تخلق لحظة واحدة ضياء تلك العين التي لا حدة لها ، والتي تتساوى أمامها أحقر الحشرات الواثبة من طليعة عشب الى طليعة عشب بالنسر المخلق من برج الى برج في كاتدرائية نوتر دام .

* Hudson Lowe جنرال انكليزي (١٧٦٩ - ١٨٤٤) عمل سجاناً لنابوليون في « سانت هيلانة » وكان قاسياً غير انساني .

** هو الكسندر الاول قيصر روسيا وخضع نابوليون اللدود ، وقد تول الحكم من عام ١٨٠١ - ١٨٢٥

ساحة المعركة ليلاً

لنعدّ ، فتلك ضرورة من ضرورات هذا الكتاب ، الى ساحة القتال المشؤومة .

في ليل ١٨ حزيران ١٨١٥ كان القمر بدرآ . وهذا الضياء ساعد بلوخر على القيام بمطاردته الضارية ، وكشف عن آثار الفارين ، وأسلم هذه الحشود البائسة الى الفرسان البروسيين الظمأى الى الدماء ، ومدّ يد المساعدة الى المجزرة . إن الليل ليقدّم أحياناً مثل هذا الموت الفاجع الى النكبات .

وحين أطلقت آخر قذيفة من قذائف المدفع ظل سهل « مون سان جان » خاوياً .

واحتل الانكليز معسكر الفرنسيين ؛ فلقد جرى العرف بأن يؤكّد النصر بالنوم في سرير المهزوم . وأقاموا معسكرهم الطلق حول روستوم . أما البروسيون ، المتعقبون الفلول المنهزمة مطلقى العنان ، فقد اندفعوا الى أمام . وقصد ولينفتون الى قرية واترلو لينشيء تقريره وبقدمه الى اللورد باثورست .

وإذا كان قولهم *Sic vos non vobis* * قد انطبق في يوم من الايام انطباقاً كاملاً فليس من ريب في أن انطباقه ذاك كان على قرية واترلو هذه . إن واترلو لم تفعل شيئاً ، ولقد ظلت على بُعد نصف فرسخ من القتال . لقد قذفت « مون سان جان » بالمدافع ، وأحرقت هوغومون ، وأحرقت بابلوت ، وأحرقت بلانسوا ، وانتزعت « لا هاي سانت »

* من كلام فيرجيل ، باللاتينية ، ومعناه : « وهكذا تعمل انت وعملك ليس لك » . وقد ذهب مثلاً يصور حالة من يحظى بتعويض أو بشرف هو من حق غيره .

إثر غارة عنيفة ، وشهدت « لا بيل آليانس » التقاء الفاتحين . ومع ذلك فنحن ما نكاد نعرف هذه الاسماء . لقد استبدت واترلو ، التي لم تسهم في المعركة ايّ إسهام ، بالشرف كله .

نحن لسنا من أولئك الذين يجدون الحرب ، وحين تسنح الفرصة ننص على حقائقها . إن للحرب جمالات مروعة لم 'نخفها قط' . ولكن لها ايضاً ، كما ينبغي ان نعترف ، بعض البشاعات . ومن ادعى تلك البشاعات الى الدهش تعرية الموتى ، بعد النصر ، تعرية عاجلة . إن اليوم الذي يلي معركة ما ، يبرز فجراً دائماً على جثث عارية .

من الذي يفعل ذلك ؟ من الذي يدنس النصر على هذا النحو ؟ ما تلك اليد البشعة الحقة التي تنزلق الى جيب النصر ؟ من هم أولئك النشالون الذين يقضون مرادهم ، في جرأة ، إثر المجد ؟ إن بعض الفلاسفة ، وفولتير واحد من هؤلاء ، ليؤكدون أنهم على وجه الضبط أولئك الذين أحرزوا النصر . انهم هم أنفسهم - وفقاً لقول هؤلاء الفلاسفة - فليس ثمة أيما تبديل . إن أولئك الواقفين على أرجلهم هم الذين يسلبون أولئك المنظرين أرضاً . إن بطل النهار هو خفتاش الليل . وعلى أية حال ، فإن للرجل الحق في ان ينهب ، بعض الشيء ، جثة كان هو صانعها .

أما نحن فلسنا نعتقد ذلك . إن جني الغار وسرقة الخداء من رجل ميت يبدوان لنا شيئاً مستحيلاً صدوره عن يد واحدة . هناك أمر واحد لا ريب فيه ، وهو أنه بعد الفاتحين يفدُ اللصوص . ولكن فلنضع الجندي ، وبخاصة الجندي المعاصر ، بعيداً عن هذه التهمة . لكل جيش ذيل ، وهنا ينبغي ان يُحصر الاتهام . خفافيش نصف كل منها قاطع طريق ونصفه الآخر متذلل دنيء ، وجميع ضروب الطير الليلية التي يلدها هذا الفسق الذي ندعوه الحرب ، ولا بسو بذلات عسكرية لم يشتركوا في القتال قط ، ومرضى زائفون ، وعرج مخيفون ، ورجال

مريبون يملكون محلات تباع الاطعمة والاشربة للجنود ويندفعون مع زوجاتهم في بعض الاحيان على عربات صغيرة لكي يسرقوا ما يبيعون ، وشحاذون يقدمون انفسهم كادلاء الى الضباط ، وخدم عاكر ، وسالبو جنود - كل هؤلاء كانوا يتبعون الجيوش الزاحفة في الايام الحالية - فنحن لا نتحدث عن العصر الحاضر - الى درجة تجعلهم يُدعون في اللغة الفنية « الجند المتخلفين » . وما من جيش أو شعب كان مسؤولاً عن هؤلاء المخلوقات . لقد تكلموا الايطالية ولحقوا بالألمان ؛ وتكلموا الفرنسية ولحقوا بالانكليز . وإنما بيد واحد من هؤلاء الجبناء ، وهو « متخلف » اسباني كان يتكلم الفرنسية ، قتل المركيز دو فيرفاك غدراً - وقد خُذع برطاته « البيكاردية »* التي لا تفهم وظنه واحداً من جنودنا - وُسلبَ في ساحة المعركة نفسها خلال الليلة التي عقت انتصار « سيريزول »** ومن سلب الجند نشأ سالبو الجنود . ولقد أحدثت الحكمة البغيضة : عش على عدوك هذا الجذام الذي لا يقوى على شفاة غير نظام قاسٍ . إن ثمة شُهرات خادعة . فنحن لا ندرى دائماً لماذا يتمتع بعض الجنترالات ، برغم انهم كانوا عظاماً ، بشعبية كبيرة . فقد فُتنَ جنود « تورين »*** به لانه كان يميز السلب والنهب ؛ والاذن باقتواف الشر جزء من كرم النفس ؛ ولقد كان تورين كريماً الى درجة أباح معها إضرام النار في « البالاتينات » وإعمال السيف في رؤوس أهلها . وإنما يلحق بالجيوش عدد من « سالي الجند » يقل أو يكثر تبعاً لقسوة القائد

* نسبة الى بيكارديا ، وهي مقاطعة فرنسية قديمة في اقصى الشمال ، وعاصمتها آميان .

** Cériseles قرية ايطالية ، حيث هزم الفرنسيون القوات الاسبانية والامبراطورية

عام ١٥٤٤ .

*** Turenne مارشال فرنسة (١٦١١ - ١٦٧٥) ، وقد اشتهر بفتحه للالزاس

خلال شتاء ١٦٧٥ .

العام أو لينه . فلم يكن لـ « هوش » * و « مارسو » ** جند متخلفون ، ولم يكن عند ولينغتون - ونحن نقرّ له بذلك في سرور - غير عدد قليل منهم .

وعلى أية حال ، ففي ليل الثامن عشر من حزيران سلب الجند . كان ولينغتون قاسياً ، وكان قد أصدر أمره بأن يُقتل أيما رجل يلقى عليه القبض متلبساً بذلك الصنيع . ولكن السلب داء يعسر استئصاله . فقد كان سالبو الجند يسرقون في إحدى زوايا الميدان ، فيما كانوا يُقتلون رمياً بالرصاص في زاوية أخرى . كان القمر « مشؤوماً » فوق هذا السهل .

فحوالى منتصف الليل كان رجل يطوف بطريق أوهين الفاترة ، او يدبّ عليها ، على الاصح . كان مظهره يدل على انه واحد من هؤلاء الذين وصفناهم اللحظة ، ليس بانكليزي ولا فرنسي ، وليس بفلاح ولا جندي . كان غولاً اكثر منه انساناً ، جذبه رائحة الجثث ، وقد حسب السرقة نصراً ، فاقبل ليسلب واترلو . كان يرتدي جلباباً هو ، جزئياً ، بونس عسكري ، وكان قلقاً وجريئاً ، وكان يتقدم الى امام ويتلفت الى وراء . من كان هذا الرجل ؟ لعل الليل عرف أعماله اكثر مما عرفها النهار . ولم يكن عنده جراب ، ولكن كانت له جيوب واسعة من غير شك تحت بونسه . وبين الفينة والفينة كان يتهمل ، ويتأمل السهل من حوله وكأنما كان يريد ان يستيقن من ان احداً لا يراقبه . ثم انحنى فجأة ، وهزّ فوق الارض شيئاً صامتاً لا حراك به ، وبعد ذلك نهض وانسلّ هارباً . لقد كان في اتزلاقه ، وفي ملاعبه ، وفي اياماته السريعة الخفية ما جعله يبدو مثل اشباح الغسق تلك التي

* Hoche جنرال فرنسي (١٧٦٨ - ١٧٩٧) وكان من اعظم وجوه الثورة وأكرمها .

** Marceau جنرال فرنسي (١٧٦٩ - ١٧٩٦)

تألف الخرائب ، والتي كانت الاساطير النورمندية القديمة تدعوها
« الرانجات » .

ان بعض الطيور الليلية المدعوة « طوال الساق » تحدث مثل هذه
الظلال السود في المستنقعات .

ولو قد قدر لعين ان تحترق ، في انتباه ، هذا الضباب كله اذن
لرأت على مسافة ما ، عربية صغيرة من عربات بائعي الاطعمة والاشربة
للجند ، وقد وقفت وكأنها مخبئة خلف البيت الحرب القائم على طريق
فيفيل عند زاوية الطريق من « مون سان جان » الى « برين لالو » .
واذن لرأت ان تلك العربية مغطاة بالصفاف المطلي بالقطران ، وانها
مقرونة الى فرس حقيرة جائعة تقضم القراص من خلال شكيبتها . وفي
هذه العربية كان ضرب من امرأة جالساً على بعض صناديق الامتعة
وبعض الصّرر . ولعله كانت ثمة صلة ما ، بين هذه العربية وذلك الرجل
الطائف بالمكان .

كان الليل صافياً . ولم تكن ثمة سحابة واحدة عند سميت الرأس .
وعلام يستولي الهم على القمر اذا كانت الارض حمراء ؟ انه ليحفظ
بياضه . كذلك هي لا مبالاة السماء . وفي المروج كانت الاغصان
التي كسرتها قذائف المدافع ولكنها لم تسقط بعد ان امسك بها اللحاء ،
تتايل في رفق مع رباح الليل . وحركت نسمته ، تكاد تكون نفساً ،
ذلك الدغل . وكان في العشب ارتعاشات بدأت وكأنها مفارقة الارواح
للاجساد .

وكان ميسوراً ان يُسمع وطء العسس الطائفين بالمعسكر الانكليزي ،
سجماً غامضاً ، في المدى البعيد .

وواصلت النيران التهام « هوغومون » و « لاهاي سانت » محدثة
شعلتين ضخمتين ، احدهما في الشرق ، والاخرى في الغرب ، وقد
انصل بها ، مثل عقد من الباقوت الاحمر منفرد ، في طرفيه الاقصيين

ياقوتتان جريمتان ، شريط نيران المعسكرات الانكليزية القائمة في الهواء
الطلق ، والممتدة في نصف دائرة هائلة فوق كتيبان الافق .
لقد تكلمنا على كارثة طريق اوهين . وان القلب ليكاد يغور ذعراً
لمجرد التفكير في مثل ذلك الموت الذي ألم بهذا العدد كله من الرجال
الشجعان .

واذا كان ثمة شيء مروع ، واذا كان ثمة حقيقة تفوق الاحلام فهي
هذه : ان تعيش ، ان ترى الشمس ، ان تملك القوة الرجولية كلها ،
ان تملك الصحة والبهجة ، ان تضحك في بسالة ، ان تندفع نحو مجد
يدعوك اليه متألقاً باهراً ، ان تحس في صدرك برثة تنفس ، وبقلب
يخفق ، وبارادة تعقل ، ان تتكلم ، ان تفكر ، ان ترجو ، ان تحب ،
ان تكون لك ام ، ان تكون لك زوجة ، ان يكون لك اولاد ،
ان تنعم باشعة الشمس ، ثم تستشعر فجأة ، في لحظة ، في اقل من
دقيقة ، انك تنهار في هوة ، وتسقط ، وتندحرج ، وتسحق ، وتسحق ،
وترى سنابل القمح ، والازهار ، والاوراق ، والاغصان ، وتعجز عن
ان تلمسك بشيء ، وتحس بان حاسمك عديم الجدوى ، وان الرجال
تحتك ، والحيل فوقك ، وان تنتفض ابتغاء المقاومة ولكن عبثاً ، وقد
كسرت عظامك برفسة ما في الظلام ، وان تستشعر عقب قدم تجعل
عينيك تثبان من مجبرهما ، وان تنهش نعال الحبل الحديدية وفي اسنانك
غيظ شديد ، وان تحتنق ، وتعوي ، وتتلوى ، وان تكون تحت هذا
كاه وتقول لنفسك : لقد كنت رجلاً حياً منذ لحظة لبس غير .

هناك ، حيث حشرت هذه الكارثة المحزنة ، كان كل شيء صامتاً
الآن . كان خندق الطريق الفائرة مليئاً بالافراس وبالفرسان وقد
كدسوا على نحو مبهم معقد . تشابك فطيع . ولم يبق ثمة منحدر ؛
فقد جعلته الجثث على مستوى واحد مع السهل وارتفعت الى ضفتي
الطريق مثل مكيال قديم للشعير ، حسن الامتلاء ، مستوي السطح .

حشد من الموتى في القسم الاعلى ، ونهر من الدم في القسم الاسفل -
كذلك كانت هذه الطريق ليل الثامن عشر من حزيران ، عام ١٨١٥ .
وجرى الدم حتى الى طريق نيفيل ، واندفق من هناك في بركة واسعة
امام حطام الاشجار الذي يعترض الطريق ، في نقطة لا تزال تشاهد
الى اليوم . وإنما ألمت الكارثة بالدارعين ، كما نذكر ، عند النقطة المقابلة ،
في اتجاه الطريق المقبلة من جيناب . وتناسبت كثافة ركام الجثث مع
عمق الطريق الفائرة . وحوالى الوسط ، في النقطة التي غدت عندها أقل
عمقاً ، هناك حيث مرّ فصيل دولور ، أصبحت طبقة الموتى أرقّ .

في هذا الاتجاه ، مضى ذلك الطائف الليلي الذي حدثنا القاريء عنه
منذ لحظة . لقد راح ينقّب وسط هذا القبر المائل ؛ واجال بصره في
ما حوله . لقد استعرض الجند الأموات استعراضاً بشعاً الى حد لا
يوصف ؛ ومشى وقدماء تغوصان في الدم .

وفجأة كفّ عن السير .

فعلى بضع خطى امامه ، في الطريق الفائرة ، وفي النقطة التي انتهى
عندها ركام الموتى ، بدت من تحت هذا الحشد من الرجال والخيول يد
مفتوحة اخاءها القمر بشعاعه .

وكان في احدى اصابع هذه اليد شيء يلتمع . كان خاتماً ذهبياً .
وانحنى الرجل ، وظل منحنيّاً لحظة . حتى اذا نهض كرة اخرى لم
يبق ثمة خاتم في تلك اليد .

والحق انه لم ينهض بالمعنى الدقيق . لقد ظلّ في حال شاردة مجفلة ،
موليّاً ظهره ركام الموتى ، دارساً الافق ، راکعاً على ركبتيه ، وقد
استند مقدّم جسمه كله على سبابتيه الاثنتين ، وارتفع رأسه ارتفاعاً
جزئياً يكتنه من اختلاس النظر فوق حافة الطريق الفائرة ليس غير .
إن ارجل ابن آوى الاربع تلامن افعالاً بعينها .
حتى اذا تحير سبيله استوى واقفاً .

وفي تلك اللحظة سرت في جسمه اختلاجة . لقد احسّ ان يدآ كانت
تمسك به من خلاف .

واستدار . كانت اليد المفتوحة ، التي أطبقت ، منشبة بذيل برونه .
ولو قد احسّ رجل فاضل بمثل ذلك اذن لاستبدت به الروع . اما هذا
الرجل فشرع بضحك .
وقال :

- « اوه ، انه الميت ليس غير . انا أوثر رؤية الشبح على رؤية
الدركي » .

وعلى اية حال فقد تراخت اليد وخلت سبيله . إن القوة تنفذ وشيكاً
في القبر .
واضاف المطوف بالليل :

- « آه ها ! أليكون هذا الميت حياً ؟ دعنا نرى » .
وانحنى كرة اخرى ، وبحث في ركام الاجساد ، مزبلاً كل ما كان
يعتوضه . وقبض على اليد ، وامسك بالذراع ، وخلتص الرأس ، وصعب
الجسد . وما هي الا لحظات حتى راح يجرّ في ظلمة الطريق الفاترة
رجلاً فاقد الروح ، او على الاقل ، فاقد الحس . كان دارعاً ، وكان
ضابطاً ، بل كان ضابطاً ذا رتبة ما . وكانت كتافه ذهبية ضخمة تبزو
من تحت درعه ، ولكنه لم يعد يعتمر بخوذة . كانت ضربة سيف ضاربة
قد شوّهت وجهه ، فليس يُرى فيه غير الدم . وفي ما عدا ذلك ، لم
يبدُ ان أياً من اوصاله قد كسرت . وقد شاء حسن الطالع - اذا
كان من الممكن اصطناع هذا التعبير هنا - ان تقوّس الجثث من فوقه
على منحور أنجاء من السحق . كانت عيناه مغمضتين .
وكان معلقاً على درعه صليب « جوقة الشرف » الفضي .
ونزع المطوف بالليل هذا الصليب فاختم في هوّة من تلك الهوى
التي كانت تحت برونه .

وبعد ذلك تلمس جيب الضابط الخاص بالساعة ، فعثر فيه على ساعة ،
فأخرجها . ثم بحث في صدرته فألقى محفظة دراهم فنشلها .
حتى اذا انتهى الى هذه المرحلة من الغوث الذي كان يقدمه الى هذا
الرجل المحتضر ، فتح الضابط عينيه .
وقال في صوت واهن :

- « شكراً » .

كانت خشونة حركات الرجل الذي يلمسه يديه ، وبرودة الليل ،
وتنفس الهواء النقي في حرية ، قد أيقظته من سباته .
ولم 'يجب المطوّف بشيء' . لقد رفع رأسه . وكان في ميسوره ان
يسمع وقع أقدام في السهل ، لعله ان يكون وقع قدمي حارس ليلي
يقرب منه .

وغغم الضابط ، اذ كانت لا تزال في صوته حشجة :

- « من الذي كسب المعركة ؟ »

فاجابه المطوّف :

- « الانكليز » .

واضاف الضابط :

- « ابحث في جيوبي . سوف تجد فيها محفظة دراهم وساعة .

خذهما » .

كان ذلك قد أتمّ من قبل .

وتظاهر المطوّف بتنفيذ الطلب ، ثم قال :

- « ليس هناك شيء » .

فاردف الضابط :

- « لقد سرقوهما مني . أنا آسف . ولولا ذلك لكنا لك » .

وامسى وطء الحارس الليلي واضحاً اكثر فاكثر .

وقال المطوّف ، آتياً بحركة كمحركة من يبغي الانصراف :

- « ها قد اقبلوا » .
- ورفع الضابط نفسه ، في ألم ، معتمداً على احدى ذراعيه ، وامسك به .
- « لقد انقذت حياتي . فمن انت ؟ »
- فأجابه الطائف الليلي في سرعة ، وفي همس :
- « لقد كنت مثلك في الجيش الفرنسي . ينبغي ان اذهب . اذا قبضوا عليّ فسوف يقتلونني رمياً بالرصاص . لقد انقذت حياتك ، فتدبر امرك الآن بنفسك » .
- « ما ربتك ؟ » .
- « رقيب » .
- « وما اسمك ؟ »
- « تينارديه » .
- فقال الضابط :
- « انا لن انسى هذا الاسم ابداً . وانت اذكر اسمي . أنا أدعى بونيرمي » .

الكتاب الثاني

الدارعة «أوريون»

١

رقم ٢٤٦٠١ يصبح رقم ٩٤٣٠

كانت السلطة قد ألقت القبض على جان فالجان ، كرة أخرى .
ولسوف نعدّر لمروونا بالتفاصيل المؤلمة مرآ سريعا ، مجتزئين بأن
ننقل هنا نبذتين ليس غير بما نشرته صحف ذلك العصر بعد الاحداث
الغريبة التي وقعت في مونتري سور مير .
وهاتان المقالتان موجزتان بعض الشيء . ويحسن بالقاريء ان يذكر
ان « صحيفة المحاكم » Gazette des Tribunaux لم تكن قد ظهرت في ذلك
العهد .

ونحن ننسخ المقالة الأولى عن صحيفة « الراية البيضاء » . إنها تحمل
تاريخ الخامس والعشرين من تموز سنة ١٨٢٣ :

« كانت إحدى مقاطعات الـ « با دو كاليه » ، منذ قريب ، مسرح
حادثة نادرة حقاً . ذلك بأن رجلاً غريباً عن المنطقة يُعرف بـ « ميو
مادلين » كان قد أحيا منذ بضع سنوات ، وبفضل بعض الطرائق
المستعثة ، صناعة محلية قديمة ، هي صناعة الحُرز الكهربائي والزجاج
الأسود . وعاد ذلك عليه بثروة كما عاد بثروة أيضاً على المنطقة نفسها .
واعترافاً بخدماته عُين عمدة . ولكن الشرطة اكتشفت ان ميو مادلين
لم يكن غير محكوم عليه بالاشغال الشاقة هارب من العدالة ، وكان قد
أدين سنة ١٧٩٦ بتهمة السرقة ، ويدعى جان فالجان . ولقد أعيد جان
فالجان هذا الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . ويبدو انه قد
وُفق ، قبل اعتقاله ، الى ان يسحب من مصرف لافيت مبلغاً يزيد
على نصف مليون كان قد اودعه هناك وكان قد كسبه ، في ما يقال ،
من صناعته تلك ، على نحو شرعي جداً . ومنذ عودته الى سجن الاشغال
الشاقة في طولون لم يبتدأ احد الى المكان الذي خُبا فيه جان فالجان
هذه الثروة . »

اما المقالة الثانية ، وهي اكثر اسهاباً ، فنترعة من عدد « الجورنال
دو باري » الصادر في التاريخ نفسه :

« لقد سبق محكوم سابق بالاشغال الشاقة الى محكمة الجنايات في
« فار » ، منذ فترة قصيرة ، في ظروف جدية بان تلفت النظر ، فقد كان
هذا الاثيم قد وفق الى الافلات من يقظة الشرطة فغير اسمه ونجح في
حل المسؤولين على تعيينه عمدة لاحدى مدننا الشمالية الصغيرة . ولقد
انشأ في هذه المدينة صناعة زاهرة ، ولكن امره انكشف في النهاية والقي

القبض عليه بفضل نشاط السلطات العامة الذي لا يعرف التعب . وكانت له خلية هي احدى المومسات ، لم تحتل الصدمة فماتت لحظة اعتقاله . والواقع ان هذا الشرير ، الذي مُنح قوة جسدية هرقلية ، وجد سيلاً الى الفرار ، ولكن الشرطة ما لبثت ان اقلت القبض عليه ، بعد ثلاثة ايام او اربعة ايام من هربه ، في باريس نفسها لحظة كان يمتطي متن احدى تلك العربات الصغيرة التي تجوز المسافة ما بين العاصمة وقرية مونفيرماي (سين - ايه - واز) . ويقال بانه أفاد من هذه الايام الثلاثة او الاربعة التي قضاها مطلق السراح ليسحب مبلغاً ضخماً كان قد أودعه أحد مصرفيين الرئيسيين . ويقدر هذا المبلغ بستمئة الف او سبعمئة الف فرنك . ويذهب قرار الاتهام الى انه قد خبأه في موضع لا يعرفه احد غيره ، ولما تمكن السلطة من العثور على ذلك المال حتى الآن . وعلى اية حال ، فان المدعو جان فالجان قد مثل امام محكمة جنابات « قار » لسرقة ارتكبتها في الطريق العام ، والسلاح في يده ، منذ ثماني سنوات تقريباً ، ضد واحد من اولئك الاطفال الطاهرين الذين وصفهم بطريك فيرني بايات خالدة يقول فيها :

« ... القبلين من سافوي كل عام ،

والذين نمتو يدهم في مهارة

تلك القنوات الطويلة المختنقة بالسخام . »

ولم يحاول قاطع الطريق هذا ان يدافع عن نفسه . ولقد اثبت ممثل التاج القدير البليغ ان اشخاصاً آخرين شاركوا في السرقة ، وان جان فالجان عضو في عصابة من عصابات السرقة في الجنوب . وهكذا أعلن جان فالجان مذنباً وصدر الحكم عليه بعقوبة الموت . ورفض هذا المجرم ان يستأنف الحكم لدى الحاكم العليا ، ولكن الملك ، برأفته التي لا تنضب ، تنازل فخفض عقوبته الى الاشغال الشاقة مدى الحياة . وفي الحال ، سيق جان فالجان الى سبعن طولون .

ولن ننسى ان جان فالجان كانت له في مونتروي سور مسير بعض العادات الدينية . وقد اعتبرت بعض الصحف ، وفيها صحيفة « الدستور » ، Le Constitutionnel ، هذا التخفيف نصراً للحزب الاكليركي .

وتغير رقم جان فالجان في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .
ثم صار يدعى ٩٤٣٠

ولنقل هنا ، لكي لا نعود الى ذلك كرة اخرى ، ان ازدهار مونتروي سور مير زال بزوال مسيو مادلين . لقد وقع كل ما كان قد تنبأ بوقوعه في ليلة الحى والتردد تلك ، فما ان ولى هو حتى ولت الروح . فبعد سقوطه تمّ في مونتروي سور مير ذلك التوزيع الاناني لما يتبقى حين يسقط الرجال العظام ، ذلك التجزيء المشؤوم للمؤسسات المزدهرة الذي يجري كل يوم ، على نحو خفي ، في المجتمع البشري والذي لم يلاحظه التاريخ غير مرة واحدة ، لانه لما تمّ بعد موت الاسكندر . فالجنرالات يتوجون انفسهم ملوكاً ، ويحتلّ مقدّمو العمال محلّ رجال الصناعة . ونشأت منافسات تمور بالحسد . واغلقت مصانع مسيو مادلين الرحبة ، وتركزت الابنية للخراب ، ونشئت شمل العمال . لقد غادر بعضهم المنطقة وغادر بعضهم الصناعة . ومن ذلك الحين أنتج كل شيء على نطاق صغير بدلاً من ان يُنتج على نطاق كبير ، وابتغاء الربح لا ابتغاء الخير . لم يكن ثمة مركز ، فالمنافسة في كل مكان والضعفنة كذلك . كانت مسيو مادلين يمين على كل شيء ، ويوجه كل شيء . فلم يكده يسقط حتى فاضل كل امرئ من اجل ذاته . لقد حلت روح الصراع محل روح النظام ، والمحوضة محل المودة ، والبغضاء المتبادلة محل رغبة المؤسس في خير المجموع . لقد تشابكت الحيوط التي نسجها مسيو مادلين وقطعت . وغدت الطرائق زائفة ، والنتاج دوناً . لقد قتلت الثقة ، وتناقص الزبائن ، وقلت الصفقات ، وانخفضت الاجور ، وتبطلت العمال ، واقبل الافلاس . وعندئذ لم يبق شيء للفقراء . لقد احمى كل شيء .

وحتى الدولة لاحظت ان شخصاً قد سحق ، في ناحية ما . ففي أقل من اربع سنوات انقضت على قرار محكمة الجنايات بأن مسيو مادلين هو جان فالجان نفسه ، لمصلحة سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، تضاعفت نفقات جباية الضرائب في مقاطعة مونتروي سور مير . وقد أشار مسيو فيليير الى هذه الحقيقة ، من على منبر المجلس ، في شهر شباط ، عام ١٨٢٧ .

٢

حيث نقرأ يتين من الشعر لعلهما من عمل الشيطان

وقبل ان نمضي الى أبعد بحسن بنا ان نروي ، في شيء من التفصيل ، حادثة فريدة وقعت في الفترة نفسها تقريباً ، في مونفيرماي ، ولعلها ان لا تخلو من توافق مع بعض أحداث السلطات العامة .

إن في منطقة مونفيرماي خرافة عتيقة جداً يزيد بها غرابة ونفاضة أن وجود خرافة شعبية في جوار باريس شبه شيء بشجرة من شجرات الصبر * في سييريا . ونحن لسنا من أولئك الذين يحترمون ايما شيء لجرّد انه نادر . والى القاريء اذن خرافة مونفيرماي هذه : إنهم يعتقدون ، هناك ، أن الشيطان قد اختار الغابة ، منذ الزمان الاقدم ، مكاناً

* ضرب من الزنبقيات يكون على هيئة بقول أو أنجم أو شجيرات كثيرة المعابر ، خضرة ذات ازهار منتعجة متراكمة ، يزرعه اهل الهند الغربية سياجاً للارض وتضع من اليافه جبال أو اقنعة خشنة . ويقصد المؤلف الى القول ان انتشار الخرافة الشعبية في جوار مدينة مثل باريس مستغرب كوجود شجر الصبر في اصقاع باردة مثل سييريا ، لان الصبر من نباتات البلاد الحارة .

يخفي فيه كنوزه . وتؤكد نسوة المنطقة الصالحات انه ليس من النادر ان يلتقي المرء ، عند غروب الشمس ، في المناطق المنعزلة من الغابة ، رجلاً أسود ، يشبه سائق عربة أو خطاباً ، ينتعل حذاء خشبياً ، ويؤدي بنطلوناً وقميصاً من كتان خشن ، ويتميز بأن له على رأسه ، بدلاً من القلنسوة أو القبعة ، قرنين هائلين ، وهذا ما يجعل تعرفه شيئاً يسيراً حقاً . وهذا الرجل مشغول ابدآ في حفر الحُفَر . وهناك ثلاثة مواقف يمكنك أن تتخذها حين تلقاه .

الاول ان تقرب من الرجل وتحدث معه . وعندئذ تدرك ان هذا الرجل ليس غير فلاح ، وأنه يبدو أسود بسبب من الفسق ، وانه لا يحفر أيما حفرة ولكنه يجمع العشب لبقراته لبس غير ، وان ما ظننا قرنين على رأسه ليسا غير مذراة زبل يحملها على ظهره ، وقد بدت أسنانها ، بفضل الفن الذي يصطنعه الليل في رسم المناظر البعيدة ، وكأنها نابتة من رأسه . وتقلب الى بيتك وتقضي نحبك في خلال اسبوع . والثاني ان تراقبه ، وتنتظر حتى يحفر حفرة ، ويعاود ردمها ، ويمضي لسبيله . وعندئذ تعدو في سرعة بالغة الى الحُفَر وتقبُّها من جديد وتُخرج الكنز ، الذي دفنه الرجل الاسود هناك من غير ريب . وفي هذه الحال تتخطفك المنيّة في خلال شهر . والثالث ان لا تتحدث الى الرجل الاسود على الاطلاق ، وان لا تنظر اليه على الاطلاق ، وان تطلق ساقيك للريح بأسرع ما تستطيع . وفي هذه الحال تموت في خلال العام .

واذ كانت لهذه المواقف جميعاً سيئاتها ، فان الموقف الثاني - الذي ينطوي على الاقل على بعض الحسنات من بينها انه يملكك كنزاً ولو مدة شهر واحد فعسب - هو عادةً الموقف الاكثر شيوعاً . ومن هنا ، فان أولي العزم من الرجال ، الذين لا يفوتون فرصة صالحة ، كثيراً ما نبشوا ، كما يؤكد الناس ، تلك الحُفَر التي شقها الرجل الاسود ، وحاولوا ان يسرقوا الشيطان . ويبدو ان هذا الصنيع ليس راجحاً

جداً - على الأقل اذا كان لنا ان نؤمن بالتقاليد ونؤمن بخاصة بيتين من الشعر الملقَّز باللغة اللاتينية البربرية خلتها لنا في هذا الموضوع راهب نورمندي خبيث كان يتعاطى السحر الى حد ما ، واسمه تريفون . وتريفون هذا مدفون في دير «سان جورج دو بوشرفيل» قرب رومان ، ويتولد من ضريحه بعض ضفادع الجبل .

واذن فان الباحث عن الكنز يبذل جهوداً ضخمة ، لأن تلك الحفر عميقة جداً في العادة . إنه يعمق ؛ إنه يحفر ؛ إنه يعمل الليل بطوله لان هذا الصنيع 'يباشر' في ساعات الليل ؛ إنه يبلل قميصه ؛ إنه يستنفد شحمته ؛ انه يتلثم معوله ؛ وعندما ينتهي آخر الامر الى قعر الحفرة ، عندما يضع يده على «الكنز» ، ماذا يجد ؟ ما هو كنز الشيطان هذا ؟ إنه فلس - وفي بعض الاحيان ربال - أو حجر ، أو هيكل عظمي ، أو جثة دامية ، وأحياناً شبح مطويّ أربع طيات مثل ورقة في محفظة ، وأحياناً لا شيء . وذلك ما يُعلنه ، في ما يبدو ، بيتا تريفون ، لقليلي التبصر الفضوليين :

Fodit , et in fossa thesauros condit opaca,

*As , nummos , lapides , cadaver , simulacra , nihilque . **

والذي يبدو ان الباحث عن الكنز ، في عصرنا هذا ، يجد بالإضافة الى ذلك ، قرنَ بارود مع 'كرات' أحياناً ، ومجموعة عتيقة من ورق اللعب الاسمر الشَّحيم كان واضحاً ان الشياطين لعبوا بها ، أحياناً أخرى . ولا يشير تريفون ايما اشارة الى هاتين اللقيتين الاخيرتين ، لانه عاش في القرن الثاني عشر ، وليس يبدو ان الشيطان كان من الذكاء بحيث يخترع البارود قبل روجر بايكون ** وورق اللعب قبل شارل السادس . والى هذا ، فأما امريء يلعب بهذا الورق بخسر ، من غير ريب ،

* وقد فصل المؤلف منهاهما ، كما هو واضح ، في الفقرة السابقة .

** Bacon راهب الكليزي (١٢١٤-١٢٩٢) وكان من اعظم علماء القرون الوسطى .

كل ما يملك . اما البارود الذي في الوعاء فمن خصائصه أنه يفجر بندقيتك في وجهك .

والآن ، وبعد فترة قصيرة انقضت على اعتقاد السلطات ان المحكوم بالاشغال الشاقة المطلق السراح ، جان فالجان ، كان يطوف - خلال فراره الذي دام بضعة ايام - في مونفيرماي ، لوحظ في تلك القرية نفسها أن معبد طرقي عجوزاً يدعى بولاتروويل صار له « ولوع » ، بالغابة . وزعم الناس في ذلك الجوار انهم يعرفون ان بولاتروويل قضى شطراً من حياته في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . كان خاضعاً لمراقبة الشرطة ، واذ لم يجد عملاً في مكان ما ، استخدمته الحكومة براتب منقوص كمعبد للطريق الضيقة بين « غاني » و « لاني » .

وكان بولاتروويل هذا رجلاً ينظر اليه اهل المنطقة شزراً . كانت يوقر الناس اكثر بما ينبغي ، ويتواضع لهم اكثر بما ينبغي ، وكانت يسارع الى نزع قلنسوته لكل انسان . كان يرتجف دائماً ويبتسم دائماً في حضرة رجال الدرك ، ولعله كان على صلة سرية بعصابات اللصوص ، كما تقول الشائعات ، فهو يُتهم بأنه يكمن في زوايا الغابة حين يهبط الليل . ولم يكن ثمة ما هو في مصلحته غير كونه سكيراً .
واليك ما لاحظته اهل المنطقة :

منذ فترة غير بعيدة ، ترك بولاتروويل ، في ساعة مبكرة ، عمله القائم على تقطيع الحجارة وصيانة الطريق ، ومضى الى الغابة حاملاً معوله . وكان الناس يلقونه ، حوالى المساء ، في اقصى بقاع الغابة الجرداء ، وفي اشد الآجام إيجاشاً ، وقد بدت عليه سيما رجل يبحث عن شيء ، وحياناً سيما رجل يحفر 'حفرأ' . وحسبته الندوة الصالحات ، اول الامر ، بيلزيبوت * ، ثم عرفن انه بولاتروويل ، ولم يزدن ذلك اطمئناناً ، على الاطلاق . وبدأ وكأن التقاء الناس للعرضي له بولاتروويل ، كان يُقلقه إقلاقاً كثيراً . كان واضحاً انه كان يحاول

* اسم شيطان ، ويعتبر رئيساً للارواح الشريرة في الكتاب المقدس .

ان يجتبيء ، وان في ما يعمل له لغزاً .

وقالت اشاعات القرية : « من الواضح ان الشيطان قد ظهر ، وان بولاتروويل قد رآه ، فهو يبحث عن كثره . والحق انه هو الرجل المؤهل لسرقة الشيطان » . و اضاف الفولتيريون * قائلين : « أيقبض بولاتروويل على الشيطان أم يقبض الشيطان على بولاتروويل ؟ » واكثرت النسوة العجائز من رسم اشارة الصليب على انفسهن . و ايأ ما كان ، فان زيارات بولاتروويل الى الغابة ما لبثت ان انقطعت ، واستأنف الرجل عمله المعتاد فوق قارعة الطريق . و شرع الناس يتحدثون عن شيء آخر .

بيد أن نفرأ قليلاً احتفظوا بفضولهم ، ذاهبين الى ان المسألة قد تكون منطقية لا على كنوز الخرافة الاسطورية بل على اشياء نصيبها من الجدة والوجود المادي اكبر من نصيب اوراق الشيطان النقدية ، والى ان معبد الطرق قد اكتشف السر ، من غير ريب نصف اكتشاف . وكان اكثرهم « انشغال بال » رجلاًن هما معلم القرية ، وصاحب الفندق تيناردييه الذي كان صديق الجميع ، والذي ما كان يجد غضاضة في ان ينشئ علاقة ودية حتى مع بولاتروويل نفسه .

وقال تيناردييه :

— « لقد كان في سجن الحكموم عليهم بالانشغال الشاقة ؟ إيه ، يا السهي !

إن احداً لا يعرف من هناك ، ومن سيكون هناك . »

وذات مساء لاحظ معلم القرية ان السلطات في العمود القديمة كان خليقاً بها ان لا تهمل التحقيق حول الغاية التي من اجلها ذهب بولاتروويل الى الغابة ، وان بولاتروويل هذا ، لو سلف به الدهر قليلاً ، اذن لا كرهه على ان يتكلم ، واذن لعذب عذاباً شديداً اذا اقتضت الحاجة ذلك ، وان بولاتروويل ما كان ليعتصم بالصمت لو أدخلت مائة المياه في

* نسبة الى فولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير . ويقصد بالفولتيريين : السخرون .

استجوابه ، مثلاً .

وقال تيناردية :

« فلندخل مسألة الحجر في ذلك الاستجواب . »

وهكذا دَعَوَا معبّد الطرق العجوز الى مهرة وألحّا عليه في الشراب . وشرب بولاتروويل كثيراً ، ولكنه تكلم قليلاً . لقد أحسن الجمع ، في فن بارع ونسبة أستاذية ؛ ما بين ظمأ رجل مُسرف في الشراب ، ورصانة قاضٍ . ومع ذلك ، فبإعادة التجربة مراراً ، وبالربط ما بين العبارات الغامضة التي نددت منه وعصرها استنتج تيناردية ومعلم القرية ما يلي :

ذات صباح ، بينا كان بولاتروويل منطلقاً مع الفجر لأداء عمله ، أخذته الدهش اذ رأى في إحدى زوايا الغابة ، تحت دغل من الادغال ، مسجاة ومعولاً ، مخبأين كما قد يقول الموء هناك . بيد أنه ظنهما مسجاة الأب « سيكس فور » ، حمال الماء ، ومعوله فلم يفكر فيهما بعد . ولكنه عاد فرأى في مساء اليوم نفسه ، من غير أن يُرى ، اذ كانت مخبئاً خلف شجرة ضخمة ، « شخصاً ليس من أبناء تلك المنطقة على الإطلاق ، ولكنه هو ، بولاتروويل يعرفه معرفة جيدة » ، او كما ترجمها تيناردية « وفيلاً قديماً من وفاق السجن اغاص بالحكوم عليهم بالاشغال الشاقة » - رأى شخصاً ينعطف من الطريق العام نحو الجزء الأشد كثافة من الغابة . ورفض بولاتروويل ، في غناد ، ان يذكر اسم الرجل الغريب . وكان هذا الشخص يحمل رزمة ، شُبّاً مربعاً مثل صندوق كبير أو وعاء امتعة صغير . وُدْهش بولاتروويل ، وعلى أية حال ، فقد انقضت سبع دقائق او ثمانين دقائق قبل ان يخطر له ان ينعقب « الشخص » . ولكن الاوان كان قد فات . كان الشخص قد انتهى الى الأجرة ، وكان الليل قد هبط ، ولم يوفق بولاتروويل الى ادراكه . وهكذا عقد النية على ان يراقب حواشي الغابة . « كانت

الليلة مقبوة » ، وبعد ساعتين او ثلاث ساعات رأى بولاتروويل هذ
 الشخص ينبثق كرة اخرى من الغابة ، غير حامل هذه المرة صندوق
 الامتعة الصغير ذاك ، ولكن معولاً ومسحاة . وتركه بولاتروويل يمر
 ولم يخطر له ان يعترض سبيله قط ، لانه قال في ذات نفسه ان لذلك
 الشخص من القوة ثلاثة اضعاف ما له هو ، وانه مسلح بمعول ، وانه
 سوف يقتله في اغلب الظن اذا ما عرفه ، واذا ادرك الغريب ان امره
 قد انكشف . يا لها عاطفة جياشة تندفق في صدري رفيقين قديمين التقيا
 على غير موعد ! ولكن المعول والمسحاة كانا شعاعاً من النور في نظر
 بولاتروويل . فسارع الى الادغال ، عند منبج الصبح ، ولكنه لم يجد
 لا المعول ولا المسحاة . ومن هنا استنتج ان هذا الشخص حفر ، حين دخل
 الغابة ، حفرة بمعوله ، ودفن الصندوق في تلك الحفرة ، ثم عاود ردمها
 بمسحاته . واذا كان الصندوق اصغر من ان يحتوي على جثة ، فلا بد
 انه ينطوي على مال . ومن هنا بحثه المتواصل . وراد بولاتروويل
 الغابة كلها ، وسبر غورها ، وبحث فيها بكل دقة ، ونقب الارض
 حيثما بدت له مقلوقة منذ قريب . ولكن على غير طائل .
 انه لم يعثر على شيء . ولم يعد احد يفكر بذلك ، في مونفيرماي .
 ولكن بعض النسوة الثرثارات الصالحات ظللن يقلن : « كونوا على ثقة
 من ان معبد طريق غاني لم يحدث كل هذه الضجة للشيء . لقد كان
 للشيطان هناك ، من غير ويب » .

وفيه يظهر ان سلسلة الطوق الحديدي لا بد ان تكون
قد خضعت لعمل إعدادي ما لكي تنكسر
على هذا النحو بضربة مطرقة

وفي اواخر تشرين الاول ، من العام نفسه ، ١٨٢٣ ، رأى سكان
طولون السفينة أوريون تعود الى مرفأهم ، بسبب العواصف الشديدة
وابتغاء إصلاح بعض الحلل الذي أصابها ، وكانت تلك السفينة - التي
استخدمت بعد في برست مركباً للتدريب - تؤلف آنذاك جزءاً من
اسطول البحر الابيض المتوسط .

والواقع ان هذه السفينة ، برغم ما ألمّ بها من 'كساح نتيجة' لخاشنة
البحر لها ، أثارت هزةً من الفضول والاهتمام عند دخولها المرسى .
وكانت ترفع علماً لست ادري ما هو على التحقيق ، ولكنه أهلها
لترحيب نظامي يتألف من احدى عشرة طلقة ، ردّت عليها واحدة
واحدة ، فاذا المجموع اثنتان وعشرون طلقة . ولقد قدّر المقدرون
ان العالم المتمدن ، في كل رجا من ارجاء الكرة الارضية ، يطلق كل
اربع وعشرين ساعة ، مئة وخمسين الف طلقة مدفوع غير مجدية تهدر
على التحيات والمجاملات الملكية والعسكرية ، وتبادل الصخب الملائف ،
وايماءات اللياقة ، وشكليات المرافىء والحصون ، وبزوغ الشمس وغروبها
الذين تحييهما كل يوم جميع القلاع والسفن الحربية ، وفتح الموانئ
واغلاقها ، الخ ... الخ ... فاذا كان ثمن الطلقة الواحدة ستة فرنكات بلغت
نفقات ذلك تسعمئة الف فرنك يومياً ، او ثلاثمئة مليون فرنك سنوياً
تذهب دخاناً . وليس ذلك غير بندٍ واحد . وفي الوقت نفسه يموت

الفقراء جوعاً .

وكانت سنة ١٨٢٣ هي السنة التي دعاها عصر عودة آل بوربون الى الحكم « عهد الحرب الاسبانية » .

وانتظمت تلك الحرب عدة حوادث في واحدة ، وعدداً غير يسير من الفرائد . كانت قضية عائلية كبرى من قضايا آل بوربون ؛ كان الفرع الفرنسي يساعد ويحمي فرع مدريد ، يعني انه كان يقوم بالواجب المفروض على الأرشد ؛ ولقد عدنا عودة ظاهرية الى تقاليدنا الوطنية ، بمزوجة بالعبودية والخضوع لوزارات الشمال ؛ وكان دوق أنغوليم ، الذي خلعت عليه الصحف التحررية لقب « بطل آندوجار » ، يقيم ، في ملكه مظفر يتناقض بعض الشيء مع نزعة السلمية ، الارهاب القديم الواقعي الى ابعاد الحدود الذي فرضه « المكتب المقدس » ، المعادي لأرهاب الاحرار الوهمي ؛ وبُعثت جماعة اللاسراويل ** ، وبالدعوى الارامل ذوات الصداق ، تحت اسم الـ *descamisados* *** ؛ ووضع الملكيون المراقيل في طريق التقدم الذي نعتوه بالفوضوية ، واعترضت نظريات ٨٩ *** على نحو خشن ، وهي تتخذ سبيلها المقوقض ؛ وطاف أمرٌ أوروبي بالوقوف ، موجه الى الفكرة الفرنسية الخاصة بالثورة ، حول الكرة الارضية ؛ وإلى جانب ابن فرنسا ، الجنرال الأعظم ، انضوى البرنس دو كارينيان ، الذي أمسى في مابعد شارل آلير **** ، تحت لواء صليبية الملوك هذه ضد

* Saint - office ويقصد به ديوان التفتيش . وقد اطلق هذا الاسم في الاصل على ديوان التفتيش الذي اقيم في رومة ، وهو الذي حكم على غاليليو بالموت .

** Sans - culottes وهو لقب الذي خلعه الارستوقراطيون حوالى عام ١٧٩٢ ، على رجال الثورة الذين استعاضوا عن السروال القصير (الكولوت) بالبطلون .

*** تعبير اسباني معناه « الذين لا قصان لهم » . وقد اطلق على جماعة من الثائرين الاسبان . والكلمة كما ترى عربية الاصل تتألف من اداة النفي (des) وكلمة « قيس » على صورة معرفة . **** يقصد النظريات التي قالت بها الثورة (١٧٨٩)

***** Charles - Albert (١٧٩٨ - ١٨٤٩) امير من اسرة Carignan ، وهي فرع من اسرة سافوا ، تولى عرش سردينية عام ١٨٣١ وانتد لومباردية من رتبة النمساويين ، ثم هزمه النمساويون ، عام ١٨٤٩ ، وتنازل عن العرش لابنه عمانويل الثاني .

الشعوب بوصفه متطوعاً يحمل كتافتي رامي قنابل مصنوعتين من صوف أحمر ؛ واستأنف جنود الامبراطورية خوص المعارك ، ولكنهم كانوا بعد ثماني سنوات من الراحة قد شاخوا واكتأبوا وطوقوا قبعاتهم بالعصابة البيضاء ؛ ورُفرف العلم المثلث الالوان في الديار الاجنبية بأيدي حفنة من الفرنسيين البواسل ، كما رُفرف العلم الابيض * في كوبلنتز** قبل ثلاثين عاماً ؛ واختلط الرهبان بجنودنا ؛ وقهرت روح الحرية والتجدد برووس الحراب ؛ وأذلت المباديء بطلقات المدافع ؛ ونقضت فرنسا سلاحها ما كانت قد فعلته بروحها . والى هذا ، فقد كان زعماء العدو قد باعوا أنفسهم ، وكانت قواتهم مترددة ، وكانت المدن تُحاصر بالملايين من الفرنكات ؛ ولم يكن ثمة أخطار عسكرية ، ومع ذلك فقد كانت الانفجارات ممكنة ، شأن كل منجم يُقتمهم ويُجتل على حين غرة . ولم يُسفع غير قليل من الدم ، ولكن قليلاً من الشرف قد كُتب . وسربل العار قلة قليلة ، ولكن المجد لم يكن من نصيب أحد . هكذا كانت هذه الحرب التي شنها امراء تحدروا من لويس الرابع عشر ، وقادها جنرالات انبثقوا من نابوليون . لقد كانت ذات مصير نفس ، فهي لا تُدعى حرباً كبيرة ، ولا تدعى سياسة كبيرة . وكانت بعض أحداث الحرب جدية . فالاستيلاء على تروكاديرو ، كان بالإضافة الى غيره من الاحداث ، عملاً عسكرياً موفقاً . ولكننا نكرر القول ان ابواق تلك الحرب ، اذا نُظر اليها جملة ، كانت تطلق صوتاً متصدعاً ، وان هيئتها العامة كانت مريية ، وان التاريخ يقرّ نفرة فرنسا من الاعتراف بابوتها لهذا النصر الزائف . ولقد بدا واضحاً ان

* هو العلم الملكي ، أما العلم المثلث الالوان فهو علم الثورة كما لا يخفى .

** Coblantz مدينة المانية تجمع فيها عام ١٧٩٢ النبلاء المهاجرون وانشأوا ما يسمون بجيش كونديه l'armée de Condé

بعض الضباط الاسبان المكلفين بالمقاومة استسلموا بأكثر مما ينبغي من اليسر ، وأن فكرة الرشوة انبعثت من فضل تفكير بالنصر . وتراءى وكان الجنرالات هم الذين كُسبوا ، لا المارك ؛ وان الجندي المنتصر قد رجع ذليلاً مهيناً . كانت حرباً متضائلة حقاً ، في ميسورك ان تقرأ عبارة « بنك فونسة » على طيات رايتها .

وقطب جنود حرب عام ١٨٠٨ ، الذين انهارت سرقطة تحت اقدامهم ذلك الانهيار الهائل ، لاستسلام الحصون على هذا النحو السهل عام ١٨٢٣ ، وتحسروا على بالافوكس * . إن مزاج فرنسة هو الذي يجعلها تؤثر ان تجد أمامها رجلاً مثل « روستوبشين » ، لا رجلاً مثل « بالتسيروس » ***

ومن جهة نظر أشدّ خطورة أيضاً - وجهة نظر يحسن بنا أن نؤكددها - أثارت هذه الحرب ، التي حطمت روح فرنسة العسكرية ، سخطَ الروح الديموقراطية . كانت مشروع إخضاع . ففي هذه الحملة ، كان هدف الجندي الفرنسي ، ابن الديموقراطية ، أن يفوز بنير يُثقل به أعناق الآخرين . تناقض مخيف . لقد وجدت فرنسة لكي توظف روح الشعوب ، لا لكي تخضعها . فند عام ١٧٩٢ لم تكن جميع ثورات اوروبة شيئاً غير الثورة الفرنسية ؛ كانت الحرية تشع من كل رجاً من ارجاء فرنسة . تلك حقيقة ساطعة سطوع الشمس في رابعة النهار . وأسمى هو الذي لا يراها ! إن بوناپرت هو الذي قالها .

وإذن فقد كانت حرب عام ١٨٢٣ - وهي اعتداء على الامة الاسبانية النجبية - اعتداء على الثورة الفرنسية في الوقت نفسه . كانت

* Palafox دوق سرقطة (١٧٨٠ - ١٨٤٧) وقد دافع دفاعاً باسلاً عن سرقطة عام ١٨٠٩ .

** Rostopchine رجل دولة روسي (١٧٦٣ - ١٨٢٦) كان حاكم موسكو عام ١٨١٢ وقد أمر باحراق المدينة عند دخول الفرنسيين اليها .

*** Ballesteros جنرال اسباني (١٧٧٠ - ١٨٣٢)

فرنسة هي التي اقترفت صنيع العنف الهائل هذا ، ولكن مكرهة .
لانه ، باستثناء حروب التحرير ، تعمل الجيوش كل ما تعمله من طريق
الاكراه . إن كلمتي الطاعة العمياء لتشيران الى ذلك . والحق ان
الجيش رائعة عجيبة من روائع التآلف ، حيث تكون القوة ثمرة مجموع
هائل من الضعف . وهكذا نستطيع ان نقرر الحرب التي تشنها الانسانية
ضد الانسانية على الرغم من الانسانية .

وقبلا يتصل بآل بوربون ، كانت الحرب وبالأعلى عليهم . لقد اعتبروها
نجاحاً . انهم لم يروا قط اي خطر يكمن في محاولة قتل فكرة بأمر
عسكري . لقد زلّوا ، بذاجتهم ، الى حد جعلهم يدخلون الى
كيانهم ، وكأنه عنصر قوة ، ذلك الوهن الهائل الناشئ عن ارتكاب
جريمة . لقد تسربت روح التورّد ونصب الأشرار الى سياستهم . إن
بذرة عام ١٨٣٠ * كانت كامنة في عام ١٨٢٣ . فقد غدت الحملة
الاسبانية ، في مجالسهم ، حجة لانتخاذ اجراءات العنف ، ولجك المؤامرات
تدعياً للحق الالهي . وفرنسة ، وقد وفقت الى اعادة الملك المستبد
الى اسبانية ، خليفة بأن لا تعجز عن اعادة الملكية المطلقة الى ديارها
هي . لقد وقعوا في هذه الغلطة الرهيبة وهي أنهم توهموا أن خضوع
الجندي يعني موافقة الامة . وهذا الهم يهدم العروش . يجب ان لا
ينام المرء ، لا في ظل شجرة من شجرات الاوباس** ، ولا في ظل
جيش من الجيوش .

ولكن فلنعد الى السفينة « اوربون » .

في اثناء العمليات التي قام بها جيش الامير القائد الأعلى ، كان
اسطول بحري يطوف في مياه البحر الابيض المتوسط . ولقد سبق

* هو العام الذي نشبت فيه الثورة ضد الملك شارل العاشر ، فخلع عن العرش
وحل محله لويس فيليب .

** شجرة تنمو في الهند وهي ذات عصير سام .

منا القول إن السفينة و أوريون ، كانت جزءاً من هذا الاسطول ،
وان تلاطم الامواج أكرهها على العودة الى مرفأ طولون .

إن في وجود سفينة حربية في مرفأ ما شيئاً خفياً يجذب الجماهير ويشير
فضولهم . ومرد ذلك الى انها ضخمة ، والجماهير تحب كل ما هو ضخم .

والحق ان الدارعة مظهر من مظاهر الصراع بين العبقريّة الانسانية
دقوى الطبيعة .

إن الدارعة لتتألف من اشد المواد ثقلاً ، ومن اكثرها خفة في
وقت معاً ، لان عليها ان تقاوم ، في الوقت نفسه ، اشكال المادة
الثلاثة : الجامد ، والسائل ، والمائع . ان لها احد عشر غلباً حديدياً
لتنشبت بالصخر في اعماق البحر ، واجنحة وقروناً تزيد على عدد اجنحة
الفراشة وقرونها لكي تلتقط النسيم في السحب . وان نفسها لينطلق من
خلال مدافعها المئة والعشرين وكأنه ينطلق من ابواب ضخام ، ويرد في
زهو على الصاعقة . ويناضل الاوقيانوس لكي يضلها في تشابه امواجه
المروّج ، ولكن للدارعة بوصلتها ، التي هي روحها ، فهي ترشدها
أبدأ وتدها ابدأ على الشال . وفي الليالي الظلماء تحل فوانيسها محل
النجوم . وهكذا فأنها تكافح الريح بالحبال والنسيج القوي ، وتكافح
الماء بالحشب ، وتكافح الصخر بالحديد والنحاس والرصاص ، وتكافح
الظلام بالنور ، وتكافح لانهاية البحر بأبرة .

وليس علينا لكي نكون فكرة عن هذه الابعاد الهائلة كلها التي
يكون مجموعها دارعة من الدوارع إلا ان نمرّ تحت مصنع من مصانع
السفن المنيقة ذات الادوار الستة ، في مرفأ بوسن ، أو مرفأ طولون .
إن السفن الجاري انشاؤها لثرى هناك تحت صناديق زجاجية ، إذا جاز
التعبير . فهذه العارضة الخشبية الهائلة هي عارضة الصاري ، وهذا العمود
الخشبي الضخم ، المنطرح على الارض والممتد الى ابعد من مدى البصر

هو الصاري الرئيسي ، ولو قد اعتبرته من جذره القائم في القعر الى رأسه الضارب في السحاب اذن لظهر لك ان ارتفاعه يبلغ ستين قامة ، وان محيطه عند قاعدته يبلغ ثلاثة اقدام . ويرتفع الصاري الرئيسي الانكليزي مئتين وسبعة عشر قدماً فوق خط العوُم . ولقد كانت اساطيل اجدادنا تستعمل الجبال ، اما اساطيلنا فتستعمل السلاسل . والواقع ان لفّة السلاسل الخاصة بدارعة ذات مئة مدفع تبلغ اربعة اقدام طولاً ، وعشرين قدماً عرضاً ، وثمانية اقدام عمقاً . ومن اجل انشاء مثل هذه الدارعة ، ما مقدار الحطب الذي نحتاج اليه ؟ ثلاثة آلاف متر مكعب . إنها غابة تطفو على وجه الماء .

ومع ذلك فينبغي ان نذكر جيداً اننا لا نتحدث هنا الا عن السفينة الحربية كما كانت منذ اربعين سنة ، عن السفينة الشراعية البسيطة ، ذلك بان البخار - وكان آنذاك في طفولته - قد اضاف منذ ذلك الحين ، عجائب جديدة الى هذه المعجزة التي ندعوها البارجة الحربية . فني ايامنا هذه مثلاً ، نجد ان البارجة المختلطة ذات المروحة جهاز آلي مدعش تسوقه قطعة من قماش قطني تبلغ مساحة سطحها ثلاثة آلاف متر مربع ، ومولد بخاري قوته الفان وخمسة حسان .

ومن غير ان نتحدث عن هذه العجائب الجديدة ، نستطيع ان نقول ان سفينة لا كريستوف كولومبوس ، و « رويتر » * العتيقة هي رائدة من روائع الانسان الكهري . إن قوتها لا تنضب شأن انفاث الانهابة . إنها تحتزن الريح في شراعها ، وانما لراسخة وسط اختلاط الامواج المائل . إنها تطفو وتميمن .

ولكن ثمة لحظات تحطم فيها العاصفة عارضة الصاري البالغ طولها ستين قدماً كما تحطم القشة ، وتلوي فيها الريح ذلك الصاري البالغ

* Ruyter اميرال هولندي (١٦٠٧ - ١٦٧٦) جرت بينه وبين الاميرال الفرنسي دوكين Duquesne موقعة شهيرة ، في سيراكيوس ، وقد مات على اثرها .

طوله اربعة مئة قدم كما تلوى القصة ، وتفتل فيها تلك المرساة التي
ترن أطناناً في شدة الامواج كما ينقتل شمس الصياد بين فكي سمكة
من سمك الكراكي ، وتطلق فيها تلك المدافع الجبارة زجرات نائمة غير
مجدية تقذف بها العاصفة الى الفراغ والى الليل ، وتفرق فيها كل تلك
القوة وكل تلك الجلالة في قوة اعظم وجلالة اسمى .

وكما أبرزت قوة هائلة لتنتهي الى ضعف هائل تقف عقول الرجال
متأمة . ومن هنا يجتشد اولئك الفضوليون في المرايا - من غير ان
يعلموا هم انفسهم لماذا على وجه الدقة - حول ادوات الحرب والملاحاة
الرائعة هذه .

واذن ، فكل يوم ، من الصباح حتى الماء ، كانت ارضة مرفأ
طولون تقطى بجهد من العاطلين والمضيعين اوقاتهم - كما يقولون في
باريس - وليس لهم من عمل غير النظر الى « اوريون » .

وكانت « اوريون » سفينة مريضة منذ عهد بعيد . ففي رحلاتها
السالفة كانت طبقات كثيفة من الحار قد تراكت على قعرها الى درجة
جعلتها تفقد نصف سرعتها . وكانت قد وضعت في للعام الماضي ، في
حوض التويم الجاف كي تكشف طبقات الحار عنها ، ثم انطلقت نحو
البحر من جديد . ولكن هذا الكشف كان قد آذى مثبتات قعرها .

وعند خط عرض جزائر الباليار كانت ألواحها قد وهنت وانفجرت .
واذ لم يكن تغليف قاع للسفينة الخارجي بالنحاس معروفاً آنذاك ، فقد
اخذت المياه تتسرب اليها ، واصابتها على نحو مفاجيء ضربة عنيفة من
الاعتدال الفلكي نزع أقواس جانبها الأيسر واحدى كوى مدافعها
وعطبت حامل حبل الصاري الامامي . وبعد ان مُنيت « اوريون »
بهذا الاذى كله ، أعيدت الى طولون .

وأقيمت مرساتها قرب دار الصناعة . كانت مسلحة ، وكانوا يصلحونها .
ولم يكن هيكल السفينة قد أُوذي من المينة ، ولكن بضعة ألواح

كانت قد نزلت هنا وهناك ، وفقاً للعادة ، لتمكين الهواء من الدخول الى هيكلها .

وذات صباح شهد الحشد الذي كان يجتمع اليها حدثاً .

كان الملاحون منهمكين في شدّ الاشرعة الى الصواري . واذا بنفسي الصواري - المكلف بتناول الزاوية العليا من شراع الصاري الأعظم القائم في ميناء السفينة - يفقد توازنه . وراه القوم يترنح ، وأطلقت الحشود المجتمعة فوق رصيف دار الصناعة صيحةً ، ورجع رأس الرجل جسده ، وانتقل حول عارضة الصاري ، وقد انبسط يده نحو الاماكن . وفيما هو يهوي تعلق بالمرقاة الزائفة باحدى يديه ، اولاً ، ثم بيده الاخرى ، وظل متديلاً على هذا النحر . وكان البحر ينبسط تحته على عمق يوقع الدوار في الرأس . واثارت صدمة سقوطه حركة عنيفة في المرقاة الزائفة كحركة الاراجيح . وتأرجع الرجل ، بقطعة الحبل هذه ، ذات اليمين وذات الشمال ، مثل حجر مقلع .

وكان الاندفاع الى نجده ينطوي على مجازفة مروعة . ولم يجرؤ احد من الملاحين -- وكانوا كلهم من صيادي الشاطيء الداخلين حديثاً في خدمة الاسطول - على القيام بهذه المحاولة . وفي غضون ذلك كان خفيّر الصواري المسكين قد خارت قواه . لم يكن في ميسور المرء ان يلحظ حشرجه واضعةً على اساور وجهه ، ولكن انهيار قواه المتعاطم كان 'يلحظ في حركات اوصاله جميعاً . وتوترت ذراعه في التواءات رهيبه . ولم تؤدّ كل محاولة قام بها للصعود من جديد إلا الى امعان المرقاة الزائفة في التأرجح . ولم يصرخ قط خشيّة ان يفقد قوته . وكان القوم كلهم يرتقبون الدقيقة التي يُفلت فيها الحبل ، وفي بعض اللحظات أشاحوا جميعاً بوجوههم لكي لا يروا اليه وهو يهوي . إن ثمة لحظات تكون فيها قطعة الحبل ، والعصا الطويلة ، وغصن للشجرة هي الحياة نفسها ،

ولأنه شيء رهيب ان يرى المرء الى كائن حيّ ينفصل عنها ويسقط مثل
ثمرة يانعة .

وفجأة بصّر القوم برجل ينسلق حبال الدارعة بخفة سنّور بري .
وكان هذا الرجل يرتدي ثوباً أحمر ؛ كان محكوماً عليه بالاشتغال الشاقة .
وكان يعتبر بقلنسوة خضراء ؛ كان محكوماً عليه بالاشتغال الشاقة
مدى الحياة . حتى اذا انتهى الى سطح أعلى الصاري أطارت الريح
قلنسوته ، وكشفت عن رأس أشيب كله . إنه لم يكن شاباً .

والواقع ان احد المحكوم عليهم بالاشتغال الشاقة المكلفين بالقيام
فوق ظهر تلك الدارعة بمهمة من مهام السجن كان قد هرع ، منذ
اللحظة الاولى ، الى ضابط الحراسة . وفي غمرة اضطراب النوبة وترددهم ،
حين كان جميع الملاحين يرتعدون وينكصون على اعقابهم ، سأل الضابط
ان يأذن له بالمغامرة بجياته لكي يتقد خفير الصواري . واذا اوماً الضابط
له ايماءة ايجابية ، كسر بضربة مطرقة السلسلة التي تطوّق مفصل عقب رجله .
ثم تناول حبالاً ، ووثب الى حبال الصاري . ولم يلاحظ احد ، في
تلك اللحظة ، بأية سهولة كسرت السلسلة . إنهم لم يتذكروا ذلك إلا
في ما بعد .

وفي طريقة عين انتهى الى عارضة الصاري . وغفل بضع ثوان ، وبدا
وكأنه يقيسها بنظرة منه . وتراءت هذه الثواني التي كانت الريح خلالها
تؤرجع خفير الصواري ذات اليمين وذات اليسار عند جبل من الجبال -
وكانها اجيال في أعين المشاهدين . واخيراً ، رفع المحكوم عليه بالاعدام
عينيه نحو السماء ، وخطا خطوة الى أمام . واخذ الحشد نفساً طويلاً .
لقد رأوه يجتاز عارضة الصاري راحضاً . حتى اذا انتهى الى اقصاها
عقد هناك احد طرفي الحبل الذي كان قد جاء به ، وترك طرفه
الآخر يتدلى على مداه ، ثم راح يحيط ويداه منشيتان بذلك الحبل .

وعندئذ استبدت بالقوم موجة من الذعر تجلّ عن الوصف . لقد رأوا رجلين اثنين ، بدلاً من رجل واحد ، يتدليان فوق اللجة .

كان في ميسور المرء ان يقول إنها عنكبوت تنفض على ذبابة ، لولا ان العنكبوت هنا كانت تحمل الحياة لا الموت . ومُتمرت عشرة آلاف عين على هذين الرجلين . فلا صيحة ، ولا كلمة . لقد غصن الانفعال نفسه جميع الجباه . وجلس كل امريء أنفاسه ، وكأنما كان يحشى ان يُمدّ الريح التي كانت تؤرجح الرجلين البائسين بأقل النفثات .

بيد أن المحكوم عليه بالاشغال الشاقة وفق ، آخر الامر ، الى ان يشق طريقه نحو الملاح . وكان ذلك في الوقت المناسب ، فلو انه تأخر دقيقة إضافية لاذن لكان الرجل قد هوى الى اعماق البحر يائساً ناضب القوى . وشده المحكوم عليه بالاشغال الشاقة شداً محكماً الى الحبل ، وكان يتشبث به بأحدى يديه ، ويعمل بالآخرى . وأخيراً ، رئي يعاود الصعود الى عارضة الصاري ويسحب الملاح خلفه . وأسند هناك ، لحظة ، لكي يمكنه من استعادة قواه ، ثم رفعه بين ذراعيه ، وحمله فيها هو يجتاز عارضة الصاري الى العارضة التي تصل ما بين الصاري الكبير والصاري الصغير ، ومن هناك الى سطح اعلى الصاري حيث تركه بين ايدي رفاقه .

في تلك اللحظة صفق الحشد ؛ وبكى رقباء سجن الاشغال الشاقة الشيوخ ، وتعانقت النسوة فوق ارضية الميناء ، ومُسمت جميع الاصوات تصيح بضرب من الحماسة المكبوحة في رفق :

— « هذا الرجل يجب ان يُغفر له ! »

أما هو فقد جعل من واجبه أن يعاود الهبوط ، في الحال ، ويستأنف عمله . ولكي يصل على نحو أسرع أنشأ ينزلق على الحبل ، وراح يعدو على عارضة منخفضة من عوارض الصاري . وتبعته العيون كلها . وانقضت لحظة استبدت الذعر خلافاً للمشاهدين جميعاً . وسواء

أكان ذلك لأحاسسه بالتعب ، أم لأن الدوار عصف برأسه ، فقد اعتقد القوم أنهم رأوه يتردد ويترنح . وفجأة أطلق الحشد صيحة مدوية : كان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة قد سقط في البحر .

وكان السقوط مهلكاً . فقد كانت البارجة « الجزيرة » L'Algésiras راسية قرب ال « أوريون » ، ولقد غاص السجين البائس بين البارجتين . وخشي القوم ان يغرق تحت واحدة منها . ووثب اربعة رجال ، في وقت معاً ، الى مركب . وشجعهم القوم ، وغلب القلق ، كرة أخرى ، على النفوس جميعاً . ولم يكن الرجل قد ارتفع الى سطح الماء ، من جديد . كان قد اختفى في البحر من غير ان يفضن صفحة الماء ، فكأنه إنما سقط في برميل زيت . وسبروا غور المكان ، وغاصوا الى الأعماق . ولكن على غير طائل . وواصلوا البحث الى ان هبط الليل . ولكنهم لم يعثروا حتى على الجثة .

وفي صباح اليوم التالي نشرت « صحيفة طولون » الاسطر التالية : « ١٧ تشرين الثاني ، ١٨٢٣ - أمس فيما كان أحد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة العاملين على ظهر ال « أوريون » عائداً الى عمله بعد ان انتقذ حياة احد الملاحين ، سقط في البحر فغرق . ولم يُعثَر على جثته قط . ويُفترض أنه علق تحت الاوتاد الفارزة في الماء عند مقدم دار للصناعة . كان هذا الرجل مسجلاً تحت رقم ٩٤٣٠ ، وكان يدعى جان فالجان . »

الكتاب الثالث

الوفاء بالعهد المقطوع للراحلة

مسألة المياه في مونفيرماي

تقع مونفيرماي بين « ليفري » و « شيل » على المنحدر الجنوبي من ذلك النجد العالي الذي يفصل الـ « أورك » عن الـ « مارن » .
لأنها اليوم بلدة كبيرة تزدهر طوال العام بدارات (فيلات) من جبس ، وفي يوم الاحد ، بمواطنين تطفو على وجوههم نضرة النعيم .
أما عام ١٨٢٣ فلم يكن في مونفيرماي لا هذه الكثرة من البيوت البيضاء ، ولا هذه الكثرة من المواطنين الناعمين . إنما لم تكن غير قرية في الغابات . والواقع أنك كنت تجد فيها هنا وهناك متنزهات من القرن

الماضي تمتاز بمظهرها الضخم ، وشرفاتها ذات الحديد المألوي ، وبذلك النوافذ الطويلة التي كانت ألواحها الزجاجية الصغيرة تبدي على بياض مصاريعها الموصدة جميع ضروب الاخضرار المختلفة . ولكن مونفيرماي ظلت برغم ذلك كله قرية . ان تجار المنوجات المتقاعدين والقرويين الهواة لم يكونوا قد اكتشفوها بعد . كانت بقعة آمنة فاتنة ، ولم تكن تقع على الطريق الى بلد ما . كان اهلها بحيون ، بثمان بجس ، تلك الحياة الريفية البالغة الحصب ، والبالغة البسر . ولكن المياه كانت نادرة هناك بسبب من ارتفاع النجد .

كان يتعين عليهم ان يجتازوا مسافة غير قصيرة التماساً للماء . فأما اقصى القرية المجاور لـ « غاني » فكان يستمد ماءه من الغدران الرائعة التي كانت هناك في الغابات ، وأما اقصى القرية الآخر الذي يحيط بالكنيسة والمجاور لـ « شيل » فلم يكن يجد مياه الشفة الا في ينبوع صغير ، عند منتصف المنحدر ، قرب الطريق الى « شيل » ، على مسيرة ربع ساعة من مونفيرماي تقريباً .

واذن فقد كان الحصول على الماء مسألة جدية يتعين على كل أسرة ان تواجهها . فكانت البيوت الكبيرة ، بيوت الارستوقراطيين ، وفي جملتها فندق تيناردييه ، تدفع رُبع « سو » ، ثمناً لكل دلو من الماء الى رجل ساذج اتخذ من تزويد الناس بالماء مهنة له ، وكان يكسب من ذلك الصنيع نحواً من ثمانية « سو » في اليوم . ولكن هذا الرجل لم يكن يشغل إلا إلى الساعة السابعة مساءً في الصيف ، وإلى الساعة الخامسة مساءً في الشتاء . فاذا هبط الليل ، وأوصدت نوافذ الادوار الاولى ، نَحَم على كل من أعوزه الماء أن يلتزمه بنفسه ، او يستغني عنه . ذلك كان الهول الذي احتملته تلك الخلوقة المسكينة التي نرجو ان لا يكون القاري قد نسيها - كوزيت الصغيرة . ونحن نذكر ان كوزيت كانت ذات فائدة لتيناردييه وزوجته من ناحيتين . كانا يتزعا

الأجر من الأم ، والعمل من الطفلة . وأنه حين اقلعت الأم نهائياً عن الدفع - وقد رأينا سبب ذلك في الفصول السابقة - احتفظ تيناردييه وزوجته بكوزيت . لقد حلت عندهما محل خادمة . وبوصفها ذاك ، تعين عليها ان تركض هي لجلب الماء حين يحتاجان اليه . وهكذا فإن الطفلة الصغيرة التي كان يروّءها دائماً مجرد التفكير في الذهاب الى ينبوع تحت جنح الظلام ، كانت تبذل غاية عنايتها لكي لا يعوز الماء البيت على الاطلاق .

وكان عيد الميلاد من عام ١٨٢٣ مشرقاً على نحو خاص في مونفيرماي . كان الشطر الأول من الشتاء معتدلاً ؛ ولم تكن تلك المنطقة قد عرّفت بعدُ لا الجليد ولا الثلج . وكان بعض المشعوذين الوافدين من باريس قد استصدروا من العمدة اذنًا يجيز لهم أن يضربوا خيامهم في شارع القرية الرئيسي . وكانت جماعة من الباعة المتجولين قد اقامت ، بفضل الاذن نفسه ، حوانيتها الخشبية الصغيرة في الساحة المنبسطة امام الكنيسة ، وحتى في زقاق بولانجيه ، حيث يقوم مطعم تيناردييه الحفير ، كما قد يذكر القاري . وهكذا غصّت الفنادق والحانات بالزبائن ، واتخذت هذه البقعة الهادئة مظهرًا صاحبًا بهيجاً . وينبغي ان نقول ايضاً لكي نكون مؤرخين امناء ، انه كان بين الغرائب المعروضة في تلك الساحة معرض حيوانات يضمّ مهرجان مخيفين يرتدون اسمالاً بالية ، وليس يدري احد من ابن اقبلوا ، فهم يعرضون ، سنة ١٨٢٣ ، على فلاحي مونفيرماي واحداً من تلك العقبان البرازيلية الرائعة التي لم يملك متحفنا الوطني نظيراً لها إلا في عام ١٨٤٥ ، والتي تشبه عيونها شارات مستديرة ، كالتي ترين قبعات الجنود ، مثلثة الالوان . ويدعو علماء التاريخ الطبيعي هذا الطائر Caracara Polyborus في ما اعتقد . انه من رتبة Apicidae وفصيلة العقبان . وقصد بعض الجنود البونابرتيين العجائز ، الطيبين ، المتقاعدين في القرية ، لرؤية هذا الطائر في خشوع . وزعم المشعوذون ان تلك الشارة

المستديرة ظاهرة فريدة صنعها الله خصيصاً لمعرضهم الحيواني .
في ليلة الميلاد تلك كان بضعة رجال ، بعضهم سائقو عربات وبعضهم
باعة متجولون في الارياض ، جالسين الى الطاولات يعاقرون الحمر حول اربع
شموع او خمس شموع في القاعة السفلى من فندق تيناردييه . وكانت هذه القاعة
تشبه قاعات الحانات جميعاً : طاولات ، وآنية من قصدير ، وزجاجات ،
وشاربون ، ومدخنون . قليل من النور ، وكثير من الضجة . ومع ذلك ،
فقد كان تاريخ عام ١٨٢٣ يتجلى في ذبذبات الشبثين القائمين على احدى
الطاولات ، وكانا آنذاك زبياً شائعاً بين الطبقات الوسطى ، وهما منظر
سحري ، ومصباح من صفح متموج . كانت تيناردييه الزوجة تراقب
الحساء الذي كان يُطهى أمام نار مشرقة لاهبة . وكان تيناردييه الزوج
يحسني الشراب مع ضيوفه ، ويتحدث في السياسة .

والى جانب المناقشات السياسية التي كان موضوعها الرئيسيان الحرب
الاسبانية ودوق آنغوليم * كان في ميور المرء ان يسمع ، في غمرة الضجة ،
ملاحظات محلية معترضة من مثل هذه :

- « هناك في ناحية « نانثير » و « سووين » كان موسم الكرمه خصباً .
فحيث توقع القوم عشرة براميل فازوا باثني عشر . لقد استخرجوا مقادير
كبيرة من العصير من تحت المكبس . »

... « ولكن اليس من الضروري ان ينضج العنب ؟ »

- « اوه ، في تلك الديار ليس من الضروري ان يُقطف العنب ناضجاً .

ان الكرمه لتغدو بدينة مع الربيع . »

- « اذن فهي خمر هزينة ؟ »

- « ان ثمة خموراً كثيرة هي اشدّ هزالاً من الخمر التي نعرفها هنا .

يتعين على المرء ان يحسني العنب وهو بعدُ أخضر . الخ ...

وقد يصيح أحد الطحانين قائلاً :

* كان هذا الدوق هو قائد القوات الفرنسية في الحرب الاسبانية .

- هل نحن مسؤولون عما في الاكياس ؟ إنا نجد ركاماً من البذور الصغيرة هناك ، ولكننا لا نستطيع ان نتسلى بالتقاطها ، وإنا لنضطر طبعاً الى ان ندعها تمر بين حجري الرعى . هناك زؤان ؛ هناك شجرة ؛ هناك حبة البركة ؛ هناك جلبان ؛ هناك بزر القنب ؛ هناك ذيل الثعلب ، وجمهرة من النفايات الاخرى ، هذا اذا لم نذكر الحصى التي تكثر في بعض اصناف القمح ، وبخاصة قمح پروتانشي . أنا لا أحب ان اطحن القمح البروتاني ، أكثر مما يحب النجار ان ينشر العوارض التي تنطوي على مامير . يكفي ان تفكر بالتراب القذر الذي يضيفه ذلك كله الى المحصول . وبعد ذلك يشكو الناس رداءة الطحين . إنهم مخطئون . فلسنا نحن المسؤولين عن الطحين .

وفي مكان وسط بين نافذتين ، جلس حصّاد الى إحدى الطاولات مع مزارع كان يساومه على عمل يقوم به في الموسم التالي ، وأنشأ يقول :

- « لا ضرر البتة في ان يصيب الندى الاعشاب . إنه يُجَزّ على نحو أفضل . إن الندى شيء حسن ، يا سيدي . ولكن سيان ، فهذا العشب ، عشبك ، نضر العود ، وإن قطعه لعسير جداً . إنه شديد الاخضرار ، وهو ينحني تحت المنجل . » النخ

وكانت كوزيت في مكانها المألوف ، جالسة على عارضة طاولة المطبخ ، قرب الموقد . كانت ترتدي خرقاً ممزقة ، وكانت قدمها العاريتان تتعللان حذاء خشبياً ، وكانت تزد على ضوء النار جوارب صوفية لبنتي تينارديه الصغيرتين . كانت هرة صغيرة تلعب تحت الكرسي . وفي غرفة مجاورة كان صوتان طفلان ناضران يثرثران ويضحكان على نحو مسوع . كانتا ابوين وأزيلما .

وفي زاوية الموقد كان سوطٌ يتدلى من احد المامير . وبين الفينة والفينة كان صوت طفل بالغ الصغر ، ينبعث من مكان

ما من المنزل ، فيطفي على ضجة الحانة . ذلك كان غلاماً صغيراً رزقته السيدة تيناردييه في شتاء ماضٍ - « من غير ان تدري كيف » ، كذلك كانت تقول ، « إنه ثمرة الجو البارد » ، ولم يكن عمره ليزيد على ثلاث سنوات . كانت الام قد ارضعته ، ولكنها لم تحبه . حتى اذا غدت صيحات الطفل الجائعة اقوى من ان 'تحتمل كان تيناردييه يقول : « إن ابنك يصيح فلماذا لا تذهبين وتوين ما يريد ؟ » فتجيبه الام : « أفٍ ! لقد ضجرتُ منه ! » ويواصل الطفل المخذول صياحه وسط الظلام .

٢

رسمان يكملان

إلا لم نَرَ تيناردييه وزوجته في هذا الكتاب إلا من ناحية جانبية . ولقد آت لنا أن ندور حول هذين الزوجين ونرى اليها من الجهات جميعاً .

كان تيناردييه قد بلغ الحُسين منذ قريب ، وكانت للسيدة تيناردييه قد بلغت الاربعين ، وهي بمثابة الحُسين عند المرأة . وهكذا فقد كان ثمة توازن في العمر بين الزوج والزوجة .

ولعل القراء قد احتفظوا ، منذ ظهورها الاول ، ببعض الذكرى لتيناردييه هذه ، الضخمة ، الشقراء ، الحمراء ، البدينة ، اللحية ، المربعة ، الجسيمة ، النشيطة . كانت كما قلنا سابقاً من ذلك العرق من النسوة الوحشيات الهائلات اللواتي ينعطفن كالفوس في الاسواق الدورية وقد تدلت قطع البلاط من شعرهن . كانت تقوم بجميع الاعمال المنزلية : تنظيف الغرف ، وغسل الملابس ، والطبخ ، وأي شيء يحلو لها ، وتضج وتضخب . وكانت كوزيت هي خادمتها الوحيدة ؛ فأرة في

خدمة فيل . كان كل شيء يرتجف لجرس صوتها : زجاج النوافذ و
والاثاث ، والناس . وكان وجهها العريض ، الذي يعلوه النمش ، اشبه شيء
بالمراغة . وكانت لها لحية . كانت المثل الاعلى لصبي الجزار مرتدياً ملابس
نسائية . وكانت تُقسم في فخامة ، وتعترف بقدرتها على ان تكسر الجوزة
يجمع كفها . وبصرف النظر عن الروايات التي قرأتها والتي تعطيك في
بعض الاحيان لمحة عجيبة عن المرأة المتكافئة الكامنة تحت السحابة * فان
اياماً من الناس لم يخطر له ذات يوم ان يقول عنها : هذه امرأة . كانت
تتأريه هذه اشبه شيء بالنتاج الحاصل من تلقيع امرأة وقحة مربية
بياعة سمك . اذا سمعتها تتحدث قلت : « هذا دركي » . واذا رأيتها تشرب
قلت : « هذا سائق عربة » . واذا بصرت بها تلس كوزيت قلت : « هذا
هو الجلاد » . وفي اوقات الراحة كانت احدي الاسنان تبرز من فمها .
اما تينارديه الزوج فكان رجلاً ضئيل الجسم ، هزيلًا ، شاحباً ، ذا
زوايا ، عظيمًا ، ضعيف البنية يبدو وكأنه مريض برغم ان صحته ممتازة ،
ومن هنا كان يبدأ مكرهه وخبثه . كان يتسم ، بحكم العادة ، من باب
الاحتراس ، وكان يحاول ان يكون لطيفاً مع الناس جميعاً ، حتى مع
الشعاذ الذي كان يرض عليه بربع « سو » . كانت له نظرة نمس ، وسباً
أديب . وكان يشبه رسوم الراهب دوليل ** شهباً كثيراً . وكان يهوى معاقرة
الحمر مع سائقي العربات . ولم يره احد سكران قط . وكان يدخن غليوناً
ضخماً . وكان يرتدي قميصاً ، وتحت ذلك القميص سترة عتيقة سوداء . وكان
يدعي فهم الادب والفلسفة المادية . وكانت ثمة اسماء بكثر من ترديدها
تأييداً لاي شيء قد يقوله : فولتير ، رينال *** بارني **** ، واخيراً وهو

* السحابة : انشئ القول .

** l'Abbé Delille شاعر فرنسي (١٧٣٨ - ١٨١٣) ترجم آثار فيرجيل وميلتون .

*** Raynal مؤرخ وفيلسوف فرنسي (١٧١٣ - ١٧٩٦) وضع كتاباً عن غزو

الاوروبيين للهند شجب فيه الاستثمار وحمل على رجال الدين .

**** Parny شاعر فرنسي (١٧٥٣ - ١٨١٤) اشتهر بقصائده الغزلية الاليفة .

شيء عجيب ، القديس اوغطين * . وكان يؤكد ان له « نظاماً » . وعلى الجملة ، فقد كان غشاشاً كبيراً ، فيلسوفاً في الحداد . وهذا الضرب من الناس موجود . ونحن نذكر انه ادعى خوض غمار الحرب ؛ وكان يروي في شيء من الابهة انه في واترلو - وكان رقيباً في سلاح ما خفيف يحمل الرقم اربعة او الرقم تسعة - استطاع وحده ، في وجه كوكبة من « فرسان الموت » ، ان يعطي بجسده وينقذ وسط وابل من القذائف « جنراً » أصيب بجراح خطيرة ، « ومن هنا تلك اللافتة الملتهبة التي على جداره » ، واسمُ فندقه الذي كان يعرف في ذلك الاقليم بـ « فندق رقيب (مرجان) واترلو » . كان متحرراً ، وكلاسيكياً ، وبونابرتياً . ولقد اكتب في انشاء « شان دازيل » . ولقد قيل في القرية انه درس ذات يوم لكي يصبح كاهناً .

اما نحن فنعتقد انه لم يدرس ، في هولندية ، الا ما يمكنه من ان يصبح صاحب فندق . والواقع ان هذا النذل ذا « الطراز المركب » كان ، وفقاً لكل احتمال ، فلنكياً من « ليل » في الفلاندر ، وفرنسياً في باريس ، وبلجيكياً في بروكسل ، فهو مستعد للانضواء تحت الراية التي يجسد في ظلها النفع . اما شجاعته في واترلو فتعفن نعرها . وهو كما قد رأينا ، يبالغ بها بعض الشيء . كان قلب احوال الدهر ، والمواربة ، والمقامرة هي عنصر وجوده . إن الضمير الممزق يستتبع الحياة المتفتحة . ولا ريب في ان تيناردية كان خلال فترة ١٥ حزيران ١٨١٥ العاصفة ، ينسب الى تلك الطبقة من المطوفين بالليل ، السارقين جيوب الجنود ، التي نتحدثنا عنها . فهو يروى البلاد ، يبيع هنا ، ويسرق هناك ، ويترحل على طراز عائلي - رجل وامرأة ، واولاد - في عجلة عرجاء ، على آثار الجيوش الزاحفة ، تسوقه غريزة نجعله يلتحق دائماً بالجيش الظافر . حتى اذا انتهت هذه الحملة ، واصبح ، كما قال ، صاحب « ثروة » انشأ مطعماً حقيراً في مونفيرماي .

* احد آباء الكنيسة اللاتينية المشهورين (٣٥٤ - ٤٣٠)

ولكن هذه ، الثروة ، المؤلفة من صُرر مال وساعات وخواتم ذهبية وصلبان فضية ، والتي جمعت إبان الحصاد في الأتلام المزروعة بالجثث ، لم تشكل حاصلاً ضخماً ، ولم تعمر طويلاً عند هذا الطائف الليلي الذي امسى صاحب فندق .

وكانت لتيناردييه خشونة الإباءة تلك التي لا توصف ، والتي تذكر المرء - حين تُقرن بقسم - بالثكنة العسكرية ، وتذكره - حين تقرن بإشارة الصليب - بالمدرسة الاكليريكية . كان محدثاً بارعاً ، وكان مولعاً بأن يحسبه الناس عالماً ؛ ومع ذلك ، فقد لاحظ معلم المدرسة أنه كان يخطئ في اللفظ . كان يعدّ فواتير المسافرين بأسلوب رفيع ، ولكن العيوب المتسرة كانت تكشف فيها ، أحياناً ، بعض الأخطاء الأملائية . كانت تيناردييه مرأياً ، ثرهاً ، متبطلاً ، وحاذقاً . ولم يكن ليزدري الخادومات ، ومن هنا لم تبق عند زوجته واحدة منهم . فقد كانت هذه العملاقة جسوداً ، ولقد بدا لها أن هذا الرجل الاصفر المزبل ، الضئيل الجسم ، لا بدّ أن يكون موضوع اشتها عام .

وكان تيناردييه - وهو فوق كل شيء رجل مكر واثقان - وغداً من ضرب معتدل . وهذا الضرب هو الاسوأ . إنه مزوج بالثفاق .

وليس ذلك يعني أن تيناردييه لم يكن قادراً في بعض المناسبات على أن يغضب ، بقدر ما كانت امرأته تغضب على الأقل . ولكن هذا كان نادراً جداً ؛ وفي تلك الحالات كان يبدو وكأنه في حرب مع الجنس البشري كله ، وكأن في باطنه اتوناً عميقاً من البغض ، وكأنه واحد من أولئك الذين لا ينفكون ينتقمون لأنفسهم ، والذين يتهمون كل امريء من حولهم بجميع الشرور التي تنزل بهم ، والذين هم دائماً على استعداد لأن يطرحوا على أول قادم ، كشكوى مشروعة ، كل ما منوا به في حياتهم من خيبة وإخفاق ومصائب . وإذا كانت هذه الحميرة تعتمل في ذات نفسه ، ويطفو زيدها على فمه وعينه ، فقد كان مشهده مروّعاً .

والويل لمن يتعرض لنقمته عندئذ !

وكان تيناردييه ، بالإضافة الى سائر صفاته ، حسن الانتباه ، ثاقب النظر ، صموئلاً أو ثنائراً وفقاً لمقتضى الحال ، وعلى ذكاء بالغ دائماً . كانت له ، بعض الشيء ، سيما الملاحين المتعودين أن يطرفوا بأعينهم في المناظر . لقد كان تيناردييه رجلاً دولة .

كان كل وافد جديد لا يكاد يدخل المطعم الحثير حتى يقول - لدن رؤيته تيناردييه الزوجة : « هو ذا سيد البيت . » وذلك خطأ . فهي لم تكن حتى سيدة البيت . كان الزوج هو سيد البيت وسيدته في وقت معاً . كانت هي تعمل ، وكان هو يتدع . كان يسدير كل شيء بضرب من العمل المغناطيسي المتواصل غير المنظور . كانت كلمة واحدة - وأحياناً ليماءة - تكفي ، فإذا بالاستودونة * تطيع . كان تيناردييه عندها - من غير أن تعي ذلك حقاً - ضرباً من الكائن الفريد ذي السلطان . كانت لها فضائلها الشخصية . فهي لم تختلف قط ، حول مسألة ما ، مع « مسيو تيناردييه » ، وما كانت لتتأجر وإياه علناً - وهذا افتراض مستحيل - من أجل أنما أمر مهما يكن . ولم تقترف ذات يوم « امام الغرباء » تلك الغلطة التي ترتكبها النسوة في كثير من الأحيان ، والتي ندعوها ، في اللغة البرلمانية : كشف الغطاء عن التاج . وعلى الرغم من ان تفاهمها ما كان يشر غير الشر ، فقد كان في خضوع السيدة تيناردييه لزوجها غذاء للتأمل . لقد تحرك جبل الضجة واللحم هذا تحت خنصر هذا الطاغية الواهن . وكان ذلك يمثل ، اذا ما نظر اليه من جانبه القزم المضحك ، هذه الحقيقة الكلية الكبيرة : شغف المادة بالروح . ذلك بان اصل بعض البشاعات كامن في اعماق الجمال الازلي نفسه . لقد كان في

* الاستودون ، كما مر سابقاً ، حيوان منقرض يشبه الفيل . والمقصود بالاستودونة هنا مدام تيناردييه .

تيناردييه شيء من المجهول ، ومن هنا سلطان هذا الرجل المطلق على هذه المرأة . كانت في بعض الاحيان تنظر اليه نظرتها الى شمعة مضاءة ، وكانت في بعضها الآخر تستشعر انه مخلب من الخالب .

كانت هذه المرأة مخلوقاً مخوفاً لا يجب احداً غير اولاده ، ولا يخشى شيئاً غير زوجه . كانت امّاً لانها كانت حيواناً ثديياً . وكانت مشاعرها الأمومية تنتهي عند بنتها ، ولا تمتد ، كما رأينا ، لتشمل الصبيان اما هو ، الرجل ، فلم يكن له من هم غير الاتراء .

ولم يوفق الى النجاح . لقد أعوزت الفرصة الملائمة مواهبه الكبيرة . كان تيناردييه في مونفيرماي سائراً نحو الافلاس ، اذا كان الافلاس ممكناً عند الصفر . ولو قد كان هذا الرجل الذي لا يملك درهماً ، في سويسرة أو في البيرنيه ، اذن لامسى مليونيراً . ولكن حيث يوثق القدر الفندقي تعين عليه ان يرعى العشب .

ومفهوم ان كلمة فندقي تُصطنع هنا بمعنى مقيد ، وانها لا تشمل طبقة برمتها .

وفي ذلك العام نفسه ، ١٨٢٣ ، كان تيناردييه مديناً بنحو الف وخمسة فونك من الديون الملحة التي جعلته مشغول البال .

ومها يكن القدر ظالماً له على نحو عنيد ، فقد كان تيناردييه واحداً من اولئك الرجال الذين يفهمون احسن الفهم ، وفي اشد ما يكون من العمق واحداث ما يكون من الاساليب ، ذلك الشيء الذي هو فضيلة عند الشعوب البدائية ، وسلعة عند الشعوب المتحضرة ، اعني حسن الضيافة . والى هذا ، فقد كان صياداً بارعاً يتخذ من ارض الاخرين ، دوغا إذن ، ميداناً لنشاطه ، وكان يُعدّ من الرماة الممتازين . كانت له ضحكة باردة ساكنة ، وكانت ضحكته هذه خطرة ، بصورة خاصة .

كانت نظرياته في ادارة الفنادق تنبع من نفسه في بعض الاحيان مثل وميض البرق . وكانت له بعض الحكم المهنية التي غرسها في ذهن

زوجته . « إن واجب الفندقى ، كذلك قال لها ذات يوم ، فى تأكيد وفى صوت خفيض ، « ان يبيع الوافد الاول طعاماً ، وراحة ، ونوراً ، وناراً ، وشراف سرور قذرة ، وخادومات ، وبراعىث ، وابتسامات ؛ ان يوقف المسافرين ، فيفرغ اكياس النقود الصغيرة ويخفف فى لطف من ثقل الاكياس الكبيرة ؛ ان يستقبل فى احترام الاسر المسافرة ، فيكشط الرجال ، وينتف ريش النساء ، ويحلق الاولاد ؛ ان يتقاضى اجراً عن النافذة المفتوحة ، والنافذة الموصدة ، وزاوية الموقد ، والأريكة ، والكرسي ، والكرسي الذي لا ظهر له ، والموطىء ، وفراش الريش ، والحشية ، وفراش القش ؛ ان يعرف الى اى حد اصاب البلى المرأة ويفرض ضريبة على ذلك ؛ وان يحمل المسافر - وأقسم بالخمسة الف شيطان - على ان يدفع ثمن كل شيء حتى الذباب الذي يأكله كلبه ! » .

كان هذا الرجل وهذه المرأة هما المكر والفيظ مجتمعين ، وبأله من اقتران راعب فظيع !

وفى كان الزوج يحسب ويدبر كانت تبناردييه الزوجة لا تفكر بالدائنين الغائبين ، ولا تحمل همّ الأوس او الغد ، بل نجبا فى هيجات لدقيقة التي هي فيها .

كذلك كان هذان الخلقان ، وكانت كوزيت بينهما ، متعملةً ضغطهما المزدوج ، شبه شيء بمخلوقة تسحقها الرضى وتمزقها الكلابة إرباً إرباً ، فى آن معاً . لقد كانت لكل من الرجل والمرأة طريقة خاصة . فكانت كوزيت تُضرب فى غير رحمة ؛ وهذا من فضل المرأة . وكانت تمشي حافية فى ايام الشتاء ؛ وهذا من فضل الرجل .

وصعدت كوزيت السلم ، وهبطت السلم ، وغسلت ، ونظفت بالفرشاة ، ومسحت ، وكنت ، وركضت ، واجهدت نفسها فى السير ، ولهت ، ورفعت اشياء ثقيلة ، ونهضت بالاعمال الحثنة ، برغم ضعف بنيتها . لا رحمة البنة . سيدة شرسة ، وسيد خبيث . لقد كان مطعم تبناردييه الحقيق أشبه بشرك

علقت به كوزيت وراحت ترتجف . ولقد تحقق المثل الاعلى للاضطهاد في هذه العبودية المشؤومة . كانت اقرب شيء الى ذبابة تخدم عناكب . واطاعت الطفلة المسكينة في استسلام وصمت . ولكن ما الذي يجري في هذه النفوس التي لم تنفصل عن الله الا منذ قريب حين تجد ذاتها في فجر الحياة ، صغيرة الى هذا الحد ، ضعيفة الى هذا الحد ، بين الرجال ؟

٣

يجب ان يشرب الرجال الخمر

وان تشرب الخيل الماء

كان قد وفد على الفندق أربعة نزلاء جدد . وفكرت كوزيت في اكتئاب . ذلك بأنها كانت قد قاست من ويلات الدهر ما يحملها على التفكير - وهي التي لم تتجاوز الثامنة - بمثل السيام الفاجعة التي ترين على وجه امرأة عجوز . وكانت حول مقلة كوزيت زرقة ناشئة عن ضربة سدّتها تينارديه الزوجة اليها ، 'بجمع كفها ، فهي تتساءل بين الفينة والفينة : - « ما أقبحها بهذا الورم الذي في عينها ! » كانت كوزيت تقول في ذات نفسها ، آنذاك ، ان الليل قد هبط ، وإنه أمسى دامساً ، وإن آنية الماء وزجاجاته العريضة القاعدة ، تلك الآنية والزجاجات التي في غرف النزلاء الجدد ، يجب ان 'تملأ في الحال ، وانه لم يبق ثمة ماء في الحوض . ومرّى عنها بعض الشيء ان الناس لا يشربون كثيراً من الماء في

حانة تيناردييه . وكان بين أولئك القوم كثير من العطاش ، ولكنه ذلك النوع من العطش الذي يبسط البدن نحو وعاء الخمر الكبير لا نحو الزجاجاة العريضة القاعدة . ولو قد طلب أحد كوب ماء وسط كؤوس الخمر هذه ، اذن لبدا متوحشاً في نظر هؤلاء الرجال . ومع ذلك فقد انقضت لحظة ارتجفت خلالها الطفلة : لقد رفعت مدام تيناردييه غطاء القدر الصغيرة ذات المقبض التي كانت تغلي على الموقد ، ثم تناولت كوباً وسارعت الى حوض الماء . وادارت الحنفية ؛ وكانت الطفلة قد رفعت رأسها وتابعت حركاتها جميعاً . وجرى من الحنفية خيط من الماء رفيع لم يشغل من الكوب غير نصفه .

وقالت :

« انظر ! لم يبق شيء من الماء ! »

ثم انها صمنت لحظة . اما كوزيت فجلست أنفاسها .

وتابعت تيناردييه الزوجة كلامها وهي تتفحص الكوب نصف المليء :

« انا اشك في ذلك ! سوف يبقى مقدار كافٍ منه ، على

هذا الشكل . »

واستأنفت كوزيت عملها ؛ ولكنها استشعرت ، طوال ربع ساعة

او يزيد ، ان قلبها يشب في صدرها مثل كرة ضخمة .

وعدت الدقائق فيما هي تنصرم هكذا ، وتمت في لهفة لو ان

القجر ييزغ .

وبين الفينة والفينة كان احد الشاربين ينظر الى الشارع ويهتف :

« إن الليل حالك مثل فرن ! » أو : « ينبغي ان يكون الانسان

هرة حتى يمشي الليلة في الشوارع من غير مصباح ! » وارتعدت كوزيت .

وفجأة دخل احد الباعة المتجولين النازلين في الفندق وقال في

صوت أجش :

« انكم لم تسقوا جوادي ! »

فقلت تينارديه الزوجة :

- « بل لقد سقيناه ، من غير ريب . »

فاستأنف البائع المتجول :

- « اقول لك لا ، يا سيدي . »

وخرجت كوزيت من تحت الطاولة .

وقالت :

- « اوه ! بلى ! يا سيدي ! لقد شرب الجواد ، لقد شرب من

الدلو . الدلو الملائن . ولقد حملته انا بنفسي اليه ، وتحدثت معه . »

ولم يكن ذلك صحيحاً . لقد كذبت كوزيت .

فصاح البائع المتجول :

- « هي ذي فتاة في حجم قبضة يدي ، ومع ذلك فهي تكذب

كذبة في حجم البيت . اقول لك انه لم يشرب ، ايها الطفلة الحكيمة !

ان له طريقة في اللهاث حين لا يكون قد شرب شيئاً من الماء وانا

اعرف طريقته تلك جيداً . »

واصرت كوزيت ، وازافت في صوت أبجه الألم النفسي المرير ،

فهم ما يكاد يُسمع :

- « ولكنه شرب مقداراً كبيراً من الماء . »

فتابع البائع في غضب :

- « كفى ، كفى ! قدمي شيئاً من الماء الى جوادي ، ولا

تقولي كلمة إضافية في الموضوع . »

وعادت كوزيت الى مكانها تحت الطاولة .

وقالت تينارديه الزوجة :

- « الواقع ان هذا صحيح . اذا كانت الدابة لم تشرب بعد

فينبغي ان تشرب . »

ثم أجالت البصر في ما حولها وقالت :

- « حسن ، ما الذي حلّ بتلك الفتاة ؟ »
وانحنت ، فاكشفت كوزيت رابضةً عند الطرف الآخر من
الطاولة ، تحت أقدام الشاربين تقريباً .

وصاحت تيناردييه الزوجة :

- « ألن تأتي ؟ »

وخرجت من شبه الثقب ذاك الذي اختبأت فيه . وثابت
تيناردييه الزوجة :

- « اينها الآنسة » الكلبة التي لا اسم لها ، ، اذهبي واحلي شيئاً
من الماء الى ذلك الجواد ! »

فقال كوزيت في وهن :

- « ولكن ، يا سيدتي ، ليس هناك ماء . »

ففتحت تيناردييه الزوجة الباب المؤدي الى الشارع على مصراعيه :

- « حسن ، اذهبي واجلي شيئاً منه ! »

وخفضت كوزيت رأسها ، ومضت تلتبس دلوّاً فارغاً كان في
زاوية الموقد .

كان ذلك الدلو اكبر منها ، وكان في ميسور الطفلة ان تقعد فيه
على نحو مريح .

ورجعت تيناردييه الزوجة الى وجاقها ، وذوقت ما كان في القدر
بملعة خشبية وهي تغعم :

- « ان في ينبوع ماء . هذه أخبت طفلة وجدت على ظهر
الارض . واحسب اني أحسن صنعا اذا تركتُ بَصلي هذا . »

ثم انها بحثت في احد الادراج حيث كانت بضعة فلوس ، وشبه
من الفلفل والثوم .

وأضافت :

- « اينها الآنسة للضفدع ، لشئري من الحجاز ، وانت عائدة ، »

رغيفاً كبيراً . دونك خمسة عشر سو . ،
كان لكوزيت جيب صغير في جانب مئزرها . فتناولت القطعة
النقدية من غير ان تقول كلمة ، ووضعتها في ذلك الجيب .
ثم انها ظلت جامدة : الدلو في يدها ، والباب مفتوح أمامها .
لقد بدت وكأنها تنتظر ان يُقبل شخص ما ليجدها .
وصاحت السيدة تينارديه :
- « هيا ، إذهبي ! »
وخرجت كوزيت ، وأوصد الباب .

دخول دمية الى المسرح

لقد امتدّ صف الدكاكين ، كما يذكر القاري ، على طول الشارع من الكنيسة حتى فندق تيناردييه . وكانت هذه الدكاكين متلاثة كلها - بسبب اقتراب موعد انطلاق المواطنين الى قداس منتصف الليل - بالشموع المشعلة في فوانيس من ورق تركت - كما قال معلم مونفيرماي الذي كان جالساً آنذاك الى احدى طاولات تيناردييه - « أثراً سحرياً » . وبالمقابلة ، لم يكن المرء ليرى نجمة واحدة في السماء .

وكانت آخر هذه الدكاكين الخشبية ، وقد اقيمت تجاه باب تيناردييه تماماً ، دكان دميّ تتألق كلها بالصفائح المعدنية البالغة الصغر ، وبالحرز ، وبمختلف الاشياء الرائعة المصنوعة من صفيح . وفي الصف الاول ، وفي مكان متقدم ، كان البائع قد وضع ، فوق مهادر من المناديل البيضاء ، دمية ضخمة يبلغ طولها نحواً من قدمين ، وتترندي ثوباً من « الكريب » الأزهر ، وقد جعلت على رأسها سنابل ذهبية ، ونعمت بشعر حقيقي وبعينين

مصنوعتين من المينا . وكانت هذه الاعجوبة قد عُرضت طوال النهار فاذهلت جميع المارة من الذين لم يتجاوزوا العاشرة ، من غير ان توجد في مونفيرماي كلها أم هي من الغنى ، او من التبذير ، بحيث تشتريها لطفلها . كانت ايبونين وآزيلما قد أنفقتا ساعات في التحديق اليها ، وكانت كوزيت نفسها قد جرؤت ، خلسة من غير شك ، على النظر اليها .

وحين خرجت كوزيت حاملة الدلو بيدها ، مُثقلة بالكآبة والغم ، لم تتمالك ان ترفع عينها نحو هذه الدمية الرائعة ، نحو هذه « السيدة » كما دعها . لقد وقفت الطفلة المسكينة متحجرة . انها لم ترَ تلك الدمية من على مثل هذا القرب من قبل .

لقد بدت هذه الدكان الحشبية كلها قصرآ في عينها . ان تلك الدمية لم تكن دمية ؛ لقد كانت وؤيا . كانت هي البهجة ، والبهاء ، والثروة ، والسعادة تراءت في ضرب من الاشعاع الوهمي لهذه الخلوقة الصغيرة البائسة المدفونة ، أعمق ما يكون الدفن ، في شقاء فاجع بارد . كانت كوزيت تقيس ، بحكمة الطفولة الساذجة البسيطة ، الهوة التي تفصلها عن تلك الدمية . وقالت في ذات نفسها إن الفتاة ينبغي ان تكون ملكة ، او أميرة على الاقل ، لكي تفوز بـ « شيء » مثل هذا . وحدقت الى هذا الثوب الازهر الجميل ، وإلى هذا الشعر الناعم الخلو ، وانشأت تفكر : « اي سعادة عظيمة ينبغي ان تكون هذه الدمية متمتعة بها ! » ولم تستطع عيناها التحول عن هذه الدكان الغريبة . وكلما اطالت النظر تعاظم انشراحها . لقد حسبت انها رأت الجنة . وكانت دميّ أخرى ، خلف الدمية الكبرى ، بدت لها جنأ وعفاريت . اما التاجر الذي كان يروح ويحيي في الجزء الخلفي من الدكان فتمثل لها بعض الشيء وكأنه « الأب الأزلي » .

وفي غمرة من هذا التعبد نسبت كل شيء ، حتى المهمة التي عُهد اليها فيها ؛ وفجأة اعادها صوت السيدة تيناردييه الاجش الى الواقع :

— « ماذا ايتها الغبية ، ألم تذهبي بعد ؟ انتظري . أنا آتية اليك ! إني احب

ان أعرف ما الذي تفعله هناك ؟ ايتها المسخة الصغيرة ، اذهبي !
وكانت تيناردييه الزوجة قد القت نظرة الى الشارع ، ورأت كوزيت
في حال من الوجد .
وولت كوزيت حاملة دلوها ، موسعة خطاها اقصى ما تستطيع
ان توسعها .

الصغيرة فريسة الوحدة

واذ كان فندق تيناردييه في ذلك الجزء من القرية الواقع غير بعيد عن الكنيسة فقد تعين على كوزيت ان تستقي الماء من ينبوع الغابة المجاور لـ « شيل » .

ولم تعاود النظر الى السلع المعروضة في الدكاكين . وكانت هذه الدكاكين المضادة تنير سبيلها ما بقيت في زقاق يولانجيه وجوار الكنيسة ، ولكن سرعان ما اختفى آخر شعاع من آخر دكان . والفت الطفلة المسكينة نفسها في الظلمة . لقد دُفنت فيها . بيد أنها وقد استبد بها انفعال ما ، راحت تهز عروة الدلو ، فيما هي ماضية لسبيلها ، أقصى ما تستطيع ان تهزها . ولقد احدث ذلك ضجة رافقتها في وحدتها .

وكلما أمعت في المسير ، أمت الظلمة اشدة كثافة . لم يبقَ شخص ما في الشوارع . ومع ذلك ، فقد لقيت امرأة استدارت لدن رؤيتها تمر ، وظلت جامدة تنتم من بين اسنانها : « ولكن الى اين يمكن ان تكون هذه الصغيرة ذاهبة ؟ أهى طفلة شبح ؟ » ثم ان المرأة عرفت كوزيت ، فقالت : « اوه ، إنها القبرة ! »

وهكذا اجتازت كوزيت تيه الشوارع المتعرجة المهجورة التي تنتهي بها قرية مونفيرماي من ناحية « شيل » . وكانت تمضي في جرأة كافية ما دامت تجد بيتاً ، بل جدراناً ، على جانبي طريقها . وبين الفينة والفينة كانت ترى ضوء شمعة ينبعث من شقوق مصراع من مصاريع النوافذ ؛ كان ذلك نوراً وحياة ، وكان ثمة أناس ، وكان ذلك برسي عنها ويُبقي

على شجاعتهما . بيد ان سرعتها كانت تتباطأ ، على نحو ميكانيكي ، كلما تقدمت . حتى اذا اجتازت زاوية البيت الاخير ، كفت عن السير . كان الذهاب الى ابعد من الدكان الاخير عسيراً ؛ ولقد امسى الذهاب الى ابعد من المنزل الاخير مستحيلاً . ووضعت الدلو على الارض ، وغيّبت يدها في شعرها ، وشرعت تحك رأسها في ثؤدة ، وهي حركة خاصة بالاطفال المروّعين المتروّدين . انما لم تعد في مونفيرماي ؛ لقد امست في الارض الفضاء . كانت البقعة المظلمة المهجورة امامها . ونظرت في يأس الى هذه الظلمة ، حيث لم يبقَ شخص ما ، حيث كانت الوحوش ، بل حيث كانت الاشباح في اغلب الظن . وانهمت النظر ، وسمعت الحيوانات الماشية فوق العشب ، وبصرت على نحو واضح بالاشباح المتحركة في الاشجار . ثم تناولت دلوها من جديد ؛ لقد امدتها الخوف بالجرأة . وقالت : « باه ! سوف اقول لها إنه لم يبق هناك شيء من الماء ! » ورجعت في غير تردد ، الى مونفيرماي .

ولم تكذب تخطو مئة خطوة حتى وقفت كرة أخرى ، وشرعت تحك رأسها . كانت تيناردييه الزوجة هي التي تبدّت لها الآن ، تيناردييه الرهبة بفمها الذي يشبه فم الضبع ، وبعينها القادحتين بشرر الغيظ . والقت الطفلة نظرة مُبكّية الى امام والى وراء . ما الذي تستطيع ان تفعله ؟ ما الذي سيحلّ بها ؟ الى اين ينبغي ان تذهب ؟ فاما امامها فكان شبح تيناردييه الزوجة ، واما وراءها فكانت جميع اشباح الليل والغابة . وانما تراجعت في وجه تيناردييه الزوجة . واتخذت الطرق المؤدية الى الينبوع ، كرة اخرى ، وأنشأت تعدو . لقد خرجت من القرية راكضة ، ودخلت الغابة راكضة ، غير مبصرة شيئاً ، غير سامعة شيئاً . ولم تكفّ عن الركض إلا بعد ان انقطعت انفاسها . وحتى في تلك الحال تابعت طريقها مترنحة . لقد تقدمت الى امام واليأس يعصف بها .

وحتى فيما هي تعدو نازعتها نفسها الى البكاء .

ولفها ارتعاش الغابة الليلي لقساً كاملاً . لم تعد تفكر بشيء ؛ ولم تعد ترى شيئاً . لقد واجه الليل الانهائي هذه المخلوقة الصغيرة . فمن ناحية ، الظلام كله ، ومن الناحية الأخرى ذرة " ايس غير .

وكان ينبوع لا يبعد عن طرف الغابة إلا مسيرة سبع دقائق او ثمان دقائق . وكانت كوزيت تعرف الطريق لاجتيازها اياها بضع مرات يومياً . ومن عجب انها لم تضلّ سبيلها . لقد هدتها بقية من غريزة ، على نحو أمي ، ولكنها لم تدر عينها لا الى اليمين ولا الى اليسار ، خشية ان ترى اشياء على الاغصان وفي الادغال . وهكذا انتهت الى النبع .

كان حوضاً طبيعياً صغيراً أحدثته المياه في تربة رملية دلفانية ، وكان عمقه نحواً من قدمين ، وقد حفت به الطحالب وتلك الاعشاب الطويلة المطبّعة بشكل بارز والتي ندعوها اطواق عنق هنري الرابع ، ورُصف ببضعة حجار ضخام . وكان جدولٌ ينبثق من هناك ، في خرير رقيق ساكن .

ولم تحاول كوزيت ان تأخذ نفساً . كان الظلام دامساً ، ولكنها كانت متعودّة المجيء الى هذا ينبوع . ويدها اليسرى تلمّست في الظلمة سندبانة صغيرة منحنية فوق ينبوع . - وكانت كثيراً ما تتخذ منها نقطة ارتكاز - فوجدت غصناً ، فتعلقت به ، وانحنت مغطسة الدلو في الماء . ومرت بها لحظة كان الاحتياج غالباً عليها الى درجة ضاعفت قوتها أضعافاً ثلاثة . وحين انحنت هكذا فوق البئر لم تلاحظ ان جيب مئزرها قد أفرغ ما انطوى عليه في البئر . لقد سقطت قطعة الخمسة عشر " سو " في الماء . ولم ترَ كوزيت تلك القطعة ، ولم تسمعها تسقط . لقد سحبت الدلو مليئاً أو يكاد ، ووضعته على العشب .

حتى اذا تم لها ذلك ادركت ان قوتها قد نفدت . كانت راغبة اسد الرغبة في ان تنطلق في الحال ، ولكن الجهد الذي بذلته في ملء الدلو كان عظيماً الى حد جعل من المتعذر عليها ان تخطو ، بعد ، خطوة

واحدة . لقد اضطرت الى الجلوس اضطراراً . فارتمت على العشب وظلت مقرصة هناك .

واغمضت عينيها ، ثم فتحتها من غير ان تدري لماذا ، ولكنها ما كانت تستطيع ان تفعل شيئاً غير ذلك .

والى جانبها كانت المياه المثارّة في الدلو قد احدثت دوائر تشبه أفاعي النار البيضاء .

وفوق رأسها كانت السماء مغطاة بسحاب سوداء عريضة كانت أشبه بذبول من دخان . لقد بدأ قناع الليل الفاجع وكأنه يُطبق ، في غموض ، على هذه الطفلة .

كان المشتري (جوييتير) يغرب في أعماق الافق .

ونظرت الطفلة بعينين ذاهلتين الى ذلك الكوكب الضخم الذي لم تعرفه ، والذي ملأها رعباً . وفي الحق ان الكوكب كان ، آنذاك ، قريباً جداً من الافق ، وكان يجتاز طبقة كثيفة من الضباب خلعت عليه حمرة رابعة . وضخم الضباب ، وقد خُضّب على نحو فاجع ، ذلك الكوكب . كان في ميسور المرء أن يقول انه جرح ساطع .

وهبت من جانب السهل ريح باردة . كانت الغابة مظلمة ، ولم يكن فيها أيما حفيف ، أو أيما ومضة من ومضات الصيف تلك المبهمة الفضة . وانتصبت الاغصان الضخمة على نحو مخيف . وصفرت الادغال الهزيلة المشوهة في البقاع الجرداء من الغابة . وتلوت الاعشاب الطويلة ، تحت ريح الشمال ، مثل الانقليس . وتمايلت العواصج مثل أذرع طوال ذات برائن تلمس فرائس لها . وسامت الريح بعض الاعشاب البرية اليابسة ، فمرت في سرعة ، وبدت وكأنها تهرب مذعورة من وجه شيء كان يطاردها . كان كل شيء من حولها فاجعاً حقاً .

ان الظلمة توقع الدوار في الرأس . فالانسان في حاجة الى النور ، وأيما امرئ بغوص في نقيض النهار يستشعر انقباضاً في الصدر . فحين

تقع العين على السواد ، ترى النفسُ القلقَ . وعند الكسوف ، في الليل ، في الظلمة الفاحمة ، يستبد الحصر النفسي حتى بأقوى الرجال . فما من أحد يستطيع أن يسري وحده ، في الغابة ، ليلاً ، من غير أن يرتعد . الظلمات والاشجار - ضربان من الاعماق الرهيبة . إن واقعاً وهماً ليستبدى في المدى المبهم . ويتمثل ما لا يمكن تصويره تمثلاً طفيفاً ، في وضوح شعبي ، على بضع خطوات منك . ويطفو في المدى أو في دماغك أنت شيء يتواءم لك غامضاً على نحو غريب ، شيء لا سبيل الى الامساك به مثل أحلام الرياحين الهاجمة . إن في الافق لأشباحاً ضاربة . وتنشق روائح الفراغ الاسود الكبير . وبعضف بك الخوف ، وتعصف بك الرغبة في ان تلتفت الى وراه . وتواجه تجايف الليل ، وشراسة الاشياء كلها ، والصور الجائنية الصامتة التي تتلاشى حين تتقدم نحوها ، والتشعّات الفامضة ، وباقات العشب الغضبي ، والبرك الزرقاء الضاربة الى السواد ، والحديداني منعكساً على المأتمى ، ولانهاية الصمت القبرية ، والكائنات المجهولة الممكنة ، وتقابل الاغصان الخفية ، والتواءات الاشجار الخفيفة ، وحفّات طويلة من الاعشاب المرتعشة - تواجه هذا كله من غير سلاح . وليس ثمة شجاعة لا ترتعد ولا تحس بما يشبه العذاب النفسي المبرح . انك لتستشعر شيئاً راعباً ؛ لكأن النفس تترج بالظلام . وهذا الدخول في الظلام مشؤم ، بالنسبة الى الاطفال ، على نحو يجلّ عن الوصف .

الغابات رؤى . وإن خفق أجنحة النفس الصغيرة ليحدث صوتاً كالخسرجة تحت قبتها المائلة .

ومن غير ان نعي ما الذي كانت تعانيه ، استشعرت كوزيت ان مدى الطبيعة اللانهاي الاسود يمسك بها . لم يعد الذعر وحده هو الذي يكتلها ، ولكن شيء ما أشد فظاعة حتى من الذعر . وارتعدت . وانما تعجز الكلمات عن ان تقول اي شيء غريب انطوت عليه تلك

الرعدة التي اثلجتها حتى اعماق الفؤاد . وغدت عينها ضاربة . لقد أحست انها قد تضطر الى العودة الى هناك في الساعة نفسها من الليلة التالية .

ثم إنها شرعت - بضرب من الفريزة ، ولكي تخرج من هذا الوضع الفريد الذي لم تفهم منه شيئاً ولكنه يروّعها - تعدّ بصوت عال : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، إلى العشرة ؛ حتى اذا انتهت ، عاودت للعدّ من جديد . ومكنتها ذلك من استعادة الادراك الواقعيّ للاشياء المحيطة بها . واستشعرت البرد في يديها اللتين تبللتا من جراء استقاظها من البئر . ونهضت . كان الخوف قد عاودها ، وكان خوفاً طبيعياً لا سبيل الى دفعه . ولم يحلّ في ذهنها غير خاطر واحد : ان تقرّ . ان تقرّ بكل ما في قديمها من قوّة ، عبر الغابات ، عبر الحقول ، الى البيوت ، الى النوافذ ، الى الشوارع المضاة . ووقعت عينها على الدلو الذي أمامها . لقد كان الذعر الذي اوقعته السيدة تينارديه في فؤادها شديداً الى درجة جعلتها لا تجرؤ على المضي من غير ان تحمل دلو الماء . وقبضت على عروته بيديها الاثنتين . ولم توفق الى رفع الدلو الا بشق النفس .

وخطت هكذا عشر خطوات او نحوها . ولكن الدلو كان مليئاً ، وكان ثقيلاً ، فاضطرت الى وضعه على الارض . وتنفت لحظة ، ثم امسكت بالعروة ككرة اخرى ، ومضت لسبيلها ، مواصلة السير هذه المرة فترة اطول بعض الشيء . ولكنها اضطرت الى ان تكف عن المسير من جديد . حتى اذا استراحت بضع دقائق ، استأنفت السير . وانما مشّت منخفضة الى امام ، مطأطئة رأسها مثل امرأة عجوز . لقد وثّر ثقل الدلو ذراعيها الهزيلتين وصلبهما . وكانت عروة الدلو تحدر يديها الصغيرتين المبللتين وتلجهما . وبين الفينة والفينة ، كانت تضطر الى التوقف . وكلما توقفت ، كان الماء البارد الذي تطاير رشاشه من الدلو يسقط على ساقيها العاريتين . وانما وقع ذلك في قلب احدي

الغابات ، في موهن من الليل ، وفي الشتاء ، بعيداً عن كل عين بشرية .
كانت طفلة في الثامنة من عمرها . ولم يكن ثمة في تلك اللحظة احد غير
الله يرى هذا الشيء الكئيب .

وأما من غيرك ، وأسفاه !

ذلك بان ثمة اشياء تفتح اعين الاموات في قبورهم .

وقنفت في ضرب من الحشجة الفاجعة . وخنقتها التهنيدات ، ولكنها
لم تجرؤ على البكاء . الى هذا الحد كانت خائفة من السيدة تيناردييه ،
حتى وهي بعيدة عنها . كانت تتخيل دائماً ان السيدة تيناردييه على
مقربة منها .

وأياً ما كان ، فلم يكن في ميسورها ان تقطع شوطاً حسناً من
الطريق ، على هذه الحال ، وكانت تتقدم في ببطء شديد . لقد حاولت
جهداً ان تقصر فترات راحتها ، وان تسير بين كل منها والاخرى اطول
مسافة ممكنة . وتذكرت في ألم نفسي مرير انها قد تحتاج الى اكثر
من ساعة لكي تصل الى مونفيرماي على هذا النحو ، وان السيدة
تيناردييه سوف تضرها . وامتزج هذا الألم النفسي بذعرها الناشئ عن
وحدتها في الغابة ، ليلاً . وأبلاها الاعياء وهي لما تفارق الغابة بعد .
حتى اذا بلغت شجرة الكستناء العجوز التي تعرفها ، وقفت للمرة
الاخيرة ، وقفةً اطول من سابقتها لكي تستريح جيداً . ثم استجمعت
قواها كلها ، ورفعت الدلو كرة اخرى ، واستأنفت السير في شجاعة .
ومع ذلك فلم تنالك المخلوقة الصغيرة المسكينة عن ان تصيح :

— د اوه ! يا السهي ! يا السهي ! ،

وفي تلك اللحظة استشعرت فجأة ان ثقل الدلو قد تلاشى . كانت
يدٌ ، بدت لها هائلة ، قد أمسكت اللحظة بعروة الدلو ، فهي تحمله
في يسر . ورفعت رأسها . كان شكلٌ اسودٌ ضخم ، مستقيم منتصب
القامة ، يمشي الى جانبها في الظلام . انه رجلٌ كان قد اقبل من

ورائها ، ولم تكن قد احسّت بقدومه . ومن غير ان يقول كلمة ،
كان هذا الرجل قد قبض على عروة الدلو الذي تحمله .
إن قة غرائز لجميع أزمات الحياة .
ولم تستشعر الطفلة خوفاً ما .

٦

وهو ما قد ينهض دليلاً على

ذكاء بولا تروويل

في أصل يوم الميلاد نفسه ذاك ، من عام ١٨٢٣ ، مشى رجل " فترة "
طويلة في أشد أقسام و جادة المستشفى ، في باريس وحشة وانعزالاً .
وكانت تبدو على وجه هذا الرجل سباً من يبحث عن مكان يبيت فيه ؛
ولقد تراهى وكأنه يؤثر الوقوف عند أكثر البيوت تواضعاً في ذلك
الطرف الحرب من ضاحية و سان مارسو ، .
رلسوف نرى في ما بعد ان ذلك الرجل استأجر ، في الواقع ،
غرفة في ذلك الحي المنعزل .

وكان هذا الرجل ، بملابسه وبشخصه كله يحقق النموذج الكامل لما
يمكن ان ندعوه متسول المجتمع المترف - بؤس متناهٍ تمازجه نظافة
متناهية . وذلك مزاج نادر جداً يوقع في القلوب ذلك الاحترام المزدوج
الذي نشعر به نحو الرجل الفقير جداً ، ونحو الرجل الفاضل جداً . كان
يعتمر بقبعة مستديرة عريضة في القِدَم ، ومُفرشاة في عناية ، ويرتدي سترة
طويلة (ريدنفوت) بالية مهترئة الحياوط مفصّلة من جوخ خشن أصفر
ضارب الى لون التراب الحديدي ، وهو لون لم يكن شديد الغرابة في

ذلك العهد ، وصدره واسعة ذات جيوب عتيقة الزي ، وبنطلوناً أسود أحال البلى لونه ، عند الركبتين ، الى رمادي ، وجوربين صوفيين أسودين ، ويتنعل حذاء غليظاً ذا أبازيم نحاسية . ولقد كان في ميسور المرء ان يزعم انه مؤدب قديم لأسرة كبيرة انقلب من المهجر الى الوطن . ومن شعره الأشيب بالكلية ، ومن جبينه المتفرض ، ومن شفثيه الزرقاوين الضاربين الى للسواد ، ومن وجهه حيث كل شيء بنم عن الاعياء والسأم من الحياة ، كان خليقاً بالمرء ان يحسب انه تخطى السنين منذ زمن بعيد . في حين ان خطواته الثابتة وإن تكن بطيئة ، والعزم الفريد الذي يسم حركاته كلها ، كانت تخيل الى المرء أنه لم يكد يبلغ الخمسين . وكانت لغضنات جبينه حسنة الاتاق فهي قادرة على ان تحجب اليه ايما شخص يتأمل في انتباه . وكانت شفثه تتقلص في تعبير عجيب بدا قاسياً ، ومع ذلك فقد كان متواضعاً . أما في أعماق عينيه فكان صفاء فاجع لا سبيل الى وصفه . وكان يحمل بيده اليسرى صرة صغيرة مشدودة بمندبل . على حين كان يتوكأ بيده اليمنى على شبه عصا قطعت من سياج من الاشجار الشائكة . وكانت هذه العصا قد سويت في بعض العناية ، ولم تكن لتبدو بشعة جداً . لقد ازبلت عُقدها وُصِّلت فهي ملساء ، ولقد جعل لها من الشمع الأحمر رأس مرجاني . كانت هراوة ، ولكنها بدت عصاً من العصي .

وليس يجتاز تلك الجادة غير قليل من العابرين ، وبخاصة في فصل الشتاء . ولقد بدا أن هذا الرجل يجتنب الناس اكثر مما يسعى الى لقاءهم ، ولكن من غير تكلف .

في ذلك العهد كان الملك لويس الثامن عشر يقصد كل يوم تقريباً الى « شوازي لو روا » . كانت احدى نزواته المفضلة . وحوالي الساعة الثانية ، وعلى نحو لا يكاد يتغير ، كان الناس يرون العربدة الملكية

وموكب الفرسان الملكي يخترقان «جادة المستفى» ، باقى ما يستطيعان من السرعة .

وكان ذلك يقوم مقام الساعة عند نسوة الحيّ الفقيرات اللواتي كنّ يقلن : « انها الساعة الثانية . ها هو ذا يرجع الى التويلري . »

وكان بعض القوم يركضون ، وكان بعضهم الآخر يتنحّون ، اذ ما ان يمر ملك في شارع حتى تسوده جلبة وضجيج . رالى هذا ، فقد كان ظهور لويس الثامن عشر وغيابه مجدّان هزةً انفعالية في شوارع باريس . فقد كان موكبه سريعاً ، ولكنه مهيب . كان هذا الملك العاجز مولعاً بسرعة السّوق . لقد اعوزته المقدرة على المشي فرغب في العَدْو . والواقع ان هذا المُتَعَدِّ كان خليقاً به ان يستشعر مزيداً من السعادة لو ان البرق كان له سائقاً . لقد اخترق الشوارع ، هادئاً قاسياً ، وسط السيوف المسلولة . كانت عربته الضخمة ، المذهبة تذهيباً شاملاً ، المزدانة بأغصان الزنبق المرسومة على مصاريعها ، تكررّ في صخب . كان المرء لا يكاد يجد متسعاً من الوقت لالقاء نظرة عليها . وفي الزاوية الخلفية اليمنى ، فوق وسائل مغطاة بالاطلس الابيض ، كان يُرى وجهٌ عريض ، تثبتٌ احمر اللون ، وجبينٌ «نضج» منذ برهة يسيرة على طريقة الطائر المسكيّ ، وعينٌ «فخورة» ، قاسية حادة ، وابتسامة أشبه بابتسامة الرجل الحسن الثقافة ، وكتّافتان ضخمتان ذواتا اهداب حلزونية الشكل منسدلة فوق بذلة من بذلات المواطنين ، والجزءُ الذهبية ، و صليب القديس لويس ، و صليب جوقة الشرف ، ووسام الروح القدس الفضي ، وبطن كبير ، وعصابة عريضة زرقاء . ذلك كان الملك . وخارج باريس ، كان يضع قبعته ذات الريش الابيض على ركبتيه المغلفتين بلفافتي ساق انكليزيّتين عاليتين ، حتى اذا عاد الى المدينة وضع قبعته على رأسه ، حانياً هامته بالتحية بعض الشيء . كان ينظر ، في برود ، الى الناس الذين كانوا يبادلونه نظرتهم . وحين ظهر للمرة الاولى في حيّ سان مارسو كان كل ما وُفق

اليه من نجاح مقصوراً على هذه الكلمة التي وجهها احد أبناء الحي الى رفيقه : « ذلك الرجل البدن هو الحكومة . »

واذن فقد كان مرور الملك المحقق حدوثه في الساعة نفسها هو تحدث « جادة المستشفى » اليومي .

ولقد كان واضحاً أن ذلك المتجول ذا السترة الطويلة الصفراء لم يكن من أبناء الحي ، ولعله لم يكن من أبناء باريس ، اذ كان يجمل هذا الحدث . فحين انطلقت العربّة الملكية ، عند الساعة الثانية ، نحو الجادة ، بعد اجتازت « لا ساليتيريير » ، تحيط بها كوكبة من فرسان الحرس الملكي الموشاة ملابسهم بالفضة ، بدا ذلك الرجل ذاهلاً ، بل بدا مروّعاً تقريباً . لم يكن ثمة احد غير عند مفرق الزقاق ، فارتدت على جناح السرعة الى ما وراء زاوية الجدار الجانبي ، ولكن هذا لم يحل بين دوق دافريه وبين رؤيته . وكان الدوق دافريه ، بوصفه ضابط الحرس المكلف بمرافقة الملك ذلك اليوم ، جالساً في العربّة تجاه الملك . فقال لجلالته : « هوذا رجل » تبدو على وجهه سياء بغضة . » وبصر به بعض رجال الشرطة الذين كانوا 'يخلون الطريق للموكب الملكي ، ايضاً ، فأمر واحد منهم بأن ينبعه . ولكن الرجل غاص في ازقة الضاحية المنعزلة . حتى اذا شرع الليل يحيط فقد الشرطي أثره ، على ما هو ثابت من تقرير 'قدم في الليلة نفسها الى الكونت آنغلير ، وزير الدولة ، مدير البوليس .

وحين أضلّ الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء الشرطي ، استدار ملتفتاً مرات عديدة لكي يتأكد من ان احداً لا يتبعه . وعند الساعة الرابعة والربع ، يعني بعد هبوط الليل ، مر امام مسرح « لا بورت سان مارتان » حيث كانت تقدم ذلك اليوم مسرحية « المحكوم عليها بالاشغال الشاقة » . وراعه هذا الاعلان المضاء بمصابيح المسرح العاكسة للنور ، إذ توقف عنده ، على الرغم من إسراره في السير ، لكي يقرأه .

وبعد لحظة انتهى الى زقاق « لا بلانشيت » غير النافذ ، ودخل « القصعة الصيفية » ، حيث كان آنذاك مكتب عربية لاني . وكانت هذه العربية تنطلق في الساعة الرابعة والنصف . كانت الجياد قد «قرنت اليها » وكان المسافرون ، وقد ناداهم السائق ، يتسلقون مسرعين سلم العربية الحديدية العالية .

وتساءل الرجل :

— « هل عندك مقاعد ؟ »

فاجابه السائق :

— « لم يبق غير مقعد واحد ، الى جانبي ، على السدة » .

— « سوف آخذه » .

— « إصعد » .

بيد ان السائق التي ، قبل ان ينطلق ، نظرة على ملابس المسافر الخفيفة ، وصغر صرته ، وتقاضى أجره .

وسأله السائق :

— « اذهب أنت حتى لاني ؟ »

قال الرجل :

— « نعم » .

ودفع المسافر أجر الرحلة حتى لاني .

وانطلقت العربية بهم . حتى اذا اجتازت باب المدينة حاول السائق ان يدخل مع المسافر في حديث ، ولكن هذا الاخير لم يجب بغير كلمات مفردة . وعندئذ آثر السائق ان يصفر ، وان يشتم الحيل .

وتلقع السائق بمعطفه . كان الجو بارداً . اما المسافر فبدا وكأنه لا يفكر فيه . وهكذا اجتازوا « غورني » و « نوبي سور مارن » .

وحوالى الساعة السادسة مساءً ، بلغوا « شيل » . وتوقف السائق ، لكي يبيع جياده من عناء الرحلة ، امام فندق سائقي العربات المقام في الابنية للقديسة من الدير الملكي .

وقال الرجل :

- « سوف أترجل هنا » .

وامسك بصرته وعصاه ، ووثب من العربية .

وبعد لحظات اختفى عن العيان .

إنه لم يدخل الى الفندق .

حتى اذا انطلقت العربية بعد بضع دقائق قاصدة الى لانبي لم تلقه في شارع لانبي الرئيسي .

والثفت السائق الى المسافرين الراكبين داخل العربية وقال :

- « هو ذا رجلٌ ليس من هذه المنطقة ، فأنا لا أعرفه . إن مظهره

يدل على أنه لا يملك فلساً ، ومع ذلك فهو لا يتشبث بالدرهم . إنه

يدفع أجر الرحلة الى « لانبي » ثم لا يذهب الى أبعد من « شيل » .

الدنيا ليل ، وجميع البيوت موصدة ، وهو لا يدخل الى الفندق ،

ونحن لا نلقاه في طريقنا . ينبغي ان يكون ، اذن ، قد غاص في

باطن الارض . »

ولم يكن الرجل قد غاص في باطن الارض . ولكنه كان قد اجتاز

بخطى واسعة ، تحت جنح الظلام ، الشارع الرئيسي في « شيل » . ثم إنه

انعطف الى الشمال ، قبل ان يبلغ الكنيسة ، سالكا الطريق القروية المؤدية

الى مونفيرماي ، مثل رجل عرف المنطقة واتخذ تلك الطريق من قبل .

وانطلق مسرعاً في تلك السبيل . حتى اذا انتهى الى النقطة التي

تقاطع عندها مع الطريق القديمة التي تنهض الاشجار على جانبيها ، والتي

تمتد من « غاني » الى « لانبي » ، سمع وقع أقدام يقترب منه .

فسارع الى الاختفاء في احدى الحفر ، وتربص هناك ريثما أمسى المارة

على مسافة بعيدة . وفي الحق أن ذلك الصنيع كان زيادة في الحذر ، لا

داعي لها ، لأن الليلة كما ذكرنا كانت احدى ليالي كانون الأول الحالكة

جداً . ولم يكن المرء ليرى ، في جهد ، غير نجمين او ثلاثة نجوم ،

في السماء

هنا ، عند هذه النقطة ، كان يُصْعَدُ الى الكتيب . ولم ينقلب الرجل الى طريق مونفيرماي . لقد انعطف الى اليمين ، عبر الحقول ، واتخذ سبيله ، في خطى سريعة ، نحو الغابة .

حتى اذا بلغ الغابة تمهل ، وانشأ بنعم النظر في الأشجار جميعاً ، متقدماً خطوة خطوة وكأنه يلتبس أو يتبع طريقاً خفية لا يعرفها احد غيره . وانقضت لحظة بدا فيها وكأنه ضلّ عن سبيله ، ووقف متردداً . واخيراً وصل بتحصه طريقه في الظلام على نحو موصول ، الى بقعة في الغابة جرداء حيث كان ركام ضخّم من الحجارة الضاربة الى البياض . وتقدم مسرعاً الى تلك الحجارة ، وراح يفحصها في عناية ، من خلال ظلام الليل ، وكأنه يستعرضها كما يُستعرض الجند . وكانت على بضع خطوات من ركام الحجارة شجرة ضخمة مظّة بتلك النوامي الغريبة التي هي نأليل النبات . فمضى الى تلك الشجرة ، وأمرّ يده فوق لحاء الجذع ، وكأنما كان يسمى الى ان يتعرّف ويحصى جميع النأليل . وتجاه هذه الشجرة ، التي كانت شجرة دردار ، كانت كتفاة مصابة بداء سقوط القشر سقوطاً ذاتياً ، وكانت قد ضمّدت بعصابة من الزنك مُتمتت عليها . فما كان من الرجل إلا ان رفع نفسه ، على رؤوس أصابعه ، ولمس عصابة الزنك تلك .

ثم انه قرق الارض ، بقدميه ، عند الفسحة القائمة ما بين الشجرة والحجارة ، فترة من الزمن ، مثل رجل يريد ان يتحقق أن التربة لم تُقلب منذ قريب .

حتى اذا تمّ له ذلك مضى لسبيله مستأنفاً سيره خلال الغابة . كان هو ذلك الرجل الذي التقى بكوزيت .

ذلك أنه فيما كان يتخذ سبيله خلال الغابة التي تقطع بعض اشجارها بين الفينة والفينة ، متجهاً نحو مونفيرماي ، بصّر بهذا الظل الصغير

الذي كان يشقّ طريقه في أنين ، والذي وضع على الارض حملاً ما ،
ثم رفعه ، واستأنف السير . كان قد اقترب من ذلك الظلّ ، وادرك
انه طفلة صغيرة جداً تحمل دلوّاً هائلاً من الماء . وعندئذ مضى الى
الطفلة ، وأمسك بعروة الدلو في صمت .

٧

كوزيت مع المجهول جنباً الى جنب ، وفي غمرة الظلام

- ولم تستشعر كوزيت ، كما قد قلنا ، خوفاً ما .
وتحدّث الرجل اليها . كان صوته رزيناً يجاور المس .
- « إن هذا الذي تحمله ثقيل جداً عليك ، يا بُنَيَّتِي . »
فرفعت كوزيت رأسها وأجابت :
- « نعم ، يا سيدي . »
وأضاف الرجل :
- « أعطني اياه . سوف أحمله عنك . »
وخلّت كوزيت الدلو . وانشأ الرجل يمشي الى جانبها .
وقال مخاطباً نفسه :
- « الواقع انه ثقيل جداً . »
ثم أردف :
- « ايتها الصغيرة ، ما سنك ؟ »
- « ثماني سنوات ، يا سيدي . »
- « وهل أقبلت على هذا الشكل من مكان بعيد ؟ »

- « من النبع الذي في الغابة . »
- « وهل انت ذاهبة الى مكان بعيد ؟ »
- « انه يبعد ربع ساعة كاملة ، من هنا . »
- واعتصم الرجل بالصمت لحظة ، ثم قال فجأة :
- « اذن فليس لك أم ؟ »
- فاجابت الطفلة :
- « لست ادري . »
- وقبل ان يجد الرجل منسماً من الوت لا ستناف الكلام ، اضافت :
- « لا اعتقد . ان جميع الاطفال لهم أم . اما انا فليس لي أم . »
- وبعد لحظة من الصمت ، اردفت :
- « أعتقد انه لم يكن لي أم في يوم من الايام . »
- وكفّ الرجل عن السير ، ووضع الدلو على الارض ، ثم انحنى ، ووضع يديه على كتفي الطفلة ، محاولاً ، في جهد ، ان ينظر اليها ، وان يرى وجهها في الظلام .
- وارسم وجه كوزيت المهزول الضعيف البنية ارتساماً غامضاً فحت ضوء السماء القاتم .
- وقال الرجل :
- « ما اسمك ؟ »
- « كوزيت . »
- وبدا وكأن الرجل عرّته رجفة كهربائية . وعاد النظر اليها ، ثم رفع يديه عن كتفيها ، وتناول الدلو ، واستأنف السير .
- وبعد لحظة ، سأل :
- « اينها الطفلة الصغيرة ، ابن تكتين ؟ »
- « في مونفيرماي ، اذا كنت تعرفها . »
- « إلى هناك نحن ذاهبان ؟ »

- « نعم يا سيدي . »
وسكت كرة اخرى ثم اضاف :
- « ومن الذي ارسلك الى الغابة لتجلبى الماء في هذه الساعة
من الليل ؟ »
- « مدام تيناردييه . »
وتابع الرجل في جرس حاول ان يجعله لامبالياً ، ولكنه كان
ينطوي برغم ذلك على ارتعاشة فريدة :
- « وماذا تعمل مدام تيناردييه هذه ؟ »
فقال الطفلة :
- « إنها سيديتي . انها تدير الفندق . »
فقال الرجل :
- « الفندق ؟ حسن ، سوف أذهب وأبيت هناك هذه الليلة . دليني على
الطريق . »
فقال الطفلة :
- « نحن ذاهبان الى هناك . »
ومشى الرجل في سرعة بالغة . وتبعته كوزيت من غير ما عسر .
إنها ما عادت تتشعر التعب . وبين الفينة والفينة ، كانت ترفع عينيها نحو
هذا الرجل في ضرب من السكون والثقة التي تمتنع على الوصف . انها لم
تُعلم قط ان تلتفت الى العناية الالهية وتصلي ، ومع ذلك فقد أحسّت
في صدرها بشيء يشبه الامل والبهجة ، شيء ارتفع نحو السماء .
وانقضت بضعة دقائق ، وتكلم الرجل :
- « اليس هناك خادم في فندق مدام تيناردييه ؟ »
- « لا ، يا سيدي . »
- « هل أنت وحدك ؟ »
- « نعم ، يا سيدي . »

وتقضت فترة اخرى من الصمت . ورفعت كوزيت صوتها :

— « يعني ان هناك بنتين صغيرتين . »

— « أي بنتين صغيرتين ؟ »

— « بونين وزيلما . »

وبسطت الطفلة ، على هذه الشاكلة ، الاممين الرومانتيكيين العزيزين على السيدة تيناردييه .

— « ومن بونين وزيلما ؟ »

— « انهما آنسنا مدام تيناردييه ، وفي استطاعتك ان تقول بنتيهما . »

— « وما تفعل هاتان البنتان ؟ »

فقال الطفلة :

— « اوه ، انهما دميئتان جميلتان ؛ شيئان عليهما ذهب ، انهما مليئتان

الشفل . انهما تلعبان . وانهما تتسليان . »

— « طول النهار ؟ »

— « نعم يا سيدي . »

— « وأنت ؟ »

— « أنا ! أنا اشتغل . »

— « طول النهار ؟ »

ورفعت الطفلة عينيها الواسعتين اللتين تفرقت فيها دمة لم يكن من المبسور رؤيتها في الظلام ، واجابت في رقة :

— « نعم ، يا سيدي . »

ثم اضافت بعد فترة من الصمت :

— « وفي بعض الاحيان ، حين انهي عملي ، وتربغان هما في ذلك ، أتسلى أنا ايضاً . »

— « وكيف تتسلين ؟ »

— « قدر ما أستطيع . انهم يتركونني وحدي ، ولكن ليس عندي

لعب كثيرة . و « بونين » و « زيلما » لا تسمحان لي بان ألعب بلعبهما ، ولا

يوجد عندي غير سيف وصاحي صغير ليس اكبر من هذا . ،
واظهرت الطفلة خنصرها .

-- « وليس بقاطع أبداً ؟ »

فقلت الطفلة :

-- « بلى ، يا سيدي . انه يقطع الحسّ ورؤوس الذباب . »

وبلغا القرية ، وقادت كوزيت الغريب عبر الشوارع . لقد اجتازا
بالخبز ، ولكن كوزيت لم تفكر بالخبز الذي كان عليها ان تشتريه . ولم
يوجه اليها الرجل ايما سؤال آخر ، معتصماً بصمت فاجع . حتى اذا تخطيا
الكنيسة ، سأل الرجل كوزيت حين رأى تلك الدكاكين كلها :

-- « إذن ، فهذا أوان السوق الموسمية ؟ »

-- « لا ، يا سيدي ، انه عيد الميلاد . »

وحين اقتربا من الفندق ، مست كوزيت ذراعه في جزع .

-- « ميو ؟ »

-- « ماذا ، يا بنيتي ؟ »

-- « لقد صرنا على مقربة من البيت . »

-- « ثم ماذا ؟ »

-- « أتحب ان تدعني احمل الدلو الآن ! »

-- « لماذا ؟ »

-- « لان مدام تيناوديه تضربني اذا وأت شخصاً يحمله عني .

واعطاها الرجل الدلو . وبعد لحظة ، كانا بباب المطعم الحقيق .

ما أبغض ان تضيف فقيراً

ربما كان غنياً

ولم تمالك كوزيت عن ان تلقي نظرة على الدمية الضخمة التي كانت
ما تزال معروضة في دكان الدمى ؛ ثم قرعت الباب . وفتح الباب ، وظهرت
السيدة تيناردييه تحمل شمعة في يدها .

— « آه ، هذا انت ، ايها الشحاذة الصغيرة ! الحمد لله ، لقد مشيت على
هلك اكانت تلعب ، الوقعة ! »
فقال كوزيت مرتعدة :

— « سيدتي ، هناك رجل سيد يريد ان ينزل في الفندق . »
وفي مرعة بالغة ، استبدلت السيدة تيناردييه بسيماها الضاربة انسراحة
وجه متوردة — وتلك القدرة على الاستبدال يتفرد بها الفنـدقيون ، فهم
يصطنعونها لحظة بشاؤون — ونظرت الى الوافد الجديد بعينين متلهفتين .
وقالت :

— « اهو هذا السيد ؟ »
فأجابها الرجل ، رافعاً يده الى قبعته :
— « نعم ، يا سيدتي . »

إن المسافرين الاغنياء ليسوا على هذا اللطف كله . ومن هنا كان في هذه
الايام ، وفي مشهد ملابس الرجل وامتعته التي استعرضتها السيدة تيناردييه
بنظرة واحدة ، ما جعل الملامح الحبيبة تختفي ، والسبا الضاربة تعساود
الظهور . وازافت في جفاف :

— « ادخل ، ايها الرجل الساذج . »

ودخل الرجل الساذج . والقت السيدة تيناردييه نظرة اخرى عليه ، متأملة على نحو خاص في سترته الطويلة التي كانت بالية بالكلية ، وقبعته المنكسرة بعض الشيء . وبهزة رأس ، وبهزة عين ، وتفرض أنف ، شاورت زوجها الذي كان لا يزال يعاقر الحمر مع سائقي العربات . واجاب الزوج بهزة البتابة تلك التي تعني حين 'تردّف' بحدّ الشفتين ، في مثل هذه الحال : فقر مدقع . وعندئذ صاحت السيدة تيناردييه :

- « آه . ايها الرجل الفاضل ، انا آسفة جداً ، ولكن ليس عندي مكان . »

فقال الرجل :

- « ضعيني حيث شئت . في العلّية ، في الاسطبل . سوف ادفع وكأنني احتل غرفة . »

- « اربعون سو . »

- « اربعون سو . ليكن ذلك . »

- « مقدماً . »

فهمس احد سائقي العربات في اذن السيدة تيناردييه :

- « اربعون سو ! ولكن الاجرة عشرون سو ليس غير . »

فاجابت السيدة تيناردييه بصوت مهروس ايضاً :

- « ولكنها اربعون بالنسبة اليه . انا لا أنزل الفقراء في فندقتي

بأقل من ذلك . »

وأضاف زوجها في رقة :

- « هذا صحيح . إن قبول هذا الصنف من الناس يؤدي الى

خراب المؤسسة . »

وفي غضون ذلك ، كان الرجل - بعد ان ترك عصاه وصرته على

أحد المقاعد - قد جلس إلى طاولة كانت كوزيت قد وضعت عليها ،

فكرة وحيدة : الخوف .

كان الخوف منشوراً عليها . كانت مغطاة به ، اذا جاز التعبير . لقد ألصق الخوف مرفقيها بجانبها ، وردّ عقبيها تحت ثنورتها ، وجعلها تحت أقلّ حيز ممكن ، وحملها على ان لا تنفس الا بالقدر الضروري ؛ وكان قد أمسى ما يمكن ان ندعوه عاداتها الجسدية ، فلا سبيل الى تغيير تلك العادة إلا اذا قصد بالتغيير الزيادة والتعقيد . كان في أعماق حدقتها زاوية يكمن فيها الذعر .

وكان خوفها ذلك من القوة بحيث أنها ، حين رجعت الى الفندق وقد بللت المياه ثيابها كلها ، لم تجرؤ على ان تتقدم نحو النار تحفيهاً لثيابها . لقد انصرفت الى عملها في صمت .

وكانت السّيا التي تطبع محيّا هذه الطفلة ذات الثمانية أعوام كثيفة ، عادةً ، فاجعة ، في بعض الاحيان ، الى درجة تجعلها تبدو ، في بعض اللحظات ، وكأنها في سبيلها الى ان تصبح معتوهة أو شيطانية . لأنها لم تعرف قط ، كما ذكرنا من قبل ، ما هي الصلاة ، وانها لم تطأ قط أرض كنيسة في يوم من الايام . كانت السيدة تيناردييه تقول : « وهل عندي منع من الوقت لمثل ذلك ؟ »

ولم يرفع الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء عينيه عن كوزيت . وفجأة ، صاحت السيدة تيناردييه :

« أوه ! لقد نسيت ! اين ذلك الرغبة ؟ »

وسارعت كوزيت الى الخروج من تحت الطاولة ، وفقاً لما ألوف عادتھا كلما رفعت السيدة تيناردييه صوتها .

كانت قد نسيت ذلك الرغبة تماماً . ولجأت الى الوسيلة التي يصطنعها الاطفال الذين يعصف بهم الذعر على نحو موصول . لقد كذبت .

« مدام ، كان الحُزْبُ مغلقاً . »

« كان من الواجب عليك ان تقرعي الباب . »

- « لقد فعلت ، يا سيدتي . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « ان الحُبار لم يفتح . »

فقلت السيدة تيناردييه :

- « سوف أرى غداً ما اذا كان هذا صحيحاً . واذا كنت تكذِبن

فسوف أرقصك رقصة تعجبك . وفي انتظار ذلك ، أعيدي إليّ قطعة

الحُمة عشر سو . »

وغابت كوزيت يدها في جيب مئزرها ؛ واخضرت لونها . ان قطعة

الحُمة عشر « سو » لم تكن هناك .

وقالت السيدة تيناردييه :

- « تعالي . ألم تسمعي ؟ »

وقلبت كوزيت جيبيها جاعلةً داخلها خارجها ، فلم يكن هنالك شيء .

ما الذي يمكن ان يكون قد حلّ بتلك القطعة النقدية ؟ ولم تجد

المسكينة الصغيرة ما تقوله . لقد تحجّرت تحجّراً .

وصاحت السيدة تيناردييه :

- « هل أضعتها - قطعة الحُمة عشر سو ؟ أم تريدن ان تسرقها

مني ؟ »

وفي الوقت نفسه بسطت ذراعها نحو السوط المعلق عند زاوية الموقد .

وكان في هذه الحركة الرهيبة ما منع كوزيت القوة على ان تصيح :

- « اغفري لي ، يا سيدتي ! أنا لن أفعل ذلك بعد اليوم . »

ونزعت السيدة تيناردييه السوط .

وفي غضون ذلك ، كان الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء يبعث في

جيب صدره ، من غير ان يلحظ أحدهُ هذه الحركة . أما المسافرون

الآخرون فكانوا يحسنون الحُر ، او يلعبون بالورق ، فهم لا يلتفتون

الى شيء .

وتلوت كوزيت بالألم النفسي المرير في زاوية الموقد ، محاولة أن
تضمّ وتخفي أوصالها البائسة نصف العارضة . ورفعت السيدة تبناردييه
ذراعها .

فقال الرجل :

- « عفراً ، يا سيدتي ، ولكنني رأيت في هذه اللحظة شيئاً يسقط
من جيب متّز هذه الفتاة الصغيرة ويكرّ على الارض . قد يكون
ذلك ما تظلين . »

وفي الوقت نفسه ، انحنى ، وبدأ وكأنه يبحث في ارض المكان
لحظة من الزمن .

ثم قال وهو ينهض :

- « هكذا تماماً . ها هي ذي . »

وقدّم قطعة نقدية فضية الى السيدة تبناردييه .

فقال : « أجل ، هذه هي . »

ولم تكن هذه تلك ، اذ كانت قطعة من فئة العشرين « سو » ،
ولكن السيدة تبناردييه وجدت فيها ربحاً لها . ووضعت القطعة النقدية
في جيبها ، واكتفت بإلقاء نظرة ضاربة على الطفلة ، قائلة :

- « لا تدعي ذلك يحدث مرةً اخرى ، مدى الدهر . »

ورجعت كوزيت الى ما كانت السيدة تبناردييه تدعوه « جحرها » .
وشرعت عيناها الواسعتان ، المسترّتان على المسافر المجهول ، تفحصان
عن شيء لم تعرفه قط من قبل . وكان ذلك لا يزال مجرد دهش ساذج ،
ولكن ضرباً من الثقة المشدوّهة كان يمازجه .

وسألت السيدة تبناردييه المسافر :

- « بالمناسبة ، هل تريد عشاء ؟ »

ولم يجيبها . لقد بدا وكأنه يفكر تفكيراً عميقاً .

ولثلثت* السيدة تيناردييه :

- « ما هذا الرجل ؟ إنه متسول مخيف . هو لا يملك فلساً يتعشى به . أيعتزم ان يدفع اليّ أجر مبيتة فقط ؟ من حسن الطالع ، على أية حال ، انه لم يفكر في سرقة المال الذي كان على الارض . ، وفتح باب ، وأقبلت إيبونين وآزليما .

كانتا فتاتين صغيرتين جميلتين حقاً ؛ وكانتا مدينتين اكثر منهما ريفيتين ، شديدتي الفتنة ، احدهما يجذائلها الكتنائية الحسنة الصقال ، والاخرى بضفاثرها الطويلة السوداء المنسدلة على ظهرها ؛ وكانت كل منهما نشيطة ، نظيفة ، مبتلة ، ناضرة ، تطفح صحة الى درجة تجعل النظر اليها بهجة وممتعة . كانتا ترتديان ملابس توقع الدفء في جسدتهما ، ولكن في فنّ أموميّ جعل غلظ النسيج لا يذهب بشيء من دلال الزينة . لقد وقّيتا شر الشتاء من غير ما يحور الربيع . وأراقت هاتان الفتاتان الصغيرتان الضياء من حولهما . والى هذا ، فقد كانتا قابضتين على زمام السلطة . ففي زينتهما ، وفي بهجتهما ، وفي الضجة التي أحدثتاها كانت ثمة سيادة مطلقة . وحين دخلتا ، قالت السيدة تيناردييه لهما في جرس مقرّع كان يور بالهيام :

- « آه ، انتما هنا اذن ، ايها الطفلتان ! »

ثم إنهما وضعتهما على ركبتيها ، الواحدة إثر الاخرى ، وانشأت غلّس شعرهما عاقدةً أشراطتهما ، لتتركهما آخر الامر تذهبان بعد ان هزّتهما تلك الهزة الخاصة بالامهات ، وصاحت :

- « أهما رديئتا الهندام ! »

ومضتا وجلستا قرب نار الموقد . وكانت لدهما دمية ، فراحتا تعلقبانهما على رُكبهما ظهراً لبطن وبطناً لظهر ، مغرّدتين مختلف ضروب التغريد . وبين الفينة والفينة ، كانت كوزيت ترفع عينها عن زرّدها ، وتنظر

* ثلثت كلامه : لم يبيته .

اليها في كآبة بينا هما تلعبان .

ولم تنظر إيونين وآزليما الى كوزيت . فقد كانت عندهما شبه بكبة . إن هاته الفتيات الصغيرات تبلغ اعمارهن ، مجتمعات ، ثمانية وعشرين عاماً . ومع ذلك فقد كن في تلك السن يمثلن المجتمع البشري كله : الحسد من جانب ، والازدراء من الجانب الآخر .

كانت دمية الشقيقتين تيناردييه ناصئة جداً ، عتيقة جداً ، محطمة كلياً . ولقد بدت برغم ذلك رائعة في عيني كوزيت التي لم يكن لها في يوم من ايام حياتها دمية ، دمية حقيقية ، اذا اردنا ان نستعمل مصطلحاً يفهمه الاطفال جميعاً .

ونجاة ، لاحظت تيناردييه الزوجة - التي كانت لا تقنأ تذرع الغرفة جيئة وذهاباً - أن انتباه كوزيت كان مشوشاً ، وانها بدلاً من ان تنصرف الى العمل كانت مشغولةً بالفتاتين الصغيرتين اللاعبتين .

وصاحت :

- « اوه ، لقد قبضت عليك ! تلك هي الطريقة التي تعملين بها ! سوف أكرهك على العمل بضربات السوط . اجل ، سوف افعل ! »
ومن غير ان يغادر الغريب كرسيه ، التفت الى السيدة تيناردييه ، وقال مبتسماً في خجل :

- « ولكن ، يا سيدتي ، دعها تلعب ! »

ولو قد صدرت هذه الرغبة عن رجل كان قد أكل شريحة من لحم الضأن ، وشرب زجاجتين من الخمر اثناء تناوله العشاء ، ولم يكن له مظهر شحاذ موّع ، اذن لكانت أمراً مطاعاً . أما ان يجرؤ رجل يعتبر بتلك القبعة فيسمح لنفسه بإبداء رغبة ما ، وأما ان يجرؤ رجل يرتدي تلك السترة الطويلة فيسمح لنفسه بأن تعبر عن ارادة ما ، فذلك ما اعتقدت السيدة تيناردييه ان من غير الجائر التسامح به . فأجابت في حدة :

- « يجب ان تعمل ، لأنها تأكل . أنا لا أعيلها لكي لا تعمل شيئاً . »

فقال الغريب في ذلك الصوت العذب الذي يتناقض الى حد عجيب مع ثيابه الشبيهة بثياب الشحاذين ، وكنفيه الشبيهتين بكنفي الحالمين :
- « وما الذي تعمله ؟ »

وتنازلت تيناردييه الزوجة فأجابت :

- « جوارب ، اذا شئت . جوارب لبنتي الصغيرتين اللتين لا تملكان شيئاً من ذلك يستحق الذكر ، واللّتين مستظطران ، بعد قليل ، الى السير حافيتين . »

ونظر الرجل الى رجلي كوزيت المراوين المثيرتين للشفقة ، وأضاف :
- « ومنى سننهي هذين الزوجين من الجوارب ؟ »

« انما في حاجة بعدد الى ثلاثة ايام او اربعة ايام على الاقل . يا لها من فتاة كسول ! »

- « وكم سيساوي هذان الزوجان من الجوارب حين يتم صنعهما ؟ »
والقت السيدة تيناردييه عليه نظرة احتقار .

- « ثلاثين سو ، على الاقل . »
فقال الرجل :

- « انعطيتني إياهما مقابل خمسة فرنكات ؟ »

فصاح سائق عربة كان يستمع الى الحديث ، في ضحكة مجلجلة :

« يا الهي ! خمسة فرنكات ! انها خدعة اخمس رصاصات ! »

واعتقد تيناردييه انه يتحتم عليه ان يتولى الكلام :

- « نعم ، يا سيدي ، اذا كان ذلك يرضي هواك ففي استطاعتك ان

تأخذ زوجي الجوارب. هذين بخمسة فرنكات . نحن لا نستطيع أن نضنّ على النزلاء بشيء . »

ف قالت تيناردييه الزوجة في طريقةها المختصرة الجازمة :

- « يجب ان تدفعها في الحال . »

فاجاب الرجل :

- « سوف اشترى زوجي الجوارب هذين . »

ثم اضاف صاحباً من جيبه قطعة من ذات الحمة الفرنكات ووضعها على الطاولة :

- « ولسوف ادفع ثمنها . »

ثم التفت نحو كوزيت :

- « والآن ، لقد اصبح شغلك ملكاً لي . إالعي يا بنيتي ! »

واهتزّ سائق العربات لقطعة الحمة الفرنكات اهتزازاً جعله يترك كأسه ويسرع للنظر اليها .

وصاح بعد ان فحصها :

- « انها حقيقية ، مع ذلك . دولاب خلفي حقيقي ! إنها غير مزورة ! »

واقرب تيناردييه . وفي صمت وضع القطعة النقدية في جيبه . ولم يكن عند السيدة تيناردييه ما تجيب به . لقد عضت شفتيها وطات على وجهها سباً من الحقد .

وفي غضون ذلك ارتعدت كوزيت . وغامت في السؤال :

- « هل هذا صحيح ، يا سيدتي ؟ هل تستطيع ان العب ؟ »

فاجبتها تيناردييه الزوجة في صوت فظيع :

- « العبي ! »

فقال كوزيت :

- « شكراً ، يا سيدتي ! »

وفيما كان فمها يشكر تيناردييه الزوجة ، كانت روحها كلها تشكر الماسفر .

ورجع تيناردييه الى شرابه . وهمت زوجته في اذنه :

- « من يمكن ان يكون هذا الرجل الاصفر ؟ »

فاجابها تيناردييه في صوت آمر :

- « لقد رأيت اصحاب ملايين في سترات طويلة مثل هذه . »

كانت كوزيت قد تركت زُردها ، ولكنها لم تغادر مكانها . كان من دأب كوزيت ان تتحرك أقلّ ما يمكنها أن تفعل . وكانت قد اخرجت من صندوق صغير خلفها بعض الحرق البالية ، وسيفها الرصاصي الصغير . ولم تلتفت إيبونين وآزليما ايما التفات لما كان جارياً . كانتا قد انتهتا منذ لحظة من القيام بعمل خطير : لقد ألقتا القبض على الهرة . وكانتا قد اطّرحتا الدمية على الارض ، وانصرفت إيبونين ، وهي الكبرى ، الى تقييط الهرة ، برغم مرآئها والنوائها ، بمجموعة من الثياب ومجرق حمراء وزرقاء . وفيما هي منهكة في هذا العمل الجديّ العسير تحدثت الى اختها بلغة الاطفال العذبة الفاتنة تلك ، التي تتلاشى طلاوتها ، مثل بهاء جناحي الفراشة ، حين نحاول ان نحفظ بها .

- « انظري ! انظري يا اختي ، إن هذه الدمية مسلية اكثر من تلك . إنها تتحرك ؛ انها تصرخ ؛ انها دافئة . تعالي ، يا اختي ، دعينا نلعب معها . انها ستكون بنتي الصغيرة . وسأكون أنا سيدة . ول سوف آتي لزيارتك ، ول سوف تنظرين اليها ، وشيئاً بعد شيء نشاهدين شاربها ، وهذا سوف يدهشك . وبعد ذلك ستشاهدين أذنبها ، ثم ذنبها ، ول سوف يدهشك هذا . وستقولين لي : « آه يا الهي ! » ، وسأقول لك : « نعم يا سيدي . إنها بنت صغيرة رزقتها هكذا . » ان للبنات الصغيرات هنّ هكذا الآن . »

وأصغت آزليما ، في اعجاب ، الى إيبونين . وفي الوقت نفسه ، كان الشاربون يُغنون اغنية بذيئة ضحكوا لها على نحو كافٍ لأن يزلزل الغرفة . وشجعهم تيناردييه وصاحبهم . وكما تصنع الطير عشاً من كل شيء ، كذلك يصنع الاطفال دمية من ايما شيء . ففما كانت إيبونين وآزليما تقمّطان الهرة ، كانت كوزيت ، بدورها ، قد قمّطت السيف . حتى اذا تمّ لها ذلك مددته على ذراعها ، واخذت تغني له في رقة لكي ينام .

ان الدمية احدى الضرورات القصوى ، وهي في الوقت نفسه احدى غرائز الطفولة الانثوية الأشد فتنة . ففي العناية بها ، وكسوتها ، وتزيينها ، وإلباسها ثيابها ، ونزع ثيابها ، وإعادة اللباس من جديد ، وتعليمها ، وتوبيخها قليلاً ، وهددتها ، وتغنيجها ، وتنويمها ، والتوهم ان شيئاً ما هو شخص ما - في ذلك كله يكمن مستقبل المرأة كله . وفيما هي نحلم وتهذر ، وفيما هي تصنع رزماً صغيرة وأقمطة صغيرة ، وفيما هي تخطط فساتين صغيرة ، واجزاء عليا من الفساتين الصغيرة ، وصدرات ذوات اكمام ، تصبح الطفلة فتاة صغيرة ، وتصبح الفتاة الصغيرة فتاة كبيرة ، وتصبح الفتاة الكبيرة امرأة . وهكذا يجتلي اول اطفال المرأة محل دمتها الاخيرة .

والفتاة الصغيرة من غير دمية تكاد ان لا تقل شقاء عن امرأة من غير اطفال ؛ وهي تعدل هذه المرأة استعالة تاماً .

واذن ، فان كوزيت كانت قد اتخذت من سيفها دمية .
واقتربت تيناردييه الزوجة من الرجل الاصفو . وقالت في ذات نفسها : « ان زوجي على صواب . لعله ان يكون مسيو لافيت .
ان بعض الاغنياء مضحكون الى هذا الحد . »
وتقدمت ، وأراحت مرفقها على الطاولة التي كان جالساً اليها .
وقالت :

— « مسيو ... »

ولم يكذب الرجل يسمع كلمة مسيو هذه ، حتى التفت . ان السيدة تيناردييه لم تناديه من قبل إلا بقولها ايها الرجل الطيب ، او ايها الرجل الساذج .

وتابعت كلامها ، خالعة على وجهها أعذب ملامحه ، التي كانت ادعى الى الازعاج من سباحا الضاربة :

— « ترى ، يا سيدي ، اني راغبة في ان تلعب الطفلة . انا لا

اعارض في ذلك . ولكن هذا جيد اذا تم مرة واحدة ، لانك رجل كريم . غير أنها ، كما ترى ، بنت فقيرة . إن عليها ان تشتغل .
فسألها الرجل :

- « واذن ، فالطفلة ليست بنتك ؟ »

- « أوه ، يا الهي ! لا ، لا ، يا سيدي ! إنها شحاذة صغيرة أنزلناها عندنا من باب الشفقة والاحسان . إنها طفلة شبه معتوهة . ولا بد أن في دماغها ماء . إن رأسها كبير ، كما ترى . ونحن نعنى بها جهد طاقتنا ، لاننا لسنا اغنياء . نحن نكتب الرسائل الى مسقط رأسها ، ولكننا لم نلتق جواباً منذ ستة أشهر . ولقد أصبحنا نعتقد ان أمها ماتت من غير شك . »

فقال الرجل :

- « آه . »

واستغرق في تفكيره .

وأضاف تيناردييه الزوجة :

- « إن تلك الأم لم تكن شيئاً ذا شأن . لقد هجرت طفلتها . وطوال هذه المصادفة ، لم ترفع كوزيت عينها عن السيدة تيناردييه ، فكان غريزة من الغرائز أشعرتها بأنهما كانا يتحدثان عنها . وسمعت بضع كلمات هنا وهناك . »

وفي غضون ذلك كان الشاربون ، وكل منهم ثلاثة أرباع سكران ، يكررون لازمتهم الفذرة في ابتهاج مضاعف . كانت كلاماً مرحاً مفيهاً كثير التوابل يتردّد فيه اسما « العذراء » و « يسوع » . وكانت السيدة تيناردييه قد مضت لتنهض بنصيبها من الطرب . أما كوزيت فكانت تنظر ، من تحت طاولتها ، الى نار الموقد التي كانت تنعكس من عينها المسددة . لقد راحت هي ايضاً تهدد ذلك الضرب من الطفل الحرقى الذي صنعه . وفيما هي تهدده لينام كانت تغني له في صوت خفيض :

لقد ماتت أمي ! لقد ماتت أمي ! لقد ماتت أمي !
وبعد إلحاح جديد متواصل من صاحبة الفندق رضي الرجل الاصفر ،
« المليونير » ، ان يتعشى .
- « ما يجب سيدي ان يأكل ؟ »
فاجاب الرجل :

- « بعض الحبز والخبز . »
وفي ذات نفسها قالت السيدة تيناردييه : « انه شحاذ من غير ريب » .
وواصل الشاربون إنشاد اغنيتهم ، وكذلك واصلت الطفلة -
من تحت الطاولة - انشاد أغنيتها .
وفجأة كفت كوزيت عن الانشاد . كانت قد التفتت منذ لحظة
فرأت دمية ايبونين وآزيلما ، وكانتا قد انصرفتا عنها الى المرة وتركناها
على الارض ، على بضع خطوات من طاولة المطبخ .
ثم انها أزلت السيف المقمط الذي لم يكن ليرضيها غير نصف ارضاء ،
وأجالت بصرها في ارجاء الغرفة بتؤدة . كانت السيدة تيناردييه تمس في
أذن زوجها وتعدّ بعض الدراهم ، وكانت ايبونين وآزيلما تلاعبان المرة ،
وكان النزلاء يأكلون او يشربون او يفنون . إن عيناً واحدة ما كانت
تنظر اليها . ولم يكن عندها لحظة تضعيها . فزحفت من تحت الطاولة على
يديها وركبتيها ، واستيقنت مرة اخرى من ان احداً ما كان يراقبها ،
ثم انسلت في سرعة نحو الدمية واستولت عليها . وما هي الا لحظة حتى
كانت في مكانها جالسة جامدة ، غير ملتفتة الا على نحو يمكنها من ابقاء
الدمية التي كانت تحملها بين ذراعيها ، في الظلام . كانت سعادة اللعب بدمية
نادرة عندها الى حد خلع عليها عنف اللذة الحسية .
ان احداً لم يرها غير المسافر ، الذي كان يتناول عشاءه الهزيل ،
في ببطء .

ودامت هذه البهجة نحواً من ربع ساعة .

ولكن ، على الرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذتها كوزيت ،
فإنها لم تلاحظ أن إحدى رجلي الدمية كانت قد نتأت ، وإن فار
الموقد كانت تضيئها على نحو قوي جداً . ولفتت هذه الرجل الساطعة ،
المنبثقة من الظلام ، نظر آريلا ، فجأة ، فقالت لأبيونين :
- « أوه ! يا اختي ! »

وكفت الفتاتان الصغيرتان عن اللعب ، وغلب عليهما الدهول . لقد
جرؤت كوزيت على أن تأخذ الدمية !
ونفضت أبيونين . ومن غير أن تخلي سبيل المرأة ، مضت إلى أمها
وبدأت تشدّها من تنورتها .
وقالت الأم :

- « اتركني ! ماذا تريدن مني ؟ »
فقالَت الطفلة :

- « أمي ! انظري هناك ! »
وأشارت إلى كوزيت .

وإذا كانت كوزيت مستغرقة كل الاستغراق في نشوة التملك فإنها لم
ترَ شيئاً ولم تسع شيئاً .

ورأت على وجه تيناردييه الزوجة تلك الانطباعة الخاصة التي تتألف
من الفظيع المتمزجاً بالمبتذل ، والتي خلعت على هذا الضرب من النساء
اسم إلهات الانتقام .

وهذه المرة ، زادت الكبرياء الجريح في غيظها أيضاً . لقد تخطت
كوزيت جميع الحواجز . لقد وضعت كوزيت يدها على دمية « هاتين
الآنستين » .

ولو أن قيصره رأت إلى فلاح رومي (موجيك) يجرّب الوشاح
الازرق الكبير الخاص بابنها الامبراطوريّ اذن لما طفت على وجهها غير
تلك الانطباعة نفسها .

وصاحت بصوت جعله السُخْط أجش :

« كوزيت ! »

وارتعدت كوزيت وكأن الارض قد زلزلت من تحتها . وتلفتت حولها .
وكررت السيدة تيناردييه :

« كوزيت ! »

واخذت كوزيت الدمية ، ووضعتها على الارض برفق ، وفي ضرب
من التقديس يمازجه اليأس . ومن غير أن ترفع عينها عن الدمية ، ضمت
احدى يديها الى الاخرى ، وأنشأت - وهذا شيء من المروع ان يروى
عن طفلة في تلك السن - قتلها وتلويعها . ثم انها - وهو ما لم تستدره
منها اي من انفعالات ذلك اليوم ، لا الركض في الغابة ، ولا نقل دلو
الماء ، ولا ضياع القطعة النقدية ، ولا مشهد السوط ، بل ولا الكلام
للصارم الذي سمعته من السيدة تيناردييه - شرعت تسفع العبرات . لقد
انخرطت في النحيب .

وفي الوقت نفسه نهض المسافر .

وقال لتيناردييه الزوجة :

« ما المسألة ؟ »

فقالت مشيرة باصبعها الى « البرهان المثبت للجريمة » منطرحاً على

قدمي كوزيت :

« الا ترى ؟ »

وقال الرجل :

« حسن ، وما ذاك ؟ »

فأجابت تيناردييه الزوجة :

« لقد جرؤت تلك الشحاذة على ان تمسّ دمية الطفلتين ! »

فقال الرجل :

« وهذه الضجة كلها من اجل ذلك ؟ وأي بأس في ان تلعب

بتلك الدمية ؟ »

وتابعت تيناردييه الزوجة :

- « لقد لمستها بيديها القذرتين ! بيديها الفظيعتين ! »

وهنا ضاعفت كوزيت نحيبها .

فصاحت تبناردييه الزوجة :

- « إخرمي ! »

ومضى الرجل ، مباشرة الى الباب المؤدي الى الشارع ، ففتحه ،

وخرج .

ولم يكذب يذهب ، حتى افادت تبناردييه الزوجة من غيابه فرفست

كوزيت ، القابعة تحت الطاولة ، رفعة جعلت الطفلة تطلق صيحات عالية .

وُفتح الباب من جديد ، وبرز الرجل كرة اخرى ، حاملاً بيديه

الاثنتين تلك الدمية الاسطورية التي تحدثنا عنها ، والتي كانت موضع

اعجاب جميع اطفال القرية منذ الصباح . ووقفها أمام كوزيت ، قائلاً :

- « خذي ، هذه لك ! »

واغلب الظن ان الرجل كان في خلال الوقت الذي قضاء هناك -

وهو يزيد على ساعة - قد لمع على نحو غامض ، وهو في غمرة من

التفكير ، «دكان» الدمي تلك ، المضادة بالمصاييح وبالشموع على نحو ساطع

الى درجة جعلت في ميسور المرء ان يلحها من خلال زجاج الحانة ،

وكأنها شعلة من النور .

ورفعت كوزيت عينيهما . لقد رأت الى الرجل يُقبل نحوها حاملاً

تلك الدمية وكأنها كانت ترى الى الشمس يُقبل نحوها ، وسمعت هذه

الكلمات التي لم يُسمع بثلها من قبل : « هذه لك ! » ونظرت اليه ،

ونظرت الى الدمية ، ثم ارتدت الى الوراء في تودة ، فاخبت ، أبعد

ما استطاعت الاختباء ، تحت الطاولة ، في زاوية الغرفة .

ولم تبك بعد ، ولم تصرخ بعد . لقد بدت وكأنها ما عادت بحرو

على النفس .

وغدت تبناردييه الزوجة ، واييونين ، وآزليها ، أشبه بالتأثيل .

وكفّ الشاربون أنفسهم عن الشرب . لقد ران حمت مهيب على الحانة كلها .

واستأنفت تيناردييه الزوجة - وقد فحجرت واصابها البكم - أحدثها زوجها : « من ذلك المعجوز ؟ أهو شحاذ ؟ أهو مليونير ؟ لعله الاثنان معاً ، يعني لعله لصّ . »

اما وجه تيناردييه الزوج فتكشف عن ذلك التفضن المعبر الذي يطبع الحيا البشري كلما تجلت فيه الغريزة السائدة بكامل قوتها الوحشية . لقد نقل صاحب الفندق طرفه من الدمية الى المافر ، ومن المافر الى الدمية ؛ ولقد بدا وكأنه يستروح هذا الرجل كما يستروح كبس دراهم . ولم يدم ذلك غير لحظة . لقد تقدّم نحو زوجته وهمس في أذنها قائلاً : - « هذه الماكينة تساوي ثلاثين فرنكاً على الاقل . كفى بلاهة . واركمي على ركبتيك أمام هذا الرجل ! »

إن اصحاب الطبائع الفظة ليشاركون اصحاب الطبائع الساذجة في هذه الحصلة ، وهي انهم لا يعرفون الانتقال التدريجي . فقالت تيناردييه الزوجة ، في صوت ارادت ان يكون عذبا ، ولكنه كان مركباً كله من ذلك العسل الحامض - عمل الفسوة الشريرات :

- « وبعد ، يا كوزيت ، ألا تريدان ان تأخذي دميّك ؟ »

وغارت كوزيت فخرجت من جحرها .

وقال تيناردييه في جرس ملاطف :

- « يا صغيرتي كوزيت . إن السيد يقدم اليك دمية . خذها .

إنها لك . »

ونظرت كوزيت الى الدمية الرائعة في ضرب من الذعر . كان وجهها لا يزال غارقاً بالدمع ، ولكن عينيها شرعتا تمتلئان ، شأن السماء عند انبلاج الفجر ، بأشعاعات ابتهاج غريبة . لقد كان الشعور الذي خامرها

في تلك اللحظة يشبه بعض الشيء ذلك الشعور الجدير به ان يخامرها لو
ان احداً قال لها فجأة : « ايها الصغيرة ، انت ملكة فرنسة ! »
وبدا لها أنها اذا ما لمست تلك الدمية انبثق الرعد منها .

وهو ما كان صحيحاً الى حد بعيد ، إذ قالت في ما بينها وبين
نفسها إن تيناردييه الزوجة سوف توجعها وتضربها .

ومع ذلك ، فقد كان الاغراء اقوى منها . وهكذا تقدمت ، آخر
الأمر ، وغفقت في حياء وهي تلتفت نحو تيناردييه الزوجة :
- « أستطيع ، يا سيدي ؟ »

إن ايما تعبير لا يقدر على ان يصف ملامح وجهها التي كانت حافلة
باليأس ، والذعر ، والحبور ، في آنٍ معاً .
وقالت تيناردييه الزوجة :

- « يا الهي ! إنها لك . ما دام السيد قد اعطاك اياها . »
فقال كوزيت :

- « هل هذا صحيح ؟ هل هذا صحيح ، يا سيدي ؟ هل السيدة
لي ؟ »

وتراءى الغريب وقد فاضت عيناه بالدمع . لقد بدا وكأنه بلغ
مرحلة الانفعال تلك حيث لا يتكلم المرء مخافة ان ييكمي . وحتى
رأسه لكوزيت انحناء تؤذن بالموافقة ، ووضع يد « السيدة » في يدها
الصغيرة .

وسارعت كوزيت الى سحب يدها ، وكان يد « السيدة » قد
أحرقها ، وأنشأت تنظر الى الارض . وهنا نظروا الى ان نضيف انها
أخرجت لسانها ، في تلك اللحظة ، على نحو مفرط . وفجأة ، استدارت
وأمسكت بالدمية في لفة .

وقالت :

- « سوف ادعوها كثرين . »

وكانت لحظة غريبة تلك التي التقت فيها اسمال كوزيت البالية بعصائب
الدمية وشاشها الموصل بالآزهر الرقيق ، وضغطت عليها .
وقالت :

— « سيدتي ، هل تستطيع ان تضعها على كرسي ؟ »
فاجبتها تيناردييه الزوجة :
— « نعم ، يا بنتي . »

كانت ايونين وآزيلما هما اللتين نظرتا الى كوزيت في حسد .
ووضعت كوزيت كاترين على كرسي ، ثم قعدت على الارض أمامها ،
وظلّت جامدة ، لا تنطق بكلمة ، متغذّرة وضع المستغرق في التأمل .
وقال الغريب :

— « لماذا لا فلعين ، يا كوزيت ؟ »
فأجابت الطفلة :
— « اوه ، اني ألعب . »

وفي تلك اللحظة ، كان هذا الغريب ، هذا الرجل المجهول الذي
بدا وكأنه مرسل من لدن العناية الالهية الى كوزيت ، هو الكائن الذي
لا تكره تيناردييه الزوجة أحداً في العالم اكثر مما تكرهه . بيد انها
كانت مضطرة الى ان تكبح جماح نفسها . كانت انفعالاتها أعنف مما
تستطيع ان تحتمل ، وهي التي تعودت المداراة بمحاولتها تقليد زوجها
في جميع اعمالها . وفي الحال أمرت ابنتها بالابواء الى الفراش ، ثم
التمست من الرجل الاصفر الاذن في أن تدعو كوزيت الى النوم ايضاً ،
مضيفة في جرس أمومي ان الفتاة الصغيرة متعبة اليوم جداً . ومضت
كوزيت الى النوم ، حاملة كاترين بين ذراعيها .

ومضت تيناردييه الزوجة ، بين الفينة والفينة ، الى الطرف الآخر
من الغرفة حيث كان زوجها لكي تسوي عن نفسها ، كما قالت .
وتبادلت وإياه بضع كلمات كانت من الضراوة بحيث لم تجرؤ على ان

تنطق بها جهاراً :

- « يا له من معتوه عجوز ! ما هذا الذي يدور في خاطره ؟
يأتي الى هنا ويزعجنا ! يريد من هذه المسخ الصغيرة ان تلعب ! ويقدم
اليها دمي ! يقدم دمي من صنف الاربعين فرنكاً الى كبة ابيها
انا باربعين سو ! وبعد قليل ، سوف يقول لها يا صاحبة الجلالة كما
يقولون لدوقة بري !* فهو مالك قواه العقلية ؟ لا بد أنه مجنون ،
هذا الرجل العجوز العجيب ! »

فأجابها تيناوديه :

- « لماذا ؟ المسألة بسيطة جداً . اذا كان يروق له ! أنت انما
يروق لك ان تعمل الفتاة ؛ أما هو فيروق له ان تلعب ! إن له الحق
في ذلك . في استطاعة تزيل الفندق ان يفعل ما يشاء اذا دفع الثمن .
واذا كان هذا العجوز محسناً محباً للبشر فما يضيرك ذاك ؟ واذا كان
معتوهاً فليس هذا من شأنك . لماذا تتدخلين في هذه الامور ، ما دام
يلك مالاً ؟ »

لغة سيّد ومنطق فندقي لا يدع اي منها مجالاً لجواب .

كان الرجل قد أسند مرفقيه الى الطاولة ، واستأنف وضعه التأملي
الحالم . وكان جميع النزلاء الآخرين ، من باعة وسائقي عربات ، قد
نأوا بعض الشيء وكفوا عن الغناء . لقد نظروا اليه من بعيد في ضرب
من الخوف الموقر . فقد كان هذا الرجل المرتدي مثل هذه الاممال
البالية ، الذي يخرج من جيبه القطع النقدية ذوات الخمسة الفرنكات في
كثير من اللامبالاة ، والذي يغدق الدمى الضخمة على فتيات قذرات
يفتعلن احذية خشبية - كان هذا الرجل من غير شك إنساناً سليم الطوية ،
إنساناً رائعاً ومخيفاً .

* Duchesse de Berry (١٧٩٨ - ١٨٧٠) زوجة شارل فرديناند الابن الثاني للملك

شارل العاشر ، وكانت ابنة لرنوا الاول ملك نابولي .

وانقضت عدة ساعات . وتلي قداس منتصف الليل ، وانتهت وجبة ما بعد عيد الميلاد ، وانصرف الشاربون ، وأغلقت الحانة ، وهجرت القاعة السفلى ، وخذت النار ، ومع ذلك فقد ظل الغريب في المكان نفسه ، والوضع نفسه . لقد غيّر ، بين الفينة والفينة ، المرفق الذي كان يستند اليه ، وكان ذلك كل شيء . ولكنه لم ينبس بكلمة منذ ان مضت كوزيت .

واقامت تيناردييه الزوجة وحدها ، وبسبب من اللياقة والفضول ، في القاعة . وفمغت : « أيعتزم ان يمضي الليل هكذا ؟ »

وحين اعلنت الساعة الثانية صباحاً ، اعترفت بانها هزمت وقالت لزوجها : « أنا ذاهبة الى الفراش . في استطاعتك ان تفعل ما يحلو لك » .

وجلس الزوج الى طاولة ما ، في احدى الزوايا ، واضاء شمعة ، وراح يقرأ صحيفة « البريد الفرنسي » .

وانقضت على هذا النحو ساعة او يزيد ، قرأ الفندقى الفاضل في اثناها صحيفة « البريد الفرنسي » ثلاث مرات على الاقل ، من تاريخ العدد الى اسم الطابع . ولكن الرجل الغريب لم يتحرك .

وتحرك تيناردييه ، وسعل ، وبصق ، وتمخط ، وراح يحدث بكلمته صرياً . ولم يتحرك الرجل . وقال تيناردييه بينه وبين نفسه : « أهو نائم ؟ » ان الرجل لم يكن نائماً ، ولكن أياً شيء لم يكن قادراً على إيقاظه . واخيراً نزع تيناردييه قلنسوته وتقدم في رفق وغامر بالقول :

« الا يعتزم سيدي ان يجمع ؟ »

لقد بدا له انه لو قال « ألا يعتزم سيدي أن ينام ، اذن لكان ذلك ثقیل الوطأة اكثر مما ينبغي ، بالغ الابتذال . اما قوله « ان يجمع » فكان ينطوي على ترف وكان ينم عن احترام . ومثل هذه الكلمات لها تلك الخاصة الحفية الرائعة التي تمكنها من تضخيم الفاتورة في صباح اليوم التالي . فالغرفة التي تنام فيها تكلف عشرين سو ؛ على حين ان الغرفة التي تهجع فيها تكلف عشرين فرنكاً .

وقال الغريب :

- « نعم . انت على صواب . اين الاسطبل ؟ »

فاجابه تيناردييه في ابتسامة :

- « سيدي ، انا سوف ادلّ سيدي على الطريق . »

واخذ الشمعة ، واخذ الرجل صرّته وعصاه ، وقاده تيناردييه الى غرفة في الدور الاول . كانت ذات بهاء نادر ، واثاث من خشب الماهوغاني ، ومرير رفيع المهاد ، وسجّ من نسيج قطني أحمر .

وقال المسافر :

- « ما هذه ؟ »

فأجاب صاحب الفندق :

- « إنها غرفة عرسنا الخاصة . نحن نحتل غرفة بمائة لهذه ، انا وزوجتي . ان هذه الغرفة لا تفتح غير ثلاث مرات او اربع مرات في العام . » فقال الرجل في خشونة :

- « انا افضل الاسطبل عليها . »

وبدا تيناردييه وكأنه لم يسمع هذا الجواب الذي تعوزه اللياقة . واضاء شمعتين لم تما من قبل ، كانتا قائمتين فوق الموقد . وكانت ثار حسنة التاجج تضطرم في الموقد . وعلى غطاءه ، تحت صندوق زجاجي ، كانت قبعة نسوية مصنوعة من خيوط فضية ومزدانة برسوم زهر البرتقال .

وقال الغريب :

- « ما هذا ؟ »

فأجاب تيناردييه :

- « سيدي ، إنها قبعة زفاف زوجتي . »

ونظر الغريب الى ذلك الشيء نظرةً بدت وكأنها تقول : « لقد

انقضت إذن لحظة كانت فيها هذه القولة عذراء . »

ولكن تيناردييه كان يكذب . فحين استأجر هذا البيت الفقير ليعوله

الى مطعم ، وجد الغرفة مؤثثة على ذلك النحو ، واشترى هذا
الاثاث ، ووسوم زهر البرتقال لاعتقاده بأن ذلك يلقي ظلاً انيقاً على
قربته ، ، ويخلع على مؤسسته ما يدعوه الانكليز الجلال .
حتى اذا التفت المسافر كره اخرى لم يجد صاحب الفندق . كان تينارديه قد
انسلّ في لباقة من غير ان يجرؤ على ان يتمنى للغريب ليله سعيدة ، لعدم رغبته
في ان يعامل بمودة غير محتشة رجلاً كان يعتزم ان يسلم جلدته ، في
كثير من الابهة ، صباح اليوم التالي .
لقد انقلب صاحب الفندق الى غرفته . وكانت زوجته في مرورها ،
ولكنها لم تكن نائمة . فما إن سمعت وقع قدمي زوجها ، حتى التفتت
اليه وقالت :

- « هل تعلم اني سوف اطرد كوزيت ، غداً ، من البيت ؟ »
فأجابها تينارديه في برود :
- « اجل أعلم ذلك حقاً . »
ولم يتبادلا كلاماً آخر ، وما هي الا لحظات حتى كانت شمعتيها قد
أطفئت .

أما المسافر فكان قد وضع عصاه وصرته في زاوية . حتى اذا ولى
صاحب الفندق ، جلس في كرسي ذي ذراعين ، وظل فترة من الوقت
يفكر ، ثم خلع نعليه ، وحمل احدى الشمعتين ، وأطفأ الاخرى ،
ودفع الباب ، وغادر الغرفة ، بجيلاً الطرف في ما حوله وكأنما كان
يبعث عن شيء . واجتاز برواق ، وتقدم نحو السلم . ثم إنه سمع
صوتاً بالغ العذوبة كان اشبه شيء بتنفس طفل . وعلى هذبي من ذلك
الصوت انتهى الى تجويف مستطيل مبني تحت السلم ، أو 'مشكل على
الاصح بالسلم نفسها . ولم يكن ذلك التجويف ، غير الفسحة التي تحت
السلم . وهناك بين مختلف ضروب السلال العتيقة وأصناف الحطام القديم ،
وسط الغبار وغيوط العنكبوت كان فراش ، اذا جاز ان نُدعى فراشاً

تلك الحشية الملاءى بهذا القدر من الثقوب حتى لقد تكشفت عن التبن ،
وذلك الغطاء الملاءى بهذا القدر من الثقوب حتى لقد تكشفت عن الحشية .
ولم يكن ثمة شراشف . كانت الحشية موضوعة على البلاط مباشرة .
وهناك ، في هذا السرير ، كانت كوزيت نائمة .
واقرب الرجل منها ، ونظر اليها .

كانت كوزيت مستغرقة في نوم عميق . وكانت مرتدية ثيابها كلها .
ففي الشتاء كان من دأبها ان لا تنزع ثيابها تخفيفاً لوطأة البرد .
كانت تضم اليها الدمية التي التمت عيناها ، الواسعتان المفتوحتان ،
في الظلام . وبين الفينة والفينة كانت تصعد زفرة عميقة ، وكأنها على
وشك ان تستيقظ ، وتصر الدمية هصرأ يكاد يكون تشنجياً . وكانت
فردة واحدة من حذائها الحشي الى جانب فراشها ، ليس غير .

وكان باب مفتوح على مقربة من مأوى كوزيت الحقيير يكشف عن
غرفة كبيرة قاتمة . ودخل الغريب تلك الغرفة . حتى اذا بلغ اقصاها
لمح ، من خلال نافذة زجاجية ، سريرين صغيرين توأمين شديدي البياض .
كانا سريرى آزليما وايبونين . وخلف هذين السريرين كاث محتجب ،
نصف احتجاب ، سرير خيزراني لا ستائر له . وفي ذلك السرير كان ينام
الطفل الصغير الذي لم يكف عن الصراخ طوال المساء .

وقدر للرجل الغريب ان تكون هذه الغرفة متصلة بغرفة تينارديه
الزوجة . وكان على وشك ان ينسحب عندما وقعت عيناه على الموقد ،
وكان من تلك الموائد الضخمة التي في الفنادق - حيث النار هزيلة
ابداً ، حين يكون ثمة نار - والتي يوقع النظر اليها البرد في الاوصال .
وفي ذلك الموقد ، لم تكن نار ، بل لم يكن رماد . ومع ذلك فان
ما كان هناك لفت انتباه المسافر . ولم يكن ما لفت انتباهه غير فردتي
حذاء صغير من احذية الاطفال ، فردتين أنيقتي الشكل ، محنفتي
الحجم . وتذكر المسافر تلك العادة الظريفة الخالدة التي تقضي ان

بضع الاطفال أحذيتهم في الموقد ليلة عيد الميلاد ، وان ينتظروا هناك في الظلام طمعاً في الحصول على هدية مشرقة من جنيّتهم الطيبة . وبذلت ايبونين وآزليها جهداً حسناً لكي لا تفسيا ذلك ، فوضعت كل منهما فردة من حذاءها في الموقد .

وانحنى تزيل الفندق فوقها .

كانت الجنية - يعني الأم - قد قامت بزيارتها ، وكانت تلتمع في كل من فردتي الحذاء قطعة نقدية جميلة ، بالغة الجودة ، من فئة العشرة سو .

ونهض الرجل ، وكان على وشك الذهاب ، عندما لمح في المدى البعيد ، وعلى حدة ، عند زاوية الموقد الاشدّ حلكة ، شيئاً آخر . ونظر ، فرأى حذاء خشبياً ، حذاء مروّعاً من اغلظ الخشب ، نصف منكسر ، ومغطىّ كله بالرماد والوحل اليابس . كان ذلك حذاء كوزيت . ذلك ان كوزيت كانت قد وضعت هي الاخرى حذاءها في الموقد ، فحدوها ثقة الطفولة المؤثرة التي يمكن أن 'تخدع دائماً من غير ان تثبط عزيمتها البتة .

ما أسمى الأمل وما أعذبه في طفلة لم تعرف قط غير اليأس !

ولم يكن في ذلك الحذاء شيء .

وبحث الغريب في جيوب صدره ، وانحنى ، ووضع في حذاء كوزيت الخشبى ليرة ذهبية لويسية .

ثم انقلب الى غرفته من غير ان يحدث صوتاً ما .

٩

تينارديه يناور

وفي صباح اليرم التالي ، قبل ساعتين من طلوع الشمس ، على الاقل ،

جلس تيناردييه الى طاولة في قاعة الحانة السفلى ، والى جانبه شعة وفي يده قلم ، وانشأ يعدّ فاتورة المسافر ذي السترة الطويلة الصفراء . كانت زوجته واقفة ، نصف منحنية فوقه ، تتبعه بعينها . ولم يتبادلا كلمة ما . فمن ناحية ، كان التأمل العميق ، ومن الناحية الاخرى كان ذلك الاعجاب الخاشع الذي يستولي علينا حين نرى الى معجزة من معجزات العقل البشري تنبثق وتفتح . وسمعت في الفندق ضجة . كانت القسورة تكس السلم . وبعد ربع ساعة او يزيد ، وبعد شيء من الشطب ، أخرج تيناردييه هذه الرائعة :

فاتورة السيد الناؤل في الغرفة رقم ١

غشاء	٣	فرنكات
غرفة	١٠	«
شبح	٥	«
لر	٤	«
خدمة	١	«
المجموع	٢٣	فرنكا

وكانت كلمة خدمة مكتوبة هكذا : خدمت * .

وصاحت المرأة في حماسة بمتوجة بشيء من التردد :

- « ثلاثة وعشرون فرنكاً ! »

ومثلّ جميع الفنانين الكبار ، لم يكن تيناردييه راضياً .

وقال :

* في الأصل أن- كلمة Service كانت مكتوبة هكذا Service وقد رأينا ان نؤدي المعنى الذي رمى اليه المؤلف ، وهو جل تيناردييه لقواعد الرسم او الاملاء ، من طريق كتابة التاء المربوطة تاء مبسوطة .

- « تَباً لَه ! »

كانت تلك نبوة كاسلري * وهو يُعده لمؤتمر فيينا الفاتورة التي كانت على فرنسة ان تدفعها .

وغنمت المرأة ، وقد فكرت في الدمية التي 'قدّمت الى كوزيت في حضرة بنتها :

- « مسيو تيناردييه ، انت على صواب . إنه يستحق ذلك جيداً . هذا منصف ، ولكنه اكثر بما ينبغي . إنه لن يدفع المبلغ . »
فابتسم تيناردييه ابتسامته الباردة ، وقال :
- « سوف يدفعه . »

كانت تلك الضحكة اسمى أمارات الثقة والسلطان . وما قبل على هذه الشاكلة ، يجب ان يكون . ولم تصرّ المرأة قط . لقد اخذت ترتب الطاولات ، بينا راح زوجها يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . وبعد لحظة أضاف :

- « أنا مدين بالف وخمسة فرنك ، على الاقل . »
وجلس في زاوية الموقد ، وانشأ يفكر واضعاً قدميه على الرماد الحار . وقالت المرأة :

- « آ ، ها ! انت لم تنسَ اني سوف أطرد كوزيت ، اليوم ، الى الشارع ؟ يا لها من مسخرة ! إنها تسحق فؤادي بدميتها ! اني افضل ان اتزوج لويس الثامن عشر على ان أبقيا يوماً إضافياً في البيت ! »
وأشعل تيناردييه غليونه ، وأجاب بين المجتئين :

- « أنت ستقدّمين الفاتورة الى الرجل . »

ثم خرج .

ولم يكده يغادر الغرفة حتى دخلها المسافر .

* Castlereagh سياسي انكليزي (١٧٦٩ - ١٨٢٢) كان روح التحالفات الأوروبية التي عُمت ضد نابليون .

وفي الحال يبرز تيناردييه ، كرة اخرى ، من ورائه ، وظل جامداً
لدى الباب نصف المفتوح ، فليس يراه احد غير زوجته .
وحمل الرجل الاصفر عصاه وصرته بيده .

وقالت تيناردييه الزوجة :

- « لقد استيقظت باكراً جداً ! ايعتزم سيدي ان يفارقنا
اللحظة ؟ »

وفجأ هي تتكلم ، أدارت الفاتورة بين يديها في سبيل مرتبكة ،
وراحت تغضنها بأظافرها . ونمّ حياها القاسي عن ظلّ من الجبن والشك
لم يكن مألوفاً .

لقد بدا لها أن في تقديم مثل هذه الفاتورة الى رجل تبدو عليه
مظاهر « الشحاذ » كاملة إحراجاً كبيراً .

وبدا المسافر مشغول البال ، ذاهلاً .

وأجابها :

- « نعم ، يا سيدي . أنا راحل . »

فأضافت :

- « واذن فليس عند سيدي أعمال في مونفيرماي ؟ »

فأردف :

- « لا . أنا عابر سبيل . هذا كل ما هنالك . كم يتعين عليّ ان

أدفع ، يا سيدي ؟ »

وناولته السيدة تيناردييه الفاتورة المطوية ، ولم تجب بشيء .

ونشر الرجل الورقة ، ونظر اليها . ولكن أفكاره كانت ، على

نحو واضح ، في مكان آخر .

وسألها :

- « هل تسير الاعمال على ما يرام في مونفيرماي ؟ »

فاجابت السيدة تيناردييه وقد انشدهت إذ لم تشهد انفجاراً آخر :

- « بين بين ، يا سيدي . »

ثم تابعت في جرسٍ قاجع يدعو الى الرثاء :

- « اوه يا سيدي . الازمة شديدة ، وليس في ديارنا هذه غير نفر

قليل من الاغنياء ! انها قرية صغيرة ، كما ترى . ليقنا نعم بين الفينة

والفينة بنزلاء اغنياء ، مثلك يا سيدي ! ان لدينا نفقات كثيرة . ان

تلك الفتاة الصغيرة تكلفنا عيوننا نفسها . »

- « أبة فتاة صغيرة ؟ »

- « تلك الصغيرة التي تعرفها ! كوزيت ! القبرة ، كما يدعونها

في المنطقة ! »

فقال الرجل :

- « آه ! »

وتابعت :

- « ما أشد بلاهة هؤلاء الفلاحين والالتاب التي يجلبونها على

الناس ! انها تشبه الحفّاش اكثر مما تشبه القبرة . وكما ترى ، يا

سيدي ، فنحن لا نلتس الصدقة ، ولكننا عاجزون عن تقديمها .

نحن لا نربح شيئاً ، وإن علينا اشياء كثيرة يجب ان تُدفع .

فهناك الاجرة ، والضرائب ، والابواب والنوافذ ، ومختلف الرسوم

المفروضة على كل شيء ! وسيدي يعلم ان الحكومة تطالب بمقدار هائل

من المال . والى هذا ، فأنا عندي بنيتي . ولست في حاجة الى ان

أعيل اطفال الناس . »

واجابها الرجل في صوت رغب في ان يجعله لا مبالياً ولكنه كان

ينطوي على ارنجاجة :

- « افرضي ان امرأاً خلّصك منها ؟ »

- « بمن ؟ كوزيت ؟ »

- « نعم . »

وغدا وجه الفندقية الاحمر الغنيف متهللاً بانطباعة مخيفة :
- « آه ، يا سيدي الطيب ! خذها ! احتفظ بها ، اذهب بها ،
اصطحبها ، حملها بالسكر ، اطبخها بالكأه ، اشربها ، كلنها ،
ولتباركك مريم العذراء وجميع قديسي السماء ! »
- « اتفقنا ! »

- « صحيح ؟ سوف تذهب بها ؟ »
- « سوف اذهب بها . »
- « في الحال ؟ »
- « في الحال . فادي الطفلة ! »
فصاحت تيناردييه الزوجة :
- « كوزيت ! »
وتابع الرجل :

- « وفي انتظار ذلك ، سوف أدفع اليك فاتورتي ، ما مبلغها ؟ »
والقى نظرة على الفاتورة ، ولم يتمكن من ان يكبح حركة من حركات
الدهش :

- « ثلاثة وعشرون فرنكاً ! »
ونظر الى صاحبة الفندق وكرّر :
- « ثلاثة وعشرون فرنكاً ؟ »
وكان في النطق بهاتين العبارتين ، المكررتين على هذا النحو ، تلك
النبرة التي تفصل ما بين علامة التعجب وعلامة الاستفهام .
وكانت تيناردييه الزوجة قد وجدت متسعاً من الوقت لأعداد نفسها
للصدمة . فاجابت في تأكيد :

-- « نعم ، طبعاً ، يا سيدي ! انها ثلاثة وعشرون فرنكاً . »
ووضع الغريب خمس قطع نقدية من فئة الخمسة الفرنكات على الطاولة وقال :
- « اذهبي واثنين بالفتاة الصغيرة . »

وفي تلك اللحظة تقدم تيناردييه الى منتصف الغرفة وقال :

« السيد مدين ستة وعشرين سو . »

فصاحت المرأة :

« ستة وعشرون سو ! »

وتابع تيناردييه في برود :

« عشرون سو مقابل الغرفة ، وستة سو مقابل العشاء . اما للفتاة

الصغيرة فيتعين عليّ ان اتحدث مع السيد في شأنها . اتركينا وحدنا اينها الزوجة . »

واصيبت تيناردييه الزوجة بضرب من ذلك الانشده الذي توقعه في نفس

المرء بوارق العبقرية المفاجئة . لقد استشعرت ان الممثل العظيم قد دخل

الى المسرح ، فلم تجب بكلمة ، ومضت لسيلها .

وما إن خلا تيناردييه بالمسافر حتى قدم اليه كرسيّاً . وقعد المسافر ،

ولكن تيناردييه ظل واقفاً ، وقد اتخذ وجهه انطباعة فريدة من الطيبة

واللباسة . وقال :

« اسمع ، ياسيدي ، ينبغي ان اقول انني اعبد هذه الطفلة . »

فنظر اليه الغريب نظراً موصولاً .

« اية طفلة ؟ »

وتابع تيناردييه :

« ما أعجب ذلك ! لقد جمعت المحبة ما بيني وبينها ! ما هذه القطع

الفضية كلها ؟ أعد قطع العشرة سو الى جيبك . هذه الطفلة أنا اعبدها . »

وسأله الغريب :

« من هذه ؟ »

« واوه ، كوزيتنا الصغيرة ! ألا تريد ان تأخذها منا ؟ انا اكلم في

صراحة حقاً ؛ فما لا ريب فيه — كما انه لا ريب في انك رجل فاضل —

اني لن اوافق على ذلك . فانا سوف أفنقذ هذه الطفلة ، من غير شك .

لقد عرفتها منذ ان كانت صغيرة جداً . صحيح انها تكلفنا مالاً ؛ صحيح

ان لها اخطاءها ؛ صحيح اننا لسنا اغنياء ؛ صحيح اني دفعت اكثر من اربعمئة فرنك ثمن ادوية لمرض واحد من امراضها ليس غير ! ولكننا يجب ان نعمل شيئاً في سبيل الله ! هذه الطفلة لا أم لها ولا أب . لقد نشأتها انا . إن عندي من الحب ما يكفيها وما يكفيني . الحق اني يجب ان أحفظ بهذه الطفلة . ولا ريب في انك قد فهمت ، فنحن قوم اصحاب عاطفة . انا ، شخصياً ، هيمة كبيرة . انا لا احكم العقل . اني أحب هذه الفتاة الصغيرة . إن زوجتي نزقة ، ولكنها تحبها ايضاً . وكما ترى ، إنها مثل ولد من اولادنا . انا احس بالحاجة الى هذرها وثرثرتها في البيت . »

كان الغريب يحدق اليه طوال الوقت . وتابع حديثه :

— « عفواً يا سيدي ، ومعذرة ، ولكن المرة لا يقدم طفله على هذه الشاكلة الى عابر سبيل . اليس صحيحاً اني على صواب ؟ وبعد هذا فلست اقول — فانت رجل غني — وتبدو عليك سيما الرجل الطيب — ان هذا لن يكون لمصلحتها . ولكني يجب ان أعرف ، أتقضي ؟ لنفرض اني تركتها تذهب وانني ضحيت بعواطفي فأني أحب ان اعرف الى اين سوف تذهب . انا لا اريد ان أفقد متعة النظر اليها ؛ انا اريد ان اعلم في بيت من هي ، لكي اذهب وأراها بين الفينة والفينة ، ولكي تعرف ان الرجل الطيب الذي رباها ، والذي هو في مقام أبيها ، لا يزال يرباها . واخيراً فتمة اشياء غير ممكنة . انا لا اعرف حتى اسمك ، فاذا ما ذهبت بها فلسوف اقول : وأسفا على القبرة الصغيرة ! الى اين ذهبت ؟ يجب على الاقل ان اري قصاصة ورق بالية ، قطعة من جواز سفر ، او شيئاً ما . »

ومن غير ان يكفّ المسافر عن النظر اليه تلك النظرة التي نفذت ، اذا جاز التعبير ، الى اعماق الضمير ، اجابه في جرس وقور ثبت :

— « مسيو تيناردييه ، إن الناس لا يأخذون جواز سفر لكي يأتوا الى مكان يبعد خمسة فراسخ عن باريس . اذا اخذت كوزيت اخذتها . هذا كل ما هناك . انك لن تعرف اسمي . انك لن تعرف مقري . انك

لن تعرف الى أين سامضي بها . وفي نيتي ان اجعلها لا تراك في حياتها بعد اليوم ابدأ . سوف اكسر السلك الذي يطوق قدميها ، وسوف تمضي . هل يوافقك ذلك ؟ نعم أم لا ؟

وكما تحسّ الشياطين والجنّ ، من بعض الأمارات ، أنها في حضرة ربّي أسمى ، كذلك ادرك تيناردييه انه امام وجل قوي جداً . كان ذلك أشبه بالحدس ؛ لقد فهمه ببصيرته الصافية الثاقبة . ففيا كان يجتسي الحرّ ، اللية البارحة ، مع سائقي العربات ، وفيا هو يدخن ، وفيا هو يغني الاغاني البذيئة ، جعل من همه أن يراقب الغريب طوال الوقت ، وان يترصده مثل هرة ، ويدرسه مثل عالم رياضي . لقد تربص به لحسابه الخاص ، للمتعة وبدافع من الغريزة ، وأحصى عليه الانفاس ، في وقتٍ معاً ، وكان أحداً قد دفع اليه أجراً على ذلك . إن إيماءة واحدة او حركة واحدة من إيماءات الرجل ذي الشرة الصفراء أو حركاته لم تفتنه . وحتى قبل أن يُفصح الغريب عن اهتمامه بكوزيت ، كان تيناردييه قد تنبأ بذلك . لقد باغت نظرات هذا المعجوز المتطلعة ، الملتفتة ابدأ نحو الطفلة . علامَ هذا الاهتمام ؟ ومن هذا الرجل ؟ ولماذا يرتدي مثل هذه الملابس البائسة ما دام كيس دراهمه حافلاً بذلك المال كله ؟ تلك كانت اسئلة وجهها الى نفسه من غير أن يجد لها جواباً ، فهي تقلقه وتثيره . لقد سلخ الليل كله وهو يفكر بها . إن هذا الرجل لا يمكن ان يكون أبا كوزيت . أهو جدّها ؟ واذن ، فلماذا لم يُعلن عن نفسه منذ اللحظة الاولى ؟ فحين يكون للمرء حق في شيء ، يعتمد الى إظهاره . وواضح ان هذا الرجل لا حقّ له في كوزيت . وإذن فمن هو ؟ وناه تيناردييه في ضروب من الافتراضات . لقد لمح كل شيء ، ولكنه لم ير شيئاً . وأياً ما كان ، فحين بدأ محادثة هذا الرجل - واثقاً من ان ثمة سرّاً في ذلك كله ، موقناً من أن الرجل شديد الرغبة في ان يظل مجهول الهوية - استشعر أنه قويّ . حتى اذا جاءه

جواب الغريب الواضح الصارم وادرك أن هذه الشخصية الغامضة كانت غامضة لا أكثر ولا أقل ، استشعر أنه ضعيف . إنه ما كان يتوقع شيئاً من مثل ذلك . لقد هُزمت ظنونه وأحداسه . واستجمع فكراته . وراز ذلك كله في ثانية . فقد كان تيناردييه واحداً من أولئك الرجال الذين يفهمون وضعاً ما ، من اللعبة الأولى . وقدّر ان هذه هي اللحظة التي يتعين عليه فيها ان يمضي قدماً وعلى نحوٍ صريح . لقد فعل ما يفعله القادة العظام في تلك اللحظة الحاسمة التي يعرفون هم وحدهم أن يدركوها . لقد كشف القناع ، فجأة ، عن مدفعيته . وقال :

« يجب ان أحصل على الف وخمسة فرنك ، ياسيدي . »
وأخرج الغريب من جيبه الجانيي محفظة دراهم عتيقة مصنوعة من جلد أسود ، وفتحها وسحب منها ثلاث اوراق نقدية ووضعها على الطاولة . ثم إنه أراح إبهامه الضخم فوق هذه الاوراق ، وقال للفندي :
« أدعُ كوزيت . »

وفيا كان ذلك كله يجري ، ماذا كانت كوزيت تعمل ؟
لم تكد كوزيت تنهض من فراشها حتى سارعت الى حذائها الخشبي ، فوجدت فيه القطعة الذهبية . إنها لم تكن ليرة نابوليونية ، ولكن إحدى تلك القطع الجديدة ، ذوات العشرين فرنكاً ، التي سُكّت في عهد عودة آل بوربون الى العرش والتي حلّ ساق الزهر البرومي الصغير ، على وجهها ، محل تاج الفار . وشُدّعت كوزيت . لقد بدأ قَدَرُها يُسْكِرُها . إنها لم تدرِ أنها قطعة ذهبية ، فهي لم ترَ من قبل ليرة من ذهب ، فسارعت الى إخفائها في جيبها وكأنها قد سرقتها . ومع ذلك ، فقد استبشرت بها خيراً . وحزرت من أين جاءت تلك الهدية ، ولكن ضرباً من البهجة المليئة بالذعر مرى في أوصالها . كانت منشرفة الصدر ، وكانت فوق كل شيء ذاهلة مشدوهة . ان هذه الاشياء الرائعة الى هذا

الحد ، الجيلة الى هذا الحد ، بدت وهمية في عينها . فالدمية قد أخافتها ، والليرة الذهبية قد أخافتها . لقد ارتجفت في دهش أمام هذا البهاء كله . أما الغريب فكان هو وحده الذي لم يوقع الرعب في فؤادها . على العكس ، لقد هدأ من روعها . فنذ الليلة البارحة - من خلال دهشها كله ، وفي أثناء رقادها - وهي تفكر بعقلها الطفلي الصغير في هذا الرجل الذي كان يبدو عجوزاً ، فقيراً ، وكثيراً الى هذا الحد ، والذي كان على مثل هذا الغنى ، وتلك الطيبة . ومنذ ان التقت هذا الرجل الطيب في الغابة ، بدا لها وكأن جميع الاشياء قد تغيرت من حولها . فكوزيت ، وكانت اقل سعادة من اصال سنونو في السماء ، لم تعرف قط معنى الاحتماء تحت جناح الأم . وطوال خمس سنوات ، اي منذ اقدم الايام التي كان في ميسور ذاكرتها ان ترقى اليها ، ارتجفت الطفلة المسكينة وارتعدت . كانت عارية أبداً تحت ربيع الشتاء الشرسة ، وها هي ذي الآن يتراوى لها أن جسماً قد أمسى مكسوّاً . كانت روحها تستشعر لدع البرد ، من قبل ؛ أما الآن فهي دافئة . إن كوزيت لم تعبد خائفة من تينارديه الزوجة ؛ إنما لم تعد وحدها . إن ثمة شخصاً يرباعها ويغني بها .

وسارعت الى القيام بعملها الصباحي . ولكن هذه الليرة الذهبية اللويسية - التي كانت قد وضعتها في جيب مئزرها نفسه الذي سقطت منه قطعة الخمسة عشر دسو ، الليلة البارحة - ألفتها عن عملها . إنما لم تجرؤ على ان تمسها ، بيد انها كانت تنفق في كل مرة خمس دقائق متواصلة وهي تتأملها - وينبغي أن نعترف - مخرجةً لسانها . وفيما كانت تكنس السلم ، كفت عن العمل ووقفت هناك جامدة ، ناسيةً مكنتها ، والعالم كله حولها ، وقد انهمكت في النظر الى تلك النجمة المتلألئة في قعر جيبيها .

وفي فترة من فترات التأمل هذه فاجأها تينارديه الزوجة .

كانت قد مضت للبحث عنها ، نزولاً عند ارادة زوجها . ومن عجب
لأنها لم تصفعها ، ولم تقذفها بشتية .

لقد قالت في جرس يكاد يكون عذباً :

- « كوزيت ، تعالي في الحال . »

وبعد لحظة ، دخلت كوزيت القاعة السفلى .

وتناول الغريب الصرة التي كان قد جلبها معه ، وفككتها . كانت
تلك الصرة تحتوي على فستان صغير من الصوف ، ومئزر ، وصدرية
ذات كمين مصنوعة من قماش قطني خشن ، وتنورة داخلية ، ومنديل
للغنى ، وجوربين صوفيين ، وحذاء - مجموعة ثياب كاملة لفاتاة في
الثامنة . وكانت تلك الملابس كلها سوداء .

وقال الرجل :

- « خذي هذه ، يا بُنيّتي ، واذهي فالبسيها في صرعة . »

وكان الضعى يرتفع عندما وقعت أبصار سكان مونفيرماي الذين بدأوا
يفتحون ابوابهم على رجل ساذج فقير الثياب يجتاز الطريق المؤدية الى
باريس ، ممكاً بيد فتاة صغيرة ترتدي ملابس حداد كاملة ، وتحمل
بين ذراعيها دمية كبيرة زهراء . لقد انجها نحو ليفري .

كانا صاحبنا وكوزيت .

ولم يعرف الرجل أحد . واذا لم تعد كوزيت ترتدي اسمالاً بالية
فقد عرفها نفرٌ قليل لبس غير .

لقد مضت كوزيت لسيلها . مع من ؟ كانت تجهل ذلك . الى
اين ؟ لم تكن تدري . كل ما فهمته أنها خلّفت وراءها مطعم تيناردية
الحقير . ولم يخطر في بال احد ان يوجه اليها كلمة وداع ، ولم يخطر
في بالها هي ان توجه كلمة وداع الى أحد . لقد غادرت ذلك البيت
مكروهةً كارهةً .

يا لها من مخلوقة رقيقة بائسة ، لم يعرف فؤادها حتى تلك اللحظة

شيئاً غير السَّحْق !

وسارت كوزيت في وصانة ، فاتحة عينيها الواسعتين ، ناظرة الى السماء . كانت قد وضعت ليرتها الذهبية اللويسية في جيب مئزرها الجديد . وبين الفينة والفينة ، كانت تنحني وتلقي نظرة عليها ، ثم تنو الى الرجل الطيب . لقد استشمرت ، بعض الشيء ، وكأنها قرب الله .

١٠

من يلتبس الاحسن قد يقع على الاسوأ

كانت مدام تيناردييه ، وفقاً لعادتها ، قد تركت زوجها وشأنه . وكانت تتوقع احدائاً ذات شأن . حتى اذا انقضت خمس عشرة دقيقة أو تزيد على ذهاب الرجل وكوزيت ، انتحى بها جانباً وأراها الألف والمئسئة قرنك .

وقالت :

- « ما هذا ؟ »

كانت هذه هي اول مرة تجرأت فيها ، منذ زواجهما ، على ان تنتقد عملاً من أعمال سيدها . وأحسنَ بأثر الضربة .

وقال :

- « صحيح ؛ انتِ على صواب ، انا معنوه . أعطني قبعتي . وطوى الاوراق المالية الثلاث ، وأقحمها في جيبه ، وانطلق باقصى ما يستطيع من مرعة ، ولكنه ضلَّ الطريق ، آخذاً يمينه باديء الامر . ولكنه سأل بعض الجيران فهدوه سواء السبيل . لقد شوهدت القبرة

والرجل سائر في اتجاه ليفري . فمضى في ذلك الاتجاه ، منطلقاً
بخطوات واسعة ، مخاطباً نفسه :

- « هذا الرجل هو من غير شك مليونير في ملابس صفراء ، أما
أنا فبهيمة . لقد أعطى ، اول الامر ، عشرين سو ، ثم خمسة فرنكات ،
ثم خمسين فرنكاً ، ثم ألفاً وخمسة فرنك ، ودفعها كلها في كثير من
اليسر . ولقد كان على استعداد لأن يدفع خمسة عشر ألف فرنك .
ولكنني سوف أوقعه في الفخ مرة ثانية . »

ثم صرة الثياب هذه المعدة مقدماً من اجل الفتاة الصغيرة ، كل هذا
كان غريباً . كان وراء ذلك سرّ خفي . وحين يضع المرء يده على
سرّ فإنه لا يفكره إن امرار الاغنياء قطع من الاسفنج مليئة
بالذهب . ويتعفن على المرء ان يعرف كيف بعصرها . كانت هذه
الافكار كلها تعصف في دماغه . وقال :

- « أنا بهيمة . »

إن في امكان المرء ، حين يغادر مونفيرماي ويبلغ منعطف الطريق
الى ليفري ، أن يرى الطريق تمتد امامه بعيداً بعيداً فوق النجد .
حتى اذا انتهى الى هناك قدّر أنه سوف يرى الرجل والفتاة الصغيرة
من غير ريب . ونظر الى اقصى ما تستطيع عيناه أن تنظرا ، ولكنه
لم ير شيئاً . واستعلم كرة اخرى . وفي غضون ذلك ، كان الوقت
يضيع . وقال له بعض عابري السبيل ان الرجل والطفلة اللذين يبحث
عنهما مضيا نحو الغابة في اتجاه غاني . فسارع الى الانطلاق في هذا الاتجاه .
كانا قد سبقاه ، ولكن الطفلة تمشي في نزدة ، على حين ينطلق هو
في سرعة . والى هذا فقد كان يعرف المنطقة معرفة جيدة .

وفجأة كف عن السير ، وصفع جبينه مثل رجل نسي الشيء
الرئيسي ، رجل على وشك ان يرتد على آثاره .
وقال :

- « كان ينبغي ان اجي، بينديتي ! »

كان تيناردييه واحداً من اصحاب تلك الطبايع المزدوجة التي تبرز
بيننا في بعض الاحيان من غير ان تدري ، والتي تختفي من غير ان
تعرف ، لان القدر لم 'يرنا إلا جانباً منها . فقد كتب على كثير
من الرجال ان يعيشوا هكذا مغبورين نصفَ عمر . ففي الحال
الطبيعية المادية ، كان لدى تيناردييه ما هو ضروري لأن يضع - ولا
نقول لأن يكون - ذلك الذي تعودنا ان ندعوه تاجراً أميناً ، او
مواطناً صالحاً . وفي الوقت نفسه ، وفي بعض الظروف الخاصة ، تحت
وطأة بعض الهزات التي تثير طبيعته الدنيا ، كان في باطنه كل ما
يحتاج اليه المرء لكي يكون شريراً فائقاً . كان صاحب دكان يخفي
في 'برديه غول . ولا ريب في ان ابليس قد جلس القرفصاء لحظةً ، في
زاوية ما من الثقب الذي يقطن فيه تيناردييه ، ودرس هذه الرائعة
المخيفة .

وبعد ان تردد لحظة ، قال في ذات نفسه :

- « ولكن هذا سوف ينجحها متسعاً من الوقت للهرب ! »

رواصل طريقه ، ماضياً الى الامام في سرعة ، وقد غلبت على
محياه سياء من الثقة تقريباً ، وساقته فطنة كفطنة الثعلب استروح سرباً
من الجبلان .

والواقع أنه حين اجتاز المستنقعات ، وعبرَ على نحو موارب ذلك
المرج العريض المنبسط الى يمين شارع بيلفو ، وانتهى الى المجاز المعشوشب
الذي بطوق الكثيب ، أو يكاد ، والذي يستر القناة العتيقة التي تجرّ المياه
الى دير « شيل » لمح على دغل من الادغال قبة كان قد بنى عليها كثيراً
من الظنون والاحداث . كانت قبة رجل ، وكان الدغل منخفضاً ، وادرك
تيناردييه ان الرجل وكوزيت كانا جالسين هناك ، ولم يكن في ميسوره
ان يرى الطفلة ، من جراء قصرها ، ولكنه كان قادراً على ان يلمح

رأس الدمية .

ولم يندع تينارديه . كان الرجل قد جلس هناك لكي يمكن كوزيت من ان ترتاح بعض الشيء . وازاح صاحب المطعم الدغل ، وبرز فجأة امام أعين هذين اللذين يبحث عنهما . وقال وهو يلهث لهائلاً شديداً :

« عفواً ، وألتبس المَعْدِرَة يا سيدي ، ولكن هذه هي الالف والخمسة فرنك التي دفعتها الي . »

وفيا هو ينطق بذلك قدّم الاوراق المالية الى الرجل الغريب . ورفع الرجل عينيه وقال :

— « ما معنى هذا ؟ »

فاجابه تينارديه في احترام :

— « هذا يعني انني سوف أسترجع كوزيت يا سيدي . »

وارتعدت كوزيت ، وتشبثت بالرجل الطيب .

اما هو فأجاب ، ناظراً الى تينارديه في عينه مباشرة ، مباحداً ما بين مقاطع الحروف :

« أنت تـ - تر - جع كوزيت ؟ »

— « نعم ، يا سيدي ، سوف استرجعها . اريد أن اقول لك . لقد فكرتُ .

في الواقع ، اني لا حق لي في ان اعطيك اياها . انا رجل امين كما ترى ، وهذه الفتاة الصغيرة ليست لي . انها ملك لأما . لقد استودعني اما اياها ، فليس في استطاعتي ان أسلمها إلا الى اما . وقد تقول لي : ولكن أما ماتت . حسناً ، في هذه الحال لا يستطيع ان أسلم الطفلة إلا الى شخص يحمل الي امرأ موقعا من الأم ينص على ان من واجبي ان أسلم الطفلة اليه . هذا شيء واضح . »

ومن غير ان يجيب ، بحث الرجل في جيبه ، ورأى تينارديه الحافظة المنطوية على الاوراق المالية تبرز من جديد .

وسرت في اوصال الفندق رعدة من البهجة .

وقال فيما بينه وبين نفسه :

« حسن ! إصمد . انه يريد ان يرشوني . »

وقبل ان يفتح حافظة نقوده ،لقى المسافر نظرة على ما حوله . كان المكان خالياً تماماً فلم تكن ثمة نفس واحدة لا في الغابة ، ولا في الوادي . وفتح الرجل حافظة نقوده وسحب منها لا الاوراق المالية التي كانت تيناردييه يتوقعها ، ولكن قصاصة من ورق ما لبث ان نشرها وقدمها الى صاحب الفندق قائلاً :

« أنت على صواب . إقرأ هذا ! »

وتناول تيناردييه الورقة ، وقرأ :

«وتدوي سور مير ، في ٢٥ آذار ، ١٨٢٣

« مسيو تيناردييه ،

« سوف تسلم كوزيت الى ناقل هذه الرسالة .

« لأنه سوف يدفع اليك جميع الديون الصغيرة .

« لي الشرف ان احييك في احترام .

« فانتين . »

وأردف الرجل :

« اتعرف هذا التوقيع ؟ »

كان توقيع فانتين حقاً . ولقد عرفه تيناردييه .

ولم يكن ثمة ما يقوله . لقد استشر غيظاً مضاعفاً ، فهو مغيظٌ

لاضطرابه الى التخلي عن الرشوة التي منى النفس بها ، وهو مغيظٌ للهزيمة

التي اصابته . وأضاف الرجل :

« في استطاعتك ان تحتفظ بهذه الورقة كأبصال . »

وانسحب تيناردييه في نظام .

ودمدم قائلاً :

- « هذا التوقيع مزور تزويراً بارعاً . حسن ، فليكن ذلك ! »

ثم إنه بذل جهداً يائساً ، فقال :

- « هذا حسن ، يا سيدي . واذن فأنت الناقل المشار إليه .

ولكنّ عليك أن « تدفع جميع الديون الصغيرة » . إنها مدينة لي بمبلغ ضخم . »

ونفض الرجل واقفاً ، وقال وهو ينفض بطرف سبابته بعض الغبار

عن ردفه المهترئ :

- « مسيو تيناردييه ، في كانون الثاني قدرت الأم انها مدينة لك

بمئة وعشرين فرنكاً . فأرسلت اليها في شباط مذكرة بمخمسة فرنك .

ولقد تلقيت ثلاثمئة فرنك في آخر شباط ، وثلاثمئة فرنك في مطلع آذار .

وانقضت منذ ذلك الحين تسعة اشهر ، كل شهر بمخمسة عشر فرنكاً ،

وهو السعر المتفق عليه ، وهذا يجعل مطلوبك مئة وخمسة وثلاثين فرنكاً .

ولقد قبضت مئة فرنك مقدماً ، فيكون قد بقي لك خمسة وثلاثون

فرنكاً . ومع ذلك فقد اعطيتك ، منذ لحظة ، ألفاً وخمسة فرنك . »

واستشعر تيناردييه ما يستشعره الذئب لحظة يجد نفسه بين فكي

الشرك الفولاذيين .

وقال في ذات نفسه :

- « أيّ شيطان هو هذا الرجل ؟ »

وفعل ما يفعله الذئب . فانتفض انتفاضة قوية . كانت الجراءة قد

نجمت معه قبل الآن .

وقال في عزم ، طارحاً هذه المرة كل تظاهر بالاحترام :

- « ايها السيد الذي لا اعرف له اسماً . سوف استرجع كوزيت

أو تعطيني ألف ريال . »

فقال الغريب في هدوء :
- « كوزيت ، تعالي . »
وأمسك كوزيت بيده اليسرى ، ورفع عصاه باليمنى ، وكانت على الأرض .

ولاحظ تيناردييه ضخامة المراوة ، ووحشة المكان .
واختفى الرجل في الغابة ، ومعه الطفلة ، مخلّفاً صاحب الفندق جامداً مرتبكاً .

وفيا هما ينطلقان لاحظ تيناردييه منكيه العريضين ، المقوسين بعض الشيء ، وقبضتيه الضخمتين .
ثم وقعت عيناه على ذراعيه هو ، القميصين وبديه هو ، المهزولتين ، وقال في ما بينه وبين نفسه :

- « لقد كنت مجنوناً حقاً اذ لم آت بينديتي ما دمت خارجاً الى القفص . »

ومع ذلك فان الفندقى لم يكف عن تعقبه ، قائلاً :

- « يجب ان اعرف الى اين سوف يذهب . »

وشرع يتبعهما من على مسافة ما . وكان قد بقي بين يديه شيطان ، اولها سخرية مريرة ، هي قصاصة الورق الموقعة فانتين ، والثاني عزاء ، وهو مبلغ الالف والخمسة فرنك .

كان الرجل يقود كوزيت في اتجاه « ليفري » و « بوندي » .
كان يمشي في تروادة ، مطأطئاً رأسه ، وقد رانت على وجهه سباب التفكير والحزن . وكان الشتاء قد عرّى الغابة عن الاوراق ، بحيث اصبح في ميسور تيناردييه ان يتبعهما بصره ، برغم بقائه بعيداً عنهما بعداً غير يسير . وبين الفينة والفينة ، كان الرجل يتلفت فيرى ما اذا كان احدٌ يقتفي آثاره . وفجأة ، لمح تيناردييه . فما كان منه إلا ان دخل هو وكوزيت غابة تقطع اشجارها في العادة ، فغابا عن العيان .

وقال تيناردييه :

« يا للشيطان ! »

وضاعف سرعته .

وأكرهته كثافة الغابة على أن يقترب منها . حتى اذا انتهى الرجل الى اسد اجزاء الغابة كثافة ، استدار راجعاً . وكان تيناردييه قد حاول الاختباء بين الاغصان ، ولكنه لم يوفق الى ان يمنع الرجل من رؤيته . والقي الرجل نظرة قلقه ، عليه . ثم هز رأسه ، واستأنف سيره . فما كان من الفندقتي إلا أن تعقبه كرة أخرى . وتقدّما على هذا النعور مئتي خطوة او ثلاثئة خطوة . وفجأة ، استدار الرجل من جديد . ولمح الفندقتي . ونظر اليه هذه المرة نظرة كالحة الى حدّ جعل تيناردييه يقدر أن « من غير المجدي ، الذهاب الى أبعد . فرجع من حيث أتى .

١١

رقم ٩٤٣٠ يظهر كرة اخرى

وكوزيت تربحه في اليانصيب

إن جان فالجان لم يمت .

فحين سقط في البحر ، او على الاصح حين ألقى بنفسه فيه ، كانت كما قد رأينا غير راسفٍ في الاغلال . لقد سبح تحت الماء الى سفينة راسية سُند اليها مركب من المراكب .

ووجد سبيلاً مكتنته من الاختباء في هذا المركب حتى الماء . وفي موطن من الليل قذف بنفسه كرة اخرى في الماء ، وانتهى الى

الساحل على مسافة غير بعيدة من رأس « برون » .
واذ كان المال لا يعوزه فقد تمكن من الحصول على بعض الملابس ،
هناك . فقد كانت في ضواحي بالاغوييه حانة صغيرة تزود الفارين من
سجن الاشغال الشاقة بالملابس ، وكانت تجارة رابحة . وعندئذ سلك
جان فالجان سبيلاً غامضاً مترحلاً ، شأن جميع اولئك الشاردين التعساء
الذين يحاولون ان يضلّوا أرواح القانون والقدر الاجتماعي . ووجد
مأوى ، باديء الامر ، في برادو ، قرب بوسيه . ثم اتجه نحو « غران
فيلار » قرب بريانسون ، في « الألب العليا » . فراراً تحسسي قلق ،
وسبيل اشبه بسبيل الخلد ذات التشعبات المجهولة . ولقد اكتشف في
ما بعد شيء من آثاره في « إين » ، فوق مقاطعة سيفريو ، وفي
البيرينييه ، عند « آكون » ، في مكان يدعى « غرانج دو دوميك »
قرب قرية شافاي ، وفي ضواحي بيريفو ، عند بروثي ، وهي قضاء
من أفضية « شابيل غرناغيه » . واخيراً وصل الى باريس . ولقد
رأبناه بعد في مونفيرماي .

وكان اول همومه ، لدن بلغ باريس ، ان يشتري ثوب حداد لفتاة
صغيرة يتراوح عمرها ما بين السابعة والثامنة ، وان يبحث بعد ذلك
عن مكان يبيت فيه . حتى اذا تم له هذا مضى الى مونفيرماي .

ويذكر القاري انه كان قد قام ، عند فراره الاول او حوالى
ذلك الحين ، برحلة خفية لمحت العدالة وميضاً منها .

والى هذا ، فقد مرى الاعتقاد بأنه قد مات ، وذلك ما كشف
الظلمة التي اكتشفته . وفي باريس ، وقعت بين يديه احدى الصحف التي
دونت الواقعة . فاستشر الطمأنينة وقدراً من الامن يكاد يعدل ذلك
الذي كان خليفاً به ان يستشعره لو انه مات حقاً .

وفي مساء اليوم نفسه الذي وُفق فيه جان فالجان الى انتراع كوزيت
من محالب تبناردييه وزوجته ، عاود الدخول الى باريس . لقد دخل

المدينة ، هو والطفلة ، عند هبوط الليل ، من باب مونسو . وهناك
استأجر عربية ذات دولابين أقلته الى ساحة المرصد . ثم ترجل من
العربة ، ودفع الأجر الى السائق ، وأمسك بكوزيت من يدها ،
وانشأ يمشيان ، في الليل البهيم ، عبر الشوارع المهجورة المجاورة لـ «أورسين»
ولـ «غلامسير» ، نحو جادة المشفى .

كان النهار غريباً حافلاً بالانفعالات التي حملها الى كوزيت . وكانا قد
أكلتا خلف الأسبجة المكوّنة من الاشجار الشائكة خبزاً وجبناً اشترياهما
من بعض المطاعم الحقيبة المتعزلة ؛ وكانا قد انتقلا عدة مرات من عربية
الى عربية ، وقطعا مسافات فصاراً على اقدامهما ، فلم تشك ولم تتذمر ،
ولكنها كانت متعبة ؛ ولقد ادرك جان فالجان ذلك من جذبها
ليده اثناء السير جذباً اشدّ وطأة من ذي قبل . وحملها على ظهره .
ووضعت كوزيت رأسها ، من غير ان تفلت كاترين ، على كتف
جان فالجان ، واستسلمت للرقاد .

الكتاب الرابع

بيت غوربو العتيق

١

الاستاذ غوربو

منذ اربعين سنة ، كان المنزلة المتوحد الذي يغامر في التقدم الى
مجاهل « لا سالبيريير » ، ويصعد في الجادة حتى « باب ايطالية » ،
ينتهي الى مناطق بعينها حيث يمكن القول ان باريس قد اختفت . انها
لم تكن بقعة مهجورة ، فقد كان ثمة عابرو سبيل . ولم تكن ريفاً ،
فقد كانت ثمة بيوت وشوارع . ولم تكن مدينة ، فقد كانت الشوارع
ملأى بالاخاديد ، مثل الجواد الكبيرة ، وكان العشب نامياً على حوافها .
ولم تكن قرية ، فقد كانت المنازل مرتفعة جداً . ماذا كانت اذن ؟

كانت بقعة آهلة ليس فيها احد من الناس ؛ كانت بقعة مهجورة ينزلها
نفر من الناس ؛ كانت جادة من جواد المدينة العظيمة ، شارعاً من
شوارع باريس ، اشدّ وحشة - في الليل - من غابة ، واكثر كآبة
- في النهار - من مقبرة .

كانت حيّ د مارشييه أو شيفو ، القديم .

ولو قد غامر هذا المتنزه بالمضي الى ما وراء جدران د مارشييه أو
شيفو ، الاربعة المتداعية ، ولو قد ارتضى ان يذهب حتى الى ابعد
من شارع د بيتي بانكييه ، بعد ان يخلف الى يمينه فناءً تحيط به
اسوار عالية ، ثم مرجاً مرصعاً بأكداس من قشر الدبغ شبه ما
تكون بتلك السدود الضخمة التي قبئها كلاب الماء ؛ ثم حظيرة تفص
بجشب البناء وأكوام من أرومات الاشجار والنشارة والتجارة كانت
ينبع من أعلاها كاب ضخّم ، ثم جداراً طويلاً منخفضاً متهدماً ذا
باب صغير أسود هرم يكويه الطحلب المثقل بالازهار في أيام الربيع ،
ثم - في البقعة الاكثر وحشة - بناءً مروّعاً متهدماً كتب عليه باحرف
ضخام « ممنوع إلصاق الاعلانات » - نقول لو قد غامر هذا المتنزه
الجسور بذلك كله اذن لانتهى الى زاوية شارع د فيني سان مارسيل ،
وهي رقعة لا يعرفها غير القليل . هناك ، قرب احد المصانع ، وبين
جدارين من جدران الجنائن كان يرى آنذاك بيت عتيق متهدم يبدو ،
للنظرة الاولى ، صغيراً مثل كوخ ، ومع ذلك فقد كان واسعاً مثل
كاندرواية . كان ينهض وحائط جملونه * متجه نحو الجادة ، ومن هنا
صغره الظاهري . لقد كان البيت كله محجوباً تقريباً . إن المرء ما كان في
مبسوره ان يرى منه غير الباب واحدى الدوافذ ليس غير .

ولم يكن ذلك البيت المتداعي مؤلفاً من اكثر من دور واحد .

* الجملون بناء على هيئة سنام الجمل . وهو يعرف في الفرنسية بـ pignon وفي
الانكليزية بـ gable .

وكانت الحاصة التي تبده الناظر اليه ، الراغب في درسه ، اول ما تبدهه ، ان ذلك الباب ما كان يمكن ان يكون ، في يوم من الايام ، غير باب بيت حقير ، على حين ان النافذة كان يمكن ان تكون لو ركبت في حجر مربع او منحوت لا في حجر مرضوم * - نافذة قصر من القصور .

كان الباب مجرد مجموعة من أكواخ خشبية أكلها السوس ، مُشدّ بعضها الى بعض ، على نحو أخرق ، بعوارض تشبه قطعاً من الوقود قُدت قدأً رديئاً . وكان يفتح مباشرة على سلم شديدة الانحدار ذات درجات عالية يعلوها الوحل ، والجص ، والغبار - سلم يبلغ عرضها عرض الباب ، وتبدو من الشارع وكأنها تنهض على نحو ممودي مثل مرقاة ، وتختفي في الظلام بين جدارين . وكان أعلى الفسحة الشائنة التي ينطلق عليها هذا الباب مقعاً بمجازر علوي ضيق نُشرت في وسطه فوهة مثلثة الزوايا كانت حين يوصد الباب بمثابة كوة وخادعة ** في آن معاً . وعلى داخل الباب كانت فرشاة مغمسة بالحبر قد رسمت بضربتين من ضربات مُجمع اليد الرقم ٥٢ ، وفوق الحاجز كانت الفرشاة نفسها قد خربشت الرقم ٥٠ حتى ليتردد الوافد الجديد ويتساءل : « اين أنا » . إن اعلى الباب يقول : « في المنزل ذي الرقم ٥٠ » . ولكن داخله كان يجيب : « لا » في المنزل رقم ٥٢ . اما الاسمال الغبارية اللون المتدلية مثل الستائر حول الخادعة المثلثة الزوايا فلن نحاول ان نصفها .

كانت النافذة عريضة ، وعلى ارتفاع غير يسير . وكانت ذات مصاريع خارجية ، وأطر ذات الواح زجاجية عريضة . بيد ان تلك الالواح الزجاجية العريضة كانت قد أصيبت بجروح مختلفة أخفتها وأعلنت عنها ، في وقت معاً ، ضمادات ورقية غير بارعة . وكانت المصاريع الخارجية محطمة مفككة الى حد جعلها تهدّد عابر السبيل بالخطر ، اكثر مما تصون النازلين في البيت . كانت تعوزها ، هنا وهناك ، العوارض الخشبية

* رضم الحجارة جعل بعضها على بعض من غير ان ينحتها ويسويها .

** الخادعة : هي الباب الصغير الذي يكون في الباب الكبير .

الافقية ، وقد استعويض عنها بالواح مُسمّرت عمودياً ، بحيث انّ ما كان في اول الامر مصاريع خارجية ، انتهى الى ان يصبح مصراعاً مصقّحاً . وكان ذلك الباب بظهره القذر ، وتلك النافذة بسيماها اللاتفة ، وغم تهدّتها ، منظوراً اليها هكذا في بناية واحدة ، يتركان في النفس مثل الاثر الذي يتركه مشهد شحاذين يمزقي الثياب يمضيان في اتجاه واحد ويمشيان جنباً الى جنب ، وقد تكشّف كل منهما ، تحت الاسمال نفسها ، عن سبيل خاصة ، فأما احدهما فأشبهه برجل سلخ عمره كله شحاذاً ، وأما الآخر فكان في يوم ما شريفاً من الاشراف .

وكانت السلم تقود الى بناء فسيح جداً هر أشبه شيء بسقيفة مُحوّلت الى بيت . وكان ثريان المواصلات الرئيسي في هذا البناء رواقاً طويلاً تتفتح الى يمينه وإلى يساره أشباه غرف ذات أبعاد مختلفة ، غير آهلة الا في النادر ، وهي اقرب الى ان تكون حوانيت صغيرة خشبية منها الى ان تكون غرفاً . وكانت هذه الحُجُرات تطلّ على الاراضي المجاورة غير الواضحة المعالم . وكانت كلها مظلمة ، قابضة للصدر ، شاحبة ، كشيبة تذكر بالمقابر ؛ وكانت تخترقها ، تبعاً لمواضع الشقوق وكونها في السقف أو في الباب ، أشعة الشمس الباردة حيناً ، ورياح الشمال المتلوجة حيناً آخر . ومن الخصائص الطريفة الماتعة التي يمتاز بها هذا الضرب من البيوت ضخامة عناكبها .

والى يسار الباب الرئيسي ، المطلّ على الجادة ، كانت نافذة صغيرة مسدودة تشكّل ، على ارتفاع ستة اقدام تقريباً عن الارض ، كوة مربعة ملأى بالحجارة التي قذفها بها الصبية اثناء مرورهم من هناك . كان جزء من هذا البناء قد هُدم فتد قريب ، ولكن ما بقي منه اليوم لا يزال في ميسوره ان يعطي فكرة عما كان عليه من قبل . إن البناء ، بوصفه كلّاً واحداً ، لا يزيد عمره على مئة عام . والمئة عام شبابٌ بالنسبة الى كنيسة من الكنائس ، ولكنها شيخوخة بالنسبة الى

بيت من البيوت . لكنَّ بيت الانسان يشاركه في وجوده الموجز ،
على حين ان بيت الله يشاركه في سرمديته .

وكان سعاة البريد يدعون البيت رقم ٥٠ - ٥٢ ؛ بيد أنه كان
معروفاً في الحي بـ « بيت غوربو » .
فلننظر من اين جاء هذا اللقب .

ان متصيدي الصغائر التافهة الذين يجمعون النوارد والحكايات كما
يجمع دارس النباتات والحشائش اعشابه ، ويشكّون التواريخ الزائلة في
ذواكرهم بدبوس ، يعرفون انه كان في باريس ، في القرن الماضي ،
حوالي سنة ١٧٧٠ ، نائبان عامان في الـ « سانتيليه » * احدهما يدعى « الغراب »
Corbeau والآخر يدعى « الثعلب » Renard - وهما اسمان تنبأ بهما لافونتين .
وكانت الفرصة جديّة مواتية لأرسال النكتة ، فليس من المعقول ان يضعها
جماعة المساعدين القضائيين . وهكذا ما لبثت أروقة قصر العدل أن ضجعت
بالتحريف التالي ، في أبيات عرجاء بعض الشيء :

« كان الاستاذ الغراب جائلاً فوق أحد الملفات
مسكاً في منقاره حكماً بالاعداد حيناً .
وأغرت الراححة الاستاذ الثعلب
فروى على مسميه هذه الحكاية :
هاهي ، صباح الخير ! النع .. »

واذ اغتاظ هذان الموظفان المخلصان لهذا المزاج المستقيم ، واذ كانت
عواصف الضحك التي تعقبه تتعارض وكرامتها ، فقد اعتزما تغيير اسميهما
ملتصين من الملك ان يميز لهما ذلك . وقدّمت العريضة الى لويس
الحامس عشر في ذلك اليوم نفسه الذي انحنى فيه ، بنحشوع ، سفير البابا
والكاردينال « لا روش ايمون » ، في حضرة جلالته ، لكي يضع كل

* Châtelet وكان مقر محكمة الجنايات في باريس .

منها فردة من بابوچ مدام دو باري * في رجليها العاريتين وهي تنهض من السرير . وواصل الملك - وكان يضحك - ضحكه ذاك ، وانتقل في حبور من الأسقفين الى النائبين العامين ، وأحلّ رُجلي القضاء هذين من اسميهما ، أو كاد . فقد أجيّز للاستاذ كوربو Corbeau (الغراب) ، مع سرور الملك ، ان يضيف ذيلًا الى الحرف الاول من اسمه ، بحيث امسى غوربو . أما الاستاذ رينار Renard (الثعلب) فكان اقلّ حظاً ، اذ لم يفز باكثر من إذن اجاز له ان يضع حرف P قبل حرف ال R ، مما جعل الكلمة « برينار » Prenard ** ، وهو اسم لم يكن اقلّ ملائمة من الاسم الاول .

والآن ، فقد كان الاستاذ غوربو هذا ، وفقاً للرواية المحلية ، صاحب البناء المرقم ٥٠-٥٢ ، جادة المستشفى ، وكان هو ، كذلك ، مبتدع النافذة الفخمة .

ومن هنا اكتب ذلك البناء اسمه : بيت غوربو .

ومقابل رقم ٥٠-٥٢ تنهض ، بين اشجار الجادة ، شجرة دردار سامقة ، شبه ميتة . وتجاهاها تقريباً امتد شارع « باب غوبلين » وهو شارع كان آنذاك من غير منازل ، ومن غير تعبيد ، وكانت تحيط به اشجار هزيلة خضراء او موحلة تبعاً لفصول السنة ، حتى يتصل ، عند زاوية قائمة ، بالسور الذي يطوق باريس . كانت رائحة كبريتات الحديد تقوح ، هبات هبات ، من سطوح مصنع مجاور . وكان باب باريس قريباً جداً . ففي عام ١٨٢٣ كان سور المدينة لا يزال قائماً .

وكان هذا الباب نقه يملأ الدهن بالصور القائمة . كان على الطريق

* Contesse du Barry معظية لويس الخامس عشر وقد أعدمت في عهد الارهاب

(١٧٤٣ - ١٧٩٣) .

** ومناعها الرجل الشر .

المؤدبة الى «بيستير» . ومن هناك كان السجناء المحكوم عليهم بالموت ، في عهد الامبراطورية وعهد عودة آل بوربون الى العرش ، يدخلون باريس ، ككرة اخرى ، يوم إعدامهم . وهناك وقعت ، حوالي عام ١٨٢٩ ، تلك الجريمة الخفية التي دُعيت « جريمة باب فونتينبلو » ، والتي لم نوفق السلطات قط الى اكتشاف أبطالها - مسألة فاجعة لما 'تجل' بعد ، ولغز مروع لما 'يحل' . فاذا تقدمت بضع خطوات الى أمام تجد شارع كرولبارب المشؤوم حيث طعن أولباش بمنجبره الفتاة الايفرية المعازة ، تحت قصف الرعد ، على طريقة المآسي المسرحية . واذا تقدمت ، كرة ثانية ، بضع خطوات ، انتهت الى دردارات باب « سان جاك » البغيضة المقطوعة الرؤوس ، تلك الوسيلة التي اصطنعها محبو البشر لاختفاء المفصلة ، الى ساحة الاعدام تلك الدنيئة المحزنة التي اقامها مجتمع دكايني مديني مومر 'يُحفل من عقوبة الموت ، ومع ذلك فهو لا يجرؤ على ان يلغيا في جلال ، او يحتفظ بها في سلطان . ومنذ سبع وثلاثين سنة ، وباستثناء « ساحة سان جاك » تلك ، التي بدت وكأنها رازحة تحت وطأة قضاء سبقي محتوم والتي كانت مروعة دائماً ، كانت النقطة الاكثر عبوساً في هذا الشارع العابس هي في اغلب الظن تلك البقعة التي نهض فيها بناء ٥٠ - ٥٢ العتيق ، والتي لا تزال متفجرة الى اليوم .

ولم تشرع البيوت المدنية 'تطلع رؤوسها هناك إلا بعد خمس وعشرين سنة . فقد كانت المحلة مقبنة . فبالإضافة الى الافكار الكثيرة التي تستبد بك هناك ، كنت تستشعر انك بين « لاساليتيريير » * البادية قبته لناظريك ، وبيستير * القريب بابها اليك - يعني بين جنون المرأة وجنون

* La Salpêtrière مأوى لقنوة المجانن في باريس ، كانت تعالج فيه ايضاً المستوحات والمصابات بالهستيريا .

** Bicêtre قرية فرنسية فيها مأوى شهير للمجانن والمجانين .

الرجل . وعلى مدى البصر لم يكن ثمة ما يُرى غير المسالخ ، وسور المدينة ،
وقليل من واجهات المصانع الشبيهة بالكسكنات او الاديرة . ففي كل مكان
اكواخ واكداس من حطام الجبس ، وجدران قديمة سوداء كثوب حِداد
الارملة ، وجدران جديدة بيضاء كالأكفان . وفي كل ناحية صفوف اشجار
متوازية ، وابنية ناهضة على نحو مستقيم : ابنية منخفضة مسطحة ، وخطوط
طويلة باردة ، وتلك الكآبة الحِدادية التي توحى الزوايا القائمة . لا تفاوت
في صفحة الارض ؛ لا سُذوذ في الفن المعماري ؛ لا انحراف او التواء .
وكان ذلك في مجموعه شيئاً مثلوجاً نظامياً بشعاً . وليس من شيء يقبض الصدر
كالتناظر *symétrie* فالتناظر هو السأم ، والسأم هو روح الاسى والكآبة .
ان اليأس يتشاءب . وفي استطاعتنا ان نتخيل شيئاً أفظع من جهنم التي
نسام فيها العذاب ، هي جهنم التي نصاب فيها بالسأم . ولو قد كان ثمة
مثل جهنم هذه ، اذن لكان هذا الجزء من جادة المستشفى جديراً بان
يكون هو المدخل اليها .

وحين يهبط الليل ويختصر النهار ، وبخاصة في الشتاء ، في تلك اللحظة
التي تجرّد فيها ريح المساء شجرات الدردار من اوراقها الناصلة الداوية ،
حين تكون الظلمة حالكة تعوزها النجوم او حين يحدث القمر والريح
صدوعاً في السحب ، تصبح هذه الجادة ، فجأةً ، مروعة . كانت الخطوط
المستقيمة تغوص وتختفي في الظلام مثل فلذ اللانهاية . فلا يتالك عابر السبيل
من ان يفكر في تقاليد البقعة الدامية التي لا نحصى . فقد كان في
وحشة هذه المنطقة حيث اقتشفت جمهرة كبيرة من الجرائم ، شيء مخيف .
ان المرء ليخيل اليه ان قلبه يجدته بان في هذه الظلمات أشراكاً ، واذا
بجميع الاشكال المختلطة في العتمة تبدو مريبة ، واذا بالتجاويف الطويلة المربعة
التي يلحمها بين كل شجرة وشجرة ، تبدو كالقبور . في النهار كانت تلك
البقعة بشعة ، وفي المساء كانت كثيبة ، وفي الليل كانت مشؤومة .

وفي الصيف ، عند الفسق ، كان المرء يرى ههنا وههناك بعض

النسوة العجائز الجالسات ، تحت شجر الدردار ، على مقاعد جعلتها الامطار شبه عتقة . كانت هاتيك العجائز الطيبات مدمنات للشحاذة .

وعلى الجملة ، فان هذا الحي الذي بدا شيئاً زال زمانه اكثر مما بدا شيئاً عتيقاً ، أخذ منذ ذلك الحين يتخذ هيئة اخرى . لقد أمسى كل من يرغب في رؤيته ، ابتداءً من تلك الفترة ، مضطراً الى الاسراع . ففي كل يوم كان يزول جزء من اجزاء ذلك المجموع . فالآن ، ومنذ عشرين سنة خلت ، كانت نهاية خط اورليان الحديدي هناك ، خارج الضاحية القديمة تماماً ، فهي تبقىها على قيد الحركة . فحينما نجد في ضواحي عاصمة من العواصم مستودعاً من مستودعات السكة الحديدية ، فاعلم ان ثمة قرية نوت ، ومدينة تولد . لكأنما حول هذه المراكز الكبرى لنشاط الامم ، وحول دمدمة هذه الماكينات الجبارة ، وحول خيول الحضارة العملاقة هذه التي تأكل الفحم وتقيء النار ، ترتجف الارض الملأى بجرانيم الحياة ، وتفتح فيها لتبتلع منازل الناس القديمة وتطلع المنازل الجديدة . إن المنازل القديمة لتنتهار ، وإن المنازل الجديدة لتنبثق .

ومنذ أن غزا مستودع سكة حديد اورليان اراضي لا ساليترينو ، والشوارع القديمة الضيقة المجاورة لحنادق د سان فيكتور ، و د حديقة النباتات ، ترتجف ، وقد اخذت تجتازها ثلاث مرات او اربع مرات يومياً ، وفي عنف ، سيول من عربات المسافرين ، وعجلات الكراء ، والمركبات العامة التي ترد البيوت الى الورا . خلال فترة من الزمان — ذات اليمين وذات الشمال . ذلك بان ثمة أشياء تتراعى غريبة في الآذان ، ومع ذلك فهي صحيحة مئة بالمئة . وكما ان من الصواب القول إن الشمس تعمل على إلغاء واجهات البيوت المتجهة نحو الجنوب في المدن الكبرى ، فكذلك لا يُكره ان مرور العربات الموصول بيزيد في عرض الشوارع إن أعرض حياة جديدة لواضحة للعيان . ففي ذلك الحي البلدي القديم ، وفي زواياه الأشد

إيجاشاً ، بدأ بلاط الشوارع يبرز ، واخذت الارصفة تنبتق وتمتد الى مسافات أطول فأطول ، حتى في تلك المواطن التي ما تزال خلواً من عابري السبيل . وذات صباح - ذات صباح تاريخي في تموز سنة ١٨٤٥ - شهدت قدور سوداء ملأى بالزفت تطلق الدخان هناك . وفي ذلك النهار كان في ميسور المرء ان يقول ان الحضارة وصلت الى شارع الداورسين ، وان باريس قد دخلت ضاحية « سان مارسو » .

٢

عش لوم ودُخْلة هـ

أمام بيت غوربو العتيق هذا وقف جان فالجان . لقد اختار مثل جوارح الطير ، المكان الأشد انعزلاً لكي يبني عشه . وبحث في صدره ، واخرج منها ضرباً من مفتاح تعنو له الاقفال كلها ، وفتح الباب ، ودخل ، ثم أعاد اغلاق الباب في عناية ، ورقياً السلم وهو لا يزال حاملاً كوزيت . وعند أعلى السلم اخروج من جيبه مفتاحاً آخر فتح به باباً ثانياً . كانت الغرفة التي دخلها واعاد اغلاقها في الحال ضرباً من العلية ، فسيحة بعض الشيء ، ليس فيها من الاثاث غير حشيتة ممددة على الارض ، وطائرة ، وبضعة كراسي . وكان في احدى الزوايا موقد مشعل تبدو جمراته للبيان .

وأضاء مصباح الجادة هذه الغرفة الحظيرة اضاءة باهتة . وفي طرفها الاقصى ، كانت غرفة صغيرة تحتوي على سرير ذي «سيور» . وعلى هذا السرير وضع جان فالجان الطفلة من غير ان يوقظها .

* الدُخْل والدُخْلة طائر صغير مفرد .

وقدح بالزند ناراً ، وأضاء شمعة ؛ وكان ذلك كله مُعدّاً على الطاولة مقدماً . وكما فعل في الليلة البارحة انشأ يجذق الى كوزيت في نظرات ملأى بنشوة الجذل ، وقد كادت انطباعة الطيبة والحنان الغالبة عليها ان تبلغ حد الحبل . وكانت الفتاة الصغيرة قد استسلمت للرقاد - بتلك الثقة الهادئة التي لا ترافق الا القوة القصوى او الضعف الاقصى - من غير ان تدري مع مَنْ كانت ، وواصل نومها من غير ان تعرف اين كانت .

وانحنى جان فالجان وقبّل يد الطفلة .
ولتسعة أشهر خلت قبل يد الام التي كانت ، ايضاً ، قد استسلمت منذ لحظة ، للرقاد .
وملأ فؤاده ذلك الاحساس عينه ، ذلك الاحساس الفاجع ، التقى ، الممض .

وركع قرب سرير كوزيت .
كانت الشمس قد اشرقت ، ومع ذلك فالطفلة ما تزال نائمة . وعبر فافذة العلوية شعاع شاحب من أشعة شمس كانوا الاول ورسم على السقف خيوطاً طويلة من الظل والضوء . وفجأة ارتجعت كارة قاصع حجارة ، مُثقلة بأحمالها ، فوق حصباء الجادة وهزّت البناء العتيق وكأنها عاصفة ، فاذا به يرتجف من أساسه الى قمة رأسه .

وأفاق كوزيت بجفلة ، وصاحت :
- « نعم ، مدام ! ها قد جئت ! ها قد جئت ! »
ووثبت من السرير ، وأجفانها ما تزال نصف مغمضة بثقل النوم ، وبسطت ذراعها نحو زاوية الجدار .
وقالت :

- « آه ، يا الهي ، يا الهي ، أين مكنتني ؟ »
وهنا كانت عيناها قد انفتحتا على مدامها ، فرأت وجه جان فالجان

الباسم .

وقالت الطفلة :

- « اوه ، نعم ، هذا صحيح ! صباح الخير ، يا سيدي . »
ان الاطفال ليتقبلون البهجة والسعادة في سرعة وفي ألفة لانهم هم
انفسهم ، بالفطرة ، عنوان السعادة والبهجة .

وبصرت كوزيت بكاترين عند قدم سريرها ، فاستولت عليها في
الحال . وفيما هي تلعب ، وجهت الى جان فالجان مثة من الاسئلة :
ابن هي ؟ وباريس ، اهي بلدة كبيرة ؟ ومدام تيناردييه ، اهي بعيدة
جداً ؟ هل ستراجع كرة اخرى ؟ الخ . الخ . وفجأة صاحت :
- « ما اجل هذا المكان ! »

كان كوخاً مخيفاً ، ولكنها استنشقت نسيم الحرية .
واردفت آخر الامر :

- « اليس من واجبي ان اكنس ؟ »
فقال جان فالجان :
- « المي ! »

وهكذا انقضى النهار . ومن غير ان تتعب نفسها بمحاولة فهم شيء ،
نعمت كوزيت بسعادة تمتنع عن التعبير ، بين هذه الدمية ، وهذا
الرجل الطيب .

٣

بؤسان يمتزجان فيولدان سعادة

وطلع صباح اليوم التالي على جان فالجان وهو على مقربة من
كوزيت ايضاً . كان ينتظر هناك ، من غير حراك ، ليوى اليها

وهي تستيقظ .

كان شيء جديدٌ يُداخل روحه .

إن جان فالجان لم يحب شيئاً في يوم من الأيام . لقد سلخ خمساً وعشرين سنة وهو وحيد في هذا العالم . إنه لم يكن ، ذات يوم ، أباً أو عاشقاً ، أو زوجاً ، أو صديقاً . وفي سجن المحكوم عليهم بالاشتغال الشاقة ، كان نكداً ، كالح الوجه ، غفياً ، جاهلاً ، نفوراً . كان فؤاد هذا العجوز المحكوم عليه بالاشتغال الشاقة مليئاً بالبؤلات . إن أخته وأطفال اخته لم يخلفوا في نفسه غير ذكرى غامضة وبعيدة ، ما لبثت آخر الامر ان تلاشت . لقد بذل غاية جهده للعثور عليهم ، حتى اذا لم يجدهم نسيهم . فالطبيعة البشرية هكذا خلقت . اما عواطف شبابه الرخصة الاخرى ، إن عرف شيئاً من ذلك ، فقد سقطت في هاوية . وحين رأى كوزيت ، حين أخذها ، حين ذهب بها وانقذها ، استشعر ان فؤاده قد عرّته هزّة . لقد استيقظ كل ما فيه من مشاعر وانفعالات واندفع في عنف نحو هذه الطفلة . كان يقرب من الفراش الذي ترقد فيه ، ويرتجف هناك من البهجة . لقد استشعر أشواقاً باطنية مثل أمّ من الامهات ، من غير أن يدري ما هي . ذلك بأنها جدّ مبهمة وجدّ عذبة هذه العاطفة العظيمة الغريبة التي تعمّر القلب في حبه الاول .

يا له من قلب شقيّ عجوز لا يزال غضاً طرياً !

ولكن ، لما كان هو في الخامسة والحسين وكانت كوزيت في الثامنة ، فان كل ما كان يمكن أن يستشعره من الحب في حياته كلها ذاب في ضرب من الاشعاع يجلّ عن الوصف .

كانت تلك هي الرؤيا البيضاء الثانية التي تبدّت له . كان الاسقف قد أطلع في افقه فجر الفضيلة ، ثم جاءت كوزيت فأطلعت في افقه ذاك فجر الحب .

وكرّرت الايام القليلة الاولى في غمرة من هذا الانشداء .

وغدت كوزيت هي الاخرى ، من غير ان تدري ، شخصاً آخر .
يا لها من كائنة صغيرة بائسة ! كانت صغيرة جداً حين فارقتها أمها فهي
لا تتذكرها البتة . وكما يفعل جميع الاطفال ، وهم في ذلك أشبه بطلاليع
الكرمة الفضة التي تتعلق بكل شيء ، حاولت كوزيت أن تحب .
ولكنها ما كانت لتقدر على النجاح . لقد صدّها الناس جميعاً : تينارديه
وزوجته ؛ واولادها ؛ والاولاد الآخرون . وكانت قد أحبت الكلب
ولكنه مات . وبعد ذلك لم يرض شخص ما ، بل لم يرض شيء ما ،
ان تكون له صلة بها . وأمرٌ فاجع ينبغي ان نقوله - وقد ليحزننا اليه
من قبل - ان فؤادها كان بارداً حتى في الثامنة . ولم تكن هذه غلطتها .
إن ملكة الحب ما كانت هي الشيء الذي يعوزها . وأسفاه ! انما كانت
تعوزها امكانية الحب . وهكذا فنذ النهار الاول بدأ كل ما فيها من
فكر وشعور محبّ هذا الرجل الطيب . لقد احسّت اليوم بما لم تحس
به قط من قبل - استشعرت أنها تتفتح وتتمو .

لقد كفّ الرجل الطيب عن ان يكون في عينيها عبوزاً أو فقيراً .
لقد وجدت جان فالجان جميلاً ، تماماً كما قد وجدت الكوخ جميلاً .
تلك هي آثار الفجر ، والطفولة ، والصبا ، والبهجة . وإن لجدة
الارض والحياة صلةً بذلك . فليس شيء اشدّ سحراً من الأصباغ
الزاهية التي تنفصها السعادة على العلية . لقد كانت لنا جميعاً ، في ماضي
ايامنا ، مسكن حثير خرافي .

لقد اقامت الطبيعة هوةً عريضة - فترة خمسين عاماً - ما بين جان
فالجان وكوزيت . ولكن هذه المرة ردمها القدر . لقد جمع القدر ،
فجأةً ، وقرن بقوته التي لا تقاوم ، ما بين هاتين الحياتين المقتلعتين
الجدور ، المتباينتين في السن ، المتشابهتين في الأسى . والحسنى ان
إحداها تمّت الاخرى . فقد كانت غريزة كوزيت تبحث عن أب ، كما
كانت غريزة جان فالجان تبحث عن ولد . وكان في اجتماعهما ما يفيد

معنى عشور كلّ منهما على ضالته . وفي تلك اللحظة العجيبة التي تماشّت فيها أيديهما التعم احدهما بالآخر . وحين تبادلت روحاهما النظر ، ادركا ان كلّاً منهما في حاجة الى رفيقه ، وتعانقا عناقاً حاراً .

ولو أردنا ان نحمّل الكلمات معناها الاشدّ شمولاً وإطلاقاً اذن لكان في ميسورنا ان نقول ان جان فالجان - وقد فصل عن كل شيء بمجدران القبر كما فصلت رفيقته الصغيرة - كان الرجل الأرملة ، وان كوزيت كانت الفتاة اليتيمة . وهذا الوضع انتهى بجان فالجان الى ان يصبح ، بمعنى سماوي ، أبا كوزيت .

والواقع ان الانطباعة الحفّة التي احدثتها في نفس كوزيت ، وسط غابة « شيل » ، يدُ جان فالجان تلك التي قبضت على يدها في الظلام لم تكن وهماً ولكن حقيقة . لقد كان دخول هذا الرجل الى قدر تلك الطفلة أشبه شيء بتدخل الله .

وفي غضون ذلك ، كان جان فالجان قد أحسن اختيار مخبأه . كان هناك في حالٍ من الأمن بدت كاملة غير منقوصة .

وكانت الغرفة ، ذات الحبيورة الجانبية ، التي احتلها مع كوزيت ، هي تلك التي تطل نافذتها على الجادة . وكانت هذه النافذة هي الوحيدة في ذلك المنزل . ولم تكن ثمة نظرات جارٍ يخشى أذاها لا من هذه الناحية ولا من الناحية المقابلة .

وكان الطابق الاول من رقم ٥٠-٥٢ أشبه شيء بملحق خرب . كان يؤدي دور الاسطبل بالنسبة الى زارعي البقول في السباح ، ولم يكن ثمة سبيل يصله بالطابق الاعلى . كان معزولاً عنه بالسقف الذي لم يكن فيه لا سلم ولا باب سقف ، والذي كان بمثابة « الحجاب الحاجز » للسكن العتيق . وكان الدور العلوي يحتوي ، كما قلنا ، على عدة غرف وبضع عليّات كانت واحدة منها فقط آهلة بامرأة عجوز خدمت جان فالجان بوصفها مدبرة منزل . اما سائر الغرف فكانت مهجورة .

كانت هذه المرأة العجوز ، المشرّفة بلقب « المستأجرة الرئيسية » ،

والمكلفة في الواقع بمهام الحارسة او البوابة ، هي التي أجبرته هذا المأوى يوم عيد الميلاد . وكان قد أوهمها انه ثري أفقرته « سندات اسبانيا » ، وانه يعتزم ان يقطن هناك مع حفيده . وكان قد دفع اليها اجر الغرفة عن ستة أشهر ، مقدماً ، وكاف العجوز في ان تؤثث الغرفة والحجيرة على النحو الذي وصفنا . وكانت هذه المرأة العجوز هي التي أضرمت النار في الموقد ، وهيات لهما كل شيء ، ليلة وصولهما . وتصرفت أسابيع . وعاش هذان المخلوقان عيشة سعيدة في ذلك المأوى الحفير .

ومنذ مطلع الفجر ، كانت كوزيت تضعك ، وتهذر ، وتغني . إن للاطفال اغانيهم الصباحية ، مثل الطيور .

وكان يتفق في بعض الاحيان ان يمسك جان فالجان بيدها الصغيرة الحمراء ، التي شققها برد الشتاء ، ويقبلها . ولم تكن الطفلة المسكينة ، المتعوذة ان تُضرب ، لتفهم معنى ذلك ، فكانت ترتد الى الورا في حياء .

وفي بعض الاحيان كان يغلب عليها الجدل ، وتتأمل فستانها الصغير الاسود . إن كوزيت ما عادت ترتدي اسماً بالية ؛ إنها ترتدي ثوب الحداد . لقد فارقت الشقاء ودخلت الحياة .

وكان جان فالجان قد شرع يعلمها القراءة . وأحياناً ، كان يتذكر - فيما هو يعلم الطفلة كيف تتهجى - أنه انما تعلم القراءة ، في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، لكي يفيد منها في عمل الشر . وها هو هدفه ذاك ينقلب الى تعليم القراءة لطفلة صغيرة . وعندئذ كان العجوز المحكوم عليه بالاشغال الشاقة يضحك ضحكة الملائكة الراشحة بالتأمل .

لقد استشعر أن في ذلك قعماً من قوة علوية ، استشعر انها ارادة كائن فوق البشر ، واستغرق في تفكيره الحالم . إن للافكار الحيرة مهاوياً كالافكار الشريرة سواء بسواء .

وكان تعليم كوزيت القراءة وتركها تلعب هما حياة جان فالجان كلها تقريباً . وبعد ذلك راح يحدّثها عن امها ويعلمها كيف تصلي .

وكانت تناديه : أبي ، ولا تعرفه بغير هذا الاسم البتة .

كان يسلمح ساعات وهو يتأملها ثلّيس دميّتها ثيابها ثم تنزعها عنها ، ويستمتع اليها وهي تغني وتهذر . ومن ذلك الحين بدت الحياة في عينيه مملّأ بالمتعة ، وبدأ الناس خيّر من منصفين . ولم يعد لينحي باللائمة ، بينه وبين نفسه ، على احد ما ، او ليحمله تبعة ظلم ما ، ولم يعد يرى اي سبب يدعوه الآن الى ان لا يعمّر طويلاً ، بعد أن أحبته هذه الطفلة . لقد تطلّع الى مستقبل طويل تنيره كوزيت بضياء فاتن . والحق ان خير الناس ليسوا منزهين عن بعض الافكار الانانية . فقد كان يخطر له ، احياناً ، وبضرب من الابتهاج ، انها لن تكون مليحة الوجه بحال .

وليس هذا غير رأي شخصي . ولكن اذا اردنا ان نعبّر عن فكرتنا كاملة ، في النقطة التي بلغها جان فالجان عندما شرع بحب كوزيت ، قلنا ان من غير الثابت عندنا أنه ما كان في حاجة الى هذا الزاد الجديد من الطيبة لكي يتسكن من مواصلة السير في الطريق القويم . كان قد رأى سوء خاق الناس وشقاء المجتمع في مظاهر جديدة مظاهر غير كاملة ، ولا تظهر مع الأسف غير جانب واحد من الحقيقة - القدر المقسوم للمرأة ملخصاً في فاتنين ، وسلطة الدولة متمثلة في جافير . لقد أعيد الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، هذه المرة ، لأنه عمل صالحاً . وكانت امواج جديدة من الماراة قد اجتاحتها ؛ وعصف به الاشمزاز والسأم . وكادت ذكرى الاسقف نفسها ان يعثرها الكسوف لتعاود الظهور بعد ذلك وضاءة مظفّرة من غير شك ؛ ولكن هذه الذكرى المباركة اصابها الوهن آخر الأمر . ومن يستطيع ان يثبت ان جان فالجان لم يكن على وشك اليأس والتروّي في هاوية الشر ؟ وهنا أقبل الحب فاذا به يغدو قوياً من جديد . وأسفاه ! إنه لم يكن

أقلّ ضعفاً من كوزيت . لقد أسبغ حمايته عليها ، فمحتة هي القوة .
بفضله أمسى في ميسورها ان تسير في طريق الحياة ؛ وبفضلها أمسى في
ميسوره ان يلتزم الفضيلة . كان هو سناد هذه الطفلة ، وكانت هذه الطفلة
هي نقطة ارتكازه . إيه إيه اللغز الألهي الذي لا يبر غوره ، لغز
توازن القدر !

٤

ملاحظات المستأجرة الرئيسية

كان جان فالجان من الحكمة بحيث حظّر على نفسه مغادرة الغرفة
في ساعات النهار . كان كل مساء يخرج للتنزه ، حوالى الغسق ، فيتمشى
ساعةً او ساعتين ، وحده في بعض الاحيان ، ومع كوزيت في كثير
من الاحيان ، متخيّراً ازقة الجادة الأكثر انعزالاً ، او قاصداً الى
الكنائس عندما يحبط الليل . وكان مولعاً بالذهاب الى كنيسة " سان
ميدار " ، وهي اقرب الكنائس الى مشواه . وكانت كوزيت ،
تبقى ، اذا لم يصطحبها جان فالجان ، الى جانب المرأة المعجوز ؛ ولكن
الطفلة كانت تجد اعظم البهجة في الذهاب مع الرجل الطيب . كانت
تؤثر ان تقضي ساعة معه على أن تجلس وجهاً لوجه مع كاترين نفسها .
وكان يشي بمسكاً بيدها ، ومجدّتها أحاديث حلوة .

واقف ان أصبحت كوزيت لعوباً الى حد بعيد .

وكانت المرأة المعجوز تدبّر المنزل وتنهض بأمر المطبخ ؛ وكانت هي
التي تخرج الى السوق لشراء الحاجات الضرورية .
لقد عاشت عيشة مقتصدة . كانت النار هزيلة دائماً في موقدها .
ولكن جان فالجان - شأن الناس الذين تكتنفهم ظروف حرجة - لم

محدث أيّ تغيير في اثاث الغرفة ، بل أبقاه كما كان في اليوم الأول .
كلّ ما في الامر أنه أوعز بأن يوضع بابٌ خشبيّ محلّ باب حجيّرة
كوزيت الزجاجي .

وكان يرتدي ، أبدأ ، سترونه الطويلة الصفراء ، وسرواله الاسود ،
وقيعته المعنقة . وفي الشارع كان الناس يحسبونه شحاذاً . وكان يتفق ،
في بعض الاحيان ، ان تستدير النسوة الصالحات ، ويقدنّ من اليه فلساً .
وكان جان فالجان يأخذ الفلّس وينحنّ في انتضاع . وكان يتفق في
بعض الاحيان ايضاً ، ان يلتقي بائساً يلتس صدقة ، فلا يكون منه
إلا ان يلتفت الى وراءه ليتأكد من ان احداً لا يراه ، ويقترّب من
المسكين خلسةً ، ويضع في يده قطعة نقدية ، هي غالباً قطعة فضية ،
ثم يسارع الى الابتعاد عنه . وكان لذلك ماوئيه . لقد بدأ الناس
يعرفونه ، في الحي ، باسم الشحاذ الذي يوزع الصدقات .

وكانت « المستأجرة الرئيسية » - وهي مخلوقة مقطّبة الوجه ،
معبونة بالملاحظة الدقيقة لكل ما يتصل بالجيران ، على طريقة اهل
الضواحي - تراقب جان فالجان مراقبة دقيقة من غير ان تثير ارتياحه .
كانت حياء بعض الشيء ، وذلك ما جعلها مهذّرة . وكان قد بقي لها
من ماضيها ستان ، الاولى في الفكّ الاعلى ، والثانية في الفكّ الاسفل ،
وكانت لا تقنأ تقرقع هاتين السنين احداهما بالأخرى . وكانت قد وجهت
بعض الاسئلة الى كوزيت التي كانت - لجهلها كل شيء - غير قادرة
على أن تقول اكثر من أنها أقبلت من مونفيرماي . وذات صباح رأت
هذه الجاسوسة جان فالجان يمضي ، وعلى وجهه سيماء غريبة في نظر
المرأة الثرثرة ، الى احدى غرف البيت المهجورة . فتبعته بمنل خطي
هرّة عجوز ، ووفقت الى ان تراه ، من غير ان يراها هو ، من
خلال خصاص الباب المقابل مباشرةً . وكان جان فالجان قد ولّى ظهره
ذلك الباب ، زيادةً في الحذر من غير شك . وبصرت العجوز به

يبحث في جيبه ، ويخرج منها مِثْبرة ، ومقصاً ، وخيطاً ، ثم يعمد الى فتق بطاقة جانب من جوانب سترته الطويلة ويخرج من تحتها قصاصة ورق ضاربة الى الصفرة ما لبث ان نشرها . ولاحظت العجوز ، في ذعر ، انها ورقة نقدية من ذوات الالف فرنك . كانت هي الورقة الثانية ، او الثالثة ، من اوراق هذه الفئة ، التي وقعت عليها عيناها منذ ان أبصرت النور . وفرت والرعب يعصف بها .

وبعد لحظة دنا جان فالجان منها ، وسألها ان تصرف ورقة الألف فرنك هذه ، مضيفاً إنها دخله نصف السنوي ، الذي تلقاه البارحة . وفي ما بينها وبين نفسها ، تساءلت العجوز : « أين ؟ » إنه لم يغادر الغرفة إلا في الساعة السادسة مساءً ، وخزينة الدولة لا تظل مفتوحة - من غير شك - حتى تلك الساعة . وصرفت العجوز الورقة النقدية ، وأطلقت العنان لظنونها وأحداها . وادّت ورقة الالف فرنك هذه ، وقد علّقت عليها وضوعفت ، الى نشوء جمهرة من الأحاديث اللاهثة بين عجائز شارع « فيني » سان مارسيل ، الثورات .

وبعد بضعة ايام اتفق ان كان جان فالجان ، ينشر الحشب في الرواق ، غير مرتدٍ سترته الطويلة . وكانت المرأة العجوز في غرفته تنظفها وترتبها . كانت وحدها . ذلك أن كوزيت كانت تحديق ، في إعجاب ، الى الحشب المنشور . وبصّرت العجوز بالسترة المعلقة بسمار ، وفحصتها . كانت البطانة قد خيطة من جديد . وتلمستها في عناية ، واعتقدت انها ستجد في ثيابها وتخشياتها اكداً من الورق . اوراقاً مالية اخرى من ذوات الالف فرنك من غير شك !

ولاحظت ، الى جانب ذلك ، ان جيوبه كانت حافلة بمختلف ضروب الاشياء . لم تكن ثمة تلك الأبر والمقص والحبوط التي سبق لها ان رأتها فحسب ، ولكنها عثرت بالاضافة الى ذلك على حافظة دراهم ضخمة ، ومدينة كبيرة جداً ، وعلى عدة لمّ من الشعر المستعار

— وهي ظاهرة تثير الريبة — ذات ألوان مختلفة . لقد بدا لها وكأن كل جيب من جيوب تلك السترة الطويلة يحتوي على شيء . يُستعان به ضدّ حادث مفاجيء .
وعلى هذا النحو انتهى سكان البيت العتيق الى ايام الشتاء الاخيرة .

٥

قطعة نقدية من فئة الخمسة فرنكات

تقع على الارض فتحدث ضجة

وكان قرب سان ميدار شعاذ يجلس القرفصاء فوق حافة إثر عمومية مسدودة . وكان جان فالجان كثيراً ما يتصدق على هذا الرجل . إنه ما كان ليبراً به الا ويعطيه بضعة فلوس . وكان يتحدث اليه في بعض الاحيان . ولقد زعم حساد هذا الشعاذ انه يعمل في خدمة البوليس . كان خادماً عجوزاً في كنيسة من كنائس العوامّ ، في الخامسة والسبعين من العمر ، فهو يهمهم بصلواته وأدعيته على نحو موصول . وذات مساء ، فيما كان جان فالجان يجتاز تلك الطريق ، ولم تكن كوزيت معه ، لمح الشعاذ جالساً في مكانه المألوف تحت مصباح الشارع المضاء منذ لحظة . وبدأ الرجل ، وفقاً لعادته وكأنه يصلي ؛ وكانت منحنياً انحناءً كاملاً ، فتقدم جان فالجان نحوه ، ووضع في يده صدقته المعتادة . وفجأة ، رفع الشعاذ عينيه ، وحدّق الى جان فالجان ، ثم طأطأ رأسه في سرعة . وكانت هذه الحركة اشبه بوميض برق . وارتعد جان فالجان . لقد تراءى له انه لمح اللحظة على ضوء مصباح الشارع ، لا وجه خادم الكنيسة العجوز الوديع الفاجر القم ، ولكن وجهاً

فظيحاً يعرفه جيداً . وغلب عليه مثل ذلك الشعور الذي يغلب على المرء حين يجد نفسه ، فجأة ، وتحت جناح الظلام ، وجهاً لوجه أمام غر من الاغار . وارتدت الى الوراء ، مذعوراً متعجباً ، غير واجد الجراءة لا على أن يتنفس ولا على أن يتكلم ، لا على أن يبقى ولا على أن يفر ، مدداً نظره الى الشحاذ الذي عاود خفض رأسه المغطى بخرقة مزقة ، والذي بدا وكأنه ما عاد يحس بوجوده قط . في تلك اللحظة الغريبة حالت غريزة ما - لعلها غريزة حفظ الذات ، الخفية - بين جان فالجان وبين ان ينطق بكلمة . كان شكل الشحاذ ، وأسماله البالية ، وهيشته العامة هي هي لم يتغير منها شيء . وقال جان فالجان مخاطباً نفسه : « تباً لي ! اني معتوه ! أنا احلم ! مستحيل ! » وانقلب الى غرفته قلقاً اعظم القلق .

ولم يجرؤ الا بشقّ للنفس ، على ان يعترف ، حتى لنفسه ، بأن الوجه الذي ظن أنه رآه كان وجه جافير .

وفي تلك الليلة ندم - وهو يفكر في المسألة - لعدم استجوابه ذلك الرجل بحيث يُكرهه على ان يرفع رأسه كرة أخرى .

وحين هبط الليل من اليوم التالي قصد الى هناك من جديد . كان الشحاذ في مكانه . وقال جان فالجان في عزم : « مساء الخير ، ايها الرجل الطيب ! » واعطاه فلساً . فرفع الشحاذ رأسه واجاب في صوت منتعب : « شكراً ، يا سيدي الطيب ، شكراً ! » انه لم يكن ، في الحق ، غير خادم الكنيسة المعجوز .

واطمأنت نفس جان فالجان اطمئناناً كاملاً . بل لقد شرع يضحك . وقال في ما بينه وبين نفسه : « يا للشيطان ! كيف كاد يخيل اليّ اني رأيت جافير ؟ آه ، يبدو ان بصري قد بدأ يضعف حقاً ! » ولم يعاود التفكير في ذلك .

وبعد بضعة أيام ، ولعلّ الساعة كانت الثامنة مساء ، كان جان

فالجان في غرفته يعلم كوزيت التهجية ، فتُرَدّد الاحرف من بعده في صوت مرتفع ، عندما سمع باب البناء العتيق يفتح ثم يوصد من جديد . وبدا ذلك غريباً في نظره . ذلك ان المرأة العجوز ، وكانت وحدها تشاركه السكنى في ذلك البيت ، كانت تأوي الى فراشها كل ليلة ، عند هبوط العتمة ، لكي توفر الشمع . واوماً جان فالجان الى كوزيت بان تلزم الصمت . لقد سمع وقع قدمين تصعدان السلم . لعلها المرأة العجوز وقد استشعرت مرضاً فقصدت الى الصيديلي ثم عادت . وأصغى جان فالجان . كان وقع القدمين ثقيلًا ، وكان يبدو وكأنه وقع قدمي رجل . ولكن المرأة العجوز كانت تنتعل حذاء غليظًا ، وليس ثمة ما يشبه وطء أقدام الرجال اكثر من وطء اقدم النسوة العجائز . ومع ذلك ، فقد أطفأ جان فالجان شبعته .

وطلب الى كوزيت ان تأوي الى فراشها ، قائلاً لها في صوت كالهمس :

— « نامي في سكون كثير ! »

وفيا هو يقبلها من جيبيها انقطع وقعُ القدمين . وظل جان فالجان صامتًا ، جامدًا ، مديراً ظهره الى الباب ، جالساً على كرسيه الذي لم يتحرك عنه قط ، حابساً أنفاسه في الظلام . حتى اذا انقضت فترة طويلة لم يسمع خلالها شيئاً ما ، استدار من غير ان يحدث اي ضجة ، ورفع عينيه نحو باب غرفته فرأى من ثقب القفل نوراً ، وكان هذا النور اشبه بكوكب مشؤوم في خلفية الباب والجدار السوداء . كان ثمة من غير شك ، شخص ما ، يحمل شمعة ؛ وكان هذا الشخص يصغي .

وانقضت بضع دقائق ، واختفى النور . ولكنه لم يسمع وقع قدمين ، بما بدا وكأنه يؤذن بأن ذلك الشخص الذي كان يصغي لدى الباب قد خلع نعليه .

وانطرح جان فالجان على السرير من غير ان ينزع ثيابه ، ولكنه لم

يستطع ان يغمض عينيه تلك الليلة .

وعند الصباح ، فيما كان يُهوّم من الأعياء أفاق كرة اخرى على صرير باب غرفة قائمة في اقصى الرواق ، ثم سمع وقع خطى الرجل نفسه الذي ارتقى السلم في الليلة البارحة . واقترب ذلك الوقع . ووثب من سريره ، ووضع عينه على ثقب الباب ، وكان كبيراً ، رجاءً ان يلمح الشخص ، كائناً من كان ، الذي اتخذ سبيله الى ذلك البيت في موهن من الليل والذي استرق السمع لدى بابه . كان رجلاً ، في الواقع ، ذلك الذي مرّ بغرفة جان فالجان ، ولكن من غير ان يتوقف هذه المرة . وكان الرواق لا يزال مظلماً الى حدّ لم يمكنه من ان يتبين وجهه ؛ ولكن حين وصل الرجل الى السلم انعكس عليه من الحارج شعاع جعله يبرز مثل صورة مظلمة سوداء ، ورأى جان فالجان ظهره رؤية كاملة . كان الرجل طويل القامة ، يرتدي ريدنفوتاً طويلاً ، ويحمل تحت ذراعه هراوة ضخمة . كانت تلك هيئة جافير الرهيبة .

وكان في ميسور جان فالجان ان يلقي عليه نظرة اخرى من خلال نافذته المطلة على الجادة ، ولكن ذلك كان يقتضيه ان يفتح هذه النافذة ، وهذا ما لم يجرؤ عليه .

كان واضحاً ان هذا الرجل قد دخل الى البناء وفي يده مفتاح ، وكأنه يدخل الى بيته . من الذي اعطاه هذا المفتاح ؟ وما معنى هذا ؟ وعند الساعة السابعة صباحاً ، حين اقبلت المرأة العجوز لتنظف الغرفة ، رمتها جان فالجان بنظرة حادة ، ولكنه لم يوجه اليها ايما سؤال . وبدأت المرأة الطيبة في حال طبيعية .

وفيا هي تكنس ، قالت :

— « لعل سيدي سمع شخصاً ما ، يدخل البيت الليلة البارحة ؟ ، في مثل تلك السن » ، وعلى تلك الجادة كانت الثامنة مساءً هي الليل الاشدّ حلكةً .

- واجابها في جرس ليس اكثر منه طبعية :
- « بالمناسبة ، هذا صحيح . من كان ذلك الشخص ؟ »
- فقلت المرأة العجوز :
- « إنه مستأجر جديد وَفَدَ على المنزل . »
- « وما اسمه ؟ »
- « لم اعد اذكر ذلك . ديمون أو دومون . شيء من هذا القبيل . »
- « ومن هو ، مسيو دومون هذا ؟ »
- وتأماته العجوز ، لحظةً ، بعينها التمسيتين * الصغيرتين ، وأجابت :
- « إنه رجل يعيش على دخله ، مثلك انت . »
- وجائز ان لا تكون العجوز قد رَمَتْ الى شيء ، ولكن جازف فالبان اعتقد أنها استهدفت بملاحظتها تلك أمراً ما .
- وحين مضت لسيلها نضد مئة من الفرنكات ، كانت في احد الادراج ، على شكل إضبع ، ووضعها في جيبه . وعلى الرغم من الحذر البالغ الذي اصطنعه في هذا العمل لكي لا يُسَمَّع رنين الفضة ، فأث قطعة نقدية من ذوات الخمسة الفرنكات افلتت من قبضته ، وكررت ضاجةً فوق ارض الغرفة .
- وعند الغسق ، هبط السلم ، وأجال طرفه في طول الجادة وعرضها . ولم يقع نظره على احد . لقد بدت الجادة مهجورةً هجراً كاملاً . صحيح ان من الجائز ان يكون رجلٌ ما ، مختبئاً خلف شجرة .
- وارتقى السلم من جديد .
- وقال لكوزيت :
- « تعالي ! »
- وأمسك بيدها ، وغادرا المكان .

* الشيتين بعيني النمس .

الكتاب الخامس

المطاردة السوداء وتحمل الى كلاب قصص صامتة

١

خطوط الاستراتيجية المتعرجة

لكي نفهم الصفحات التي سوف لي مباشرة ، صفحات اخرى سنقع عليها في ما بعد ، يتعمق علينا هنا ان ننص على هذه الملاحظة :
انقضت سنوات طوال ومؤلف هذا الكتاب - الذي يجد نفسه ، في أسف ، مضطراً الى التحدث عن نفسه - غائب عن باريس . ولقد تغيرت باريس ، منذ ذلك الحين ، تغيراً كبيراً . إن مدينة جديدة قد نشأت ، هي عنده ، بمعنى من المعاني ، مبهولة . وهو في غير حاجة الى القول انه يحب باريس ؛ فباريس هي « مسقط رأس »

روحه . ومن طريق المدم وإعادة البناء أصبحت باريسُ شبابهِ - باريس التي يحتفظ بها ، بخشوع ، في ذاكرته - باريساً قديمة ترقى الى عهد ماضٍ . فلندعهُ يتحدث عن باريس تلك وكأنها لا تزال قائمة . فقد يقود المؤلف قراءه الى بقعة ما ، قائلاً : « في الشارع الفلاني كان البيت الفلاني » ثم يتفق ان لا يكون قد بقيَ ، بعدُ ، لا شارع ولا بيت . ولسوف يتحرى القراء الحقيقة ، اذا أحبوا ان يتعجبوا عناء ذلك . اما هو فيجمل باريس الجديدة ، وهو يكتب ، وباريس القديمة ماثلة نصب عينيه في صورة خادعة أثيرة لديه . إن ما يوقع في نفسه شعوراً عذيباً ان يتخيل أنه لا يزال ثمة ، وراءه ، شيء مما رآه حين كان في وطنه ، وان كل شيء لم يزل ولم يتلاش . ذلك بأن المرء ، حين ينعم بالعيش في ارض الوطن ، يتوهم ان هذه الشوارع لا تعنيه في قليل او كثير ، وان هذه النوافذ ، وهذه السقوف ، وهذه الابواب ، ليست عنده بشيء ، وان هذه الجدران اجنبية بالنسبة اليه ؛ وان هذه الاشجار لا يميزها شيء عن الاشجار الاخرى ، وان هذه البيوت التي لا يدخلها البتة لا تغناء فيها ؛ وان حصباء الطريق التي يمشي عليها ليست غير حجارة . ولكن في ما بعد ، حين يحرم المرء نعمة العيش في الوطن ، يجد ان هذه الشوارع عزيزة جداً ؛ وان هذه السقوف ، وهذه النوافذ ، وهذه الابواب قد ضاعت من يديه ، وان هذه الجدران ضرورية له ، وان هذه الاشجار غالية على فؤاده ، وان هذه البيوت التي لم يدخلها قط كان يدخلها كل يوم ، وانه قد خلف شيئاً من احشائه ، ومن دمه ، ومن قلبه ، فوق حصباء الطريق تلك . عندئذ يجد المرء ان جميع تلك المواطن التي لم يعد يراها ، والتي قد لا يراها اكرة اخرى ابدأ ، والتي احتفظ بصورتها في مخيلته ، تكتسب فتنةً موجهة ، وتعاوده بمثل كآبة الشبح ، وتجعل الارض المقدسة تتراعى لناظريه ، فهي اذا جاز التعبير فرنسة نفسها .

ويجد أنه يحبها ، ويستحضرها كما هي ، كما كانت ، ويتشبث بها ، غير راغب في أن يغيّر شيئاً ، لأن الإنسان يتعلق بصورة الوطن كما يتعلق بوجه أمه .

فليسمع لنا إذن أن نتحدث عن الماضي في الحاضر . والآت ، نلتبس من القارئ أن يأخذ علماً بهذا ، ونستأنف الحديث .

كان جان فالجان قد غادر الجادة في الحال ، وشرع يجوب الشوارع في حذر ، مكسراً خطوط سيره ما وسعه تكسيروها ، مرتدّاً فجأة على آثاره لكي يستيقن أن أحداً لا يتعقبه .

وهذه المناورة من شبة الأيّل المطارد . وفي البقاع التي تخلّف القدم أثراً فيها تتمتع تلك المناورة - الى جانب حسناتها الاخرى - بالقدرة على خداع القاصين والكلاب من طريق الآثار المضادة . وذلك ما يُدعى ، في علم القنص بالكلاب ، و عودة الأيّل الزائفة الى كناسه .

كان القمر بدرّاً . ولم يكن جان فالجان مغضباً لذلك . فقد فصل القمر ، وهو ما يزال جدّاً قريب من الافق ، مواشير ضخمة من الضوء والظلّ في الشوارع . وكان في ميسور جان فالجان ان ينساب في محاذاة المنازل والجدران ، في الجانب القائم ، وان يراقب الجانب المضيء . ولعله لم يدرك إدراكاً كافياً ان الجانب القائم ، قد فاتّه . ومع ذلك ففي جميع الشوارع الصغير المبهورة المجاورة لشارع بوليفو ، كان على مثل اليقين من ان احداً لا يلحق به

ومشت كوزيت من غير ان تسأل أيّما سؤال . كانت آلام السنوات الست الأولى من حياتها قد أدخلت شيئاً من روح الطاعة العمياء الى طبيعتها . والى هذا - وهذه ملاحظة سوف نرجع اليها في اكثر من مناسبة - فقد ألفت ، من غير ان تعيها وعياً كاملاً ، صفات صديقها الطيب الفارقة وغرائب القدر . وفوق ذلك كله ، فقد كانت

تستشعر الأمن ، ما دامت الى جانبه .

ولم يكن جان فالجان يدري ، اكثر من كوزيت ، الى اين كان يقصد . كان مفوضاً أمره الى الله ، كما فوضت هي أمرها اليه . لقد بدا له أنه يمك ، هو ايضاً ، بيد كائن اكبر منه . لقد استشعر ان كائناً غير منظور ، يقوده . واخيراً ، فلم تكن عنده أيما فكرة معدة ، أو أيما خطة ، أو أيما مقصد . بل إنه لم يكن واثقاً كل الثقة من أن ذلك الرجل هو جافير . والى هذا ، فقد يكون هذا الرجل جافير ، من غير ان يعلم انه جان فالجان . ألم يكن متكرراً ؟ ألم يعتقد القوم أنه قد مات ؟ ومع ذلك ، فقد حدثت اشياء غريبة منذ بضعة ايام . إنه في غير ما حاجة الى مزيد من ذلك . لقد وُطن العزم على ان لا يدخل بيت غوربو كرة اخرى . وكالحیوان المطرود من مأواه ، راح يبحث عن ثقب يجتئيه فيه ويثا يجد ثقباً يقيم فيه .

واجتاز جان فالجان متاهات عديدة متباعدة في حي موفسار الذي كان قد أوى حتى في تلك اللحظة الى الرفاد ، وكأنه لا يزال مجاً في ظل نظام القرون الوسطى ، وتحت نير منع التجول ليلاً . لقد احدث مزاولات مختلفة في استراتيجية حكيمة ما بين شارع سانسييه وشارع كوربو ، وشارع باتوار سان فيكتور وشارع بُوري ليرميت . ان ثمة بيوتاً في تلك البقعة ، ولكنه لم يدخل ايأ منها لعدم وقوعه على ما يلائمه منها . وكان موقناً من انهم اذا كانوا يقتفون اثره ، اتفاقاً ، فلا ريب في انهم قد اضاعوه الآن .

وحين اعلنت ساعة « سان ايتيين دو مون » الحادية عشرة عَبرَ شارع بونتواز أمام مكتب مفوضية البوليس الذي يحتل المبنى رقم ١٤ . وبعد بضع لحظات دعتة الفريزة التي تحدثنا عنها من قبل الى ان يلتفت الى الورا . وفي تلك اللحظة رأى في وضوح - بفضل مصباح المفوضية الذي نَمَ عليهم -

ثلاثة رجال كانوا يقبعونه عن كذب يمرون واحداً إثر واحد تحت ذلك المصباح في الجانب المظلم من الشارع . ودخل احد هؤلاء الرجال المجاز المؤدي الى بيت المفوضية . ولقد بدا له الرجل السائر في الظلمة مريباً على نحو لا يحتمل الشك .

وقال لكوزيت :

— « تعالي ، يا بنيتي ! »

وسارع الى مغادرة شارع بونتواز .

وقام بدورة ، وطاف حول « مجاز البطاركة » الذي كان موحداً بسبب من انتصاف الليل ، وأغذت السير في شارع الـ « إيبه دو بوا » وشارع الـ « آر باليت » ، وغاص في « شارع البريد » . وكانت تمة ساحة ، حيث تقوم اليوم كلية رولين ، وحيث ينشعب شارع « نوف سانت جانفييف » .

(ولنا في حاجة الى القول إن شارع « نوف سانت جانفييف » هو شارع قديم ، وإن مركبة بريد واحدة ما كانت تجتاز ، مرة كل عشر سنوات ، « شارع البريد » ! وكان شارع البريد هذا ، في القرن الثالث عشر ، أهلاً بالخزافين ، واسمه الحقيقي هو شارع الخزف .)

وسفع القمر اشعة مشرقة على هذه الساحة . واختبأ جان فالجان في مدخل بيت من البيوت ، مقدراً أن في ميسوره ، إذا ما كان هؤلاء الرجال يواصلون مطاردته ، أن يراهم على وجه التأكيد رؤية واضحة وهم يجتازون هذه الرقعة المضاة .

والواقع ان اولئك الرجال ما لبثوا ان برزوا بعد ثلاث دقائق أو أقل . كانوا الآن أربعة . كانوا كلهم ذوي قامات طويلة ، وكانوا يرتدون سترات طويلة ممراء ، ويعتزمون بقبعات ممدورة ، ويحملون هراوات ضخمة بأيديهم . ولم تكن قاماتهم الطويلة وقبضاتهم العريضة

اكثر ترويعاً من سيرم المشؤوم في الظلام . كان يخيل للمرء أنهم
اربعة اشباح تنكرت بلباس المواطنين .
وكفوا عن السير في وسط الساحة وشكلوا حلقة اشبه بحلقات
الناس حين يتبادلون الرأي . كانت تبدو عليهم سيما التردد . واستدار
ذلك الذي تراءى انه يقودهم ، وأشار بيده اليمنى ، إشارة كلها عزم ،
فحو الجهة التي كان جان فالجان فيها . وبدأ واحد من الآخرين وكأنه
يشير في شيء من العناد الى الجهة المعاكسة . ولحظة استدار قائدهم
اضاء القمر وجهه إضاءة تامة ، وتبين جان فالجان وجه جافير تينناً كاملاً .

٢

من حسن الطالع ان في ميسور

العربات ان تعجتاز جسر اوسترلنيز

ونفذ الشك عند جان فالجان . ولكنه لم ينفذ ، لحسن الحظ ،
عند أولئك الرجال . وأفاد من ترددهم . كان ذلك وقتاً يضاع بالنسبة
اليهم ، ووقتاً يُكنسب بالنسبة اليه . وبارح المدخل الذي كان مخفي
فيه ، واغذت السير في « شارع البريد » متجهاً نحو « حديقة النبات » .
وبدأت كوزيت تستشعر التعب . فرفعها بين ذراعيه ، وحملها . لم
يكن في الشوارع احد ، ولم تكن المصابيح العامة قد اضيئت بسبب
من القمر .

وضاعف سرعته .

وفي بضع خطى ، وصل الى معمل غوبليه الحزفي ، وكان على
واجهته خط قديم ، جعلته أشعة القمر مقروءاً في وضوح :

« هنا مصنع ابن غوبله ؛
تعالوا واختاروا جراراً وأباريق ،
وأصماً للزهور ، وأنايب ، وآجرًا .
ولكلّ وافد يبيع القلب مرّ بعات من بلاط . »

وخلف وراءه « شارع المفتاح » ، ثم عَين « سان فيكتور » ،
ومضى في محاذاة « حديقة النبات » ، سالكاً الشوارع المنخفضة ، حتى
انتهى الى رصيف النهر . وهناك اجال البصر في ما حوله . كان الرصيف
مهجوراً ؛ وكانت الشوارع مهجورة . ولم يكن احد خلفه . وتنفس
الصعداء .

وانتهى الى جسر اوسترليتز .
وكانت السلطة لا تزال تتقاضى رسماً من عابري ذلك الجسر .
وقدّم نفسه الى موظف المكوس ، في مكتبه ، ودفع اليه فلساً .
فقال الموظف :
- « ينبغي ان تدفع فلسين . انت تحمل طفلةً تستطيع ان تمشي .
إدفع رسماً عن شخصين . »
ودفع ، وقد غاظه ان يلفت عبوره النظر . إن كل فرار يجب ان
يكون انزلاقاً .

كانت كارّةٌ ضخمة تعبر الـ « سين » في تلك اللحظة عينها ، وكانت
مثله منخدة الضفة اليمنى . وذلك شيء يمكن ان يُفيد منه جان فالجان .
إن في ميسوره ان يجتاز الجسر كله في ظلّ تلك الكارّة .

وحوالى منتصف الجسر رغبت كوزيت ، وقد خدّرت رجلاها ، في
أن تسير . فأنزلها الى الارض ، وأمسك بيدها .

واذ اجتاز الجسر لمح اكداماً من الحشب قائمة امامه ، منحرفة قليلاً
الى ناحية اليمين . فمضى في ذلك الاتجاه . وكان عليه لكي يبلغ ذلك
المكان ، ان يغامر في اجتياز رقعة واسعة من الارض ، مكشوفة مضادة .

ولم يتردد . كان واضحاً أن أولئك الذين تعقبوا خطواته قد أضلّوا السبيل . واعتقد جان فالجان انه امسى في نجوة من الخطر . هذا صحيح ، ولكن احداً لم يكن يتبعه .

وأطلّ على شارع صغير ، هو شارع شومان فيرمان انطوان ، بمتدّ بين مستودعين للخشب مطوّقين بجدران . وكان هذا الشارع ضيقاً ، مظلماً وكأنه صنع خصيصاً من أجله . وقبل ان يدخله ، التفت الى وراءه . ومن موقعه ذاك كان في ميسوره ان يرى جسر اوسترايتز بطوله . وفي تلك اللحظة ، دخل الجسر اربعة أشباح .

وسرت في اوصال جان فالجان وعدة كتلك التي تسري في جسم الطريدة حين ترى الى الكلاب تتبعها من جديد .

كان قد بقي عنده أمل واحد ، وهو ان يكون هؤلاء الرجال لما يدخلوا الجسر ، ولم يلمحوه لحظة اجتاز الرقعة الواسعة المضاءة بمسكاً بيد كوزيت .

في تلك الحال ، يكون في ميسوره - اذا ما اندفع في الشارع الصغير المنبسط أمامه ، واذا ما وفق الى بلاوغ مستودعي الخشب ، والمستنقعات ، والحقول ، والارض الفضاء - ان ينجو بنفسه . لقد بدا له ان في إمكانه ان يفوّض أمره الى هذا الشارع الصامت . فدخله .

٣

انظر مخطط باريس عام ١٧٢٧

وبعد ان خطا نحواً من ثلاثة خطوات بلغ نقطة افترق فيها الشارع . لقد انشعب الى شارعين ، ينعطف احدهما ، منحرفاً ، نحو الشمال ،

وينعطف الآخر ، منحرفاً ، نحو اليمين . كان امام جان فالجان مثل
فرعيّ حرف ٧ ، فأَيّ الفرعين يختار ؟
ولم يتردد قطّ . وانعطف نحو اليمين .
لماذا ؟

لأن الفرع الايسر يقود الى الضاحية ، يعنى الى المناطق الآهلة
بالسكان ؛ ولأن الفرع الايمن يقود الى البرية ، يعنى الى المناطق
المهجورة .

ولكنها ما عادا بمشيان ، الآن ، في مرة . لقد أعادت خطوات
كوزيت خطوات جان فالجان .

ورفعها عن الارض حاملاً ايها من جديد . وأمndت كوزيت رأسها
الى كتف الرجل الطيب ، ولم تنبس ببنت شفة .

وكان يستدير ، بين الفينة والفينة ، وينظر خلفه . وكان يحرص على
ان يلتزم الجانب المظلم من الشارع أبداً . كان الشارع مستقيماً وراءه .
وفي المرتين الاوليين او المرات الثلاث الاولى التي استدار فيها ، لم يَرَ
شيئاً . كان الصمت عميقاً ، ولقد واصل سيره في شيء من الاطمئنان .
وفجأة ، بدا له ، حين استدار كرتة اخرى ، انه رأى شيئاً يتحرك
بعيداً في الظلام ، عند ذلك الجزء الذي اجتازه من الشارع .

وانطرح الى الامام ، ولا نقول مشى ، راجياً ان يجد شارعاً
جانبيّاً يفرّ من خلاله ، ويروغ كرة اخرى من مطاردته .
ووصل الى جدار .

بيد ان هذا الجدار لم يحل بينه وبين الذهاب الى ابعد . كان جداراً
يحيط بزقاق معترض ينتهي به الشارع الذي كان جان فالجان فيه
آنذاك .

وهنا ايضاً تعيّن عليه ان يقرر : أينطلق الى اليمين ام ينطلق الى
الشمال ؟

ونظر الى اليمين . كان الزقاق يمتد الى بقعة قائمة بين بعض الابنية التي كانت إما سقائف أو أهراء ، ثم ينتهي فجأة . كان آخر هذا الزقاق غير النافذ بادياً للعيان - جدواو ضخمة ايض .

ونظر الى الشمال . كان الزقاق من هذه الناحية مفتوحاً ، وكانت يتصل ، على بعد مئتي خطوة تقريباً ، بشارع كان هو رافداً من روافده . وفي ذلك الاتجاه بالذات كانت السلامة .

ولحظة قرّر جان فالجان ان ينعطف شمالاً ، لكي يحاول بلوغ الشارع الذي رآه عند نهاية الزقاق ، لمسح عند زاوية الزقاق والشارع الذي كان على وشك الانطلاق نحوه شبه تمثال اسود جامد .

كان شخصاً ما - رجلاً - 'كثف بالوقوف هناك من غير شك ، وكان ينتظره قاطعاً الطريق عليه . وأجفل جان فالجان .

وهذا الجزء من باريس الواقف فيه جان فالجان اللحظة ، والواقع بين ضاحية سان أنطوان ولا لاراييه ، واحد من تلك الاجزاء التي غيرتها الاعمال الحديثة من قمة الرأس الى اخمص القدم ، مبشّعة اياها في زعم بعض الناس ، بمحثة اياها في زعم بعضهم الآخر . لقد ولت جنائن الحضر ، ومستودعات الحشب ، والابنية العتيقة . وحلت محلها اليوم شوارع واسعة جديدة ، ومدرجات ، وسيارات ، وميادين سباق ، ومحطات للسكة الحديدية ، وسجن ، هوسجن مازاس . يعني التقدم ، كما نرى ، وملطّفاته

منذ نصف قرن ، كانت البقعة التي انتهى اليها جان فالجان تدعى في اللغة الشعبية الدارجة التي تصرّ على اطلاق اسم ' الامم الأربع ' على ' مؤسسة فرنسة ' واسم ' فايدو ' على ' الاوبرا كوميك ' - نقول كانت تلك البقعة تدعى ' بيكبوس الصغير ' في هذه اللغة . ' باب سان جاك ' ؛ ' باب باريس ' ؛ ' حاجز الرقياء ' ؛ ' بورشيون ' ؛ ' غالوت ' ؛ ' سيلستين ' ؛ ' كابوسين ' ؛

الـ « مايل » ، « الـ « بوب » ، « شجرة الكاركوفي » ، « بولونية الصغيرة » ، و « بيكبوس الصغير » ، تلك هي أسماء باريس القديمة التي نعلم فوق الاسماء الجديدة . إن ذاكرة الشعب لتطفو فوق حطام الماضي هذا .

وكان لا « بيكبوس الصغير » - الذي لم يكن له في الواقع وجود حقيقي إلا بشق النفس ، والذي لم يكن أكثر من تصميم حيّ من أحياء السكنى - ذلك المظهر الرهباني الذي لمدينة إسبانية تقريباً . كانت الطرق معبدة تعبيداً رديئاً ، وكانت الشوارع منشأة على نحو هزيل . فوراء الشارعين أو الثلاثة الشوارع التي نوسك ان نتحدث عنها لم يكن ثمة غير الأسوار والوحشة . فلا دكان ، ولا عربة . بل لا شجرة مضادة ههنا وهناك ، في النوافذ ، الا نادراً . كانت الانوار كلها تطفأ بعد الساعة العاشرة . جنائن ، وأديرة ، ومتودعات خشب ، وغياض ، وبضعة منازل منخفضة متناثرة ، وجدران ضخام لا تقل ارتفاعاً عن المنازل .

كذلك كان هذا الحيّ في القرن الماضي . ولكن الثورة غيرت معالمه تغييراً كبيراً . كانت السلطات الجمهورية قد هدمت بعض ابنيته وشقت الشوارع اليه ومن خلاله . لقد اقيمت مستودعات النفايات هناك . ومنذ ثلاثين سنة وهذا الحيّ يُسمى محوياً تدريجياً بأنشاء أبنية جديدة . أما اليوم فقد شُطِبَ نهائياً . والـ « بيكبوس الصغير » الذي لا يحتفظ أيما مخطط من المخططات الحاضرة بأثر من آثاره كان يحتل مكانه على نحو واضح في مخطط عام ١٧٢٧ الذي نشره في مدينة باريس دونيز تيري ، شارع سان جاك ، تجاه شارع بلاتو ، وفي مدينة ليون جان جيرين ، شارع ميرسيير ، في « برودانس » . وكان لا « بيكبوس الصغير » ما دعواته منذ لحظة لا شوارع ، مؤلفة من شارع « شومان فير سان انطوان » منشعباً الى فرعين اثنين ، ومتخذاً في ناحية اليسار

اسم بيكبوس الصغير ، وفي ناحية اليمن اسم شارع بولونسو . وكان فرعاً ٧ متصلين عند قمتها بمثل قضيب معدني . وكان هذا القضيب المعدني يدعى شارع « دروا مور » . وهناك كانت ينتهي شارع بولونسو . أما شارع بيكبوس الصغير فكان يمضي الى أبعد ، مصعداً نحو سوق لينوار . وكان الواصل من « د سين » حين ينتهي الى أقصى شارع بولونسو يجده الى يساره شارع « دروا مور » منعطفاً انعطافاً حاداً على شكل زاوية قائمة ، ويبعد أمامه سور ذلك الشارع ، وإلى يمينه امتداداً أبتر لشارع « دروا مور » من غير منفذ ، يدعى زقاق جانرو .

في تلك النقطة كان جان فالجان .

لقد أجفل ، كما ذكرنا من قبل ، حين لمح ذلك الشكل الاسود الواقف وقفة الحرس عند زاوية « دروا مور » وشارع بيكبوس الصغير . لم يكن ثمة شك . كان ذلك الشبح يراقبه .

ما الذي يجب أن يفعله ؟

لم يبق ثمة متسع من الوقت للارتداد . وإن ما رآه يتحرك في الظلام ، على مسافة ما خلفه ، في اللحظة السابقة ، كان من غير شك جافير وزمرته . ولعل جافير قد انتهى الآن الى أول الشارع الذي كان جان فالجان في نهايته . وكان جافير ، كما تؤذن القرائن كلها ، يعرف هذا الشريك الصغير ، وكان قد اتخذ احتياطاته بأن ارسل واحداً من رجاله ليحرس المنفذ . وفجأة ، عصفت هذه الأحداش الشديدة الشبه بالحقائق في دماغ جان فالجان القلق ، مثل حفنة من الغبار تتطاير في وجه ربيع مفاجئة . لقد تأمل زقاق جانرو ؛ كانت ثمة اسوار عالية . وتأمل شارع بيكبوس الصغير ؛ كان ثمة حرس . لقد رأى هذه الصورة الكالحة تتكرر سوداء فوق بلاط الطريق الابيض المغمور بأشعة القمر . كان التقدم الى أمام يعني الانقراض على ذلك الرجل . وكان الارتداد

الى وراء يعني إلقاء نفسه بين يدي جافير . واستشعر جان فالجان وكأنه مطوق بسلسلة كانت تضيّق الحناق عليه شيئاً بعد شيء . ورفع عينيه الى السماء في يأس .

٤

جان فالجان يتلمس

في الظلام سبيله الى النجاة

لكي نفهم الصفحات التالية يتعين علينا ان نكوّن فكرة دقيقة عن زقاق دروا مور ، وبخاصة الزاوية التي يشكلها الى يسارك وانت تغادر شارع بولونسو لتدخل هذا الزقاق . وكان زقاق « دروا مور » مطوقاً من ناحية اليمين تطويقاً كاملاً تقريباً ، حتى شارع بيكبوس الصغير ، منازل تبدو عليها سيما الفقر ، ومن ناحية الشمال ببناء مفرد ذي خطوط قاسية مؤلف من عدة بيوت كانت ترتفع تدريجياً دوراً أو دورين ، فيما هي تقترب من زقاق بيكبوس ، بحيث أن هذا البناء الشديد الارتفاع من ناحية زقاق بيكبوس كان شديد الانخفاض من ناحية شارع بولونسو . هناك ، عند الزاوية التي تحدثنا عنها ، أمسى البناء منخفضاً الى حد جعله مجرد حائط ليس غير . ولم يكن هذا الحائط ينتهي ، على نحو متعامد ، الى الشارع . لقد بدا وكأنه شقة جدار بُنيت على نحو منحرف تاركة فسحة عريضة تحجبها زاويتاها عن اعين المراقبين اللذين قد يتفق ان يقف احدهما على مسافة ما في شارع بولونسو ، والآخر على مسافة ما في شارع « دروا مور » .

ومن زاويتي الشقة المبتورة هاتين ، كان الجدار يمتد على شارع

بولونسو حتى منزل يحمل رقم ٤٩ ؛ وعلى شارع « دروا مور » ، حيث كان ارتفاعه اقل بكثير ، حتى ذلك البناء الكالح الذي تحدثنا عنه ، قاطعاً حائط جملونه المثلث الجانبي ، محدثاً بذلك زاوية منعكسة جديدة في الشارع . وكان لجدار الجملون هذا مظهر كئيب . لم يكن المرء ليرى قبة ، غير نافذة واحدة ، او على الاصح مصراعين محجوبين بصفحة من الزنك ، موصدين ابدأ .

إن أوضاع المواطن التي نصفها هنا دقيقة الى حد صادم ، وهي توقف من غير شك ذكرى غالبية جداً في اذهان سكان الحية القدماء . وكان يملأ شقة الجدار المتتورة هذه شيء يشبه جداراً هائلاً حقيراً . وكان ذلك مجتمعاً واسعاً غير منسقى من الواح عمودية ، أعلاها أعرض من أدناها ، وقد شد بعضها الى بعض بسور من حديد طويلة معترضة . وإلى جانب ، كان باب للعربات ذو أبعاد عادية ، لا يرقى انشاؤه ، من غير شك ، الى أبعد من خمسين عاماً . ورفعت شجرة زيزفون اغصانها فوق شقة الجدار المتتورة ، وكانت الجدار مغطى بالبلاط من ناحية شارع بولونسو .

وفي الحظر الدائم الذي كان يحيط بجان فالجان تكشفت هذه البناية الكالحة عن وجه منعزل غير آهل لفت نظره إليها ، وأجال طرفه فيها على نحو خاطف . وقال فيما بينه وبين نفسه إنه إذا ما وفق الى دخولها فقد ينعم بالسلامة . وعاوده الامل حين خطرت له هذه الفكرة . وعند منتصف واجهة البناء المطلة على شارع « دروا مور » احاطت بنوافذ الادوار كلها انايب رصاصية عتيقة . وكانت فروع هذه الاناييب الممتدة من أنبوب رئيسي الى كل منها ترسم على الواجهة شبه شجرة . ولقد بدت تشعبات هذه الاناييب بمرافقها المثة مثل قضبان الكرمة المجردة من أوراقها ، والملتفة على واجهات الليوت الريفية القديمة . وكان هذا العريش العجيب ذو الاغصان المؤلفة من صفائح وحديد

اول ما لفت انتباه جان فالجان . فأجلس كوزيت ، مسنداً ظهرها الى أحد الاعمدة ، طالباً اليها ان تلزم السكون ، ومضى الى حيث يمسّ الانبوب بلاط الشارع ، لعله يجد وسيلة تساعد على ان يتسلق الجدار ، من هناك ، ويدخل المنزل . ولكن الانبوب كان متصدعاً بعيد عهد الاستعمال ، ولم تكن مثبتاته لتمسك به إلا بشق النفس . والى هذا ، فقد كانت نوافذ هذا البيت الصامت ونوافذ الغرف القائمة تحت السقف نفسها ، مسلحة بقضبان حديدية غليظة . ثم ان القمر كان يضيء هذه الواجهة إضاءة كاملة ، وخلق بالرجل الذي كان يراقبه من اقصى الشارع أن يراه يتسلق الجدار . وأخيراً ، ما الذي يفعله بكوزيت ؟ كيف يرفعها الى قمة بيت ذي ثلاثة أدوار ؟ واطرح فكرة التسلق بواسطة الأنبوب ، ودبّ على طول الجدار الى شارع بولونسو .

وحين بلغ شفة الجدار المتبورة حيث ترك كوزيت ، لاحظ أن أحداً لا يستطيع أن يراه هناك . لقد تخلّص ، كما شرحنا اللحظة ، من النظرات جميعاً أباً كان مصدرها . والى هذا ، فقد كان الظلام يلفه . وأخيراً ، فقد كان ثمة بابان . لعلهم أن يقتحموهما . وكانت واضحة أن الجدار ، الذي رأى فوقه الزيزفون والبلاب ، يطلّ على حديقة كان في ميسوره ان يختبئ فيها على الاقل - على الرغم من ان الاشجار ما تزال مجردة من الاوراق - ويمضي بقية الليل هناك . كان الوقت ينقضي . إن عليه ان يعمل في سرعة . وجرب باب العربات ، فوجد في الحال أنه موصل من الداخل والخارج .

واقترب من الباب الكبير الآخر وقد همّر فؤاده أمل أعظم . كان هزماً الى حدّ مروّع ، وكان حجمه الهائل قد جعله حتى أقلّ صلابة . كانت ألواح الخشبية عفنة ، وأربطته الحديدية - وهي ثلاثة - جدّة . لقد

بدا اختراق هذا النطاق النخري أمراً ميسوراً .
 حتى اذا امتحن هذا الباب رأى أنه لم يكن باباً . فلبس فيه
 رزّات ، أو صفائح حديدية ، أو قفل ، أو خصاص في الوسط .
 وكانت العصابات الحديدية تطوقه من جانب الى جانب على غير انقطاع .
 ومن صدوع الألواح الخشبية لمحّ رضماً * وحجارة ألحم ما بينها بالملاط على
 نحو أخرق ، كالتي كان لا يزال في ميسور عابري السبيل ان يروها منذ
 عشر سنوات . لقد اضطر الى الاعتراف في انشده ان هذا الباب
 الكاذب لم يكن غير زخرف زَيْن به ذلك الجدار . وكان يسيراً عليه
 ان ينزع لوحاً خشبياً ، ولكنه سوف يجد نفسه ، عندئذ وجهاً لوجه
 مع جدار من الجدران .

٥

وهو ما كان متعذراً لو ان الشوارع

أضيئت بالغاز

في تلك اللحظة بدأت ضجة مخنوقة نظامية تعلن عن نفسها على مسافة
 ما . وغامر جان فالجان فأتلع عنقه حول زاوية الشارع . كانت مفرزة
 مؤلفة من سبعة جنود او ثمانية جنود قد انعطفت اللحظة نحو شارع
 بولونسو . لقد رأى وميض حراهم . كانوا مقبلين في اتجاهه .

وتقدّم الجند ، وقد تبين على رأسهم قامة جافير الطويلة ، في تودة
 وفي حذر . وبين القينة والقينة كانوا يقفون . كان واضحاً انهم
 يستكشفون كل زاوية من زوايا الجدران ، وكل فرجة من فُرَج

الرض الحجارة غير المنعوتة .

الابواب والازقة .

وإنما كان هؤلاء الجنود - وهنا لا سبيل الى ان يُجَدَّع الحُدس -
يؤلفون دورية من العسس التقاها جافير ، وطلب اليها ان تضع نفسها
بنصرته .

وسار مساعدا جافير بين صفوفهم .

وكانوا في حاجة الى ربع ساعة تقريباً ، بسبب من بطئهم وكثرة
توقفهم ، حتى يبلغوا البقعة التي تطأها قدما جان فالجان . كانت لحظة
مروعة . إن بضع دقائق لتفصل جان فالجان عن تلك الهاوية الهيفة
التي فغرت فاهها ، امامه ، للمرة الثالثة . ولم يعد سجن المحكوم عليهم
بالاشتغال الشاقة ، الآن ، سجن الاشتغال الشاقة وحسب . لقد أمسى
ذلك السجن ضياعاً كوزيت الى الابد . يعني حياة شبيهة بباطن القبر .
كان ثمة الآن شيء واحد ممكن .

وكانت لجان فالجان هذه الميزة التي تمكننا من القول انه كان يحمل
جرايين في آن معاً . فأما الجراب الاول فكان ينطوي على افكار
قدسي ، وأما الجراب الثاني فكان ينطوي على المواهب الرهيبة التي
يتمتع بها محكوم عليه بالاشتغال الشاقة . ولقد كان يلتبس العون من
واحد من هذين الجرايين ، تبعاً لما يقتضيه المقام .

والى جانب براعته الاخرى ، كان قد أمسى - كما نذكر جيداً ،
وبفضل هروبه المتكرر من سجن المحكوم عليهم بالاشتغال الشاقة في
طولون ، استناداً في ذلك الفن الذي لا يُصدَّق والذي يجعل المرء قادراً
على ان يرفع نفسه ، من غير سلاسل ، ومن غير كلال ، بالقوة العضلية
وحدها ، ومن طريق الاستناد الى مؤخر عنقه ، والى كتفيه ، ووركيه
وركبتيه ، مستعيناً او يكاد ببعض نتوءات الحجر النادرة - ان يرفع
نفسه على هذا النحو ، عند زاوية جدار قائمة ولو الى اعلى الدور السادس
من بناء ما عند الحاجة . وهو فن جعل زاوية ساحة الكونسيرجيزي

بباريس رهيبه وشهيره ، بعد ان فرّ منها د باتومول ، المحكوم عليه بالاشغال الشاقة .

وقاس جان فالجان ، بعينه ، الجدار الذي رأى اغصان شجرة الزيزفون فوقه . كان ارتفاعه يبلغ ثمانية عشر قدماً تقريباً . وكانت الزاوية التي شكلتها مع حائط جملون البناية للضحة ملأى ، في جزئها الأدنى ، بركام من الحجارة مبني على شكل مستطيل لعل القصد من اقامته كان صيانة هذه الحلوة الملائمة من غارات ذلك الضرب من الطيور التي ندعوها عابرة السبيل . والواقع ان هذا الملء الوقائي لزوايا الجدران كثير الشيع في باريس .

وكان ارتفاع هذا الركام يبلغ نحواً من خمسة أقدام . ومن قمته ، كانت المسافة الواجب اجتيازها للوصول الى الجدار لا تزيد على اربعة عشر قدماً .

وكان الجدار مغطى بطبقة من الحجارة المسطحة لا تنوء فيها على الاطلاق .

كانت كوزيت هي العقبة . فكوزيت ما كانت تعرف كيف تنسلق جداراً . أيتخلّى عنها ؟ إن ذلك لم يخطر في بال جان فالجان . وما كان حملها أمراً ممكناً . فأن كامل قوة المرء ينبغي ان تُحشد للقيام بمثل ذلك التسلق العجيب . ولا ريب في ان أقلّ عبء خليق بان يفقده مركز ثقله ، ويهوي به الى الأرض .

كان الموقف يقتضي حبلاً . ولم يكن عند جان فالجان شيء من ذلك . وأين يستطيع ان يجد حبلاً ، عند منتصف الليل ، في شارع بولونسو ؟ وبمينا ، لو كان لجان فالجان في تلك اللحظة بملكة ، اذن لتنازل عنها من أجل حبل .

إن لجميع الحالات القصوى بروقها التي نعيمنا في بعض الاحيات ، وتلهمنا في بعض الاحيان .

والتفت نظرة جان فالجان اليائسة بعمود المصباح العام في زقاق جانرو.
في ذلك العهد لم تكن شوارع باريس تضاء بغاز الاستصباح . فما
إن يهبط الليل حتى تُنار مصابيح الشارع ، التي كانت مُقامة على مسافات
معينة ، والتي كانت تُرفع وتُخفض بحبل يخترقه الشارع من أقصاه الى
أقصاه ، ويجري عبر ثقوب الأعمدة . وكان الملوّى الذي يلتفّ حوله
هذا الجبل مخبوءاً ، تحت المصباح ، في صندوق حديدي صغير يحتفظ به
الموظف المكلف إضاءة المصابيح ، وكان الجبل نفسه مصوناً ، حتى ارتفاع
بمينه ، في بيت معدني .

وبقوة صراعٍ أسمى ، اجتاز جان فالجان الشارعَ بوثة واحدة ،
واقبعم الزقاق ، وكسر لسانَ قفل الصندوق الصغير برأس مديته ؛
وما هي الا لحظة حتى انقلب الى كوزيت كرةً اخرى . كانت معه
جبل . إن مخترعي الجبل اليائسين هؤلاء لينطلقون ، في صراهم مع
القدر ، انطلاقاً خاطفاً ، عند الحاجة .

وفي غضون ذلك كانت الساعة ، والمكان ، والظلمة ، وانهاك جان
فالجان ، وسلوكه العجيب ، ورواحه وجيئه - كانت هذه كلها قد
شرعت تقلق كوزيت . ولقد كان خليقاً بأبما طفلة غيرها ان تطلق ،
منذ فترة بعيدة ، صيحات عالية . أما هي فاكتفت بأن جذبت جان
فالجان من ذيل ستروته الطويلة . كانت ضجة الدورية المقترربة تُسمع
أوضحَ فأوضحَ على نحوٍ موصول .

وقالت ، في همس :

- « ابي ، انا خائفة . من القادم ؟ »

فأجابها الرجل التمس :

- « هس ! إنها السيدة تيناردييه ! »

وارتعدت كوزيت .

واضاف :

« لا تقولي كلمة . دهيني أمل . واذا صرخت ، واذا بكيت ،
فعدئذ تسمعك السيدة تينارديه . لقد جاءت لكي تستودك . »
ثم إن جان فالجان - من غير ما تعجل ، ولكن من غير ان
يكرر عملاً ما مرة ثانية ، وفي عزم ثابت وسريع ، وهو شيء يكون
ادعى الى الدهش حين نذكر ان دورية العسس وجافير قد ينقضان
عليه في اي لحظة - نزع رباط عنقه ، وأمره حول جسد كوزيت
تحت الذراعين ، محاذراً ان يصيب الطفلة اذى ما ، وشد رباط الرقبة
هذا الى طرف الحبل بواسطة العقدة التي يدعوها الملاحون « عقدة
السنونو » ، وعض على طرفه الآخر باسنانه ، ونزع نعليه وجورييه طارحاً
ايها فوق الجدار ، وارثق ركام الحجارة المبنية على شكل مستطيل ،
وشرع يرفع نفسه عند زاوية الجدار وحائط الجملون في صلابة وثقة بالفتين
وكان تحت عقبيه ومرفقيه مراقي وسلام . ولم تكـد تنقضي نصف
دقيقة حتى كان على ركبتيه ، فوق الجدار .

وراقبته كوزيت ذاهلة ، من غير ان تنبس بكلمة . فقد كان في
وصية جان فالجان وفي اسم السيدة تينارديه ما أصابها بالكم ،
وفجأة ، سمعت صوت جان فالجان يدعوها في همن :
- « أسندي ظهرك الى الجدار . »

وأطاعت .

فأضاف جان فالجان :

- « لا تنطقي بكلمة ، ولا تخافي . »

واستشعرت انها ترتفع عن الارض .

وقبل ان تجد متسعاً من الوقت للتفكير ابن كانت ، ألفت نفسها
عند قمة الجدار .

وأخذها جان فالجان بين يديه ، ورضعها على ظهره ، وامسك يديها
الصغيرتين بيده اليسرى وانبطح على بطنه ، ودب فوق قمة الجدار حتى

انتهى الى الزاوية المتورة . وكما سبق له ان قدر ، كان ثمة بناية
يتحدّر سطحها من أعلى السياج الخشي الى قريب جداً من الارض ،
تحدراً رقيقاً ينتهي به الى ان يمس شجرة الزيفون .
وكانت تلك ظاهرة سارة ، لأن الجدار كان في ذلك الجانب أعلى
بما كان في جانب الشارع بكثير . ولمح جان فالجان الارض ، من
تحتة ، على عمق بعيد .

كان قد بلغ سطح السقف المنحدر ، ولما يغادر قمة الجدار ، حين
أعلنت جلبة عنيقة وصول دورية العسس . وسمع صوت جافير الراعد :
- « فتشوا في الزقاق ! إن شارع « دروا مور » تحت الحراسة ،
وكذلك شارع بيكبوس . اؤكد لكم أنه في الزقاق ! »
واندفع الجنود الى زقاق جانرو .

وانزلق جان فالجان هابطاً السطح ، متشبثاً بكوفيت حتى بلغ شجرة
الزيفون ، ووثب الى الارض . وسواء أكان ذلك ثمرة الذعر أم ثمرة
الشجاعة ، فان كوزيت لم تهمس همسة واحدة . كانت يداها قد أخذتا
بعض الشيء .

٦

بدء احجية

ووجد جان فالجان نفسه في شبه حديقة واسعة جداً وذات مظهر
فريد ؛ حديقة من تلك الحداثق المحزونة التي تبدو وكأنها جعلت لكي
ترى في الشتاء وفي موهن من الليل . كانت تلك الحديقة مستطيلة الشكل ،
في اقصاها صف من شجر الحور الضخم ، وفي زواياها أدواح فارعات
الطول ، وفي وسطها فسحة غير ظليلة ، حيث تنهض شجرة منعزلة بالغة

العِظَم ، ثم بضع شجرات مشيرة ملتوية شعناء مثل عوامج ضخام ،
ومساكب من الحضر ، ومَبْطَخَةٌ * كانت الاواني الزجاجية التي تغطي ثمراتها
تلتصع تحت اشعة القمر ، وبثر قديمة . وكان هنا وهناك مقاعد حجرية
بدت سوداء من اثر الطحلب . وكانت الممرات محوطة بشجيرات كثيفة ،
بالغة الاستقامة . لقد غطى العشب نصفها ، والطحلب الاخضر ساورها .
وكان الى جانب جان فالجان البناية التي مكّنه سطحها من الهبوط ،
وركامٌ من الحشب ، وخلف الحشب ، في محاذاة الحائط تماماً ، تمثال من
حجر لم يعد وجهه الا بتر غير قناع شائه بدا على نحو ضبابي في غمرة
الظلام .

وكان البناء خراباً ، ولكن بعض الغرف المهتمة كان يمكن ان
تميّز فيه . وكانت احدى تلك الغرف غاصة بما فيها ، بما يؤذن بأن
القوم يتخذون منها سقيفة .

وكانت بناية شارع « دروا مور » الكبيرة المرتجعة على شارع
بيكبوس الصغير تطلّ على هذه الحديقة بواجهتين مربعتين . وكانت هاتان
الواجهتان الداخليتان أشدّ كآبة من الواجهات الخارجية نفسها . كانت
جميع النوافذ مقضبة بالحديد . ولم يكن ثمة ضوء ما . وفي الأدوار
العليا كانت مصاريع كالتّي توجد في السجون . وكانت احدى هاتين
الواجهتين تلقي بظلمها فوق الأخرى ، فينطرح على الحديقة مثل قطعة
ضخمة من قماش أسود .

وما كانت العين لتقع على أيما منزل آخر . كان اقصى الحديقة
مضمحلاً في الضباب وفي الظلام . ومع ذلك فقد كان في ميسور المرء
ان يتبين ، على نحو غامض ، جدراناً تتقاطع ، وكانت وراء ذلك
اراضٍ مزروعة اخرى ، وان يتبين ايضاً سطوح شارع بولونسو
المنخفضة .

* المبطخة زاوية من الحديقة تفرد لزراعة البطيخ .

وليس في مبدور الانسان ان يتخيل شيئاً اكثر ضراوة واشدّ انغزاًل من هذه الحديقة . فلم يكن ثمة احد ، وهو امرٌ طبيعي بسبب من تقدم الليل . ولكن المكان بدا وكأنه لم 'يُجعل لكي يمشي فيه إنسان ما ، حتى في راتعة النهار .

وكان أول هموم جان فالجان ان يبحث عن حذائه وأن ينتعله . ثم ان يدخل السقيفة مع كوزيت . والحق ان الرجل الذي يحاول الهرب لا يستشعر ابداً انه محبوب على نحو كافٍ عن اعين مطارديه . واذ كانت الطفلة تفكر ببننارديه الزوجة تفكيراً موصولاً فقد شاركته غريزته ، فربضت اكثر ما استطاعت أن تربض .

وارتعدت كوزيت ، والنصت به . وسمعا جلبة الدورية التي كانت تجوس خلال الزقاق والشارع بحثاً عنهما ، وصدى التماس بين بنادقهم وبين الحجارة ، ونداءات جافير للحرس الذين أقامهم هنا وهناك ، ولعنانته المتزوجة بكلمات لم يكن في ميسورها ان يتيئناها . وبعد ربع ساعة ، بدا وكأن هذه الزجرة العاصفة قد شرعت تنأى . ولم يأخذ جان فالجان نفساً .

كان قد وضع يده ، في رفق ، على فم كوزيت .

ولكن العزلة التي وجد نفسه فيها كانت ساكنة سكوناً عجيباً الى درجة جعلت تلك الجلبة المروعة ، المهتاجة الى أبعد الحدود ، القريبة الى أبعد الحدود ، لا تُلقى عليها ولو ظلاً من كدر . لقد بدا وكأن هذه الجدران مبنية من زجاج الحجارة الصم التي يتحدث عنها الكتاب المقدس .

وضجة ، وفي غمرة من هذا السكون العميق ، ارتفعت ضجة جديدة ، ضجة سماوية ، السّية ، لا سيبل الى وصفها ، ضجة فاتنة بقدر ما كانت تلك مروعة . كانت ترنيمة انبثقت من الظلام ، مزاجاً مذهلاً من الصلاة والتناغم في صمت الليل القاتم الخيف ، أصواناً نسائية ،

ولكنها أصوات تحمل نبرات العذارى الصافية ، ونبرات الاطفال الساذجة ، تلك الاصوات غير الارضية الشبيهة بالتي لا يفتأ الوليد يسمعها ، وللتى تتردد في مسمعي المرء ساعة الاحتضار . وانما انطلقت هذه الاغنية من البناية الكالحة المطلة على الحديقة . وفي تلك اللحظة التي تباعدت فيها جلبة الأبالسة لم يكن عجباً ان يُخيل الى السامع أنها جوقـة من الملائكة تقترب تحت جنح الظلام .

وركعت كوزيت وجان فالجان على ركبهما .

انهما لم يعرفا ماهية ذلك ، لئنهما لم يعرفا اين كانا ، ولكنهما كليهما ، الرجل والطفلة ، التائب والبريئة ، استشعرا ان عليهما ان يجثوا على ركبهما .

ومن عجب ان هذه الاصوات لم تمنع البناية من ان تبدو موحشة . كانت أشبه بأغنية خارقة في منزل مهجور .

وفيا كانت هذه الاصوات تتغنى ، استغرق جان فالجان فيها استغراقاً تاماً . إنه لم يعد يرى الليل . لقد رأى سماء زرقاء . لقد بدا وكأنه يحس بانبساط هذه الاجنحة التي غللكها كلنا في باطننا .

وخمدت الاغنية . ولعلها ان تكون قد استمرت فترة طويـلة . فلم يكن في ميسور جان فالجان ان يدري . إن ساعات النشوة الروحية ليست أبداً غير دقيقة واحدة .

وغرق كل شيء في الصمت كرة اخرى . لم يبق شيء في الشارع ، ولم يبق شيء في الحديقة . لقد تلاشى كل شيء ، ذلك الذي كان يتهدد ، وذلك الذي كان يوقع الطمأنينة في النفس . وداعبت الريح العشب الجاف فوق قمة الجدار ، محدثة ضجة خفيفة ، رفيقة ، كثيفة .

الأحجية تستمر

كانت ربيع الليل الشمالية قد هبت ، وهو ما آذن بأن الساعة كانت تتراوح من غير شك ما بين الساعة الواحدة والساعة الثانية صباحاً . ولم تنطق كوزيت المسكينة بكلمة ما . واذا كانت قد جلست الى جانبه ، وامسدت رأسها اليه ، فقد ظن جان فالجان انها نائمة . وانحنى قليلاً ، ونظر اليها . كانت عيناها مفتوحتين على مداهما ، وكانت ترين على وجهها سبأه أوجعت قواد جان فالجان .

كانت لا تزال ترتجف .

فقال جان فالجان :

« هل انت ناعمة ؟ »

فأجابت :

« انا اشعر ببرد شديد . »

وبعد لحظة ، اضافت :

« ألا تزال هناك ؟ »

فقال جان فالجان :

« من ؟ »

« مدام تيناردييه . »

وكان جان فالجان قد نسي الوسيلة التي اصطنعها ليضمن سكوت كوزيت . وقال :

« اوه ! لقد ذهبت . لا تخافي شيئاً بعد الآن . »

وتنهدت الطفلة ، وكأنّها ثقلاً قد رُفع عن صدرها .

كانت الارض رطبة ، وكانت السقيفة مشرعة من جنباتها جميعاً ،

وكانت الريح تزداد برودة لحظة بعد لحظة . ونزع الرجل الطيب سترة الطويلة ولفّ كوزيت بها .

- « هل نحسين بالدفء ، الآن ، اكثر من ذي قبل ؟ »

- « اوه ، نعم ، يا أبت ! »

- « حسن ، انتظريني هنا لحظة . سوف ارجع في الحال . »

وغادر المكان الحربي ، ومضى في محاذاة البناية الكبيرة ، التماساً لماوى افضل . لقد وجد ابواباً ، ولكنها كانت كلها موصدة . وكانت جميع نوافذ الدور الارضي مقضبة بالحديد .

وفىما هو يميناز زاوية البناء الداخلية ، لاحظ انه انتهى الى بضع نوافذ مقنطرة لمع عندها بصيصاً من النور . ونهض على رؤوس اصابعه ، وحدق من خلال إحدى تلك النوافذ . كانت جميعها تنفتح على قاعة واسعة ، مفروشة ببلاطات عراض ، تشطرها عقود واساطين ، حيث لم يكن في وسع المرء ان يتبين غير وميض ضئيل وظلمات كثيفة . وكان ذلك الوميض ينبعث من قنديل مضاء في احدى الزوايا . كانت القاعة مبهورة ، وكان كل شيء ساكناً . ومع ذلك فقد وقع في نفسه انه رأى ، بإنعام النظر ، شيئاً منبسطاً على ارض القاعة ، شيئاً بدا وكأنه مغطى بكفن . وكان له شكلاً إنسانياً . كان منبطحاً على بطنه ، مستقبلاً الارض بوجهه ، متصالب الذراعين ، جامداً جمود الموت . ولقد كان خليقاً بالرائي أن يقول ، بسبب من شبه افعى كانت ترحف فوق ارض القاعة ، ان حبلاً كان يطوّق عنق ذلك الشكل المشؤوم .

وكانت القاعة كلها غارقة في ذلك الضباب الذي يرين على الاماكن الباهتة الاضاءة ، والذي يضاعف الذعر .

وكثيراً ما قال جان فالجان منذ ذلك الحين إنه ، على الرغم مما شاهده خلال حياته من مشاهد كثيرة لا تكاد تُحصى ، فان بصره لم يقع على ما هو افظع وادعى الى الرعب من تلك الصورة الملتغزة

المحققة لسرٍّ عجيب ما ، ليس يعرفه ، في ذلك الموطن الكالح ، والتي
تُلح على هذا النحو الضبابي في الليل . كان بما يروّع المرء ان يفترض
أنها قد تكون مينة ، وكان بما يروّع أكثر ان يظن انها قد تكون
على قيد الحياة .

وآنس من نفسه الجرأة على ان يضغط جبينه على الزجاج ، وان
يراقب ليرى ما اذا كان ذلك الشيء سوف يتحرك . وقضى على هذا
فترة طويلة ، في ما بدا له ، ولكن على غير طائل . ان الشكل
المنبسط لم يُبدِ حراكاً . وفجأة ، عصف به دعر يجلّ عن الوصف ،
وولى فراراً . لقد انطلق نحو السقيفة من غير ان يجرؤ على النظر الى
وراء . فقد بدا له أنه اذا ما التفت فسوف يرى تلك الصورة تعدو
خلفه في خطى واسعة ، هازة بذراعيها .

وبلغ السقيفة الحربة مبهوراً منقطع النفس . وخذله ركبتاه ،
وتخلّب العرق البارد من مامّ جسده جميعاً .

اين كان ؟ مَنْ ذا الذي قدّر له يوماً أن يتخيل أيّ شيء مثل هذا
للضرب من القبر في قلب باريس ؟ ما هذا البيت الغريب ؟ بناء حافل
بالاسرار الليلية ، ينادي الارواح ، تحت جنح الظلام ، بأصوات
الملائكة ، حتى اذا أقبلت فاجأها بمنزل هذا المشهد الرهيب - بعيد
بفتح باب الجنة المشعّ ، ويفتح باب القبر الخيف . أكان ذلك بناء
حقاً ، بيتاً ذا رَم في الشارع ؟ ألم يكن هذا حلمًا ؟ كان في حاجة
الى ان تتقرّى يدها الجدران باللمس لكي يصدق ذلك .

كان البرد ، والقلق ، والاهتياج ، وما عاناه في تلك الليلة من
آلام - كانت هذه كلها توقع في جسده حتى حقيقة . وانشأت افكاره
كلها تتصادم في دماغه .

واقترب من كوزيت . كانت غائبة .

الاحجية تتعقد

كانت الطفلة قد القت رأسها على حجر واستسلمت للرقاد .
وجلس قريبا ، ونظر اليها . وشيئا بعد شيء ، فبا هو يتأملها ،
هدأ روعه ، واستعاد صفاء ذهنه .

كان واضحا انه ادرك هذه الحقيقة ، التي أمت أساس حياته منذ
اليوم ، وهي أنها ما دامت على قيد الحياة ، وما دامت الى جانبه فلن
يكون في حاجة الى شيء ابدأ إلا من أجلها ، ولن يخشى شيئا ابدأ
إلا بسبب منها . إنه لم يحس حتى بذلك البرد الشديد الذي كان يستبد
به وقد نزع سترته الطويلة ليغطيها بها .

وفي غضون ذلك ، ومن خلال التأمل الحالم الذي استغرق في خضته ،
طرفت سمعه ، فترة ما ، ضجة فريدة . كانت أشبه بصوت جُلجل*
يتأيل . وإنما انبعثت تلك الضجة من الحديقة . وسمعت في وضوح ،
على الرغم من انها كانت واهنة : لقد أشبهت تلك الموسيقى البدائية
الغامضة التي تعزفها جلاجل البقر ، ليلاً ، في مراعيها .

تلك الضجة حملت جان فالجان على الالتفات .

ونظر ، فرأى ان في الحديقة شخصاً ما .

كان مخلوقٌ شبيه بالرجل يمشي وسط الاواني الزجاجية التي تغطي
ثمرات البطيخ ، ناهضاً حيناً ، منحنيّاً حيناً ، متوقفاً حيناً ، كل ذلك
في حركات نظامية وكأنما كان يسحب او يبسط شيئاً على الارض .
وكان ذلك المخلوق اعرج في ما يبدو .

وارتعد جان فالجان بارتعاشة المساكين الموصولة . إنهم يجدون كل

* الججل : الجرس الصغير . وجهه جلاجل .

شيء معادياً ومريباً . فهم يحذرون للنهار لأنه يساعد رجال السلطة على رؤيتهم ، ويحذرون الليل لأنه يساعد أولئك الرجال على مباغتتهم . منذ لحظة ، كان يرتعد لان الحديقة خالية ؛ وها هو ذا الآن يرتعد لأن ثمة شخصاً فيها .

وانتقل كرة أخرى من خضمّ المخاوف الوهمية الى خضمّ المخاوف الحقيقية . وقال في ذات نفسه : لعل جافير وجواسيسه لما يغادروا المكان ، وأنهم قد خلفوا من غير ويب شخصاً ما ليراقب الشارع ، وانه اذا ما اتفق لذلك الشخص ان اكتشف وجوده في هذه الحديقة فسوف يستعدي الناس على اللص ، ويسلمه الى السلطة . وفي رفق ، رفع كوزيت الثالثة ، بين ذراعيه ، وحملها الى أقصى زاوية من زوايا السقيفة خلف ركام من الأثاث القديم لم يعد موضع الاستعمال . ولم تتحرك كوزيت .

ومن هناك ، راقب حركات ذلك المخلوق الذي كان يمشي في الرقعة المزروعة بطيخاً . ومن عجب ان صوت الجلبجل كان يتبع كل حركة من حركات هذا الرجل . فاذا ما اقترب الرجل ، اقترب الصوت . واذا ما ابتعد الرجل ، ابتعد الصوت . وحين كان الرجل يأتي بحركة مفاجئة ، كان يصاحب تلك الحركة ارتجاف في الصوت . وحين كان يتوقف ، كانت تلك الضجة تنقطع . لقد بدا واضحاً أن الجلبجل كان مشدوداً الى ذلك الرجل . ولكن ، اي معنى يمكن ان يُستفاد من ذلك ؟ اي رجل هو ذاك الذي يُعلّق في عنقه جلبجل ، كما يُعلّق في عنق كبش او ثور ؟

وفيما هو يفكر في هذه الاسئلة ، لمس يدي كوزيت . كانتا مثلوجتين .

وقال :

- « آه ، يا السّهي ! »

وناداهما في صوت خفيض :

- « كوزيت ! »

فلم تفتح عينيها .

وهزتها في قوة .

ولم تستيقظ .

فقال :

- « أيمكن ان تكون قد ماتت ؟ »

ووثب واقفاً ، وهو يرتعد من قمة رأسه حتى اخمص قدميه .

واندفعت الى عقله ، كيفما اتفق ، أفضع الافكار وأدعاها الى الذعر .

فئة لحظات تحاصرنا فيها الافتراضات البشعة الخفيفة مثل جبهة من آلهة

الجهيم ، وتفتح ابواب دماغنا . ونحن يكون اولئك الذين نحبهم في

خطر يخترع قلقنا مختلف ضروب الحماقات . وتذكّر ان النوم في

المواء الطلق ، وفي الليالي الباردة ، قد يكون مهلكاً .

كانت كوزيت شاحبة ، وكانت قد انطرحت على الارض ، عند

قدميه ، من غير ان تأتي بحركة .

وأصغى الى انفاسها . كانت تنفس ، ولكن تنفساً بدا له واهناً

وعلى وشك ان يجمد .

ما السبيل الى تدفئتها ؟ ما السبيل الى ايقاظها ؟ لقد طرد كل شيء

من تفكيره ما خلا هذا . واندفع في يأس الى خارج المكان الحروب .

كان ضرورياً جداً ان توضع كوزيت في فراش ما ، وتضرم النار

الى جانبها ، وان يتم ذلك في مدى لا يتجاوز ربع ساعة .

الرجل ذو الجللجل

ومضى مباشرةً الى الرجل الذي رآه في الحديقة . كان قد حمل بيده لفة المال التي كانت في جيب صدره .
وكان ذلك الرجل مطأطأ الرأس . فلم يره مقبلاً نحوه . وما هي الا بضعة خطوات حتى كان جان فالجان على مقربة منه .
وحاذاه جان فالجان هاتفاً :

« مئة فرنك ! »

وأجفل الرجل ، ورفع عينيه .
وتابع جان فالجان :

« مئة فرنك تكسبها ، اذا آويتني هذه الليلة . »
واضاء القمر وجه جان فالجان الذاهل إضاءة كاملة .
وقال الرجل :

« ماذا ! هذا انت ، ايها الاب مادلين ! »

وكان في هذا الاسم الملفوظ هكذا ، في تلك الساعة المظلمة ، وفي ذلك المكان المجهول ، وعلى لسان ذلك الرجل المجهول ، ما جعل جان فالجان يرتد الى وراء .

كان مستعداً لكل شيء عدا هذا . فقد كان المتكلم رجلاً عجوزاً ، متقوس الظهر ، أعرج ، مرتدياً ثياباً هي اشبه بشباب الفلاحين ، وعلى ركبته البسرى واقية للرُكب جلدية يتدلى منها جرس ضخيم بعض الشيء .
أما وجهه فكان في الظل ، فليس من سبيل الى ان يتبينه المرء .
وفي غضون ذلك كان الرجل الساذج قد نزع قلنسوته ، وهنّف وهو يرتجف :

« آه ، يا الهي ! كيف جئت الى هنا أيها الأب مادلين ؟
من اين دخلت ، أوه ، أيها الرب يسوع ! هل هبطت من السماء ؟
اذا كنت قد هبطت من مكان ما فليس من ريب في انك هبطت من
هناك . وما الذي دهاك ؟ فأنت لا ترتدي رباط عنق ، ولا تعتمر
بقبعة ، وليس على جسدك سترة . ما ؟ اندري انك كنت جديراً بأن
تروّع اي امرئ لا يعرفك ؟ لا سترة ؟ يا الهي ! أينم القديسون
في هذه الايام ؟ ولكن كيف دخلت الى هنا ؟ »

ولم تكن ايّ من كلماته لتتظن الاخرى . كان الرجل المعجوز
يتحدث في ذلاقة ريفية لم يكن فيها ما يقلق . ولقد قيل ذلك كله في
مزيج من الانشده والطبيرة الساذجة .
وسأله جان فالجان :

« من انت ؟ وما هذا البيت ؟ »

فصاح الرجل المعجوز :

« آوه ، حقاً ، هذا حسن . انا الرجل الذي وظّفته هنا ، وهذا
البيت هو المكان الذي وظّفني فيه . ماذا ؟ انت لا تتذكرني ؟ »
فقال جان فالجان :

« لا . وكيف اتفق ان عرفتني ؟ »

فأجاب الرجل :

« لقد أنقذت حياتي . »

والتفت ، فأضأت أشعة القمر صفحة وجهه ، فعرف جان فالجان
أنه فوشلوفان المعجوز .

وقال جان فالجان :

« آه ! هذا أنت ؟ أجل ، أنا أذكرك . »

فقال الرجل المعجوز في نبرة عتاب :

« هذا سارّ جداً . »

واضاف جان فالجان :

- « وماذا تفعل هنا ؟ »

- « أوه ! أنا أعطي بطيخاتي . »

وفي الحق ان فوشلوفان كان يحمل في يده ، لحظة دنا منه جان فالجان ، طرفَ حصير من قصب كان منهكاً في نشره فوق مسكبة البطيخ . وكان قد نشر على هذا النحو عدداً من الحُصُر خلال الساعة التي قضاها في الحديقة . كانت هذه العملية هي التي حملته على القيام بتلك الحركات الخاصة التي لاحظها جان فالجان من السقيفة .

واضاف :

-- « لقد قلت لنفسي : القمر نير ، ولسوف 'تصفع' الارض' .

لعل من الخير أن ألبس بطيخاتي سترانها . و ... »

وهنا نظر الى جان فالجان ثم اضاف 'مرسلاً ضحكة عالية :

- « ... لقد كنتَ تحسن صنعاً لو انك 'عنيتَ' بنفسك مثل هذه

العناية ! ولكن كيف جئتَ الى هنا ؟ »

واذ وجد جان فالجان ان ذلك الرجل يعرفه ، باسم مادلين على الاقل ، فقد اطرح ما كان يلتزمه من حذر شديد . وضاعف اسئلته . فبدأ - وبالفعل - انها قد تبادلا دوريهما . لقد قام هو - المتطفل - بدور المستجوب .

- « وما هذا الجلبجل المعلق بركبتك ؟ »

فأجابه فوشلوفان :

- « هذا ؟ إن الغرض منه ان يجتنبني القوم . »

- « كيف ؟ لكي يجتنبك القوم ؟ »

وغمره فوشلوفان بعينه على نحو لا سبيل الى وصفه .

- « آه ، يا الهي ! ليس يوجد في هذا البيت غير النساء . غير عدد

كبير من الفتيات . ويبدو ان من الخطر الالتقاء بي . ان الجلبجل

مجدّرهـن . فحين احيـه يذهـبن . »

« ما هذا البيت ؟ »

« ولكن ، انت تعرف جيداً ! »

« لا ، انا لا أعرف . »

« ولكنك أنت الذي جعلتني بستانياً في هذا المكان ! »

« أجبني وكأنني لا أعرف شيئاً البتة . »

« حسناً ، انه اذن دير بيكبوس الصغير . »

وتذكّر جان فالجان . كانت المصادفة ، يعني العناية الالهية ، قد قذفت به على وجه الضبط في دير حيّ سان انطوان هذا حيث كان فوشلوفان المعجوز قد أدخل ، بناء على توصية منه ، بعد ان أقعده السقوط من عربته ، قبل عامين اثنين . وكرّر وكأنما كان يخاطب نفسه :

« دير بيكبوس الصغير ! »

واستأنف فوشلوفان :

« ولكن ، يا للشيطان ! كيف استطعت ، حقاً ، ان تدخل

الى هنا ، انت ، ايا الاب مادلين ؟ عبثاً تحاول إقناعي بأنك قديس .

أنت رجل ، ومحظورٌ على الرجال ان يدخلوا الى هنا . »

« ولكنك هنا . »

« ليس هنا رجلٌ غيري . »

فأردف جان فالجان :

« ومع ذلك فينبغي ان أبقى هنا . »

فصاح فوشلوفان :

« آه ، يا السّهي ! »

واقترّب جان فالجان من الرجل المعجوز وقال له في جرس فاجع :

« ايا الاب فوشلوفان ، لقد انقذت حياتك . »

فأجابه فوشلوفان :

- « لقد كنتُ انا اول من تذكر ذلك . »
- « حسناً ، في استطاعتك ان تقدم اليّ اليوم مثل تلك الخدمة
التي قدمتها اليك بالأمس . »
وأمسك فوشلوفان بيديه المرمتين المتجمعتين المرتجفتين يدي جان
فالجان القويتين . وانقضت بضع ثوانٍ قبل ان يوفق الى الكلام .
واخيراً صاح :

- « أوه ! اذا استطعتُ أن اردّ اليك بعض جميلك ، فسوف
يكون ذلك فضلاً من عند الله . انا ! انا اتقد حياتك ! سيدي العمدة ،
ان الرجل المعجوز تحت تصرفك ! »
لكأنّ حبروراً رائعاً قد غلب على وجه هذا المعجوز فتهلّل به . لقد
بدا وكأنّ شعاعاً قد انبثق من وجهه .
وأضاف :

- « ما الذي تطلب اليّ ان أعله ؟ »
- « سوف اشرح لك ذلك . أعندك غرفة ؟ »
- « عندي كوخ منعزل ، هناك ، خلف خرائب الدير العتيق ،
في زاوية لا يراها احد . إنّ هناك ثلاث غرف . »
وكان الكوخ ، في الحق ، محجوباً خلف الخرائب وفي منأى عن
اعين الرقباء الى حد جعل جان فالجان يعنى عنه .
وقال جان فالجان :

- « حسن . سوف أسألك ، الآن ، امرين . »
- « ما هما ، يا سيدي العمدة ؟ »
- « اولاً ، ان لا تقول لأحد ما تعرفه عني . وثانياً ، ان لا
تحاول ان تعرف من ذلك شيئاً إضافياً . »
- « كما تريد . أنا أدري انك لا تستطيع ان تفعل الا ما يشرف

وانك كنت دائماً رجلاً من رجال الله . والى هذا ، فأنت انت الذي
وضعتني هنا . هذا المكان لك . وانا طوع أمرك . ،

- « حسن جداً . والآن ، تعال معي . سوف نذهب لنأقي بالطفلة . »
فقال فوشلوفان :

- « آه ! هناك طفلة ! »

ولم يزد على ذلك كلمة واحدة ، وتبع جان فالجان كما يتبع كلبٌ
سيده .

وفي أقلّ من نصف ساعة كانت كوزيت قد أمست وردية اللون
بفضل اللهب المنبعث من نار قوية ، ونامت في سرير البستاني المعجوز .
وكان جان فالجان قد عاود ارتداء رباط عنقه وسترته الطويلة . وكانت
قبعة التي قذف بها من فوق الجدار قد وُجدت ورفعت عن الارض .
وفيما كان جان فالجان يلبس سترته الطويلة كان فوشلوفان قد نزع واقية
ركبته ذات الجبل ، وعلقها بمسار قرب مصرع النافذة ، فهي تزين
الجدار . كان الرجلان يتدفآن ، وقد اسندا مرفقيهما الى مائدة كانت
فوشلوفان قد وضع عليها قطعة من جبن ، وشيثاً من الخبز الاسمر الدون
وزجاجة خمر ، وكأسين . وقال المعجوز لجان فالجان واضعاً يده
على ركبته :

- « آه ! اها الاب مادلين ! انك لم تعرفني لأول وهلة ! انت
تنقذ الناس ، ثم تنساهم ! اوه هذا غير حسن ! انهم يذكرونك .
أنت جاحد تنكر الجليل ! »

وفيه يتضح كيف أضاع جافير الطريقة

والواقع ان الاحداث التي رأينا اللحظة وجهها الآخر ، اذا جاز للتعبير ، انما تمت في ظل ابطس الاحوال والملابسات .

عندما فرّ جان فالجان - في ليل ذلك اليوم نفسه الذي اعتقله جافير خلاله قرب سرير فانتين المحتضرة - من سجن مونتروي سور مير البلدي ، قدر البوليس ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة الهارب من وجه العدالة قد اتجه ، من غير شك ، نحو باريس . فباريس درودر صاحب يضيع فيه كل شيء . وكل شيء يختفي في دوامة العالم هذه كما يختفي في دوامة البحر . وليس من غابة تستطيع ان تخبي رجلاً كما يخبئه هذا الحشد . والفارتون على اختلاف اصنافهم يعرفون ذلك . انهم يذهبون الى باريس وكأنهم يذهبون الى مكان يغمرهم قشة بالوعات تتجعي وتنقذ . ورجال الشرطة يعرفون ذلك ايضاً ، فهم انما يبحثون في باريس عن اضاعوه في ايما مكان آخر . ولقد بحثوا هناك عن عمدة مونتروي سور مير السابق . ودعي جافير الى باريس لمساعد الشرطة في مباحثها . والحق ان جان فالجان قد ساعد ، في قوة ، على اعتقال جان فالجان من جديد . ولقد أشاد مسيو شابوييه ، امين سر الشرطة في عهد الكونت آنغليز ، بالحلمة والذكاء اللذين تكشف عنها جافير في تلك المناسبة . ومن ثم وفق مسيو شابوييه ، الذي سبق له ان أسبغ حمايته على جافير ، الى ان ينقل مفتش مونتروي سور مير الى مركز الشرطة بباريس . وهناك ، أثبت جافير بطرائق مختلفة أنه - ولتقلها برغم ان الكلمة تبدو غريبة لم يسمع بمثلا في الكلام على مثل تلك المصلحة - عظيم الفائدة باستقامة وشرف .

وكان قد اطرح التفكير في جان فالجان نهائياً - فعند كلاب القنص هذه الموكلة ابدأ بطرائدها يطس ذئب اليوم على ذكرى ذئب الأمس - عندما قرأ في كانون الاول عام ١٨٢٣ صحيفة ما ، وهو الذي لم يقرأ الصحف في يوم من الايام . ولكن جافير جعل من همه - بوصفه ملكياً - ان يعرف تفاصيل دخول « الامير القائد العام » * المظفر الى بايون . حتى اذا أتم قراءة المقالة التي اثارت اهتمامه لفت نظره في الاسطر الدنيا من احدى الصفحات اسم من الاسماء ، هو اسم جان فالجان . لقد اعلنت الصحيفة ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة جان فالجان قضى نحبه . وانما سيق الحب في عبارة جازمة الى حد جعل جافير لا يشك في صحته البتة . لقد اكتفى بالقول : « إن هذا يضع حداً للمسألة » ، ثم التفت الصحيفة جانباً ، وأقنع عن التفكير في ذلك . وبعد فترة اتفق ان حوّلت مذكرة بوليسية من مديرية شرطة الـ « سين ايه واز » الى مديرية شرطة باريس عن حادث اختطاف طفلة وقع ، كما قيل ، في ظروف خاصة ، في قضاء مونفيرماي . وقد نصت تلك المذكرة على ان طفلة صغيرة في السابعة او الثامنة من العمر كانت أمها قد عهدت في تربيتها الى فندقٍ من اهل المنطقة ، قد سرقها من ذلك الفندق رجل مجهول . وكانت هذه الطفلة الصغيرة تُعرف بكوزيت . وكانت ابنة فتاة تدعى فانتين ، ماتت في المستشفى ، وليس ثمة من يعرف متى كانت وفاتها أو ابن . وانتهت هذه المذكرة الى جافير ، فلم تكد عيناه تقعان عليها حتى استغرق في التفكير . كان هذا الاسم ، فانتين ، معروفاً عنده جيداً . لقد ذكر ان جان فالجان جعله ينفجر ، هو جافير ، بالضحك حين سأله مهلة ثلاثة ايام لكي يذهب التماساً لابنة هذه المخلوقة . وذكر ان جان فالجان اعتقل في باريس لحظة كان يصعد الى مركبة مونفيرماي العمومية . ولقد قاده

* يقصد دوق آنغوليم الذي قاد حملة اسبانية ، وقد ورد ذكرها في الجزء السابق .

بعض الدلائل الى الاعتقاد ، آنذاك بأن هذه كانت المرة الثانية التي امتطى فيها متن هذه العربة ، وانه كان قد قام ، الليلة البارحة ، برحلة اخرى الى ضواحي تلك القرية لأن احداً لم يره في القرية نفسها . اي شيء كان يعمل في منطقة مونفيرماي هذه ؟ ذلك ما لم يستطع احد ان يجزره . ولكن جافير فهمه الآن . كانت ابنة فانتين هناك . ولقد ذهب جان فالجان التماساً لها . وها قد سرق رجل بجهول تلك الطفلة . من عساه يكون هذا الرجل المجهول ؟ أيكن ان يكون جان فالجان ؟ ولكن جان فالجان قد مات . ومن غير ان يقول كلمة لاحد ، امتطى جافير متن العربة العمومية عند « بلاديتين » ، زقاق بلانشيت ، وسافر الى مونفيرماي .

لقد توقع ان يجد ايضاحات هامة هناك ، ولكنه لم يجد غير غموض كبير .

ففي الايام الاولى كان تيناردييه وزوجته قد أذاعا ، في غمرة من غيظهما ، نبأ ذلك . وأحدث اختفاء القبترة ضجة في القرية . وفي الحال اتخذت القصة عدة اشكال ، ورؤيت روايات مختلفة ، انتهت بأن . أمست حادثة اختطاف . ومن هنا مذكرة ' البوليس ' التي اشرنا اليها . وأباً ما كان ، فحين همدت القورة الاولى ادرك تيناردييه في غير ابطاء ، تحذوه غريزته الرائعة ، أن ليس من مصلحته أن يستعدي النياحة العامة الملكية ، وان أولى نتائج شكاواه في ما يتصل باختطاف كوزيت ، سوف تكون تركيز عين العدالة الناقبة عليه هو ، تيناردييه ، وعلى كثير من متاعبه التجارية . إن آخر ما تتناهى البوم هو ان تحمل اليها شمعة . وقبل كل شيء ، كيف يفسر الخمسة عشر الف فرنك التي تسلمها ؟ وغير وجهته بغتة ، وكَمْ فهم زوجته ، وتظاهر بالدهش كلما حدثه امرؤ عن الطفلة المسووقة . إنه ما كان يعرف عن ذلك شيئاً . ولا ريب في أنه تشكى ، في الحال ، أن « تنتزع » منه تلك الفتاة

الصغيرة العزيزة بمثل هذه السرعة ؛ ولقد كان يفضل ، بدافع من الحنان المحض ، ان يحتفظ بها يومين اضافيين او ثلاثة ايام إضافية . ولكن جدّها هو الذي جاء يطلبها ، وهو شيء طبيعي اكثر من اي شيء آخر في العالم . كان قد اضاف الجّد الى القصة ، وهو ما بداسائفاً في الآذان . على هذه الحكاية وقع جافير في مونفيرماي . وكان في ذكر الجدّ ما استبعد جان فالجان ، وأخرجه من الحساب .

ومع ذلك فقد طرح جافير بعض الاسئلة ، وكأنها مسابير * في رواية تيناردييه : « من كان هذا الجد ، وما اسمه ؟ » وأجاب تيناردييه في بساطة : « انه مزارع غني . لقد رأيت جواز سفره . انا اعتقد انه يدعى مسيو غيوم لامبير . »

إن لامبير اسم وقور جداً بوقع الطمأنينة في الفؤاد . ورجع جافير الى باريس .

وقال مخاطباً نفسه :

— « إن جان فالجان ميتٌ حقاً . وإني لمعتوه . »

وكان قد شرع ينسى هذه القصة كلها ، عندما سمع بعضهم يتحدث ، خلال شهر نوار ١٨٢٤ ، عن رجل غريب يقطن في ابرشية سان ميداو ، ويدعى « الشحاذ الذي بوزّع الصدقات . » وكان هذا الشخص ، كما قيل ، رجلاً يحيا على كدّهِ ، وليس يعرف احدٌ اسمه تماماً — رجلاً يعيش وحده مع فتاة صغيرة في الثامنة ، لا تدري من أمرها غير شيء واحد وهو أنها أقبلت من مونفيرماي . مونفيرماي ! إن هذا الاسم ليتكرر دائماً ، وإنه ليلفت انتباه جافير . وازاف جاسوس عجوز من جواسيس الشرطة المتسولين — وهو مستخدم قديم في احدى الكنائس كان ذلك الشخص يتصدق عليه — معلومات جديدة ، فقال : « هذا الرجل شديد الثفرة من الناس ، فهو لا يغادر منزله إلا ليلاً ، وهو لا يتحدث

* جمع مبار وهو ما يتحن به غور الماء ليعرف مقداره .

الى احد ، ما عدا الفقراء في بعض الاحيان ، ولا يدع أحداً يتعرّف إليه . إنه يرتدي سترة عتيقة صفراء مخيفة تساوي عدة ملايين ، لأنها محشوة كلها بالاوراق النقدية . ، واثار ذلك فضول جافير من غير ريب . ولكي يرى الى هذا الغني الغريب عن كُثْب من غير أن يُجفله ، فقد استعار ذات يوم من المستخدم في الكنيسة ملابسه الرثة والمكاث الذي تعود جاسوس الشرطة العجوز ان يجلس فيه القرفصاء كل مساء مخنئاً بأدعيته ، متجسّساً من خلال صلواته .

وفي الواقع فقد وفدَ « الشخص المريب » ، الى جافير المنتكّر على هذا النحو ، وتصدّق عليه . وفي تلك اللحظة رفع جافير رأسه . وأصابته ، إذ اعتقد انه عرف جان فالجان ، مثل تلك الصدمة التي اصابته جات فالجان اذ اعتقد انه عرف جافير .

ومع ذلك ، فلعلّ الظلمة قد خدعته ؛ فقد كان موت جان فالجان أمراً مثبتاً عند السلطات . ولكن بقيت في نفس جافير شكوك ، وشكوك جدية . وفي حال الشك ، ما كان جافير - وهو الحذر الذي يسعى جهده لاجتناب الخطأ - ليأخذ بمخناق أيما رجل على الاطلاق .

ولحق بصاحبه حتى بيت غوربو . وأغرى « المرأة العجوز » بالكلام ، وهو أمر لم يكن عسيراً قط . وأيدت العجوز رواية السترة المحشوة بطائنها بالملايين ، وقصّت عليه حكاية الورقة النقدية ذات الألف فرنك . لقد رأتها ! لقد لمستّها ! واستأجر جافير غرفة . وفي تلك الليلة نفسها نزل فيها . واسترق السمع عند باب المستأجر الغريب ، راجياً ان يبلغ أذنيه جرسُ صوته ، ولكن جان فالجان لمح شمعته من خلال القفل ، وأحبط سعي الجاسوس بالتزام الصمت .

وفي اليوم التالي ، ارتحل جان فالجان . ولكن العجوز سمعت صدى قطعة الخسة الفرنكات التي أفلتت منه وهي تجري على الارض ، فخطر لها انه على وشك الرحيل ، وسارعت الى إعلام جافير بالأمر قبل حدوثه .

وفي الليل ، حين غادر جان فالجان الغرفة ، كان جافير يترصده خلف شجرات الجادة مع رجلين اثنين .

وكان جافير قد سأل مديرية الشرطة أن تمدّه بقوة اضافية ، ولكنه لم يصّرّح باسم الشخص الذي كان يرجو اللقاء القبض عليه . كان ذلك سرّاً من أسرارهِ ، واقد احتفظ به لثلاثة اسباب : أولاً ، لأن اقل افشاء للسرّ خليق به ان يحذر جان فالجان . وثانياً ، لان اعتقال محكوم بالاشغال الشاقة قديم فارتّ معدود بين الاموات - مجرم كانت سجلات العدالة قد صتفته الى الابد بين الاشوار الذين هم من الضوب الاشد خطراً - سوف يكون فوزاً رائعاً لن يتركه رجال الشرطة الباريسية القدماء ، من غير شك ، لوافد جديد مثل جافير ؛ ولقد كان يخشى ان ينتزعوا منه طريده المارّب من سجن الاشغال الشاقة . واخيراً ، لأن جافير - بوصفه فناناً - كان مولعاً بالمفاجآت . لقد كان يكره تلك الانتصارات المبشر بها والتي يُزيل بها طولُ التحدث عنها مقدماً . كان يجب ان يُتقن رواثه في الظلام ، ليكشف النقاب عنها بعد ذلك فجأة .

كان جافير قد تعقب جان فالجان من شجرة الى شجرة ، ثم من زاوية شارع الى زاوية شارع ، ولم يدعه يغيب عن ناظره لحظة واحدة . وحتى في تلك اللحظات التي استشعر جان فالجان خلالها انه على اعظم ما يكون من الامن والسلامة ، كانت عين جافير مسّرة عليه .

لماذا لم يلق جافير القبض على جان فالجان ؟ لأنه كان لا يزال في ريب من أمرهِ .

وينبغي ان نذكر ان الشرطة ، في ذلك العهد ، لم تكن تستشعر الراحة والقدرة على حرية التصرف . كانت الصحافة الحرة قضايقتها . والحق ان بعض الاعتقالات الاعتبارية التي أعلنتها الصحف تردّد صداها

حتى في قاعة البرلمان ، بما جعل مديرية الشرطة جبانة مخلوعة الفؤاد .
كان الاعتداء على الحرية الشخصية شيئاً خطيراً . وكان ضباط البوليس
يخشون ارتكاب الاخطاء . لقد جعلتهم المديرية مسؤولين عن ذلك ،
فاذا ما وقع ضابط في خطأ خسرَ وظيفته . ولنتخيل الاثر الجدير بهذه
الفكرة الموجزة المكررة في عشرين صحيفة ان تتركه في باريس :
« أمس ، القي القبض على رجل عجوز اشتعل رأسه شيباً ، وهو مثير
محتوم كان يقوم بنزهة مع حفيدته البالغ عمرها ثمانية أعوام ، وسبق
الى سجن الشرطة كمحكوم عليه بالاشغال الشاقة قاراً من وجه العدالة ! »
ولنكرر ، الى هذا ، ان جافير كانت له وساوسه . وانضافت
وصايا ضميره الى وصايا مدير الشرطة . لقد كان في ريب من أمر
الرجل حقاً .

وأدار جان فالجان ظهره ، وراح يمشي في الظلام .
وكان الحزن ، والقلق ، والخصر النفسي ، وثقل المهوم ، وهذا
الشقاء الجديد الذي اكراهه على الفرار تحت جنح الظلام والى البحث
من غير تبصر عن مأوى في باريس يلجأ اليه هو وكوزيت ، واضطراره
الى ان يكتف خطوته وفقاً لحطوة طفلة صغيرة - كل ذلك كان قد
غير مشية جان فالجان ، وهو لا يدري ، وطبع هيئته بطابع
الشيخوخة الى حد جعل في الامكان خداع البوليس نفسه ، المتجسّد في
جافير . وكان في تعذر المغالاة في الاقتراب منه ، وملابسه التي تذكر
بؤدب عجوز مهاجر ، وفي تصريح تيناردييه الذي جعله جَدّاً ، واخيراً
في الاعتقاد بأنه قد لقي حتفه في سجن الاشغال الشاقة ، ما عزز
الشك المتعاضم في ذهن جافير .

وخطر له ، لحظة ، ان يطلب اليه فجأة ابواز أوراقه . ولكن اذا
لم يكن هذا الرجل جان فالجان ، واذا لم يكن هذا الرجل مثوياً عجوزاً
محمود السيرة فاعلم الظن انه لص متصل اتصالاً مهماً بارعاً بشبكة

الجرمة الباريسية الغامضة ، او رئيس عصابة خطيرة من عصابات قطاع الطرق يتصدق على الفقراء إخفاء لمواهبه الاخرى ، وهي حيلة قديمة . ولا ريب في انه كان له رفاق ، وشركاء في الجريمة ، وملاجيء قريبة يفزع اليها . وكل هذا الف والدوران الذي كان يقوم به في الشوارع يبدو وكأنه يدل على انه لم يكن رجلاً بسيطاً صالحاً . فالقاء القبض عليه بأسرع مما يجب من باب « قتل الدجاجة التي تبيض ذهباً » . واي بأس في الانتظار ؟ كان جافير مرقناً احسن اليقين من انه لن يفرّ .

وهكذا واصل تقدمه في كثير من الارتباك ، موجهاً الى نفسه عشرات من الاسئلة عن هذه الشخصية الغز .

ولم يتأكد من ان الرجل هو جان فالجان من غير ريب إلا بعد ذلك بكثير ، في شارع بونتواز ، وبفضل ضوء ساطع تدفق من احدى الحانات .

إن في هذا العالم مخلوقين يستطيع الطرب ان يعصف بهما في قوة وعنف : الأم التي تجدد ولدها الضائع ، والنمر الذي يهتدي الى فريسته من جديد . لقد احس جافير بهزة الطرب هذه .

ولم يكذب يتحقق بما لا يحتمل الشك ان الرجل العجوز هو جان فالجان ، الاشغالي * الرهيب ، حتى انتبه الى انه على رأس قوة لا تعدو رجلين اثنين ، وعندئذ طلب من مفوضية بوليس شارع بونتواز أن 'تمدّه بقوة اضافية . فقبل ان يمسك المرء بقضيب ذي أسواك يغلف يديه بقفاز .

وكان في هذا التأخر والوقوف في ساحة رولين للتشاور مع رجاله ما جعله يفقد الأثر . ومع ذلك ، فرعان ما حزر أن جان فالجان

* نسطنح هذه الصيغة ، أحياناً ، لتقوم مقام « المحكوم عليه بالاشغال الشاقة » حين يتمذّر لإلحاق النعت بذلك التعبير المؤلف من اربع كلمات .

راغب في ان يتخذ من النهر حائلاً بينه وبين مطارديه . ونكس رأسه وفكر ، مثل كلب ضخم يضع انفه في التراب لكي يستيقن بأنه على جادة الصواب . واندفع جافير ، بسداد غريزته البالغ ، اندفاعاً مباشراً نحو جسر اوسترليتز . وطرح سؤالاً على مأمور المكوس أطلعته على جلية الأمر - « هل رأيت رجلاً يصطحب فتاة صغيرة ؟ » فأجابه المأمور : « لقد دفعتته فلسين . » ووصل جافير الى الجسر في الوقت المناسب ، فبصر بجان فالجان على الضفة الاخرى من النهر ، يقود كوزيت بيده عبر الارض للفضاء التي كانت أشعة القمر تنيرها . لقد رآه يدخل شارع « شومات فير سان انطوان » ، وفكر في زقاق جانزو القائم هناك مثل شرك من الاشراك ، وفي المنفذ الوحيد من شارع « دروا مور » ، الى شارع بيكبوس الصغير . وعمل على ان « يضمن المسالك الامامية » ، كما يقول الصيادون فسارع الى ارسال احد رجاله ، من طريق فرعية ، لحراسة ذلك المنفذ . ومرت دورية من العسس عائدة الى مخفر دار الصناعة ، فصادرها وحملها على مرافقته . ففي مثل هذه اللعب يُعتبر الجند اوراقاً قوية رابجة . والى هذا القاعدة تقول بأن اصطياد الخنزير البري يقتضي علم القانص وقوة الكلاب . حتى اذا أتمت هذه الاستعدادات واستشعر ان جان فالجان قد وقع في الشرك المؤلف من زقاق جانزو الى اليمين ، ومساعدته الى الشمال ، ومنه هو نفسه ، جافير ، في المؤخرة - عندئذ تناول قبضة * من السوط .

ثم إنه بدأ يلعب . لقد استمتع بلحظة نشوى تمور بالحبث . فتترك طريقه يمضي أمامه ، عارفاً أنه اسيره ، راغباً في ان يرجىء - اكثر ما يستطيع الارجاع - لحظة اعتقاله ، سعيداً بان يستشعر أنه قد وقع في قبضته وبأن يراه حراً طليقاً ، ناظراً اليه في مثل لذة العنكبوت التي تدع الذبابة تطن ، والهزة التي تدع الفأرة تعدو . إن الحلب والبرن ليجدان

* القبضة (بالصاد المهمة) : ما تروثه بأطراف اصابعه .

متعة ضخمة في اختلاجة الحيوان الواقع في قبضتهما . اي بهجة ينطوي عليها ذلك الحق !

كان جافير مجبوراً . لقد كانت حلقات شبكته محكمة التلاحم ، وكان واثقاً من النجاح . لم يبق عليه ، الان ، غير إطباق يده .

وإذ صعبه ذلك النفر من رجال الشرطة ، فقد كانت فكرة المقاومة مستحيلة مهما يكن جان فالجان نشيطاً ، شديد البأس ، يائساً .

وتقدم جان فالجان في ثودة ، جاساً في طريقه جميع زوايا الشارع الخفية ، فاحصاً إياها ، كما يفعل المرء مجبور لص من اللصوص .

حتى اذا وصل الى وسط النسيج الذي حاكه ، لم يجد الذبابة هناك . فتصور حنقه وسخطه .

لقد استجوب الحارس الذي أقامه عند شارعي « دروا مور » و « بيكبوس » . إن ذلك الشرطي ، الذي لزم مركزه من غير ان يبدي حراكاً ، لم يرَ الرجل يمر .

قد يتفق في بعض الاحيان ان يسترد أثيل حريته ورأسه مغطى ، يعني أنه يفرّ على الرغم من ان كلب القنص جاثم فوقه ، وعندئذ لا يدري أقدم الصيادين ما يقولون . إن دوفيفيه ، ولينييفيل ، وديبريز * ليصابون بالذهول . وفي مناسبة مشابهة تتضح بحجية الامل صاح آرتونج : « إنه ليس أثيلاً . إنه ساحر ! »

كان جافير يتمنى لو يُطلق مثل هذه الصيحة .

وعرفت خيبة أملة لحظة من اليأس والنفيز الشديد .

من الثابت ان نابوليون ارتكب اخطاء كثيرة في الحرب ضد الروسيا ، وان الاسكندر ارتكب اخطاء كثيرة في حروبه بالهند ، وان قيصر ارتكب اخطاء كثيرة في الحرب الافريقية ، وان كوروش

* وم صيادون مشهورون . وكذلك آرتونج .

ارتكب اخطاء كثيرة في حربه ضد سيثية ، وان جافير ارتكب اخطاء كثيرة في هذه الحملة ضد جان فالجان . لعله قد أخطأ بتورده في إثبات هوية الأشعالي العتيق ، فقد كانت النظرة الاولى خليقة بأن تكفيه . ولقد اخطأ إذ لم يُلْقِ القبض عليه ، بكل بساطة ، في ذلك البيت المتداعي . ولقد اخطأ إذ لم يعتقله حين عرفه معرفة يقينية في شارع بونتواز . ولقد اخطأ إذ تشاور مع مساعديه ، والقمر بدر ، في ساحة رولين . صحيح ان طلب النصع مفيد ، ومن الخير ان يعرف المرء ويستجوب من بين كلابه ذلك النفر الجدير بالاعتماد . ولكن القائن لا يستطيع ان يتخذ من الاحتياطات اكثر مما ينبغي حين يطارد حيوانات قلقة جزوعة كالذئب والمحكوم عليه بالاشغال الشاقة . وجافير بانهماكه الشديد في وضع كلابه السلوقية على الطريق ، نبيه فريسته الى الخطر إذ جعلها تستروح المطاردة ، وأغراها بالفرار . ولقد اخطأ فوق ذلك كله إذ لعب ، بعد ان اهتدى الى الاثر من جديد في جسر اوستوليتز ، تلك اللعبة الرهيبة الصبائية التي قضت بأن يمك مثل هذا الرجل بالطرف الاقصى من الحيط . لقد حسب نفسه أقوى بما كان في الواقع ، واعتقد ان في استطاعته ان يلاعب الأسد كما تلاعب الفأرة . وفي الوقت ذاته ظن نفسه أضعف مما ينبغي عندما قدر ان من الضروري ان يلتمس المدد من مديرية الشرطة . فقد كان ذلك الاحتياط مشؤوماً ، بما اضاع عليه من وقت ثمين . لقد ارتكب جافير جميع هذه الاخطاء ، ومع ذلك فقد كان واحداً من اكثر رجال البوليس السري حكمةً واشدهم استقامة في التاريخ كله . لقد كان ، بأقوى معاني الكلمة ، ما يُدعى في فن القنص بالكلاب و كلباً حكيماً ، . ولكن من ذا الذي يتصف بالكمال ؟

إن لكبار المتمرسين بقيادة الجيوش نصيبهم من الحور ، والافاق .

والحمامات الكبرى تتألف عادةً ، كالجبال الضخام ؛ من جمهرة من الحيوط . خذِ الجبل الضخم خيطاً خيطاً ، خذ جميع الدوافع الصغيرة المقررة كلاً على حدة ، تقطعها واحدة إثر واحدة ، وعندئذ تقول : « هذا كل ما هنالك ! » . ولكن اضفرها وأحكم إبرامها تصبغ قوة جسيمة . إنها آتِيلاً* يتردّد بين مارسيان** في الشرق وفالانتينيان*** في الغرب ؛ وهنبيعل يتأخر في كابوا ؛ ودانتون يستسلم للرقاد في « آرسيس سور أوب » .

وأياً ما كان ، فحتى في اللحظة التي أدرك جافير خلالها ان جان فالجان أفلت من يده لم يفقد صوابه . واذ كان واثقاً من ان الاشغاليّ الفارّ لا يستطيع ان يكون بعيداً ، فقد بثّ الارصاد ، وأقام الاشراك والمكامن ، وجاس خلال الحيّ طول النهار . وكان اول ما رآه ، ذلك التغير الطاريء على مصباح الشارع العمومي الذي 'قطع حبله - أمانة' ثمينة ولكنها أضلته السبيل ، مع ذلك ، بان جعلته بوجه مباحثه كلها نحو زقاق جانرو . فقد كان في ذلك الزقاق جدران شديدة الانخفاض تطل على حدائق كانت حدودها تمتد الى بعض الاراضي الواسعة غير المزروعة . وكان واضحاً ان جان فالجان قد فرّ في ذلك الاتجاه . والحق ان جان فالجان كان خليقاً بان يفعل ذلك ، لو انه تقدّم الى أبعد قليلاً في زقاق جانرو ، وعندئذ يتعذر العثور عليه . وراّد جافير تلك الحدائق والاراضي وكأنه يبحث عن ابرة ضائعة .

* Attila ملك الهون ، وقد تغلب على عدد من اباطرة الشرق والغرب . ثم ارتدّ أخيراً على ضفاف الدانوب ، حيث توفي عام ٤٥٣ م .

** Marcien ماركسيانوس فلافوس امبراطور الشرق الروماني وقد دام حكمه من عام ٤٥٠ الى عام ٤٥٧ .

*** Valentinien الثالث امبراطور الغرب الروماني وقد دام حكمه من عام ٤٢٥ الى ٤٥٥ .

وعند الصباح ابقى في ذلك المكان رجلين ذكيين عهد ليهما في أمر
الرقابة ، وانقلب الى مديرية الشرطة خجلاً مثل جاسوس من جواسيس
الشرطة اعتقله لص من اللصوص .

الكتاب السادس

پیکپوس الصغیر

شارع ييكبوس الصغير ، رقم ٦٢

لم يكن ثمة ، منذ نصف قرن ، ما يمثل باب العربات النموذجي الكبير ، في ذلك العهد ، أكثر من باب العربات المؤدي الى البناء ذي الرقم ٦٢ في شارع ييكبوس الصغير . وكان هذا الباب مُشْرِعاً على نحو نصفي مغري الى ابعاد حدود الاغراء ، كاشفاً عن شيئين ليسا فاجعين جداً : فناءً مطوّقاً بجدران مزدانة بالعرائش ، ووجهٌ بوابٍ يقطع الوقت منتقلاً من اليمين الى الشمال ومن الشمال الى اليمين . وفوق الجدار الخلفي كان المرء يرى شجرات كبيرة . وحين تُبهِج اشعة الشمس

الفناء ، وتبهج كأس من الحمر البواب يكون من العسير عليك ان تمر
برقم ٦٢ ، شارع بيكبوس الصغير ، من غير ان تتصرف حاملاً فكرة
ضحكة . ومع ذلك فقد كان ذلك الذي لحته موطناً قائماً .

لقد انقسم الجدار . أما المنزل فصلتى وبكى .

ولو قد وفقت ، وهو امر ليس باليسير ، الى ان تتخطى البواب
— وهو يكاد يكون مستحيلاً على الكثرة المطلقة من الناس لانه كانت
قمة كلمة سر سحرية يجب ان تعرفها — نقول اذا وفقت الى تخطى
البواب فعندئذ تدخل من ناحية اليمين دهليزاً صغيراً يؤدي بك الى سلم
محصورة بين جدارين ، ضيقة الى حد يجعلها لا تتسع لصاعدتين اثنتين
في وقت واحد . واذا لم تسح لنفسك بأن يروعا ورق الجدران
الأصفر ذو الاساس الشوكولاتي اللون الممتد على طول السلم ، واذا
غامرت في الصعود ، تصل الى منبسط أول ، ثم الى منبسط ثان ،
وتبلغ الدور الثاني برواق يتبعك فيه الصبغ الأصفر والقاعدة الشوكولاتية
في عنادٍ وديع . إن السلم والرواق مضاءان بنافذتين جميلتين . وفجأة
ينعطف الرواق ، ويسمي مظلاً . فاذا تجاوزت ذلك الرأس انتهيت ،
بعد بضعة خطوات ، الى باب يزيد غموضاً وأمراراً كونه غير موحد
إيصاداً كاملاً . وتدفع الباب ، فتجد نفسك في غرفة صغيرة تبلغ
مساحتها نحواً من ستة اقدام مربعة ، مفروشة ارضها بالبلاط ، مفسولة ،
نظيفة ، باردة ، مزدانة الجدران بورق نازكين ذي الزهيرات الخضراء ،
الذي تباع اللفة الواحدة منه بخمسة عشر سو . إن ضوءاً أبيض باهتاً
يقبل من نافذة عريضة ذات الواح زجاجية صغيرة كانت الى اليسار ،
وكانت تستغرق عرض الغرفة كله . وتنظر ، فلا ترى احداً . ونصفي ،
فلا نسمع خطوة ما ، أو صوتاً بشرياً ما . ان الجدار عاري . وليس
في الغرفة اثاث ، حتى ولا كرسي واحد .

وترجع البصر ككرة اخرى فتوى في الجدار الذي يواجه الباب

فتحة" مربعة الزوايا تبلغ مساحتها نحواً من قدم مربع ، مغطاة بحاجز من القضبان الحديدية المتعارضة ، السوداء ، الصلبة ، ذات العُقد ، التي ألفت مربعات - وكدتُ أقول خلايا شبكية - يقل طولها عن إنش واحد . إن زهيرات ورق نانكين الخضراء لتتقدم في هدوء وفي نظام حتى هذه القضبان الحديدية من غير ان يروّعها أو يشتتها ذلك الاحتكاك الفاجع . ولو قد فرضنا ان كائناً حياً كان من الهزال بحيث يحاول ان يدخل الفتحة المربعة او يخرج منها إذن لخال ذلك الحاجز بينه وبين ما ينتهي . إنه ما كان يجيز للجسد ان يدخل ، ولكنه كان يجيز ذلك للعين ، يعني للعقل . ويبدو ان القوم قد فكروا في هذا ، بدليل أنهم أردفوا الحاجزَ بصفحة من التَّنك رُكبت في الجدار المتخلف عنه بعض الشيء وتناثر فيها ألفٌ من الثقوب هي اكثر ميكروسكوبية من ثقوب المرغاة . وفي ادنى هذ الصفحة كانت فرجة اشبه ما تكون بقم علبه من علب البريد . وكانت شريطة عريضة تنصل بجرس معلق الى بين الفتحة المقضبة .

وتحرك هذه الشريطة ، فيون جرس ، وتسمع على مقربة دانية منك صوتاً تجفل منه وترتعد .

ويسأل الصوت :

- « مَنْ هناك ؟ »

إنه صوت امرأة ، صوت عذب ، عذب الى درجة جعلته فاجعاً . وهنا ايضاً كانت ثمة كلمة سحرية يجب ان نعرفها . فاذا جهلتها لم نسمع الصوت ككرة اخرى ، ويرتد الجدار صامتاً من جديد وكأن ظلمة القبر الموحشة كانت في الجانب الآخر .

أما اذا عرفت الكلمة فعندئذ يضيف الصوت :

- « أدخل الى اليمين . »

وبعد ذلك تلاحظ الى يمينك ، تجاه النافذة ، باباً مزججاً يعلوه

إطار مزجج أيضاً مدهون باللون الرمادي . وترفع المزلاج ، وتجتاز الباب ، وتحسّ بمثل ذلك الشعور الذي يغلب عليك حين تدخل مقصورة ذات شباك ، في احد المسارح ، قبل أن يُخَفَضَ الشباك وتضاء الأنوار . انك في الواقع في شبه مقصورة مسرحية ما يكاد يضيئها نور الباب الزجاجي الباهت ، ضيقة ، مؤتة بكرسيين هرمين ، وحصير من قصب مقطّع الأوصال - مقصورة حقيقية واجهتها في ارتفاع المتكأ يعلوها لوح من خشب أسود . وكانت تلك المقصورة ذات شباك ، إلا أنه لم يكن شباكاً من خشب مذهب ، كشبايك الاوبرا ، ولكن شباكاً من اعمدة حديدية تداخلت على نحو خفيف ورُستخت في الجدار بمشبّات تشبه كل منها بُعج كفّ منسبة الاظفار .

وبعد بضع دقائق ، حين تبدأ عينك تألفان هذه العنمة الكهفية ، تحاول ان تنظر من خلال القضبان الحديدية ولكنك لا ترى الى ابعد من ستة إنشات ليس غير . هناك تبصر حاجزاً من مصاريع النوافذ السوداء وقد تُبثّت ودُعِمت بعوارض خشبية مدهونة بلون خبز الزنجبيل . وكانت هذه المصاريع ذات مفاصل ، وكانت تنقسم الى أضلاع هزيلة متطاولة ، وتغطي عرضَ القضبان الحديدية بكامله . إنها كانت موصدة ابداً .

وبعد بضع لحظات تسمع صوتاً يناديك من وراء هذه المصاريع ، قائلاً :

— « أنا هنا . ماذا تريد مني ؟ »

إنه صوت محبّب الى النفس ، وقد يكون في بعض الاحيان صوتاً تهيم به القلوب . ولا ترى احداً . وما تكاد تسمع تردّد نفّسٍ من الانفاس . لقد بدا وكأنه كان صوتاً شبحياً يتحدث اليك من خلال باب القبر . ولو قد برزتَ هناك في بعض الاحوال الضرورية ، وهي نادرة جداً ، فعندئذ ينفتح امامك ضلع ضيق من اضلاع تلك المصاريع ،

ويعدو الصوت الشبحي طيفاً . فخلف القضبان الحديدية ، وخلف المصراع ، ترى على مقدار ما تسمح القضبان الحديدية ، رأساً لا تلمح منه غير الفم والذقن . أما ساثره فمحبوبٌ بنقاب أسود . وتلمح قميصاً نسائياً أسود ، وشكلاً غير واضح المعالم يحلله كفنٌ أسود . ويتحدث هذا الرأس معك ، ولكنه لا ينظر اليك ، ولا يبتسم لك البتة .

إن النور المنبعث من ورائك مركّز على نحو يجعلك ترى الرأس في النور ، ويجعله يراك في الظل . إنه نورٌ رمزيّ . وفي الوقت نفسه ، نحدق عيناك في لفحة من خلال هذه الفرجة التي انفتحت ، الى ذلك المكان المحبوب عن أعين الرقباء .

إن ظلمة كثيفة لتغلّف هذا الشكل اللابس ثوب الحديد . وتبحث عيناك في هذه الظلمة ، وتحاول أن تستبين أي شيء يحيط بالطيف . وما هي إلا فترة قصيرة حتى تدرك أنك لا ترى شيئاً . إن ما تراه هو الليل ، والفراغ ، والظلمات ، وضباب الشتاء ممزوجاً ببخار القبور ، ضربٌ من الهدوء المروّع ، وصمتٌ لا تقع فيه على شيء ، حتى على الزفرات نفسها - ظلام لا تقيّين فيه شيئاً ، حتى الاطيف .

إن ما تراه عيناك هو الجزء الداخلي من دير . إنه الجزء الداخلي من ذلك البيت الصارم المظلم الذي يدعى دير البرنارديات للسجود السرمدي . وهذه المقصورة ، التي كنت فيها ، هي غرفة الاستقبال . وهذا الصوت ، الذي خاطبك أول مرة ، هو صوت البوابة القاعدة ابداً ، جامدة صامتة ، عند الجانب الآخر من الجدار ، قرب الفتحة المربعة ، تصونها القضبان الحديدية والصفحة ذات الالف ثقب ، مثل قناع خوذة مزدوج .

أما الظلمة التي غرقت فيها المقصورة المقضبة فناشئة عن أن غرفة الاستقبال ذات النافذة المطلّة على العالم الخارجي لم يكن لها أيما نافذة تطل على ناحية الدير . إن الأعين الدنيوية ينبغي أن لا ترى شيئاً من

هذا المكان المقدس .

بيد أنه كان ثمة شيء وراء هذا الظلام ؛ كان ثمة نور ؛ كان ثمة حياة في هذا الموت . وعلى الرغم من ان هذا الدير كان أمتع من أيما دير آخر ، فسوف نحاول ان ندخله ، وان نأخذ القاريه معنا ، فنروي بأوسع ما نستطيع من الاسهاب شيئاً لم يره أصحاب القصص قط ، فلم يُقدّر لهم بالتالي أن يَرَوْوه في يوم من الایام .

راهبات الطاعة لمارتن فيرغا

هذا الدير الذي كان قد سلخ ، عام ١٨٢٤ ، دهرأ طويلاً في شارع
بيكبوس الصغير ، كان جماعة من الراهبات البرنارديات اللواتي يدنّ
بالطاعة لمارتن فيرغا .

وهكذا فهؤلاء البرنارديات لم يكنّ يُنسب الي كليرفو ، مثل
البرناردينين ، ولكنّ الي سيتو ، مثل البنيديكتيين . وبكلمة ثانية فانهنّ
كنّ من رعايا القديس بنيديكت (بينوا) لا من رعايا القديس
برنارد .

وكل مطلع على الكتب القديمة يعلم أن مارتن فيرغا انشأ عام ١٤٢٥
رهابية من البرنارديات - البنيديكتيات ، وانه جعل لمنكة مقرّها
الرئيسي ، وأسس في آلكالا فرعاً لها .
ثم ان فروع هذه الرهبانية انتشرت في جميع بلدان اوروبة
الكاثوليكية .

وتلقيح رهبانية ما برهبانية اخرى على هذا النحو ليس شيئاً غير
شأن في الكنيسة اللاتينية . ونحن نجتزئ بالاشارة الى رهبانية واحدة

هي رهبانية القديس بينوا التي نتحدث عنها هنا . فهذه الرهبانية تنشعب منها ، باستثناء راهبات الطاعة لمارتن فيرغا ، أربع أخويات ، اثنتان في ايطالية ، هما اخوية الـ « مون كاسان » ، واخوية « سان جوستين » ، في بادوا ، واثنان في فرنسا ، هما اخوية « كلوني » ، وأخوية « سان مور » ، وتسع رهبانيات هي « فالومبروزا » ، و « غرامون » ، و « السماويون » ، و « الكامالدوليون » ، و « الكرتوزيون » ، و « المتصنعون » ، و « الاوليفتيون » ، و « السيلفيستريوت » ، واخيراً رهبانية « سيتو » . لان رهبانية « سيتو » نفسها ، وهي اصل رهبانيات اخرى ، لا تعدو ان تكون فرعاً من رهبانية القديس بينوا . إن رهبانية سيتو ترقى الى عهد القديس روبر ، راهب موليم ، في ابرشية لانغر ، عام ١٠٩٨ ؛ على حين ان الشيطان الذي اعتزل الناس وانزوى في صحراء سويياكو (كان عجوزاً ، فهل أمسى ناسكاً ؟) إنما طرد ، سنة ٥٢٩ ، من هيكل أبولو القديم حيث كان يجيأ الى جانب القديس بينوا البالغ عمره آنذاك سبع عشرة سنة .

والواقع ان الأنظمة التي تخضع لها راهبات مارتن فيرغا البرنارديات البنيديكتيات هي أقسى الأنظمة الرهبانية على الإطلاق ، باستثناء أنظمة الكرملين الذين يشون حفاةً ، ويطوقون حناجرهم بقطعة من خيزران ، والذين لا يجلسون أبداً . انهن ينشعن بالسواد ، ويرتدين قميصاً يرتفع وفقاً لأمر القديس بينوا الصريح ، حتى الذقن ، وثوباً من نسيج صوفي غليظ ذا ردين واسعين ، وحجاباً صوفياً كبيراً ، والقميص الذي يرتفع الى الذقن وقد سُتق على شكل مربع فوق الصدر ، وعصابة الرأس التي تنخفض حتى العينين . تلك هي ملابسهن ، وكلها سوداء ، ما خلا عصابة الرأس فهي بيضاء . والراهبات الحديثات العهد بالترهب يرتدين الملابس نفسها ، مع فارق وحيد هو ان ملابسهن هذه بيضاء كلها . اما الراهبات ذوات النذور فيتميزن فوق هذا بسبعة تحملها

كل منهن بجنبها .

وتقوم راهبات مارتن فيرغا البرنارديات - البنيديكتيات بالسجود
الرمدي على غرار الراهبات البنيديكتيات المعروفات بـ « سيدات سرّ
القربان المقدس » ، اللواتي كان لهن في باريس ، عند مطلع هذا
القرن ، ديران أحدهما في ال « تامبل » والآخر في « شارع نوف
سانت جانفييف » . وفي ما عدا ذلك فان راهبات « بيكبوس الصغير »
البرنارديات - البنيديكتيات اللواتي تتحدث عنهن كنّ يؤلفن رهبانية
مستقلة تسم الاستقلال عن « سيدات سرّ القربان المقدس » الحبيسات في
« شارع نوف سانت جانفييف » ، وفي ال « تامبل » . كانت ثمة فروق
كثيرة بين أنظمة الجماعتين ، وكان ثمة بعض الفروق في الزي . كانت
راهبات « بيكبوس الصغير » البرنارديات - البنيديكتيات يرتدين قميصاً اسود ،
على حين كانت بنيديكتيات سرّ القربان المقدس وشارع نوف سانت
جانفييف يرتدين قميصاً أبيض ويزين صدورهن الى ذلك بتمثال المصلوب
موضوع من الفضة او من النحاس المذهب يبلغ طوله نحواً من ثلاث
بوصات . ولم تكن راهبات بيكبوس الصغير يحملن تمثال المصلوب
هذا . والحق ان السجود الرمدي ، المشترك بين دير بيكبوس الصغير
ودير التامبل ترك الرهبانيتين مختلفتين كل الاختلاف . فتمتة تشابه في هذه
الناحية فقط بين سيدات سر القربان المقدس وبرنارديات مارتن فيرغا كما
كان ثمة تشابه في درس وتبجيد جميع العجائب المتصلة بطفولة يسوع
المسيح وحياته وموته ، وبالعداء ، بين رهبانيتين منفصلتين أتم
الانفصال ومتعديتين في بعض الاحيان : رهبانية ال « اوراتوار »
الاطالية التي أسسها في فلورنسة فيليب النيري ، ورهبانية ال « اوراتوار »
الفرنسية التي أسسها في باريس بيير دو بيول . و « اوراتوار »
باريس تدعي حق التصدر ، اذ كان فيليب النيري مجرد قديس ، على
حين كان بيول كاردينالاً .

ولنعد الى انظمة مارتن فيرغا الاسبانية الصارمة .

ان راهبات هذا الدير البونارديات - البنيديكتيات يمتنعن عن اكل اللحم طوال العام ؛ ويصمن الصوم الكبير واياماً اخرى كثيرة خاصة بين ؛ وينهضن من نومهن الاول في الساعة الواحدة صباحاً لكي يقرأن كتاب فرض الكهنة ، وينشدن صلاة السحر حتى الساعة الثالثة ؛ وينمن في فُرُش من قش وعلى شرائف من نسيج صوفي غليظ في جميع فصول السنة ؛ ولا يدخلن الى الحمام ابدأ ؛ ولا يشعلن ناراً البتة ؛ ويعاقبن انفسهن يوم الجمعة من كل اسبوع ؛ ويلتزمين قاعدة الصمت ، فلا تتحدث احداهن الى الاخرى إلا في اوقات الاستراحة ، وهي قصيرة جداً ؛ ويلبسن قمصاناً صوفية خشنة طوال ستة اشهر ، من ١٤ ايلول ، وهو عيد ارتفاع الصليب ، حتى عيد الفصح . وهذه السنة الاشهر تنطوي على تخفيف ؛ فالنظام يقضي بان يكون ذلك على مدار العام كله . ولكن قميص الصوف الخشن هذا ، غير المحتل في حر الصيف ، كان يورث لابسانه ضروباً من الحمى والتشنج العصبي . فكان ضرورياً أن يصار الى تحديد استعماله . وحتى مع هذا التلطيف ، فقد كانت الراهبات يُصَبَن بعد الرابع عشر من ايلول ، حين يرتدين هذه القمصان ، بحمى تستمر ثلاثة ايام او اربعة ايام . الطاعة ، الفقر ، العفة ، الثبات على الحياة الرهبانية - تلك هي ندورهن التي كانت انظمتهم تجعل الوفاء بها اشد صعوبة وعراً .

فكانت رئيسة الدير تُنتخب من قبل « الامهات » اللواتي كن بسمين « الامهات الصوتيات » ، لأن هن صوتاً في مجلس الراهبات . ولم يكن القانون ليجيز اعادة انتخاب الرئيسة اكثر من مرتين ، وهذا ما جعل أطول ولاية ممكنة لرئيسة ما لا تعدو تسع سنوات .

وما كن يرين قط الكاهن المحتل بالقداس ، الذي كان محبوباً عنهن ابدأ بستار صوفي يبلغ ارتفاعه تسعة اقدام ، وكن في اثناء العظة حين

يكون الكاهن في الكنيسة ، يسبلن حجبهن على وجوههن . إن عليهن دائماً ان يتحدثن في صوت خفيض ، ويمشين وقد غضضن من ابصارهن ، وطأطأن رؤوسهن . ولكن رجلاً واحداً يستطيع ان يدخل الدير ، هو كبير اساقفة الابوشية .

والحق ان ثمة رجلاً آخر قادراً على ذلك ، هو البستاني . ولكنه دائماً رجل عجوز ؛ ولكي يكون وحده في الحديقة على نحو موصول ، ولكي 'نحذر' الراهبات منه فيجتنبنه ، فقد عُلق برُكْبته جرس صغير .

وهن يدنّ للرئيسة بخضوع مطلق اعمى . انه الخضوع المطابق للقوانين الكنسية بكل ما ينطوي عليه من انكار للذات . الخضوع للامانة ، للاشارة الاولى *ad nutum, ad primum signum* ، وكأنا هو امتثال لصوت المسيح ، *ut voci Christi* ؛ الخضوع في الحال ، في سعادة ، في مواظبة ، وفي ضرب من الطاعة العمياء *promptè, hilariter, perseveranter et caeca* ، كالبرود في يد العامل *quasi limam in manibus fabri* ، *quadam obedientia* . فهن لا يستطعن ان يقرأن او يكتبن شيئاً مهما يكن من غير اذن واضح صريح . *legere vel scribere non addiscerit sine expressa superioris licentia* .

وكانت كل منهن تؤدي ، بدورها ، ما يسمينه « الاستغفار » . والاستغفار صلاة يُقصد بها التكفير عن جميع الخطيئات ، وجميع الاخطاء التي تُقتوف فوق سطح الارض ، وعن كل خلل ، وكل مخالفة ، وكل بغي . وكل جريمة تُرتكب فيها . فطوال اثنتي عشرة ساعة متعاقبة ، من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى الساعة الرابعة صباحاً ، او من الساعة الرابعة صباحاً حتى الساعة الرابعة بعد الظهر ، تظل الراهبة « المستغفرة » راکعة على الحجر ، امام القربان المقدس ، مشبوكة اليدين ، مطوّقة العنق بحبل . حتى اذا غدا التعب غير محتمل انطرحت على بطنها ، متصالبة الذراعين ، مستقبلة الارض بوجهها . ذلك كل نصيبها من الراحة .

وفيا هي على هذا الوضع تصلي من اجل جميع المذنبين في الكون . إن هذا شيء عظيم حتى الاعجاز .

واذ كانت الراهبات يقمن بهذا الصنيع أمام وتد تحتوق في أعلاه شمع طوية فقد كن يقنن من غير تمييز « ادت صلاة الاستغفار » او « ركعت امام الوند » . بل ان الراهبات ليؤثرن ، بدافع من الضعة والخشوع ، هذا التعبير الأخير المنطوي على معنى من العقوبة والاذلال .

واداء صلاة الاستغفار عملية تستغرق فيها النفس كلها . فالراهبة الجاثية امام الوند لا تلتفت ولو سقطت خلفها صاعقة .

والى هذا ، فهناك ابدآ راهبة راکعة امام القربان المقدس . وهذا الركوع يستمر ساعة من زمان . وهن يتناوبن هذه المهمة كالجنود في اثناء العمل . وذلك هو السجود المرمدي .

والرئيسة و « الامهات » يحملن دائماً ، تقريباً ، اسماء ذات جلال خاص تذكر ، لا بالقدسين والشهداء ، ولكن بلحظات من حياة يسوع المسيح ، مثل الأم « ميلاد » ، والأم « حمل » ، والأم « تقدمة » ، والأم « آلام » . بيد ان اسماء القديسات ليست محظورة .

وحين ترى اليهن لا تبصر غير أفواجهن . وكلهن ذوات اسنان صفراء . فما دخلت فرشاة اسنان الى الدير قط . ان تنظيف الاسنان بالفرشاة بمثابة الدرجة العليا من سلم ادنى درجاتها خسارة النفس .

وكل منهن لا تضيف ، في كلامها ، شيئاً ما الى ضمير المتكلم المفرد ، فهن لا يملكن شيئاً ، ولا ينبغي أن يتعلقن بشيء . انهن يضمنن الاشياء كلها الى ضمير جماعة المتكلمين فتقول الواحدة منهن : حجابنا ، وسبعتنا . واذا تحدثت عن قميصها قالت : « قميصنا » . وفي بعض الاحيان كنّ يولعن بشيء من الاشياء الصغيرة ، بكتاب صلاة ، بأثر نفيس ، بمدالية مقدسة . فما ان يدركن انهن قد شرعن يهن بذلك

الشيء ، حتى يتعين عليهن اطرأحه . إنهن يتذكرن كلمة القديسة تيريز التي قالت لها سيدة عظيمة ، لحظة دخولها في رهبانيتها : « اسلمي لي ، يا أمّ ، ان ابعث في طلب نسخة من الكتاب المقدس أنا شديدة التعلق بها . فاجابتها بقولها : « آه ، أنت شديدة التعلق بشيء ! وإني افضل ، والحالة هذه ، ان لا تدخلني الى ديرنا . »

ومحظور على ابيّ منهنّ ان تنزوي - ان يكون لها بيت ، أو غرفة . إنهن يعشن في قلايا * مفتوحة . وحين تلتقي احداهن بالآخرى تقول : « الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس ! » فتجيبها زميلتها : « الى الأبد ! » وتجري المجاملة الاحتفالية نفسها حين تطرق احداهن باب الاخرى . فما إن يُمس الباب حتى يُسمع من الجانب الآخر صوت عذب يقول في عجلة بالغة : « إلى الأبد ! » ومثلّ جميع الطقوس يصبح هذا الصنيع ، بسبب من العادة ، ميكانيكياً . وقد تقول احداهن في بعض الاحيان « إلى الأبد ! » قبل ان تجد الاخرى متدماً من الوقت لكي تنطق بهذه الجملة الطويلة حقاً : « الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس ! » وعند راهبات الزيارة * تقول الراهبة التي تدخل : « *Avé Maria* » ** فتجيبها تلك التي دخل عليها في قلبيتها : « *Gratia plena* » *** . ذلك هو سلامهن ، وهو « بمثلّ نعمة » حقاً .

وفي كل ساعة من ساعات اليوم يقرع ناقوس كنيسة الدير ثلاث دقات إضافية . وعند هذه الاشارة تقطع الرثية ، والامهات الصوتيات ، والراهبات ذوات النذور ، والراهبات القائمت بالاعمال اليدوية ، والراهبات المستجديات ، وطلابات الترهّب - عند هذه الاشارة يقطعن ما كنّ يَقلّنه ، او ما كنّ يفعلنه ، او ما كنّ يفكرن فيه ،

* القلايا : جمع قلية ، وهي الصومعة .

** السلام عليك يا مريم .

*** المتألفة نعمة .

ويقلنَ جميعاً في صوت واحد ، اذا كانت الساعة الخامسة مثلاً : « في الساعة الخامسة ، وفي كل ساعة ، الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس ! » فاذا كانت الساعة الثامنة قلنَ : « في الساعة الثامنة ، وفي كل ساعة الخ ... » وهكذا ، وفقاً للساعة كائناً ما كانت .

وهذه العادة ، المقصود بها أن تقطع التفكير وأن تردّه دائماً الى الله ، معروفة في كثير من الرهبانيات . ولكن الصيغة هي التي تختلف لبس غير . وهكذا فانهم في رهبانية « الطفل يسوع » يقولون : « في هذه الساعة ، وفي كل ساعة ، فليُضرم حبُّ يسوع فؤادي ! »

وراهبات مارتن فيرغا البينديكتيات – البرنارديات ، اللواتي كنَّ خبيسات « بيكبوس الصغير » لحسين سنةً خلت ، ينشدنَ قداساتهنَّ الاحتفالية في نبراتٍ ثقيلة ، وترتل كنسيّ صافٍ ، رافعات أصواتهن دائماً طوال القداس . وحيثما وجدت في كتاب القداس نجمةً فاصلة ، يقفنَ ويقلنَ في صوت خفيض : « يسوع – مريم – يوسف » . وفي الصلاة على الميت يُنشدنَ في نبرة منخفضة الى درجة يكاد يتعذر على الاصوات النسائية ان تهبط اليها . وإنما يحدث ذلك اثرأ مؤلماً فاجعاً .

وكانت راهبات « بيكبوس الصغير » قد جعلنَ كهنيّاً تحت مذهبهن المرتفع لدفن من يتخطّفه الموت من اعضاء الرهبانية . والحكومة ، كما كنَّ يسمّينها ، ما كانت لتجيز وضع الجثث في هذا الكهنيّ . وهكذا كنَّ يفارقن الدير عند الوفاة . وكان ذلك يحجزُهن ويروّعن وكأنه مخالفة للشريعة .

وكنَّ قد فزنَ – وتلك تعزية ضئيلة – بامتياز يتبع لهنّ أن يُدفنَ في ساعة مخصوصة ، وفي مكان مخصوص في مقبرة « فوجيرار » القديمة الواقعة في ارض كانت من قبل ملكاً لرهبانيتها .

وكل خميس يسمع هؤلاء الراهبات القداس الصارخ ، وصلاة الماء ، وجميع الصلوات ، فعِلهنّ يوم الأحد من كل اسبوع . والى هذا ،

فهن يتقيدن في ضبط كليّ بجميع الاعياد الصغيرة التي لا يعرفها أبناء الحياة الدنيا ، والتي كانت الكنيسة سخية بها في ما مضى في فرنسا ، ولا تزال سخية بها في اسبانية وإيطالية . ولا نهاية لذهابهن الى الكنيسة . أما عدد صلواتهن والمدة التي تستغرقها فليس ثمة ما يمكننا من أن نقدم فكرةً حسنة عنها خيراً من ان ننقل هذه الكلمة الساذجة التي صدرت عن واحدة منهن : « ان صلوات طالبات التوبه مروّعة ، وصلوات الراهبات الحديثات العهد بدخول الدير أسوأ ، وصلوات الراهبات ذوات النذور أسوأ وأسوأ . »

ومرةً كل اسبوع يلتئم مجلس الراهبات ، فتدير الرئيسة الاجتماع ، وتشهده « الأمهات » . وتقبل كل راهبة بدورها ، وتزكع على الحجر وتعتوف ، في صوت عالٍ ، أمامهنّ جميعاً ، بالآثام والآثام التي ارتكبتها في اثناء الاسبوع . وتتشاور « الأمهات » ، إثر كل اعتراف ويعلنّ العقوبة جهاراً .

وبالإضافة الى الاعتراف العلني الذي يحتفظن له بجميع الاخطاء الخطيرة ، بعض الشيء ، كان عندهن للاخطاء غير المميّنة ما يسمينه « عقاب الخطيئة » . وإنما يقضي ذلك العقاب بأن تنطرح الراهبة على وجهها ، أثناء الصلاة ، أمام رئيسة الدير حتى تشير هذه الاخيرة - التي لا تتحدث عنها الراهبات إلا بقولهنّ « أمّنا » - الى الراهبة المعاقبة ، بضربة رفيقة على كرسيها الخشبي ، أنّ في ميسورها ان تنهض . ويُنزّل « عقاب الخطيئة » بالراهبة لائقه الاسباب ، كأن تكسر كأساً ، او تمزق حجاباً ، او تتأخر في الصلاة بضع نوان على نحو غير اراديّ ، او تخرج على اللحن في الكنيسة - إن أياً من هذه الآثام يكفي لانزال « عقاب الخطيئة » . و « عقاب الخطيئة » تلقائيّ مثلاً بالمتة . فالمدنية

نفسها (وهذه الكلمة هي في محلّها من وجهة النظر الاشتقاقية *) هي التي تحكم نفسها ، وهي التي تُنزل العقاب بنفسها . وفي الاعياد وأيام الأحد تنشد الصلوات اربع من الامهات المرتلات امام مِقرأ كبير ينظم اربعة مقارء فرعية . وذات يوم استهلت احدى الامهات المرتلات زموراً يبدأ بـ *Ecce* ، وبدلاً من ان تلفظ *Ecce* لفظت هذه العلامات الموسيقية الثلاث في صوت مرتفع : *ut , si , sol* ولقد خضعت ، بسبب من شروء الفكر هذا ، لعقاب استغرق فترة الصلاة بكاملها . وبما جعل الغلظة ضخمة جداً أن مجلس الراهبات لم يتالك عن الضحك عند حدوثها .

وحين تُدعى احدى الراهبات الى غرفة الاستقبال ، ولو كانت الرئيسة نفسها ، فأنها تُسدل حجابها ، كما نذكر ، على نحو لا يُبدي من وجهها غير الفم .

والرئيسة وحدها تملك حق الاتصال بالغرباء . أما سائر الراهبات فلا يستطعن أن يَرَيْنَ غير اقربائهنّ الأذنين ، وفي مناسبات فادرة جداً . واذا اتفق ان وفد شخص ما ليرى راهبة كان يعرفها او يحبها قبل دخولها الدير اقتضى ذلك مفاوضة رسمية . فاذا كان الزائر امرأة فقد يُجّاز لها هذا في بعض الاحيان . وعندئذ تُقبل الراهبة ، فتتحدث اليها المرأة من خلال المصاريع التي لا تُفتح أبداً إلا للأمّ او لأخت . ولا نحتاج الى القول ان الزائرين من الرجال لا يحظون بذلك الاذن البتة .

ذلك هو نظام القديس بينوا ، وقد جعله مارتن فيرغا اكثر صرامة .

إن هؤلاء الراهبات لسن مرحات ، متورّدات ، فاضرات ، شأن فتيات الرهبانيات الاخرى عادة . إنهن شاحبات الوجوه ، آخذات باسباب الجِدِّ . وبين سنة ١٨٢٥ وسنة ١٨٣٠ أصيبت ثلاث منهن بالجنون .

* على اعتبار ان كلمة « الخطيئة » او « عقاب الخطيئة » *Coulpe* وكلمة المذنب *Coupable* مشتقتان في الفرنسية من جذر واحد ، كما ترى .

ضروب من القسوة والصرامة

وتسلخ المرشحة لدخول الدير سنتين على الأقل ، بوصفها طالبة ترهب ،
واربع سنوات في الغالب قبل ان تصبح عضواً في الرهبانية . ثم تقضي
اربعة سنوات أخرى بوصفها راهبةً مستجدة . ونادراً ما تعلن النذور النهائية
قبل ثلاث وعشرين سنة أو اربع وعشرين سنة . إن راهبات مارتن
فيرغا البرنارديات - البنيديكتيات لا يقبلن في رهبانيتهن أرملة ما .
وهن يخضعن انفسهن ، في قلاياهن ، لضروب من الأمانة المجهولة التي
التي لا يحق لمن أن يتحدث عنهما أبداً .

ويومَ تمتّ الراهبة المستجدة نذورها الرهبانية تجلّي في أحسن زينة ،
وتجلى رأسها بالزهر الأبيض ، ويصقل شعرها ويجعد . ثم إنها تكبّ
على وجهها ، ويُنشر فوقها حجاب كبير أسود ، وتُنشد صلاة الموتى .
وعندئذ تنقسم الراهبات صفتين ، يمرّ أحدهما على مقربة منها قائلاً في
نبرة ناعمة : « لقد ماتت اختنا ! » ، فيجيبه الآخر في صوت مرغان :
« إنها تحيا في السيد المسيح ! »

وفي الفترة التي ترقى إليها هذه القصة ألحقت بالدير مدرسة داخلية ، تضم عدداً من الفتيات النزيلات ، كان معظمه من الموصرات . وكانت من أبرز هؤلاء الآنستان « دو سانت أولير » و « دو بيليسين » ، وفتاة انكليزية تحمل اسم « تالبوت » الكاثوليكي الشهير . وإنما شئت هاته الفتيات - اللواتي نشأتهن الراهبات بين أربعة جدران - على الخوف من العالم ومن العصر . فقد قالت احدهن لنا ذات يوم : « إن النظر الى حصباء الطويق جعلني اوتجف من قمة رأسي الى اخص قدمي » . وكن يرتدين ملابس زرقاء ، ويعتبرن بقلنسوة بيضاء ، ويزين صدورهن بصلبان من فضة او نحاس مذهب . وفي بعض الاعياد الكبرى ، وبخاصة يوم عيد القديسة مارتا ، كان يُسمح لهن كنعمة عظيمة وسعادة قصوى ، أن يرتدين ملابس الراهبات ويؤدين صلوات القديس بينوا وطقوسه يوماً كاملاً . وفي البدء كانت الراهبات ذوات النذور يُعرهن ملابسهن السوداء . ولكن ذلك بدا مدنساً للقديسات ، فحظرت الرئيسة . ولم 'تُحز' هذه الأعادة إلا للراهبات المستعدات . وبما يلفت النظر أن هذا التمثيل - الذي كان يُتسامح به ويُشجع في الدير بروح تبشيرية خفية من غير شك ، ولكي يُغرس في نفوس هؤلاء الفتيات الصغار حب قبلي لل ملابس المقدسة - كان متعة حقيقية وسأوى صحيحة للطالبات . كن يتلهين به ليس غير . كان شيئاً جديداً ، كان تغييراً للجو . وإنما لسيبان طفليان ساذجان لا يوفقان على أية حال الى جعلنا نفهم ، نحن الدنيويين ، تلك السعادة التي ينطوي عليها الامساك بمنضحة الماء المقدس ، والوقوف ساعات وساعات على القدمين ابتغاء الانشاد على نحو رباعي امام مقراً من المقاري .

والطالبات يخضعن لجميع طقوس الدير ، خلا ضروب التقشف والأمانة . وهناك فتيات 'عدن' الى العالم ؛ وعلى الرغم من أنهم سلخن عدة سنوات من الزواج فانهم لما يوفقن الى الاقلاع عن عادة القول في سرعة بالغة كلما قرع امرؤ بابهن : « إلى الابد ! » . ومثل الراهبات ، كان

محظوراً على الطالبات الداخليات ان يرين احداً غير انسابهن ، في غرفة الاستقبال . وحتى أمهاتهن لم يكن يجاز لهن ان يعاتقنهن . وحسبك دليلاً على الشدة التي اصطنعت في تطبيق هذه القاعدة ان فتاة زارتها أمها مصطحبةً اختاً لها صغيرة في الثالثة من العمر . وبكت الفجأة ، فقد كانت شديدة التوق الى تقبيل اختها . مستحيل . والتمست ان يُسمح للطفلة بأن تُمَرَّ يدها الصغيرة ، على الاقل ، من خلال القضبان الحديدية لكي يكون في ميسورها ان تقبّلها . ولكنهن أبينَ ذلك عليها ، وفي نبرة تكاد ترشح بالسخط .

مباهج

ومع ذلك فقد ملأت الفتيات الصغيرات هذا البيت المهيب بذكرات
قائمة .

ففي بعض الساعات ، كانت الطفولة تلتصق في هذا الدير . لقد دقت
ساعة الاستراحة ، ودار بابٌ على مفاصله . وقالت الطير : حسن !
هوذا سرب من الفتيات الصغيرات ! إن فيضاً من الفتوة قد أغرق هذه
الحديقة التي نخترقها ممرات على شكل صليب ، مثل كفن من الأكفان .
وإن وجوهاً مشعة ، وجباهاً بيضاء ، وعيوناً ساذجة تطفح بالضياء
البهيج ، وضروباً من الفجر مختلفات ، قد تناثرت في تلك الظلمة .
فبعد ترنيل المزامير ، وقرع النواقيس ، ودق أجراس الحزن ، وأداء
الصلوات انفجر ، فجأةً ، أزيز هؤلاء الفتيات الصغيرات أحلى وأعذب
من أزيز النحل . لقد فُتح قفير الجدَل ، ولقد حملت كلٌ عسلها .
لقد لعبن ؛ لقد نادَيْنَ ؛ لقد شكَّكن جماعات ؛ لقد ركضن .
وهذرت في الزوايا أسنان صغيرة جميلة بيضاء . ومن بعيد راقبت
الحُجُبُ ضحك الضاحكات : ظلال تتجسّس على الأشعة ؛ ولكن ما
ضرهن ! إنهن يتلألأن ويضحكن . وهذه الجدوان الأربعة المحزونة
كانت لها لحظات من الافتتان أيضاً . لقد شاركت ، هي الأخرى -
وقد أضيئت على نحو باهت بما انعكس عليها من ابتهاج غامر - في
دوران النحل العذب هذا . وكان ذلك أشبه شيء بوابل من الرياحين
يهطل على هذه الجنائز . لقد أخذت الفتيات الصغيرات بأسباب المرح
والعبث تحت أعين الراهبات ؛ إن نظرات العصمة لا تُزعج البراءة .
وهكذا ، فبفضل هؤلاء الاطفال كانت ثمة ساعة غير متصّعة وسط

جمهرة من الساعات العابثة الصارمة . لقد وثبت الصغيرات ، ورقصت
الكبيرات . ففي هذا الدير امتزجت البهجة بالسأم . ولم يكن ثمة شيء
احفل بالفتنة والبهاء من هذه النفوس الناضرة . ولو قد رأى هرمير
هذا المشهد إذن لضحك مع بيرو* ولقد كان في هذه الحديقة السوداء
من الصبا ، ومن الصحة ، ومن الضجة ، ومن الصياح ، ومن السعادة
ما يكفي لازالة التجمعات عن وجوه السيدات المعجَّات جميعاً ، سواء
منهن عجائز الملحمة او عجائز الحكاية ، عجائز العرش او عجائز الكوخ ،
من هيكوب** الى « الأوزة الأم » ***

وفي هذا البيت ، اكثر من أيما مكان آخر في ما يبدو ، كانت
تسمع « نفثات الاطفال » هذه التي تمور بالطلاوة والتي تجعل المرء
يضحك ضحكاً حافلاً بالتفكير . فضمن هذه الجدران المائتة الأربعة
صاحت طفلة في الحامسة من عمرها ذات يوم : « أماء ! إن فتاة كبيرة
قالت لي اللحظة إني لن أبقى هنا ، بعد ، اكثر من تسع سنوات
وعشرة أشهر . ما أعظم سعادتي بذلك ! »

وهناك ، ايضاً ، دار هذا الحوار المأثور :

احدى الامهات الصوتيات . - « لماذا تبكين ، ابنتي الطفلة ؟ »
الطفلة (وعمرها ست سنوات) متهددة . - « لقد قلت لأليس
إني اعرف درس تاريخ فرنسا . فقالت لي بل انت لا تعرفينه . وأنا
اعرفه حقاً . »

* Charles Perrault (١٦٢٨ - ١٧٠٣) كاتب فرنسي وضع عدة حكايات عن
الجن خلدت اسمه .

* Hécube زوجة بريام ، وام هيكتور وباتريس وغيرها . وقد خسرت في
خلال حرب طروادة جميع اولادها تقريباً البالغ عددهم تسعة عشر ، ورأت زوجها
المجروح بريام وزوجها بوليكسين وابنتها وحفيدها يذبحون تحت عينها ...
*** هي الراوية الخرافية لحكايات بيرو الدائرة كلها حول الجن ، وقد نشرت
هذه الحكايات اول مرة عام ١٦٩٧ .

- أليس (وعمرها تسع سنوات) . - « لا ؛ إنها لا تعرفه . »
 الأم . - « كيف ذلك ، يا بُنيتي ؟ »
 أليس . - « لقد قالت لي ان أفتح الكتاب عند أي موضع منه ،
 وأن أسأله أي سؤال من أسئلة الكتاب ، قائلة " إن في استطاعتها ان
 تجيب عنه . »
 - « ثم ماذا ؟ »
 - « إنها لم تجب عن السؤال . »
 - « حسن . ماذا سألتها ؟ »
 - « لقد فتحت الكتاب كيفما اتفق ، طبقاً لقولها ، ووجهت إليها
 اول سؤال وقعت عليه . »
 - « وما كان ذلك السؤال ؟ »
 - كان : « وما الذي حصل في ما بعد ؟ »
 وهناك ، ايضاً ، أبدت هذه الملاحظة المبيقة حول ببغاء نعمة
 بعض الشيء كانت لاحدى السيدات العاملات في المدرسة الداخلية :
 - « أليست لطيفة ؟ إنها تأكل أعلى قطعة الخبز المدهونة بالزبدة
 مثل سيدة من السيدات ! »
 ومن فوق بلاطة من بلاطات هذا الدير التَّقَط هذا الاعتراف ،
 الذي كتبته مقدماً ، لكي لا يُنسى ، خاطئة صغيرة في السابعة من
 العمر :
- « أبت ، أنا اهتم نفسي بأني كنت بخيلة .
 « أبت ، أنا اهتم نفسي بأني قد زينت .
 « أبت ، أنا اهتم نفسي بأني رفعت عيني نحو الرجال . »
 وفوق مقعد من مقاعد هذه الحديقة المعشوشبة ارتجل هذه القصة فم
 وردتي في السادسة من العمر ، وسمعتها أعين زُرُق في الرابعة والخامسة
 من العمر :

- وكانت ثلاثة ديوك صغار تعيش في بلد مليء بالازهار . فقطعت
الديوك تلك الازهار ووضعتها في جيوبها . وبعد ذلك قطعت الديوك
الأوراق ووضعتها في 'لعبها' . وكان في البلد ذئب ، وكان فيه غابات
كثيرة . وكان الذئب في الغابات ، ولقد أكل الديوك الصغار . ،
وكذلك ، هذه القصيدة الاخرى :

- « كانت هناك ضربة عصا .

« إن بوليشينيل * هو الذي سدد بها الى المرة .

« ولم 'يفد' ذلك شيئاً . ولكنه أوجعها .

« ثم جاءت سيده فوضعت بوليشينيل في السجى . ،

وهناك ، ايضاً ، قيلت هذه الكلمات الرقيقة الممزقة للقلب على لسان
لقطة صغيرة كان الدير ينشئها ابتغاء وجه الله . لقد سمعت الفتيات
الاخريات يتحدثن عن امهاتهن فهممت في زاويتها قائلة :

- « أما أنا فأنا أمي لم تكن هناك عندما 'ولدت' ! »

وكانت في الدير بوابة بدينة كان المرء يراها دائماً تجتاز الاروقة في
سرعة ، حاملةً حزمة مفاتيحها ، وكان اسمها الاخت آغاثة . وكانت
الفتيات الكبيرات الكبيرات ، ومن اللواتي يزيد عمرهن على العاشرة ،
ينادينها آغانوكليس ** .

وكانت قاعة الطعام غرفة واسعة متطاولة ومربّعة لا ينفذ اليها النور
إلا من نافذة رواق ذات حنية نائنة النقش في مستوى الحديقة . وكانت
مظلمة رطبة ، وملأى - كما قالت الفتيات الصغيرات - بالبهائم . ذلك
بأن جميع المواطنين المجاورة كانت تزودها بأنصبتها من الحشرات . ولقد
أطلق على كل من زواياها الأربع ، في لغة الطالبات ، اسم 'خاص'

« عاتم على المهرج ، عند الفرنسيين ، ويقابله في عامتنا « كراكوز » و«عواظ» .

** Agathoclès طاغية سيراكيوس إحدى مدن صقلية . وكان عدواً لدوداً للقرطاجيين

(٣٦١ - ٢٨٩ ق . م)

معتبر . فهناك زاوية العناكب ، وزاوية الأساريح * ، وزاوية قوارض الحشب ، وزاوية الصراصير . وكانت زاوية الصراصير قرب المطبخ ، وكانت تحظى بأجلال كثير ، بسبب من انها كانت أدفاً من سائر الزوايا . ومن قاعة الطعام ، انتقلت هذه الاسماء الى المدرسة وساعدت هناك ، كما ساعدت في كلية مازاران القديمة ، على التمييز ما بين أربع أمم . وكانت كل طالبة تنتمي الى احدى هذه الأمم الأربع تبعاً للزاوية التي تجلس فيها الى المائدة في غرفة الطعام . وذات يوم ، فيما كان كبير الاساقفة يقوم بزيارته الرعائية ، رأى فتاةً صغيرة جميلة متوهجة الحدين ذات شعر أشقر فاتح تدخل الى البصف الذي كان يمرّ به . فسأل طالبةً اخرى ، وكانت سمراء ساحرة ذات وجنتين نضرتين ،

اتفق ان كانت قريباً منه :

- « مَنْ هذه الفتاة الصغيرة ؟ »

- « إنها عنكبوت ، يا صاحب السيادة . »

- « عجيب ! وتلك ؟ »

- « إنها صرصور . »

- « وتلك ؟ »

- « إنها أسروع . »

- « حقاً . ومن أنت ؟ »

- « انا قارضة من قوارض الحشب ، يا صاحب السيادة . »

ولكل بيت من هذا الضرب فرائده . ففي مطلع هذا القرن كانت إيكووين موطناً من تلك المواطن الجميلة الصارمة حيث نمت ، في ظل يكاد يكون جليلاً ، طفولة الفتيات الناضرات العود . ففي إيكووين يميّز عند تنظيم موكب القربان المقدس بين العذارى وزارعات الرياحين . وكانت قمة ايضاً « المظلات » و « المباخر » ، وقد حمل الاولون حبال

* دود ايضاً الابدان ، ينسلخ فصير فراشاً . واحده أسروع ويسروع .

المظلة ، وأرجع الآخرون المباخر امام القربان المقدس . وكانت الرياحين تُعاد الى زارعاتها لا ينزعهن في ذلك احد . وكانت اربع « عذارى » يشبهن في مقدمة الموكب . وفي صبيحة اليوم العظيم لم يكن من غير المألوف أن تسمع هذا السؤال في حجرة النوم :

- « ايكن عذراء ؟ »

وتروي السيدة كامبان ان « فتاة صغيرة » في السابعة من العمر قالت لـ « فتاة كبيرة » في السادسة عشرة ترأست الموكب ، على حين ظلت هي ، الفتاة الصغيرة ، في المؤخرة :

- « أنت عذراء ، أنت . اما أنا فلت كذلك ! »

٥

شواغل

وفوق باب حجرة الطعام كُتبت باحرف سوداء ضخمة هذه الصلاة التي كانت تدعى « الصلاة الربانية البيضاء » ، والتي كانت تلك القوة على ان تقود الناس الى الجنة مباشرة :

- « الصلاة الربانية البيضاء التي صاغها الله ، والتي قالها الله ، والتي وضعها الله في الجنة . في الليل ، حين أويت الى الفراش ، أوجدت (كذا) * ثلاثة ملائكة مستلقين على سرير ، أحدهم عند قدم السرير ، والآخران عند مقدمه ، ومرم العذراء الطيبة في الوسط ، وقد قالت لي إن علي أن أنام ، وان لا ارتاب في شيء . إن الرب الرحيم

. « في الاصل Je trouvis بدلاً من Je trouvais اي « وجدت » فالحظاً يتمثل في كيفية صياغة الفعل الماضي من « وجد » ولا لم يكن من سبيل الى التعبير عن ذلك في العربية فقد رأينا أن تؤدي المعنى المطلوب بوضع فعل « أوجد » بدلاً من فعل وجد ، أي استعمال صيغة الفعل الرباعية بدلاً من صيغته الثلاثية .

هو ابي ، والعذراء الطيبة هي أمي ، والرسول الثلاثة هم إخوتي ،
والعذارى الثلاث هن أخواتي . إن القميص الذي ولد فيه الاله ليلف
جسدي . وان صليب القديسة مارغريت مكتوب على صدري . وتقضي
السيدة العذراء عبر الحقول ، باكية من اجل الرب ، وتلتقي بالسيد
القديس يوحنا . سيدي القديس يوحنا ، من اين آقبلت ؟ لقد آقبلت من
« آف سالوس » . انت لم تَرَ الرب الاله ، اليس كذلك ؟ إنه على
شجرة الصليب ، متدلي القدمين ، مسرّ اليدين ، وعلى رأسه قبة صغيرة
من الشوك الابيض . إن كل من يردد هذا ثلاث مرات عند المساء ،
وثلاث مرات عند الصباح ، يفوز بالجنة في آخر الامر .

وفي سنة ١٨٢٧ كانت هذه الصلاة المميّزة قد طمست تحت طبقة من
الورق مثلثة ألصقت على الجدار . وهي تذوى حتى هذه الساعة في ذاكرة
بعض فتيات ذلك العهد الصغيرات ، وقد امسين الآن سيدات عجائز .

وكان قتال ضخم من غائيل المصلوب معلق على الباب ، يتمّ زخرف
غرفة الطعام هذه التي كان بابها الوحيد ينفّث ، كما نحسب اننا قد ذكرنا ،
على الحديقة . وكانت طاولتان ضيقتان ، يحيط بكل منهما مقعدان
خشيان ، تمتدان في خطين متوازيين من اقصى قاعة الطعام الى اقصاها .
وكانت الجدران بيضاء ، والطاولتان سوداوين ، فقد كان هذان اللونان
الجِدَادِيَانِ هما مظهر التنوّع الأوحَد في الاديرة . وكانت وجبات الطعام
خشنة ، وكانت اغذية الصغيرات أنفسهن صارمة . فكانت الوجبة المترفة
عبارة عن طبق واحد يتألف من شيء من اللحم والحضر مجتمعين ، او
من سمك مملح . بيد ان هذه اللائحة الموجزة ، التي تُخص بها الطالبات
الداخليات وحدهن ، كانت شيئاً نادراً جداً . وانما كانت الفتيات
الصغيرات يأكلن في صمت ، تحت عيني « الأم » المكلفة مراقبتهن ذلك
الاسبوع ، والتي كانت تفتح وتغلق ، بين الفينة والفينة ، وفي ضجة ،
كتاباً خشبياً ، كلما خطر ببال ذبابة ان تحوّم أو تطنّ خلافاً للقاعدة .

والواقع ان هذا الصمت كان يُنبئ بِسَيَرِ القديسين تتلى بصوت عال من كرمي صغير ذي مِقرأ قائم عند قدمي تمثال من تماثيل المصلوب . وكانت الفارئة طالبة كبيرة تختار لاداء هذه المهمة طوال اسبوع كامل . وكانت توضع على الطاولة المجردة ، وعلى مسافات بعينها ، آنية فخارية بموهة كانت كل طالبة تغسل فيها قدحها المعدني وصحنها بنفسها ، وكن أحياناً يُلقين في تلك الآنية بعض النفايات ، كقطعة من لحم قاسية او سمكة فاسدة ؛ وكان ذلك يعرضهن للعقاب . وكانت تلك الآنية تدعى البرك المستديرة .

وكانت الطفلة التي تقطع حبل الصمت « ترسم بلسانها صلياً » . ابن ؟ على الارض . كانت تلصص ارض الحجر . كان التراب ، تلك النهاية الواضعة حدّاً لجميع المباح ، يُكَلِّف بمعاقبة أكمام الرياحين الصغيرة المسكينة هذه حين تُتهم بالزقزقة .

وكان في الدير كتاب لم يطبع منه في ايما يوم من الايام غير نسخة وحيدة محظورة قراءتها . ذلك هو نظام القديس بينوا ؛ مره ينبغي ان لا تنفذ اليه عين من الاعين الدنيوية غير الطاهرة .

Nemo regulas seu, constitutiones nostras, externis communicabit .

ووفقت الطالبات ، ذات يوم ، الى مرقعة هذا الكتاب ، فأخذن يقرأنه في لهفة قراءة كثيرة ما قوطعت بالحرف من ان تقاجشن احدى الراهبات على تلك الحال ، وهكذا اضطررن الى إغلاق المجلد في سرعة بالغة . إنهن لم يفزن من هذه المخاطرة الكبيرة بغير متعة ضئيلة . ولقد اعتبرن بعض الصفحات المبهمة الباحثة في آثام الصبية الصغار « اكثف صفحات الكتاب إمتاعاً » .

لقد لعبن في ممر من ممرات الحديقة نهضت على طولها بضع شجرات مشمرة مهزولة ، ورغم المراقبة الشديدة وقوة العقوبات كن يوفقن ، « كلام لانيي مناء : لا يجوز لاحد أن يروح بأنظمتنا وقوانيننا الى الغرباء .

في بعض الاحيان ، حين تهزّ الريح الاشجار ، الى ان يلتقطن ، خلسةً تفاحةً
فجةً ، أو مشمشةً فاسدةً ، أو إجاصةً يسرح فيها الدود . وسوف
أترك الكلام الآن لرسالة موجودة بين يديّ ، رسالة كتبتها منذ خمس
وعشرين سنة طالبة سابقة ، هي اليوم السيدة دوقة ... ، إحدى نساء
باريس الأكثر أناقة ، فقد جاء في هذه الرسالة بالحرف الواحد : « كانت
الواحدة منا نخبيء إجاصتها أو تفاحتها ما وجدت الى ذلك سيلاً . حتى
إذا صعدنا لنضع الشراشف على الأسرة في انتظار طعام العشاء وضعناها
تحت ومبادتها ، ثم أكلتها ليلاً في سريرها . فإذا لم تتمكن من ذلك
أكلتها في الكنيف . » كانت تلك إحدى مُتعهنّ الأكثر حيوية .

وذات مرة ، عند زيارة رئيس الاساقفة للدير ايضاً ، راهنت إحدى
الفتيات الصغيرات ، الآنة بوشار ، وهي متعاهرة من امرأة
مونغورينسي ، على انها سوف تسأله ان يمنح الطالبات عطلة يوم ، وهو
شيء مروع في مجتمع كالح الى هذا الحد . وقبّل الرهان ، ولكن
أباً من أولئك اللواتي اشتركن فيه لم تعتقد أنها سوف تجرؤ على ذلك .
وحين سنحت الفرصة ، فيما كان رئيس الاساقفة يستعرض الطالبات
انبثقت الآنة بوشار من الصفوف ، مثيرةً دعر رفيقائها التي لا يوصف ،
وقالت : « مونسينيور ، عطلة يوم واحد . » وكانت الآنة بوشار
طويلة القامة ، ناضرة العود ، ذات وجه ورديّ صغير ليس في العالم
اجل منه . وابتمس مسيو دو كيلين وقال : « وكيف ، ابتها الطفلة
العزيزة ، تطلبين عطلة يوم واحد ليس غير ؟ خذي ثلاثة ايام ، اذا
شئت . أنا أُمْنَحُكَ عطلة ثلاثة ايام . » ولم تستطع الرئيسة ان تفعل
شيئاً ، فقد تكلم رئيس الاساقفة . كانت فضيحةً بالنسبة الى الدير .
ولكنها كانت بهجةً بالنسبة الى المدرسة الداخلية . وفي ميسور القراء ان
يتخيلوا النتيجة .

بيد ان هذا الدير الفظ لم يكن من شدة التحصين بحيث تعجز حياة

العالم الخارجي العاطفية ، وبحيث تعجز المأساة وتعجز المغامرة الحبسية نفسها ، عن النفاذ اليه . ولا ثبات ذاك نجترى بالنص ، في اختصار ، على واقعة حقيقية لا وراء فيها ، وإن لم يكن لها في ذاتها صلة بقصتنا هذه إذ لا يربطها بها أيما خيط على الإطلاق . وإنما نشير الى هذه الواقعة لكي نتم صورة الدير في ذهن القارئ ، ليس غير .

حوالي تلك الحقبة كانت في ذلك الدير امرأة غريبة ليست براهبة - امرأة كانت تعامل في احترام كبير ، وتدعى مدام آلبيرتين . إن احداً لم يكن يعرف عنها شيئاً غير أنها معتوهة ، وإن العالم الخارجي كان يفترض أنها ميتة . ولقد كان وراء هذه القصة ، كما قيل ، بعض الترتيبات المالية الضرورية لزواج ضخم .

كانت هذه المرأة البائسة الثلاثين من العمر أو تكاد ، السمراء المليحة ، تحدد بعينها السوداوين الواسعتين تحديقاً ضارباً . أكانت ترى ؟ لا أحد بدري . وكانت تنزلق انزلاقاً أكثر مما تمشي مشياً . وما كانت لتتكلم . ولم يكن الناظر إليها ليثق ثقةً كاملة من أنها تنفّس . فقد كان منحراها رفيقين شاحبين وكأنها لفظت اللحظة آخر نفس من أنفاسها . وكان لمس يدها شبه شيء بلنس الثلج . وكانت على رقة شبحية عجيبة . فحينما دخلت أوقعت البرد في أوصال الجمع . وذات يوم رأتها إحدى الراهبات مارة فقالت لزميلة من زميلاتها : « إن الإنسان ليحبسها ميتة . » فأجابتها هذه بقولها : « لعلها كذلك ! »

لقد رويت قصص كثيرة عن مدام آلبيرتين . كانت موضوع فضول الطالبات الداخليات الدائم . وكان في الكنيسة سدة تدعى الكوة . وفي هذه السدة ، حيث لم يكن يوجد غير فتحة مستديرة واحدة هي كوة من الكوى ، كانت مدام آلبيرتين تشهد الصلوات والخدمات الدينية . وكانت تستقل بذلك المكان عادةً ، لأن الواعظ أو الكاهن المحتفل بالقداس كان يرى من تلك السدة المرتفعة ، وهو امرٌ محظور

على الراهبات . وذات يوم ارتقى المنبر كاهن شاب ذو رتبة رفيعة هو دوق دو روهان ، عضو المجلس الاعلى الفرنسي ، الذي كان ضابطاً في فرقة « الفرسان الحمر » عام ١٨١٥ ، عندما كان أميراً لليون ، والذي توفي بعد ذلك ، عام ١٨٣٠ كاردينالاً ورئيس اساقفة ييزانسون . وكانت هذه اول مرة يعظ فيها مسيو دو روهان في دير بيكبوس الصغير . وكان من دأب مدام آلبيرتين ان تستمع الى العظات وتشهد الخدمات الدينية في صمت عميق وسكينة كاملة . اما في ذلك اليوم فأنها لم تكلم ترى مسيو دو روهان حتى نهضت نصف نهضة وصاحت وسط سكون الكنيسة الشامل : « ماذا ؟ أوغوست ؟ » وبُهِتت جماعة الراهبات كلها ، والتفتن الى الورا . ورفع الواعظ عينيه ، ولكن مدام آلبيرتين كانت قد ارتدت الى جودها الصامت . إن نفساً من العالم الخارجي ، إن الثاعة من حياة كانت قد مرت ، لحظة ليس غير ، أمام هذا الشكل الميت المتلوج ، ثم تلاشى كل شيء وانقلبت المجنونة ، كرة اخرى ، الى جنة .

ومع ذلك فان هاتين الكلمتين أطلقنا لسان كل قادرة على الكلام في ذلك الدير . فما اكثر الاشياء التي انطوت عليها تلك الـ « ماذا ؟ أوغوست ؟ » وما اكثر الالجابات ! فقد كان اسم مسيو دو روهان ، في الواقع ، هو أوغوست . وكان واضحاً ان مدام آلبيرتين تنتسب الى ارقى طبقة في المجتمع ، ما دامت قد عرفت مسيو دو روهان ، وانها كانت تحتل هي نفسها مكانة رفيعة ما دامت قد تحدثت بمثل هذه الدالة عن نبيل على مثل هذا العظم كله ، وانه كانت لها صلة ما به ، لعائنها صلة قرابة ، ولكنها حميمة جداً من غير شك ، ما دامت تعرف « اسمه الصغير » .

وكانت درقتان قاسيتان جداً ، هما مدام دو شوازيل ومام دو سيران ، كثيراً ما تزوران الدير ، الذي كان يفتح ابوابه لهما ،

من غير شك ، بفضل مكانتهن النسوبة الرفيعة ، فتوقعان الذعر الشديد في المدرسة الداخلية . فما ان تمر السيدتان العجوزان حتى ترتجف الفتيات الصغيرات البائسات وتخضعن اعينهن .

وفوق هذا ، فقد كان مسيو دو روهان ، من غير ان يدري ، موضوع انتباه الطالبات واهتمامهن . وكان قد عُيِّن في تلك الفترة بالذات ، بانتظار رفعه الى كرسي الاسقفية ، نائباً لرئيس اساقفة باريس . وكان من عادته ان يكثر من الجيء الى الدير لينشد في اثناء الخدمات الدينية المقامة في معبد راهبات بيكبوس الصغير . ولم يكن في ميسور أي من الحبيسات الصغيرات ان تراه بسبب من الستارة الصوفية الغليظة ، ولكنه كان ذا صوت عذب ، ورقيق بعض الشيء ، فما انقضت برهة حتى أصبحن يعرفنه ويميزنه من سائر الاصوات . لقد كان فارساً من حاشية الملك . والى هذا فقد قيل انه كان شديد الحب للزينة ، وإن رأسه كان مكسواً بشعر كستنائي جميل مصفّف دوائر دوائر ، وانه كان يتنطق بنطاق عريض متموج رائع ، وإن ثوبه الكهنوتي كان على نحو ليس له في الاناقة ضريب . لقد شغل الى ابعد الحدود جميع هذه الخيلات الفنية التي لا تزيد اعمار صاحباتها على الستة عشر ربيعاً . ان صوتاً ما لم ينفذ من الخارج الى قلب الدير ، ومع ذلك فقد تقضت سنة نفذ فيها اليه صوت فلوته او ناي . كان ذلك حدثاً ذا خطر ، ولا تزال طالبات ذلك العهد يذكرنه الى اليوم .

كان ناياً يعزف عليه شخص ما في جوار الدير ، وكان ذلك الناي يعزف اللحن نفسه دائماً ، وهو لحن غدا اليوم نسياً منسياً : يا حبيبتي زيتولبا ، تعالي وتربّعي على عرش روشي ! وكن يسمعه مرتين او ثلاث مرات يومياً .

وانقضت الفتيات الصغيرات ساعات في الاستماع الى ذلك اللحن ؛ واضطربت الامهات الصوتيات ؛ وعصف الدوار بالرؤوس ؛ وهطلت

العقوبات تَطالاً . ودام ذلك عدة أشهر . وتدلّثت الفتيات كلهن ، قليلاً أو كثيراً ، بحبّ الموسيقى المجهول . فقد تخيّلت كلّ منهن أنها زيتولبا . وكان صوت الناي يُقبل من ناحية شارع « دروا مور » . وكنّ على اتم الاستعداد لأن يقدر من كل شيء ، لأن يضحك بهن بكل شيء ، لأن يحاولن كل شيء ، لكي يَرَيْنَ ولو ثانية واحدة ليس غير - بل لكي يلمحنَ هذا « الشاب » الذي كان يعزف هذا العزف العذب على ذلك الناي ، والذي كان يتلاعب في الوقت نفسه ، من غير أن يدري ، بقلوبهنّ جميعاً . والواقع ان بعض الفتيات كن يهربن من باب خلفي ، ويصعدن الى الدور الثالث المطلّ على شارع « دروا مور » محاولات أن يرينه ، معرّضات أنفسهن لأيام بكاملها من العذاب . ولكن عبثاً . وذهبت إحداهن الى حدّ ان تمدّ ذراعها فوق رأسها من خلال القضبان الحديدية وتلوّح بمنديلها الأبيض . وخطّت فتاتان خطوةً أوسع في ميدان الجراءة . فقد وجدتا وسيلة للتسلق الى اعلى السطح ، فخطرتا بنفسيهما ، ووفقتا آخر الأمر الى رؤية « الشاب » . كان رجلاً عجوزاً مهاجراً ، مكفوف البصر مهدّماً ، يعزف على الناي في عِلْيَتِهِ قتلاً للضجر .

٦

الدير الصغير

كانت ضمن سور « بيكبوس الصغير » هذا ثلاثة أبنية متميّزة كل التميّز : الدير الكبير حيث تحيا الراهبات ، والمدرسة الداخلية حيث تنزل الطالبات ، وأخيراً ما كان يدعى الدير الصغير . وإنما كان هذا بناء منفصلاً ذا حديقة ، تنقسم السكنى فيه عدة راهبات عجائز ينتسبن الى

رهبانيات مختلفة ، بقايا أديارٍ خربتْها الثورة ؛ مجموعة من كل الألوان ، السوداء ، والرمادية ، والبيضاء ، من مختلف الجماعات وجميع الاصناف الممكنة ؛ وهو ما نستطيع ان ندعوه ، اذا جاز مثل هذا التزاوج بين الكلمات ، ضرباً من « الدير اللابس ثوباً متعدد الألوان كثوب المهرج » .

فمنذ عهد الامبراطورية أجيال جميع هؤلاء العوانس البائسات ، المشتتات ، المشتتات ، أن يجدن مَفزَعاً تحت أجنحة الراهبات البندكتيات - البوفارديات . وعينت الحكومة لمن جعلت صغيرة ؛ ولقد استقبلتْهن راهبات « بيكبوس الصغير » في لفقة . وكان ذلك خليطاً عجيباً . وكانت كل منهن تتبع نظامها الخاص . وفي بعض الاحيان ، كان يُجاز للطالبات ، كنسليّة كبرى ، أن يقمن بزيارتهم ، حتى لقد احتفظت هذه الذواكر الغضة ، في جملة ما احتفظت به ، بذكرى الأم باسيل الطاهرة ، والأم سكولاستيك الطاهرة ، والأم يعقوب .

ووجدت احدى هذه اللاجئات نفسها في بيتها تقريباً . كانت راهبة من راهبات « سانت أور » ؛ وكانت هي الراهبة الوحيدة التي تمثرت من بين المنتسبات الى تلك الرهبانية . وكانت دير راهبات « سانت أور » القديم يشغل في مطلع القرن الثامن عشر هذا البيت نفسه الذي امسى في ما بعد ملكاً لراهبات مارتن فيوغا البندكتيات .

واحق أن هذه الراهبة الطاهرة - المعدمة الى حد لم يمكّنها من ان ترتدي لباس رهبانيتها البهيّ ، وهو ثوب ابيض ذو وشاح قرمزي - كانت قد خلعتّه ، في تقوى ، على شخص خشيّ صغير كانت تربه لزاراتها في رضا وارتياح . حتى اذا حضرته المنية أوصت به للدير . في عام ١٨٢٤ كان قد بقي من هذه الرهبانية راهبة واحدة ، اما اليوم فليس باقياً منها غير دمية .

وبالاضافة الى هؤلاء الامهات الفاضلات كانت بضع عجائز من نساء العالم الخارجي قد حصلن من الرئيسة على إذن يجيز لهنّ ، مثل مدام

آليوتين ، ان يتسكن في الدير الصغير . وكانت بين هؤلاء مدام بوفور دوتبول ، والمركيزة دوفرين . واخرى لم تكن تعرف في الدير إلا بالضجة الهائلة التي اعتادت ان تحدثها وهي تمسك . وكانت الطالبات يسينها مدام فاكارميني * . . .

وحوالى سنة ١٨٢٠ او ١٨٢١ التمت مدام جينيليس ، التي كانت تحرر في ذلك العهد مجلة صغيرة تدعى « الجسور » ، الاذن باحتلال غرفة في دير بيكبوس الصغير . وأوصى دوق اورليان بقبولها . وضع الفقير بالطنين ، وارتعدت الامهات الصوتيات كلهن . فقد سبق لـ مدام جينيليس ان ألقت عدة روايات ، ولكنها اعلنت انها كانت اول من يكره هذه الروايات ، وبعد ذلك كانت قد انتهت الى مرحلة تقواها الضارية . وساعدها الله ، وساعدها الامير ايضاً ، فدخلت .

وما هي الا سنة اشهر او ثمانية اشهر حتى غادرت الدير ، مبررة ذلك بان الحديقة غير ظلية . واستبدت الطرب بالراهبات . فعلى الرغم من بلوغها من الشيخوخة فقد كانت لا تزال تعزف على القانون ، وفي براعة فائقة .

وعند مغادرتها الدير ، تركت طابعها في قليتها . فقد كانت مدام جينيليس مؤمنة بالحرفات ، مولعة باللغة اللاتينية . والواقع ان هاتين الكلمتين فقدتاما الينا صورة جانبية حسنة عنها . وبعد بضع سنوات ، كان لا يزال في ميسور المره ان يرى هذه الابيات اللاتينية الحسة الملصقة في خزانة صغيرة في قليتها حيث كانت تحفظ اموالها وجواهرها . وإنما كتبت هذه الابيات بخطها ، وبجبر احمر ، على ورقة صفراء ، وكانت تؤمن بأن في مقدورها ان تطرد اللصوص وتروهم .

* نحن الملاحظة ان لفظة Vacarmine في الفرنسية تفيد معنى الضجة والضوضاء والجلبة فكان الطالبات قد سمين تلك الراهبة « السيدة ضجة » .

*Imparibus meritis pendent tria corpora ramis:
Dismas et Gesmas , media est divina potestas ;
Alta petit Dismas , infelix , infima , Gesma .
Nos et res nostras conservet summa potestas .
Hos versus dicas , ne tu furto tua perdas .*

وهذه الابيات التي ترقى الى القرن السادس تجعل المرء يتساءل ،
أكان اسما لصي "جلجثة" * ديسماس ، و "جيسماس" ، كما يعتقد
الناس ، أم "ديسماس" و "جيسماس" ؟ وهذا الرعم الاخير
للكمة خليق به ان ينافي ما ادعاه الفيكونت دو جيسماس ، في القرن
الماضي ، من انه متحدر من اللص المشؤوم . و فرق هذا فقد كانت
الأيمان بأن هذه الابيات تضر وتنفع عقيدة "جوهريّة عند رهبانية
المضيفات ، او خادمات المرضى .

وكانت كنيسة الدير ، المشيدة على نحو يجعلها تفصل ، جهد الطاقة ،
ما بين الدير الكبير والمدرسة الداخلية ، مَعْبِداً مشتركاً ، طبعاً ،
للمدرسة الداخلية والدير الكبير والدير الصغير جميعاً . وحتى الجمهور ،
كان يُجَاز له الدخول اليها من شبه مَحَجَرٍ صحيّ " ينفّث على الشارع .
ولكن كل شيء كان يُنظَّم على نحو يجعل من المتعذر على ايّ من
اهل الدير رؤية وجهه من الوجوه الخارجية . تخيّل كنيسة تهيمن بدو
جَبَّارة على جوقة المنشدات فيها ، وتلوها بحيث لا تشكل ، شأنها في
الكنائس العادية ، امتداداً خلف المذبح ، ولكن شبه غرفة او كهف

* « هناك ثلاثة اجسام تتدل باستحقاقات مختلفة ،

ديسماس وجيسماس ، وبينهما السلطة الالهية ،

إن ديسماس يرتفع نحو الاعالي ، اما جيسماس فيهبط الى الهاوية ،

لتحافظ السلطة الالهية علينا وعلى ممتلكاتنا .

ردّد هذه الابيات إذا أردت ان لا يسرق اللصوص اموالك . »

** جلجثة ، أو موضع الججمة ، جبل قرب القدس ، صلب عليه يسوع المسيح .

ولما جلجثة هما اللسان اللذان جُمِل أحدهما عن يمينه ، والآخر عن يساره ، وصلبا

معه .

مظلم الى بين الكاهن ؛ تخيل هذه الغرفة وقد أوصدت بالاستارة البالغ ارتفاعها سبعة اقدام والتي تحدثنا عنها آنفاً ، وكُدّس في ظل هذه الستارة ، وعلى كراسي خشبية ، راهبات الجوقة الى اليسار ، والطالبات الى اليمين ، والراهبات القائمت بالاعمال اليدوية والراهبات المستعدات في المؤخرة تَفْزُ بفكرة ما عن راهبات « بيكبوس الصغير » حين يشهدن القداس . وكان هذا الكهف المدعو الجوقة ، يتصل بالدير من طريق مجاز ضيق . وكانت الكنيسة تستمد الضوء من الحديقة . وحين كانت الراهبات يشتركن في احتفالات دينية تفرض انظمتن عليهن الالتزام الصمت فيها ، كان الجمهور لا يحس بوجودهن إلا من خلال صوت المقاعد الكنسية المرتفعة حيناً ، المنخفضة حيناً آخر .

٧

بعض الصور المظلمة في هذا الظلام

في مدى الست السنوات التي تفصل عام ١٨١٩ عن عام ١٨٢٥ كانت رئيسة « بيكبوس الصغير » هي الآنسة دو بلومور ، الذي كان اسمها الديني الأم إينوسانت . كانت من أسرة مارغريت دو بلومور ، مؤلفة « سيور قديسي وهبانية القديس بينوا . » وكان قد أُعيد انتخابها للرئاسة . امرأة في نحو الستين ، قصيرة ، بدينة ، « تغني مثل القدر المصدوعة » كذلك تقول الرسالة التي سبق ان استشهدنا ببضعة اسطر منها . ولكنها كانت امرأة ممتازة ، وكانت الشخصية المبتهجة الوحيدة في الدير كله ، ومن أجل ذلك حظيت بأعظم الاحترام والاجلال .

وكانت الأم إينوسانت تشبه جدتها مارغريت ، مؤرخة الرهبانية

وعالمها . كانت حسنة الثقافة ، واسعة الاطلاع ، عالمة ، بارعة ، شديدة الشغف بالتاريخ ، محشوة باللاتينية ، متخمة باليونانية ، ملأى بالعبرية ، وراهباً أكثر منها راهبة .

وكانت نائبة الرئيسة راهبة اسبانية عجوزاً تكاد تكون مكفوفة البصر ، هي الام سينيوس .

وكانت ارفع « الامهات الصوتيات » مقاماً الأم سانت هونورين ، الحازنة ، والام سانت جيتروود ، معلمة الراهبات المستجندات الاولى ، والأم سان آنج ، المعلمة الثانية ، والأم « البشارة » ، القبة على الكنيسة ، والأم سان اوغوستين ، الممرضة ، وهي الحبيثة الوحيدة في الدير كله ؛ ثم الأم سانت ميشيل (الآنسة غوفان) وكانت غضة العود ذات صوت ساحر ؛ والأم ديزانج (الآنسة دروييه) التي كانت من قبل في دير « راهبات الرب » وفي « دير الكنز » بين « جيزور » و « مانبي » ؛ والأم سان جوزيف (الآنسة دو كوغلودو) ؛ والأم سانت آديلايد (الانسة دو فيرني) والأم « الرحمة » (الآنسة دو سيفيوانت التي لم تستطع احتمال اسباب التقشف والامانة) ؛ والأم « الرأفة » (الآنسة دو لا ميلتيير التي قبلت في الستين من عمرها ، رغم النظام ، وكانت غنية جداً ؛ والأم « العناية الالهية » (الآنسة دولودينيير) ؛ والأم « مقدمة العذراء » (الآنسة سيغويانزا) التي كانت رئيسة في عام ١٨٤٧ ؛ واخيراً الأم سانت سيليني (اخت المثال سيرانشي) وقد اصببت بالجنون ؛ والام سانت سانتال (الآنسة دو سوزون) وقد اصببت بالجنون ايضاً .

وكان بين اكثرهن جمالاً ، ايضاً ، فتاة فاتنة في الثالثة والعشرين ، من جزيرة بوربون ، وكانت تتحدر من سلالة الفارس روز . ولقد عرفها الناس في العالم الخارجي باسم الآنسة روز ، على حين دعت هي نفسها الأم « انتقال العذراء » .

وكانت الأم سانت ميشيل ، المكلفة بالانشاد والجوقة ، تفيد من

الطالبات ، بسرور ، في هذه المهام . كان من دأبها ان تأخذ سُليماً موسيقياً كاملاً منهنّ ، يعني سبع طالبات ، من سنّ العاشرة حتى السابعة عشرة ، متناسقات الاصوات والقامات ، وتدعوهم الى الانشاد وافقاتٍ ، ينتظمنّ صفّ اتخذن مواقعهن فيه وفقاً للسنّ ، فهو يبدأ بالصغرى وينتهي بالكبرى . وكان ذلك يعرض على الانظار شيئاً اشبه بشبّابةٍ من الفتيات الصغيرات ، ضرباً من مصفارٍ حيٍّ مصنوع من ملائكة .

وكانت الطالبات يُخبِئْنَ من بين الراهبات القائنات بالأعمال البدوية ، بخاصة ، الاخت سانت اوفرازي ، والاخت سانت مارغريت ، والاخت سانت مارثا ، التي كانت مضطربة العقل ، والاخت سان مبشيل التي كان أنفها الطويل يُضحكهنّ .

وكان اولئك النسوة جميعاً لطيفاتٍ مع هؤلاء الفتيات جميعاً . كانت الراهبات قاسياتٍ على انفسهنّ لبس غير . فلم تكن النار تُضرمُ إلا في المدرسة الداخلية ؛ وكان الطعام المقدّم في هذه المدرسة ، اذا ما قيس بطعام الدير ، شيئاً فافخراً . والى هذا ، فقد كنّ ينعمن بألف ضربٍ من العناية . كل ما في الأمر أن الراهبة كانت اذا سرّت بها طفلة وألقت عليها النجاسة ، اعتصمت بالصمت فلم تردّ على تحية الطالبة قط .

وأدت قاعدة الصمت هذه الى هذه النتيجة ، وهي ان الكلام انتزعَ ، في الدير كله ، من الكائنات الحية ومُنحَ للجهادات . ففي بعض الاحيان كان ناقوس الكنيسة هو الذي يتكلم ، وفي بعض الاحيان كان المتكلم هو جُلجل البستاني . وكان ثمة جرسٌ مرنانٌ جداً موضوعٌ الى جانب المرأة البوابة فهو يُسمع في ارجاء البيت كله . وكان هذا الجرس يُفصح بنبواته المتباينة ، التي كانت ضرباً من التلغراف المقوّي للصوت ، عن جميع أفعال الحياة المادية التي يتعيّن القيام بها ، ويدعو الى غرفة الاستقبال ، عند الاقتضاء ، هذه او تلك من أهل الدير . فقد كان لكل شخص ولكل شيء دقّته الخاصة . فدقة الرئيسة

واحد وواحد . ودقة فائبة الرئيسة واحد واثنان . وكانت ستة وخمسة
 'تعلن بدء الدرس ، بحيث أن الطالبات كنّ لا يقطن لهن ذاهبات
 الى الدرس ابداً ، ولكن يقطن لهن ذاهبات الى ستة وخمسة . وكانت
 اربعة واربعة هي دقة مدام دو جينيليس الخاصة . وكانت تسع في
 كثير من الاحيان . فتقول اللواتي لا يحببن القريب ابداً . وهذا
 هو الشيطان الرباعي . ، وكانت الدقات التسع عشرة تعلن حدثاً
 خطيراً . إنه فتح باب الجزء المحرم من الدير إلا على أهله - صفيحة
 حديدية مروعة شائكة بالمزاج لا تدور على مفاصلها إلا امام رئيس
 الاساقفة

فباستثنائه واستثناء البستاني ، كما قد ذكرنا ، لم يكن في ميسور
 أيما رجل أن يدخل الى الدير . أما الطالبات فرأين رجلين آخرين :
 اولهما المرشد ، الأب بانيس العجوز ، القبيح ، الذي كنّ يتمتعن بامتياز
 النظر اليه أثناء الانشاد ، من خلال قضبان نافذة ما . والثاني معلم
 الرسم ، ميسو آنسيو *Ansioux* ، الذي تدعوه الرسالة التي اقتطفنا بضعة
 أسطر منها ميسو آنسيو *Anciot* ، وتصفه بقولها إنه أحسب عجوز
 راعب .

ونحن نرى أن جميع الرجال كانوا مختارين .
 كذلك كان هذا الدير الغريب .

٨

« بعد القلوب الحجارة » ❖

بعد أن رسمنا ملامح الدير الاخلاقية رسماً أولياً نرى ان من المفيد

* وقد ورد في الاصل ، باللاتينية هكذا : *Post Corda Lapides*

أن نقول بضع كلمات في هيئته المادية . ولقد كوّن القارىء حتى الآن فكرةً ما عن ذلك .

كان دير « بيتي بيكبوس سان انطوان » يستغرق ، تقريباً ، كامل المربع المنحرف الكبير المشكل من تقاطع شارع بولونسو ، وشارع « دروا مور » ، وشارع بيكبوس الصغير ، والزقاق المسدود المدعوّ في الخرائط القديمة شارع أوماربه . وكانت هذه الشوارع الأربعة تحيط بذلك المربع المنحرف مثل خندق من الخنادق . وكان الدير مؤلفاً من عدة أبنية وحديقة . وكانت البناية الرئيسية ، اذا ما اعتُبرت جملةً ، مجموعةً من المنشآت النغلة التي تبدّى ، إن نُظِرَ إليها نظرةً طائر ، أشبه شيء بمشقة مطروحة على الارض .

كانت ذراع المشقة الكبرى تمتدّ على طول شقة شارع « دروا مور » الواقعة ما بين شارع بيكبوس الصغير وشارع بولونسو . أما ذراعها الصغرى فكانت واجهةً عاليةً ، رماديةً ، قاسيةً ، مشبكةً تطلّ على شارع بيكبوس الصغير . وكان باب العربات ، رقم ٦٢ ، هو حدها الاقصى . وحوالى منتصف هذه الواجهة كان الفبار والرماد قد بيّضا باباً عتيقاً منخفضاً مقنطراً نسجت العناكب خيوطها عليه ، ولم يكن ليُفتح غير ساعة او ساعتين يوم الأحد وفي المناسبات النادرة حين يُخْرَج من الدير جثمان راهبة . كان هو المدخل العمومي للكنيسة . وكان مرفق المشقة قاعةً مربعةً تُصَطَّعُ مكتباً ، وكانت الراهبات يسميها « بيت المؤونة » . وفي الذراع الكبرى كانت قلايا « الأمهات » و « الاخوات » والراهبات المستجدات . وفي الذراع الصغرى كانت المطابخ ، وقاعة الطعام ، مبطنةً برواق الدير ، وكانت الكنيسة . وبين الباب رقم ٦٢ وزاوية زقاق أوماربه الموصد كانت المدرسة التي لم يكن في ميسور المرء ان يراها من الخارج . أما بقية المربع المنحرف فألفت الحديقة التي كانت أدنى من مستوى شارع بولونسو الى حدّ جعل

الجدران مرتفعة من الداخل اكثر من ارتفاعها من الخارج بكثير .
وكان في وسط الحديقة ، المهدبة بعض الشيء ، وعند قمة رابية صغيرة ،
شجرة شربين جميلة ، محددة الرأس مخروطية الشكل ، تنفصل عنها ،
وكأنها تنفصل من نقطة الدائرة في ترس ، أربعة ممرات عريضة يتخللها
ثمان ضيقة تمتد اثنين اثنين بحيث كانت خريطة الممرات الهندسية
خليقة بأن تشبه - لو كان السياج دائرياً - صليباً وضع على دولا ب .
وكانت الممرات ، المنبسطة كلها نحو جدران الحديقة غير المنتسقة ، ذات
أطوال متباينة . وكانت تكتنفها شجيرات غلب الثعلب . وفي طرف
الحديقة الاقصى امتد صف من شجرات الحور الضخام من خرائب الدير
القديم القائمة عند زاوية شارع « دروا مور » إلى بناية الدير الصغير
القائمة عند زاوية زقاق اوماربه . وأمام الدير الصغير كان ما يدعى
الحديقة الصغيرة . أضيف الى هذا المجموع فناءً ، ومختلف ضروب الزوايا
التي شكلتها عدة من الابنية المنفصلة ، وجدراناً كجدران الجون ،
وصقاً طويلاً أسود من السطوح الممتدة في محاذة الجانب الآخر من
شارع بولونسو والتي تشكل المنظر الوحيد والمكان المجاور الوحيد للذين
'نظّل' عليها المؤسسة ، وعندئذ تستطيع ان تكون فكرة كاملة عما كان
عليه ، لحس واربعين سنة خلت ، دير بيكبوس الصغير الخاص بالراهبات
البونارديات . لقد بُني هذا البيت المقدس على ارض ملعب للتنس حظي
بشهرة واسعة ابتداءً من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر
وكان يدعى « ملعب الشياطين الأحد عشر ألفاً » .

والى هذا فقد كانت هذه الشوارع كلها من أقدم شوارع باريس .
وهذا الاسمان ، « دروا مور » و « اوماربه » عتيقان جداً .
والشارعان اللذان يحملانها هما أشد عتقاً ايضاً . فقد كان زقاق اوماربه
يدعى زقاق موغو ؛ وكانت شارع « دروا مور » يدعى شارع
ال « إيفلانتييه » لان الله فتح الازهار قبل ان يقطع الانسان

قرن من الزمان في زي الراهبات

ما دمنا نفصل القول في ما كان من قبلُ دير بيكبوس الصغير ، وما دمنا قد جرؤنا على ان نفتح نافذة على هذا الملاذ المنعزل فأنت القاريء سوف يغفر لنا استطراداً آخر غريباً عن موضوع هذا الكتاب ولكنه يميز ومفيد اذ يعلمنا أن لرواق الدير المستوف نفسه شخصياته الغريبة الشاذة .

فقد كان في الدير الصغير راهبة في المئة من عمرها وفدت من دير فونتيفرو . والواقع انها كانت قبل الثورة من نساء المجتمع الرفيع . ولقد اكدت من الكلام عن ميو ميرومسنيل ، وزير العدل في عهد الملك لويس السادس عشر ، وعن سيده ما ، تدعى الرئيسة دوبلا ، وكانت تعرفها معرفة جيدة . فقد كان مما يبهجها وبشير زهوها ان تسوق هذين الاسمين في كل مناسبة . وكانت تروي عجائب عن دير فونتيفرو ، وانه كان مثل مدينة من المدن ، وانه كان في داخله شوارع .

وكانت تتحدث بلهجة بيكاردية أبهجت الطالبات الداخليات . وكل عام ، كانت تجدد نذورها في أبة . وكان من دأبها ان تقول للكهنة عند حلقتها اليمين : « إن مونسينيور القديس فرانسوا أعطاه لمونسينيور القديس جوليان ؛ ومونسينيور القديس جوليان أعطاه لمونسينيور القديس

* يحسن بالقارىء ان يعلم ان كلمة إيفلانتية Eglantier تعني الترسين ، وهو زهر ، وان كلمة « مور » Mur تعني الجدار ، وإفلا تشاد الجدران من حجارة .

اوزيب ؛ ومونسينيور القديس اوزيب أعطاء لمونسينيور القديس بروكوب الخ . الخ ، وهكذا فاني اعطيك إياه ، يا أبت ! ، وعندئذ كانت الطالبات يضحكن ، لا في أردانهن كما يقولون ، ولكن في حُجُبِهِنَّ ، ضحكات صغيرة ساحرة مكبوححة كانت تحمل « الأمهات » على العبوس والتقطيب .

وذاث يوم كانت الراهبة المثوية تروي بعض الحكايات . فقالت : إن الرهبان البرنارديين كانوا في أيام صباها لا يسمحون لفوسان الملك بأن يتقدموا عليهم في المجالس . كان قرن من الزمان يتكلم ، ولكنه كان القرن الثامن عشر . وتحدثت عن عادة الخور الاربع التي كانت شائعة في شامباتني وبورغوني قبل الثورة . فحين كانت شخصية كبيرة ، من مثل مارشال فرنسة ، او امير من الامراء ، او دوق من الدوقات ، او عضو في المجلس الاعلى ، يمر بمدينة من مدن بورغوني او شامباتني كانت هيئة المدينة تستقبله ، وتخطب بين يديه ، وتقدم اليه أربع كؤوس فضية صُبَّت فيها اربعة ضروب من الخمر . وكانت منقوشاً على الكأس الأولى : خمر الفرد ؛ وعلى الثانية : خمر الاسد ؛ وعلى الثالثة : خمر الظروف ، وعلى الرابعة : خمر الخنزير ، وكانت هذه النقوش الاربعة تعبر عن درجات السكر الاربع المنحدرة : الاولى تلك التي تبهج ، والثانية تلك التي تهيج ، والثالثة تلك التي تجبل ، والاخيرة تلك التي تجعل الشاب وحشياً .

وكان لدمها في احدى الحزائن المقفلة شيء غريب كانت شديدة الهيام به . ولم يكن نظام دير فونتي فرو ليحظره . وكانت لا توري هذا الشيء لاسرى . ما . فقد كان من دأبها ان توصد الابواب على نفسها - وهو أمرٌ يُعجزه نظامها - وتختبئ كلما أرادت النظر إليه . حتى إذا سمعت وُفِعَ أقدام في الرواق اغلقت الحزاة أمرع ما تستطيع إغلاقها بيديها المرمتين . وما إن يتحدث اليها احد في ذلك حتى تعنم

بالصمت ، على الرغم من ولوعها بالكلام . وكان أكثر النسوة فضلاً
ينقلبن خائبات أمام صمتها ، وأكثرهن إصراراً ينقلبن خائبات أمام عنادها .
وكان هذا ، أيضاً ، موضوع تعليق عند كل عاطلة عن العمل وكل من
أصابها السأم في الدير . إذ ما الذي يمكن أن يكونه ذلك الشيء ،
النفيس جداً ، السري جداً ، الذي كان كنز الراهبة المثنوية هذه ؟ لا
سك في أنه كتاب مقدس ما ، أو سبيحة فريدة ، أو ذخيرة مثبتة .
لقد تهنّ في مفازة من الأحاسيس والافتراضات . حتى إذا توفيت العجوز
المسكينة هرعن إلى الخزانة بأسرع بما يقضي به العرف ، في ما يبدو ،
وفتحنها . فوجدن موضوع فضولهن تحت نسيج قطني ثلاثي مثل كأس
مقدسة على شكل صحفة صغيرة . كانت صحيفة من صحاف فينزا *
تمثل أحبة شرعن في الطيران وقد طاردهن غلمان صيادلة مسلّحون
بعقاقن ضخام . والمطاردة ملأى بالأياءات المضحكة والأوضاع الهزلية .
ولقد أثخن أحد الأحبة بالطعنات ، فهو يناضل ، وهو يهز جناحيه
الصغيرين ، محاولاً أن يعاود الطيران ، ولكن الغلام الطافر مرحاً يطلق
ضحكة شيطانية . المغزى : - الحب مهزوماً بالمغص . وهذه الصحيفة
الغريبة جداً فوق ذلك ، والتي ربما كان لها شرف الإيجاء بفكرة ما إلى
موليير ، كانت لا تزال موجودة في أيلول ، عام ١٨٤٥ . كانت معروضة
للبيع في دكان من دكاكين السلع المستعملة في جادة بومارشيه .
إن هذه العجوز الطيبة لم تكن ترغب في استقبال زائر يقد من العالم
الخارجي لرؤيتها ، لان غوفة الاستقبال - كما قالت - كانت مظلمة
أكثر مما ينبغي .

* مدينة إيطالية اشتهرت قديماً بصناعة الخرف .

اصل « السجود السرمدى »

ومع ذلك فغرفة الاستقبال هذه التي تكاد أن تكون قَبْرية ، والتي حاولنا أن نعطي القارىء فكرة عنها ، مظهرٌ محليّ محضٌ لا نفع على مثله ، بالصرامة نفسها ، في الأديرة الأخرى . ففي دير شارع الـ « تامبل » ، على الحُصوص ، الذي كان ينتمي في الحق الى رهبانية أخرى ، استعِض عن المصاريع السود بستائر سمراء ، وكانت غرفة الاستقبال نفسها صالّةً مبلطةً بالخشب ، محجوبةً نوافذها بالشاش الموصلي الأبيض ، مزدانةً جدرانها بضروب من الصور ، ومنها رسم راهبة بنيدكتية حسرت عن رأسها ، وباقات من الزهر ، بل ورأس رجل تركي أيضاً .

ولما نهضت في حديقة دير شارع الـ « تامبل » نفسها شجرة الكستناء الهندية تلك التي كانت تعدّ أكبر زميلاتها وأجملهن في فرنسا ، والتي اشتهرت عند شعب القرن الثامن عشر الطيب بأنها أمّ جميع شجرات الكستناء في المملكة .

وكما ذكرنا سابقاً ، كان يحتلّ دير الـ « تامبل » هذا راهباتُ السجود السرمدى البنيديكتيات ، وهن غير أولئك البنيديكتيات المنبثقات من « سيتو » . ورهبانية السجود السرمدى هذه ليست قديمة جداً ، فهي لا ترقى الى أكثر من مئتي عام . ففي سنة ١٦٤٩ دُنّس القربان المقدس مرتين متواليتين ، خلال بضعة أيام ، في اثنتين من كنائس باريس ، في كنيسة « سان سوليبس » وكنيسة « سان جان آنغريف » - وهو خرق للقدسيات مروّع ونادرٌ أحدث هزة عنيفة في المدينة كلها . فأقام النائب الأسقفى رئيس دير « سان جيرمان دي بريه » مركباً دينياً مهيباً حشد

له كهانه جميعاً ، وقدّس * فيه سفير البابا . ولكن هذه الكفارة لم تكن كافية في نظر سيدتين نبيلتين هما مدام كورتين ، المركيزة دو بوك ، والكونتس دو شاتوفيو . فهذا الانتهاك لحرمة « سر المذبح البالغ الجلال » رغم أنه عابر ، لم يبرح ذهني هاتين النفسين القدسيتين ؛ ولقد بدا لهما أن لا سبيل الى أن يُكفّر عنه الا « بسجود سرمدي » في دير ما . فقدّمتا كلتاهما ، الواحدة عام ١٦٥٢ ، والأخرى عام ١٦٥٣ ، هبات ضخمة الى الأم كاترين دو بار ، الملقبة بكاترين القربان المقدس ، وكانت راهبة بنيدكتية ، لكي تمكّنها من تأسيس دير تابع لرهبانة القديس بينوا ابتغاء تحقيق هذا الغرض التقوي . وانما مُنحت الأم كاترين دو بار الاجازة الأولى لانشاء هذه المؤسسة من لدن مسيو دو ميتر رئيس دير « سان جيرمان » شرط « أن لا تُقبل فيها أي فتاة لا تحمل الى الدير دخلاً سنوياً قدره ثلاثئة ليرة ، أي رأس مال مقداره ستة آلاف ليرة » . وبعد رئيس دير « سان جيرمان » أجاز الملك انشاء المؤسسة ببراءة خاصة . ثم ان مجلس المحاسبة والبرلمان أقرّا كلا من الاجازة الصادرة عن رئيس الدير والبراءة الملكية ، في عام ١٦٥٤ .

ذلك هو أصل الرهبانية البنيديكتية للسجود السرمدي للقربان المقدس ، في باريس ، وهذا هو تكريسها الشرعي . ولقد جدّد البناء الذي احتله أول دير من أديرة هذه الرهبانية ، في شارع كاسيت ، بأموال مدام دو بوك ومام دو شاتوفيو .

وهذه الرهبانية ، كما نرى ، ينبغي أن لا يُخلط بينها وبين رهبانية البنيديكتيات الملقبات براهبات سيتو . لقد انبثقت من رئيس دير « سان جيرمان دو بويه » كما انبثقت « سيدات القلب المقدس » من الرئيس العام للسويسيين ، و « راعبات المحبة » من الرئيس العام للعاذارين .

* قدس الكاهن : أقام القداس .

وهي كذلك مختلفة كل الاختلاف عن راهبات دير « بيكوس الصغير » البونارديات اللواتي استعرضنا حياتهن الداخلية من لحظة . ففي سنة ١٦٥٧ أجاز البابا الكسندر السابع لراهبات « بيكوس الصغير » البونارديات - ببراءة خاصة - أن يارسن السجود السرمدي مثل راهبات القربان المقدس البينديكتيات . ولكن كلاً من الرهبانيتين ظلت ، مع ذلك ، محتفظة باستقلالها وشخصيتها .

١١

نهاية « بيكوس الصغير »

منذ عودة أسرة بوربون الى العرش ، شرع دير « بيكوس الصغير » يذوي ويتلاشى . وكان ذلك جزءاً من موت الرهبانية العام ، تلك الرهبانية التي ولت بعد القرن الثامن عشر ، كما ولت جميع الرهبانيات الدينية . ان التأمل ، كالصلاة ، ضرورة من ضرورات الانسانية . ولكنه ، مثل أي شيء مسته الثورة ، سوف يتحول ويتغير ؛ وبدلاً من أن يكون معادياً للتقدم الاجتماعي سيصبح مؤاتياً له .

وأقفر دير « بيكوس الصغير » في مرعة . وفي عام ١٨٤٠ كان الدير الصغير قد زال ، وكانت المدرسة الداخلية قد زالت أيضاً . لم يبق ثمة لا النسوة العجائز ، ولا الفتيات الصغيرات . كانت الأوليات قد قضينَ نحبهن ، وكانت الأخريات قد مضينَ لسبيلهن . * *Volaverunt*

إن نظام « السجود السرمدي » قاس إلى درجة توقع الذعر في النفس . ويتقهقر النداء الرباني ، فلا تنضم إلى الرهبانية مجتندات جديدات . ففي سنة ١٨٤٥ كانت الرهبانية لا تزال قاذوة على ان تجمع من هنا

* في اللاتينية ؛ ومعناها : لقد رحمن .

وهناك بعض الراهبات القائرات بالاعمال اليدوية ، ولكنها عجزت
عن أن تفوز بأيٍّ من راهبات الأناشيد الجماعي . منذ أربعين عاماً كان
عدد الراهبات مئة تقريباً ، ومنذ خمسة عشر عاماً لم يكن ثمة غير ثمانٍ
وعشرين . فكم يبلغ عددهن اليوم ؟ وفي عام ١٨٤٧ كانت رئيسة الدير
شابة ، وهذا دليل على أن إمكانية الاختيار كانت محدودة . إنها كانت
دون سنِّ الأربعين . وكلما تناقص العدد ، تعاظم التعب . إن واجبات
كلِّ منهن تصبح أشدَّ عسراً ؛ ومن ذلك الحين تقترب تحت ابصارهن ،
تلك اللحظة التي لن يبقى فيها غير دزينة من الاكتاف المورجة المتقوسة
للنهوض بنظام القديس بينوا الثقيل . إن العبء عنيد لا يعرف المرونة ،
وإنه ليظلّ هو نفسه بالنسبة إلى العدد القليل كما قد كان بالنسبة
إلى العدد الكثير . إنه يُبْهَظ ؛ إنه يسحق . وهكذا قَضَيْنَ نَحْبَهُنَّ .
ومنذ أن كان مؤلف هذا الكتاب لا يزال يعيش في باريس ماتت
اثنتان منهنَّ ، أحدهما كانت في الخامسة والعشرين والآخرى كانت في السادسة
والعشرين . وهذه الأخيرة كان في ميسورها أن تقول مع جوليا آليينولا
Hic Jaceo, vixi annos viginti et tres . وبسبب من هذا الانحطاط أُلْقِعَ الدير عن
تعليم البنات .

والحق أنه لم يكن في ميسورنا أن نجتاز هذا البيت المظلم المجهول ،
فوق العاديّ ، من غير أن ندخل ونُدخل معنا أولئك الذين يرافقوننا
والذين يصفون لنا ونحن نروي - ولربما كان ذلك لفائدة بعضهم - قصة
جان فالجان الكثيرة . لقد ألقينا نظرةً على هذه الجماعة المفعمة بممارساتها
العتيقة التي تبدو اليوم بالغة الجِدَّة . إنها الحديقة المسوّرة .
Hortus conclusus . ولقد تحدّثنا عن هذا الموطن الفريد في إسهاب
منتقد ، ولكن في احترام ، بقدر ما يمكن التوفيق بين الاحترام
والانتقاد على الأقل . إننا لا نفهم كل شيء ، ولكننا لا نُهين شيئاً .

* في اللاتينية ، ومعناها : هنا أقف حيث عشت ثلاثاً وعشرين سنة .

فنحن بعيدون عن تهلل جوزيف دو ميتر الذي يذهب الى حد تقديس الجلاّد بُعْدًا عن سخرية فولتير الذي يذهب الى حد التهمك على تمثال المصلوب .

ولنقل ، بالمناسبة ، إن هذه مخالفة للمنطق يقع فيها فولتير . ذلك أن فولتير كان خليفاً به أن يدافع عن يسوع كما دافع عن كالا* . وحتى عند أولئك الذين يُنكرون "التجسّد اي شيء يمثله تمثال المصلوب ؟ إته يمثل الحكيم مضرّجاً بدمائه .

إن الفكرة الدينية لتجناز ، في القرن التاسع عشر ، بأزمة . فنحن ننسى أشياء كثيرة بما تعلّمناه ، وإننا نحسن بذلك صنعاً شرط ان نتعلّم - ونحن ننسى امراً ما - شيئاً غيره . فليس من فراغ في القلب الانساني ! إن بعض الاشكال لتهدّم ، ومن الخير ان تُهدّم شرط ان يعقبا الانشاء .

وفي غضون ذلك فلندرس الاشياء التي زالت . إن من الضروري أن نفهمها ، ولو من أجل اجتنابها ليس غير . إن كل تزوير للماضي ينتحل اسماً ، وإن هذه المزورات مولعة بأن تدعو نفسها المستقبل : والحق ان ذلك الشبح - الذي هو الماضي - كثيراً ما يزور جواز سفره . فلنستعدّ للشرك . فلنأخذ حذرنا . ان للماضي وجهاً هو الخرافة ، وقناعاً هو الرباء . فلنشهّر الوجه ، ولنمزق القناع .

اما الأديرة فتعجبنا بمشكلة مركّبة : مشكلة حضارة ، وهذه تدينها ؛ ومشكلة حرية ، وهذه تحميها .

* Jean Calas تاجر من تولوز اتهم خطأ بأنه قتل ابنه لكي يحول بينه وبين الارتداد عن البروتستانتية . وقد حكم عليه البرلمان فقضى تحت دولاب التعذيب عام ١٧٦٢ . وقد اعيد اليه اعتباره سنة ١٧٦٥ بعد ان دافع فولتير عنه دفاعاً مثيراً .

للالنهاية .

وليس هذا هو الموطن المناسب لبسط بعض الآراء ببطاً مسهباً .
ومع ذلك ، ففيما تثبت بتحفّظاتنا ، وبقصور التعبير عندنا ، بل
وبسخطنا ايضاً تشبهاً قوياً ، يتعين علينا ان نقول اننا كلما وقعنا
في الانسان ، على اللانهاية - سواء ألحسين فهمها أم أمي - استبدت بنا
الاحترام على نحو لا إرادي . إن في الكنيس ، وفي المسجد ، وفي
المبكل الهندي أو الصيني ، وفي معبد الهندو الحمر جانباً بغيضاً غفته ،
وجانباً رقيقاً بهم به . فيا له موضوعاً يتفكّر فيه العقل ، وبإله
معدوا لا ينضب من مصادر التأمل ، انعكاس' الله ذاك على الجدار
الانساني !

٢

الدير بوصفه واقعة تاريخية

من وجهة نظر التاريخ ، والعقل ، والحقيقة ، تقف الحياة الرهبانية
موقف المتهم الذي دانت المحكمة .

إن الاديرة ، حين تكثر في بلد من البلدان ، هي عُقد تتركز
السير ، منشآت معوّقة ، مراكز كسل حيث ينبغي ان تقوم مراكز
عمل . والمؤسسات الرهبانية تمثل بالنسبة الى المؤسسة الاجتماعية العظمى
ما تمثله الطفيليات بالنسبة الى شجرة السديان ، والتأليل بالنسبة الى
الجسم البشري . ففي ازدهارها وممنها إفقار البلاد . واذا كان النظام
الرهباني صالحاً في فجر الحضارة ، حين حارب الوحشية بالروحانية
مخففاً من وطأتها ، فإنه مؤذٍ في الادوار التي تبلغ فيها الشعوب مبلغ
الرجولة . والى هذا ، فعين يسترخي النظام الرهباني ويدخل في دور

التفسخ - وهو الدور الذي نراه فيه ، اليوم - يصبح مهلكاً للأسباب نفسها التي جعلته 'منجياً' في دور صفائه .

لقد كان للاعتكاف في الأديار زمانه . فالصوامع برغم ما أسدته من فائدة في المرحلة الاولى من الحضارة الحديثة ، قد عاقت نمو هذه الحضارة ، وأضرّت بتطورها . والأديرة ، بوصفها مؤسسة ، وبوصفها طريقة من طرائق تثقيف البشر ، كانت صالحة في القرن العاشر ، وموضع خلاف في القرن الخامس عشر ، وإنها لبغيضة في القرن التاسع عشر . والحق أن 'جذام الحياة الرهبانية كاد يتأكل حتى الهيكل العظمي' امتين عظيمتين ، الأمة الايطالية والأمة الاسبانية ، وكانت احدهما نور اوروبا والاخرى مجدها طوال قرون من الزمان . وإذا كانت هاتان الامتان الماجدتان قد اتخذتا سبيلهما ، في عصرنا هذا ، الى الشفاء فالفضل في ذلك راجع الى علم حفظ الصحة * السليم الحازم الذي وضعت قواعده عام ١٧٨٩ .

والدير - دير النساء العتيق ، بخاصة - كما كان يبدو حتى على عتبة هذا القرن ، في ايطالية ، والنمسا ، واسبانية ، ليس غير تخشّر من أشد تخشّرات القرون الوسطى عبوساً وإظلاماً . إنه في تلك البلدان نقطة التقاطع لضروب من المخاوف والاهوال . والدير الكاثوليكي ، على الحصر ، مليء بأشعة الموت السوداء .

ولكن الدير الأسباني أشدّ مائتة من سائر الأديار كلها . هناك ترتفع في الظلمة - تحت عقود ملأى بالضباب ، تحت قباب لا تكاد تبدو بسبب من العتمة - مذابيح ضخمة مثل برج بابل ، سامقة كالكاندرايات . هناك تتدلى من السلاسل في غمرة الظلام تماثيل المصلوب ضخمة بيضاء . هناك نستلقي ، عارية على خشب الأبنوس ، تماثيل للمسيح عاجية هائلة ، دامية لا تحضبة بالدم فحسب ، فظيعة بديعة ،

* يقصد للثورة الفرنسية .

تمّ مرافقتها عن عظامها ، وتمّ عظام ركبها عن أغشيتها ، وتمّ جراحها عن لحمها ، وقد توجت بأشواك من فضة ، وسمرت بماسير من ذهب ، وبدت على جباهها قطرات دم من باقوت أحمر ، وترقرقت في أعينها دموع من ألماس . إن اليواقيت وقطع الألماس لتبدو مبلّلة ، وإنها لتجري الدموع ، هناك في الاجزاء الدنيا ووسط العتمة ، من مآقي مخلوقات محجّبات خُددت خواصرها ومُرقت بالانسجة الصوفية الغليظة ، وبالسياط ذوات الرؤوس الحديدية ، وسُحقت أنثداؤها بمُحْضِرٍ صغيرة مصنوعة من غصون الصفصاف ، وجُلِفت ركبها بالصلاة الموصولة . نسوة يحسبن انفسهن زوجاتٍ . أشباح تتخيل أنها في عداد الطبقة العليا من الملائكة . أفكر هاته النسوة ؟ لا . ألهنّ إرادة ؟ لا . هل يعشن ؟ لا . هل يعشن ؟ لا . لقد تحوّلت أعصابهنّ الى عظام ، ولقد تحوّلت عظامهن الى حجارة . إن حجابهن هو الليل منوجاً . وإن كنّهن ، تحت ذلك الحجاب ، يشبه شيئاً لا سبيل الى وصفه : تنفّسَ الليلَ الفاجع ذاته . إن رئيسة الدير ، وهي هامة* من الهامات ، تطهرهن وتروّعن . إن النقاء هناك ، مقطّباً كالبحر الوجه . تلك هي أديرة أسبانية القديمة - مغاور للعبادة الرهيبة ، أجاجار عذارى ، مواطن وحشية ضاربة .

كانت اسبانية الكاثوليكية رومانية اكثر من رومة نفسها . وكانت الدير الاسباني هو نموذج الدير الكاثوليكي . هناك ، كان الهواء عابقاً بروائح الشرق . وكان رئيس الاساقفة - « كيسلر آغا » ** السماء - يوصد بالحديد سراي الارواح هذه التي نذرت نفسها لله ، ويتجسس

* الهامة روح الميت او القتل . وكان الرومان يعتقدون ان ارواح المجرمين واضراهم تطوف ناشئة في الارض لكي تروّع الأحياء . اما العرب فكانت تزعم ان روح القتل الذي لم يدرك بثأره تصبح هامة فتزقو عند قبره تقول اسقوني اسقوني ، فاذا ادرك بثأره طارت .

** تمبير تركي كان يطلق في عهد العثمانيين على رئيس الخصيان السود .

عليها . كانت الراهبة هي محظية السلطان ، وكان الكاهن هو الحصى . كانت النسوة المولعات بالعبادة هنّ النسوة المختارات ، في أحلامهنّ ، وكنّ مدلّياتٍ بالمسيح . ففي الليل ، كان الفنّي الجميل العساري ينزل عن الصليب ، ويصبح طرب القليّة المفرط . إن اسواراً عالية لتزدود شواغل الحياة الواقعية جميعها عن « السلطنة » الصوفية التي تنظر الى « المصلوب » نظرتها الى « السلطان » . ذلك بأن نظرة واحدة الى الخارج تُعتبر خيانةً من الحياة . لقد حل سجن الدير * الأرضي محل الكيس الجلدي . فما كانوا يقدفون به ، في الشرق ، الى البحر ، كانوا يقدفون به ، في الغرب ، الى الأرض . ففي كلتا الناحيتين كانت بعض النساء يَلْتَمِعْنَ توجّعاً : اللجة لهؤلاء ، والحفرة لأولئك . هنا المتفرقات ، وهناك الموءودات . توازي مخيف !

وفي أيامنا هذه ، أمسى من دأب أنصار الماضي ، وقد عجزوا عن انكار هذه الأشياء ، أن يبتسموا لها . لقد صار زياً عندهم ، وهي طريقة ملائمة وغريبة ، أن يكتبوا موحيات التاريخ ، وأن يدحضوا تعليقات الفلسفة ، وأن يحذفوا جميع الحقائق البغيضة ، وجميع المسائل المظلمة . « موضوعات للهجاء » ، كذلك يقول البارعون . فيردد الحمى : « الهجاء » . فجان جاك * هجّاء ؛ وديدرو هجّاء ، وفولتير في دفاعه عن « كالا » ، و « لابار » *** ، و « سيرفين » **** هجّاء . ولست

* في الأصل in pace وهو الاسم الذي يطلق على سجن الدير والقائم تحت الأرض حيث كانت تحبس الآثام حتى الموت . والتعبير لاتيني معناه « في سلام » .

** يقصد جان جاك رومو .

*** Le Barre نبيل فرنسي (١٧٤٧ - ١٧٦٦) اتهم بتشويه تمثال من نقائيل المصلوب فصدر عليه الحكم بالموت ، ففصل رأسه عن جسده ، ثم أحرق رغم عدم شوعية المحاكمة واستنكار الرأي العام . وقد دافع عنه فولتير وحاول ان يبيد اليه اعتباره ، بعد الموت . ولكن عبثاً . ثم ان « المؤتمر الوطني » أعاد اليه هذا الاعتبار (في ٢٥ برومير ، السنة الثانية للجمهورية) .

**** Sirven رجل بروتستانتي (١٧٠٦ - ١٧٦٤) حكم عليه برلمان تولوز بالموت بتهمة قتل ابيه لكي يحول بينها وبين اعتناق الكاثوليكية . ولكن دافع فولتير ادى الى اعادة اعتباره بعد خمس سنوات من إعدامه .

أدري من الذي اكتشف أخيراً أن تاسيت * كان هجاء ، وأن نيرون كان ضحية ، وأن علينا من غير شك أن نشفق « على هولوفيرن ** المسكين ذاك . »

بيد أن الحقائق عنيدة ، وليس من اليسير التغلب عليها . فقد رأى مؤلف هذا الكتاب ، بعينه الاثنيتين ، على نحو عشرين ميلاً من بروكسل ، غودجاً من القرون الوسطى ، هو في متناول كل انسان ، في دير فيلار - كوى السجون المظلمة المؤبدة في وسط المرج الذي كان في يوم من الأيام فناء الدير ؛ كما رأى على ضفاف الـ « ديل » أربعة محابس حجرية مظلمة ضيقة نصفها تحت الارض ونصفها تحت الماء . تلك كانت سجوناً ديرية *in-pace* *** وفي كل من هذه المحابس بقية من باب حديدي ، ومرحاض ، ونافذة مقضبة بالحديد ، هي من الخارج على ارتفاع قدمين عن سطح النهر ومن الداخل على ارتفاع ستة أقدام عن سطح الارض . ان أربعة أقدام من مياه النهر لتجري في محاذاة صفحة الجدار الخارجية . فالتربة المجاورة تظل مبللة أبداً . وهذه التربة المبللة هي الفراش الوحيد الذي تملكه نزيله ذلك السجن الديري . وفي أحد تلك المحابس لا يزال جزء من « غل » حديدي مسمراً على الجدار . وفي محبس آخر كان في ميسور المرء أن يرى شبه صندوق مربع مصنوع من أربع صفائح من صوان هي أقصر من أن يستلقي فيها كائن بشري ، وأشد انخفاضاً من أن يقف فيها مستقيماً القائمة . هناك في داخل هذا الصندوق كانت توضع مخلوقة بشرية مثلنا ، ثم يوضع فوق رأسها غطاء من حجر . إنه هناك . إن في استطاعتك أن تراه . إن في استطاعتك

* المؤرخ الإلاتيني الشهير . وقد سبق التعريف به في الاجزاء الماضية .
** احد قواد لبوخدنبر ، وقد قتلته « يهوديت » بأن دخلت الى خبائه وذبحته وهو قائم متغذدة بذلك شعبا اليهودي .
*** راجع الهامش الاول على الصفحة السابقة .

أن تلمسه . هذه السجون الديرية ، هذه المحابس المظلمة ، هذه الرزّات الحديدية ، هذه الأغلال التي تطوّق الاعناق ، هذه الكوى العالية ، القائمة على مستوى مجرى النهر ، هذا الصندوق الحجري المغلق مثل القبر . بغطاء صواني ، مع هذا الفارق وهو أنّ الميت هنا كان كائناً حياً ، هذه التربة التي هي وحل ، هذا المرحاض ، هذه الجدران التي ترشح ... أوه ، يالها من أسنة هجّامة !

٣

بأي شرط نستطيع أن نحترم الماضي

إن الحياة الرهبانية ، كما قد كانت في اسبانية ، وكما تبدو في التيب هي ، بالنسبة الى الحضارة ، ضربٌ من داء الدلّ . انها توقف الحياة ، على الفور . إنها بكلمة واحدة ، تُغلي الديار من سكانها . والتروهب خصاء . وفي اوروبة كان التروهب آفة . أضف إلى هذا ، العنف الذي يُخضع له الضمير في كثير من الاحيان ، والدعوات الاجبارية الى الحياة الرهبانية ، والنظام الاقطاعي المنكمى على الدير ، وحق البكورية * الذي يُفرغ في حياة التروهب فائض الاُمرّة ، والفظائع الوحشية التي وصفناها اللحظة ، وسجون الاديرة ، والافواه الموصدة ، والأدمغة المسوّرة ، وكثيراً من المواهب التعمسة الملقاة في محابس النذور السرمدية ، وارتداء الثوب الرهباني للمرة الاولى ، ودفن النفوس وهي حية . أضف ضروب التعذيب الفرديّ هذه الى الحراب

* اي حق الولد البكر في امتلاك جميع الميراث دون سائر اخوته .

الذي يصيب الحياة القومية ، وعندئذ تجد نفسك - كائناً من كنت - ترتعد لمشهد ثوب الراهب وحجاب الراهبة ، هذين الكفتين من أكفان الابتداع الانساني .

ومع ذلك ، ففي بعض النقاط وفي بعض المواطن ، على الرغم من الفلسفة ، وعلى الرغم من التقدم ، تستمر الروح الرهبانية في وضع القرن التاسع عشر ؛ وإن انبعاثاً زهدياً غريباً ليدهش العالم المتمدن في هذه اللحظة . والحق أن اصرار المؤسسات الهرمة على البقاء الى الابد أشبه شيء بعناد العطر الزنخ الذي يتشبث بشعرك ، ودعوى السمكة الفاسدة التي 'تصر' على أن تؤكل ، ولجاجة ثوب الطفل الذي يريد أن يكسو الرُّجل ، وحنان الجثث التي تعود لتعاني الأحياء !

إن الثوب ليهتف : « يالكُم من ناكِرِين للجميل ! لقد صُننكم في عهد ضعفكم فلماذا تتخلون عني الآن ؟ »

وإن السمكة لتقول : « لقد كنتُ ذات يوم في أحماق البحر ! »

وإن العطر ليصيح : « لقد كنتُ وردةً من قبل ! »

وإن الجثة لتتئم : « لقد أحيتك ! »

وإن الدير ليقول : « لقد مدّتك ! »

وليس لهذا كله غير جواب واحد : « في الماضي . »

فلأن نحل بتخليد الاشياء الميتة وحكم الجنس البشري بالتعنيط ، وأن تُرجع العقائد المتهرئة ، ونذهب صناديق ذخائر القديسين من جديد ، ونخصص اروقة الاديرة ثانية ، ونبارك صناديق بقايا اجساد القديسين كرة اخرى ، ونجدد الحرافات ، ونعيد تغذية التعصب ، ونضع مقابض جديدة لمناضع الماء المقدس والسيوف ، وننشئ الحياة الرهبانية والروح العسكرية من جديد ، ونؤمن بمخلص المجتمع البشري من طريق مضاعفة الطفيليات ، ونفرض الماضي على الحاضر - كل اولئك يبدو شيئاً غريباً . ومع ذلك فهناك أنصار لهذه النظريات . ول هؤلاء النظريين ،

وهم رجال فكر في النواحي الاخرى ، طريقة بسيطة جداً : انهم
يخلعون على الماضي طلاءً يدعونه النظام الاجتماعي ، والحق الالهي ،
والاخلاق ، والامرة ، واحترام الاسلاف ، والسلطة العربية في القدم ،
والتقاليد المقدسة ، والشرعية ، والدين . وهم ينطلقون هاتفين :
« انتبهوا ! خذوا هذا ، ايها الناس الطيبون ! » وهذا الضرب من
من المنطق كان مألوفاً عند القدماء . لقد مارسه عرفاؤهم . كانوا
يفركون عجلة سوداء بالطباشير ، وبصيعون : « إنها بيضاء ! »

Bos cretatus

أما نحن فنوزع احترامنا ههنا وهناك ، ولا نتعرض للماضي على
الاطلاق شرط ان يُقر بأنه ميت . أما اذا أصر على الزعم بأنه حيّ
فعمدنا نجاهه ونحاول ان نصرعه .

إن الحرافات ، والتطرف في التقوى ، والمرامة في الدين ، والآراء
المقبولة من غير تحقيق أشبه بأطياف الموتى . ومع ذلك فهي تثبت
بالحياة . إن لها في كيائها الحيالي أسناناً وأظافر ، وبتعتن علينا أن
نشبك معها في القتال ، جسداً لجسد ، ونشن عليها الحرب ، وان
تفعل ذلك من غير مهادة ؛ لأنه قد كُتب على الانسانية أن تصارع
الأطياف صراعاً سرمدياً . وليس يسيراً على المرء أن يمك بخناق
الظل ، ويطرحه أرضاً .

إن ديراً في فرنسا ، في وضح القرن التاسع عشر ، هو مجمع من
البُوم يواجه النهار . والدير ، متلبساً بجرم التفتش المشهود ، وسط
مدينة عام ١٧٨٩ وعام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨ - رومة تتفتح أكمامها في
باريس - لا يمدو ان يكون خطأ في تأريخ الحوادث *anachronisme* . وفي
الايام العادية ، ليس على من يريد أن يزيل خطأ من أخطاء التأريخ ويمحوه
الا ان يحمله على تهجي السنة المدونة على صفحته . ولكننا لسنا في
ايام عادية على الاطلاق .

فلنقاتل .

فلنقاتل ، ولكن فلنميز . فشيعة الحقيقة أنها لا تعرف الافراط ابدأ . وما حاجتها الى الغلو ؟ ان ثمة اشياء يجب ان 'نهدم' ، واشياء ينبغي أن يُسلط عليها النور وتدرس ليس غير . أي قوة هائلة ينطوي عليها الفحص الملائف الجدّي ! فلنجتنب ان نحمل النار حيث يكفي النور وحده .

واذن ، فما دمنا في القرن التاسع عشر فنحن نقاوم الاعتكاف في الأديرة ، بوجه عام ، وعند كل أمة من الأمم ، سواء في آسية او في اوروبة ، في الهند او في تركيا . إن من يقول « الدين » فكأنه قال « المستنقع » . إن قابليتها للتعفن واضحة ؛ إن ركودها وبيل ؛ إن تخمّرها يصيب الشعوب بالحمى وينتهي بها الى الهزال ؛ إن مضاعفتها خليقة بأن تصبح ضربة من ضربات المصريين . وليس في استطاعتنا ان نفكر ، من غير ان نرتعد ، بتلك الديار التي ينكاثر فيها « الفقراء » *fakirs* والكهان البوذيين ، والنساك ، والرهبان اليونانيون ، والمرابطون ، والكهنة البوذون السياميون ، والدراويش تكاثراً مريعاً كمثل تكاثر الحشرات والهوام .

حتى اذا قلنا هذا ، بقيت أمامنا المسألة الدينية . ولهذا المسألة بعض الجوانب الخفية التي تكاد تكون رابعة ، فليُسمَحْ لنا بأن نواجهها على نحو مباشر .

٤

الدير من وجهة النظر المبدئية

يجمع للناس ويحيون حياة مشتركة . بأي حق ؟ بحق المشاركة .

انهم يوصدون الأبواب من دونهم . بأي حق ؟ بحق كل امرئ في أن يفتح بابه أو يغلقة .

انهم لا يخرجون من محبسهم . بأي حق ؟ بحق الذهاب والمجيء الذي ينطوي على حق المرء في البقاء في بيته .

وهناك ، في بيوتهم هذه ، ما الذي يفعلونه ؟

إنهم يتحدثون في صوت خفيض ؛ انهم يسمّرون أعينهم على الأرض ؛ انهم يتخلون عن العالم ، عن المدن ، عن الملاذ الحسية ، عن المباهج ، عن الاباطيل ، عن الحيلاء ، عن المصلحة الذاتية . انهم يرتدون ألبسة من نسيج صوفي غليظ أو من نسيج قطني خشن . وليس يملك أيّ منهم متاعاً مهما يكن . فمن كان منهم غنياً يسي لحظة دخوله الى الدير فقيراً . إنه يحب الجميع ما كان يملكه . ومن كان منهم نبيلًا أو شريفًا أو سيداً اقطاعياً ، كما يدعونه ، لا يلبث أن يتساوى مع من كان فلاحاً . إن القليلة هي هي بالنسبة اليهم جميعاً . انهم كلهم يقصون شعرهم على النمط الاكليريكي نفسه ، ويرتدون الثوب الاكليريكي نفسه ، ويأكلون لحبز الاسود نفسه ، ويفترشون الحشّة نفسها ، ويدفنون في التربة نفسها . ان المسّح نفسه لعلّ كل ظهر ، وان الحبل نفسه ليطوّق كل خصر . فاذا كان النظام يقضي بأن يسير جميع الرهبان حفاة ، ساروا كلهم حفاة . وقد يكون بينهم أمير ؛ ولكن هذا الامير ظلّ مثلهم جميعاً . لم يعد ثمة القاب . وحتى أسماء الاسر نفسها قد زالت . فهم لا يحملون غير الاسماء الصغيرة . انهم جميعاً يرزحون تحت مساواة اسمائهم بالمعمودية . لقد أذابوا أسرة الجسد ، وأقاموا في مجتمعهم أسرة الروح . فليس لهم بعدد أقرباء غير الجنس البشري كله . انهم يفيثون للفقراء ، ويُعْتَنون بالمرضى . وانهم يختارون اولئك الذين يتعين عليهم أن يطيعوهم . وينادي بعضهم بعضاً بقولهم : « أيها الاخ . »

وتعترضني قائلاً : « ولكن هذا هو الدير المثالي ! »

حسبي أنه دير يمكن الوجود حتى آخذه بعين الاعتبار .
ومن هنا جاز لي أن أتحدث عن أحد الاديار في الكتاب السابق ،
باحترام . انني اذا تركت القرون الوسطى جانبا ، وتركت آسية جانبا ،
واعتبرت الامر من وجهة النظر الفلسفية الحالية ، وراء ضرورات الجدل
المقاتل ، وشرط أن تكون الاديار ارادية مئة بالمئة فلا تضم جدرانها
غير نساك راغبين في هذا الضرب من الحياة ، فعندئذ لا أستطيع الا
أن أنظر الى الجماعة الرهبانية في شيء من الاهتمام الجدي ، وفي بعض
الاحيان بشيء من الاهتمام الناضح بالاحترام . فحيث توجد الجماعة
الرهبانية فتمة نظام حكم شعبي . وحيث يقوم نظام الحكم الشعبي فتمة
عدالة . ان الدير هو ثمرة هذه الصيغة : « المساواة ، الاخاء » . أوه ، ما
أعظم الحرية ! وباله من نجلٍ مجيد ! ان الحرية كافية لتحويل الدير
الى جمهورية ! .

فلنتابع .

هؤلاء الرجال والنسوة الذين يعيشون ضمن هذه الجدران الأربعة
ويرتدون الملابس الصوفية الحشنة السمراء إنما ينعمون بالمساواة وينادي
بعضهم بعضاً « اها الاخ » ، « وأيتها الاخت » . هذا حسن . ولكن ،
هل يعملون شيئاً آخر ؟

نعم .

ماذا ؟

إنهم مجدّقون في الظلمة ؛ إنهم يركعون ؛ إنهم يضمّون يداً الى يد .
ما معنى ذلك ؟

إنهم يصلّون .

لمن ؟

لله .

الصلاة لله . أيّ شيء تعنيه هذه الكلمة ؟

أوجد لانهاية خارج ذواتنا ؟ وهل هذه اللانهاية مفردة ، فطرية ، سرمدية - وهي ذات ماهية بالضرورة ، لانها لانهاية ، ولأنه اذا كانت المادة تعوزها فعندئذ تكون محدودة ، وهي عاقلة بالضرورة ، لانها لانهاية ، ولأنه اذا اعوزها العقل فعندئذ تكون قاصرة ؛ هل نوقظ هذه اللانهاية في نفوسنا فكرة الجوهر ، في حين أننا عاجزون عن ان ننسب الى انفسنا شيئاً غير فكرة الوجود ؟ وبكلمة اخرى ، أليست هي المطلق الذي لا نعدو نحن أن نكون منه بمثابة النسبي ؟

وفيما تقوم لانهاية خارج ذواتنا ، أليس ثمة من لانهاية في ذات نفوسنا ؟ وهاتان اللانهايتان (أيّ مثنى راعب !) ألا تستقرّ احدهما فوق الاخرى ؟ ألا تقع اللانهاية الثانية تحت اللانهاية الاولى ، اذا جاز التعبير ؟ أليست مرآة الاولى وانعكاسها ، وصداها : لجة مشتركة المركز مع لجة اخرى ؟ وهذه اللانهاية الثانية ، أهي عاقلة أيضاً ؟ أهي تفكر ! أهي تحبّ ؟ أها ارادة ؟ واذا كانت اللانهايتان عاقلتين فإن لكل منهما مبدأ مُريداً ، وإن ثمة « أنا » في اللانهاية العليا ، و « أنا » في اللانهاية السفلى . ان الـ « أنا » الفلى هي النفس ، وان الـ « أنا » العليا هي الله .

وإقامتنا الاحتكاك ، من طريق التفكير ، بين اللانهاية السفلى

واللأنهاية العليا هي ما يدعى « الصلاة » .
يتبني ان لا نطرح شيئاً من العقل الانساني . فالكبت شر . يجب
ان نصلح ونحوّل . إن بعض مملكات الانسان موجهة نحو المجهول :
التفكير ، التأمل ، الصلاة . والمجهول اوقيانوس . ما الضير ؟ إنه
إبرة المجهول المغناطيسية . التفكير ، التأمل ، الصلاة - تلك هي اشارات
الأبرة الخفية الكبرى . فلنحترمها . الى اين تتجه إشعاعات النفس المهيبة
هذه ؟ نحو الظلمة ؟ يعني نحو النور .
إن عظمة الديمقراطية تتمثل في أنها لا تنكر شيئاً انسانياً ولا
تتبرأ من شيء انساني . فعلى مقربة من حقوق الانسان ، او الى جانبها
على الاقل ، تقوم حقوق الروح .
أن نسحق ضروب التعصب وأن نجد اللانهاية - ذلك هو القانون .
حذار ان نقصّر أنفسنا على السجود تحت شجرة الخليقة ، ونأمل
أغصانها المألئ بالنجوم . إن علينا واجباً : أن نتقف النفس البشرية ، ان
ننصر اللغز على المعجبة ، أن نهم بما لا يُدرك وننبذ ما لا يتفق
مع العقل ، أن لا نسلّم بشيء لا تعليل له إلا ضمن دائرة الضرورة ،
ان نظهر الايمان ، ان نغمو الحرافة عن وجه الدين ، وأن نزيل
الديدان عن جسم الرب !

٦

خيرية الصلاة المطلقة

أما طرائق الصلاة فكلها صالحة ، شرط ان تكون مخلصة . اقلب
كتابك ظهراً لبطن وكن في اللانهاية .
نحن نعلم ان ثمة فلسفة تنكر اللانهاية . ولكن ثمة ايضاً فلسفة

اخرى مصنفة مَرَضِيّاً ، تُنكر وجود الشمس . هذه الفلسفة تدعى
العمى .

ولأن نجعل من حاسة لا نملكها مصدراً للحقيقة خرباً من الجسارة
الرائعة ينكشف عنه الرجل المكفوف .

والغريب في الامر هو الموقف المتروك ، الراشح بالشفقة ، الشاعر
بالامتياز ، الذي تقفه هذه الفلسفة - التي تتلمس طريقها تلمساً - من الفلسفة
التي ترى الله . انها تحمل المرء على ان يفكر بجُلْدٍ يصيح : « كم
يشيرون شفتي بحديثهم عن الشمس ! »

نحن نعرف ان ثمة ملحدين مشاهير واقوياء . ولكن هؤلاء الرجال
ليسوا في الواقع ، وقد أُعيدوا الى الحقيقة بقوتهم نفسها ، واثقين كل
الثقة من انهم ملحدون . ان المسألة ، في ما يتصل بهم ، لا تعدو
ان تكون مسألة حدٍ او تعزيف . وعلى اية حال ، فاذا كانوا لا
يؤمنون بالله فانهم - لكونهم عقولاً ضخمة - ينهضون دليلاً على
وجود الله .

إننا نحبي ، فيهم ، الفلاسفة ، فيما نحن نخاصم فلسفتهم في غير ما
هوادة .

فلنتابع .

وشيء آخر رائع ، هو سهولة تسوية كل شيء - وفقاً لارتياح المرء -
من طريق الكلمات . والواقع ان مدرسة ميتافيزيكية شمالية 'مشرية'
بعض الشيء بالضباب ، تخيلت انها احدثت ثورة في الادراك البشري
عندما استعاضت عن كلمة « قوة » بكلمة « ارادة » .

ان قولك « النبات يريد » بدلاً من « النبات ينمو » خليق به أن
يكون خصباً بالمعنى اذا اضفت : « الكون يريد . » لماذا ؟ لأن
هذا سوف ينبثق منه : النبات يريد ، اذن فان له « أنا » ؛ الكون
يريد ، اذن فان له الهأ .

أما نحن ، الذين لا نرفض على نفيض هذه المدرسة ، شيئاً ابتداءً *a priori* فإن التسليم بأن للنبات ارادة ، وهو ما تؤمن به هذه المدرسة ، يبدو أخطر من التسليم بأن للكون ارادة ، وهو ما تجعده هذه المدرسة .

ان انكار ارادة اللانهاية ، يعني الله ، لا يمكن ان يتم الا بشرط انكار اللانهاية نفسها . لقد اقننا البرهان على ذلك . وانكار اللانهاية يقود الى العدمية . ان كل شيء يصبح « مفهوماً من مفاهيم العقل » .

ومع العدمية يتعذر النقاش . لأن العدمي المنطقي يشك في ان 'محاوره موجود ، وليس واثقاً كل الثقة من أنه هو نفسه موجود . ومن وجهة نظره ، من الجائز ان لا يكون هو نفسه ، في نظر نفسه ، غير « مفهوم من مفاهيم عقله » .

بيد انه لا يدرك البتة أنه يعترف جملةً بكل ما انكره بمجرد تلفظه بهذه الكلمة : العقل .

والخلاصة ، فإنه ما من سبيل تظل مفتوحة للعقل حين يأخذ المرء بفلسفة تجعل كل شيء ينتهي الى نتيجة واحدة ، هي مقطع « لا ، المفرد » .

وليس لـ « لا » غير جواب واحد هو : « نعم » . ليس للعدمية مدى .

وليس ثمة عدم . فالصفر لا وجود له . وكل شيء هو شيء . لا شيء هو لا شيء .

والانسان يحيا بالاثبات اكثر مما يحيا بالخبر .

بيد أن النظر ولقت النظر لا يكفيان . فالفلسفة يجب ان تكون طاقة . يجب أن يكون جهدها وغايتها السمو بالجنس البشري . ينبغي

ان يدخل سقراط في آدم وينشيء ماركوس اوريليوس * . وبكلمة اخرى ، أن يُطلع من إنسان المتعة إنسان الحكمة ، وأن يحول جنة هذين الى كلية . إن العلم ينبغي ان يكون ودياً . المتعة ! يا لها من غاية بائسة ، ويا لها من مطبخ مهزول ! ان البهية تنعم بالمتعة . التفكير ، ذلك هو انتصار النفس الحقيقي . فتقديم التفكير الى ظمأ الناس ، وإعطاء الجميع فكرة الله بوصفها إكسيرا ، والمؤاخاة عندم ما بين الصغير والعلم ، وجعلهم أناساً مستقيمين بهذا الجمع العجيب - تلك هي مهمة الفلسفة الحقيقية . ان الاخلاق هي الحقيقة مفتحة الأكام . وان التأمل يقود الى العمل . والمطلق ينبغي ان يكون عملياً . والمثل الأعلى ينبغي ان يُجعل هواء وطعاماً وشراباً للعقل الانساني . والمثل الاعلى له وحده الحق في ان يقول : تناولوا ، هذا هو لحمي ، وهذا هو دمي . والحكمة تناول مقدس . وانما على هذا الشرط تكف عن ان تكون جاً عقيماً للعلم لكي تصبح الوسيلة الوحيدة والعليا لجمع شمل الانسانية ؛ لقد ارتقت من مستوى الفلسفة الى مستوى الدين . والفلسفة ينبغي ان لا تكون مجرد برج مراقبة ، منشأ على الالغاز ، ابتغاء التحديق اليها منه ، في دعة ، من غير ما نتيجة سوى ارواء الفضول .

أما نحن فنرجي بسط افكارنا الى مناسبة اخرى مكتفين بالقول اننا لا نفهم ، لا الانسان كنقطة ابتداء ، ولا التقدم بوصفه هدفاً ، من غير هاتين القوتين اللتين هما المحركان الأعظمان : الايمان والحب . التقدم هو الهدف ، والمثل الاعلى هو الصورة الأصلية . وما المثل الاعلى ؟ انه الله .

* امبراطور روماني (١٢١ - ١٨١ ب . م) وقد اقر النظام في الامبراطورية ، وحدث حالة العبيد الارقاء ، وادى خدمة جليلة الى القانون المدني . واشتهر هذا الامبراطور بالحكمة والاعتدال وحب الفلسفة والأدب .

المثل الأعلى ، المطلق ، الكمال ، اللانهاية - كل هذه لا تعدو ان تكون مترادفات .

٧

احتياطات يجب ان تتخذ في اللوم

ان على التاريخ والفلسفة واجبات سرمدية هي ، في الوقت نفسه ، واجبات بسيطة : أن يقاوما « قيافا » * أسقفاً ، ودراكون ** قاضياً ، وتريماليون منشرعاً ، وتيباريوس *** امبراطوراً . وهذا واضح ، مباشر ، صاف ، لا لبس فيه ولا غموض . ولكن الحق في العيش المعتزل ، برغم أضراره ومساوئه ، يجب ان يُثَبَّتَ ويُدْرَسَ في عناية . فالرهبانية مشكلة انسانية .

اننا حين نتحدث عن الأديرة ، تلك المواطن الفارقة في الخطأ ولكن على براءة ، وفي الضلال ولكن على إحسن نية ، وفي الجهل ولكن على تفانٍ ، وفي العذاب ولكن على استشهاد - إننا حين نتحدث عن هذه الاديرة ينبغي ان نقول ، دائماً تقريباً ، « نعم » و « لا » . الدير تناقض - فغايتة الخلاص ، ووسيلته التضحية . الدير هو اعلى مراتب الانانية مؤدية الى اسمى مراتب إنكار الذات . تحلّ عن العرش لكي تتولى مقاليد الحكم - ذلك في ما يبدو هو

* Calphe الكاهن اليهودي الذي حكم على يسوع ، واضطهد الرسل .
** Dracon احد الاراخنة والمشرعين الالبيين ، وكالت أحكامه قاسية الى درجة أنها كُتِبَتْ ، في ما زعموا ، بالدم . (اواخر القرن السابع قبل الميلاد) .
*** Tibère تيباريوس الاول ، ثاني الابطارة الرومان (٤٢ ق . م - ٣٧ م) وكان رجلاً قديراً ولكنه شديد الفسوة كثير الشكوك .

شعار الحياة الرهبانية .

في الدير ، يتألم المرء لكي يبتهج . إنه يسحب حوالةً على الموت .
إنه يحسُّ النور السماوي في الليل الأرضي . في الدير ، 'توتضى جهنم'
بوصفها ثمناً يُدفع مقدماً ابتغاء الفوز بيرات السماء الموعود .
ان اصطناع الحجاب او الثوب الرهباني انتعارٌ تعوّض اللانهاية من
'يقدم عليه .

والذي يبدو لنا أن السخرية ينبغي أن 'تطرح حين يعالج موضوع'
مثل هذا . ان كل ما يتصل به جديّ ، طيّبهٌ وخبيثهٌ على حدّ
سواء .

ان الرجل الصالح يزوي ما بين عينيه ، ولكنه لا يتسم ابداً
ابتسامة شريرة . نحن نستطيع ان نفهم الغضب ، ولكننا لانستطيع
أن نفهم اللؤم .

٨

الايان — القانون

بقيت بضعة كلمات اخرى .

نحن نلوم الكنيسة حين تكون مشبعةً بالكائد . نحن نذري
الروحيّ حين يقسو على الزمني . ولكننا نعظم ، في كل مكان ،
الرجل المستغرق في التأمل .

نحن نتعجب احتراماً للرجل الراكع .

الايان ضرورة انسانية ، والويل لمن لا يؤمن بشيء .

والمرء لا يكون عاطلاً عن العمل لأنه مستغرق في التفكير . ان

تة جهداً منظوراً ، وجهداً غير منظور .

والتأمل جهد . والتفكير عمل .
ان الاذرع المتصالة تشتغل ، وان الايدي المطبقة تعمل . وان
التحديد الى السماء كدح .
لقد سلخ طاليس أربع سنوات جامداً لا يتحرك . لقد انشأ
فلسفة .

وعندنا أن الرهبان ليسوا متبطلين ، وأن الحبساء ليسوا كسالى .
ان التفكير في « الظلمة » هو شيء جدي .
ومن غير ان ننقض البتة ما قلناه اللحظة ، نعتقد أن تذكر القبر
على نحو موصول مناسب للاحياء . وفي هذه النقطة يتفق الكاهن
والفيلسوف : ينبغي ان نغوت . ان الأب « لا تراب » ، يجب
« هوراس » .

ان مزج المرء حياته بشيء من مثول القبر هو شريعة الرجل
الحكيم ، وشريعة الناسك . فمن هذه الجهة يمنح الناسك والحكيم نحو
مركز مشترك .

ان ثمة تقدماً مادياً ؛ نحن نرغب في ذلك . وان ثمة ، ايضاً ،
عظمة اخلاقية ؛ ونحن نقشبث بذلك .
إن العقول الطائشة الرعناء تقول :

— « اي فائدة لهذه الوجوه الجامدة حيال سر الكون ؟ اي
خدمة تؤدي ؟ اي شيء تعمله ؟ »

وأسفاه ! في حضرة تلك الظلمة التي تكتنفنا وتتربص بنا ، غير
عالمين ما الذي سيفعله بنا تبدد الاشياء جميعاً ، نجيب : « جائز ان
لا يكون ثمة عمل اسمى من ذلك الذي تقوم به هذه النفوس » .
ونضيف : « وجائز ان لا يكون ثمة جهد اكثر نفعا » .
إن اولئك الذين يصلون دائماً ضروريون لاولئك الذين لا يصلون
ابداً .

وعندنا ان قوام المسألة كلها رهنٌ بمقدار التفكير الذي يمتزج
بالصلاة .

إن « لاينبتر » ، مصلّياً ، لشيء عظيم . وإن فولتير ، عابداً ،
لشيء جميل . * *Deo erexit Voltaire* .

نحن للدين ضدّ الأديان .
نحن من أولئك الذين يؤمنون بمحقارة الادعية والصلوات ، وبسوء
الصلاة .

والى هذا ، ففي هذه اللحظة التي نجتازها ، وهي لحظة لن تطبع
القرن التاسع عشر ، لحسن الحظ ، بطابعها ، وفي هذه الساعة الحافلة
بكثير من الناس المنخفضة جباههم انخفاضاً كبيراً والمرتفعة نفوسهم
ارتفاعاً يسيراً والمستغرقين بأشياء المادة المختصرة المشوّمة ، يبدو جميع
الذين نقوا انفسهم بأنفسهم موقرين في نظرنا . إن الدير تخلص .
والتضحية بالنفس حتى حين يُساء توجيهها ، تظلّ هي التضحية بالنفس .
ولأن يجعل المرء من خطأ قاسٍ واجباً مفروضاً عليه - هذا الصنيع
له عظمتة الخاصة .

ولو قد نظرنا الى المسألة في ذاتها ، وعرضناها على محكّ الحقيقة حتى
نقتلها من نواحيها جميعاً بجناً مجرداً نزيهاً اذن لوجدنا ان للدير ، ولدير
النساء بخاصة - لأن المرأة في مجتمعنا هي التي تتحمل القسط الاعظم من
الآلام ، وفي منفى الدير هذا عنصر احتجاج - بعض الجلال من
غير شك .

هذا الوجود الرهباني الكالغ المظلم الذي رسمنا بعض ملامحه ليس هو
الحياة ، لانه ليس الحرية ، وليس هو القبر لأنه ليس الكمال . إنه
ذلك الموطن الفريد الذي نلمح من احدى ناحيتيه وكأننا على قمة جبل
عالٍ ، الهوة التي نحن فيها ، ونلمح من الاخرى الهوة التي سوف

* في اللاتينية ، وتعني : « الرب حرك فولتير الى الثورة » .

نصير اليها . انه نخم ضيق كثير الضباب يفصل ما بين
عالمين يضيئه كلاهما ويظلمانه في آنٍ معاً ، حيث يمتزج شعاع الحياة
الواهن بشعاع الموت المبهم . إنه غسق القبر .

أما نحن الذين لا نؤمن بما تؤمن به هاته النساء ولكن نعيش ،
مثلهن ، بالايان فلا نستطيع ان ننظر ، من غير ضرب من الذعر
الرفيق الورع ، ومن غير ضرب من للشفقة المفعمة بالحد ، الى هاته
الكائنات المتفانيات ، الراجفات ولكن الواثقات من انفسهن - تلك
النفوس المتضعة ولكن الجليلة ، التي تجرؤ على العيش على تخنم اللغز
الاعظم نفسه ، منتظرات بين العالم الموحد دونهن والسماء التي لما
تفتح لهن ، متلفئات نحو الضياء الذي لا يربنه وليس لهن من العادة
غير التفكير في انهن يعرفن أين هو ، وقد وُجّهت آمالهن نحو الهاوية
ونحو المجهول ، وسمّرت أعينهن على الظلمة الجامدة ، راكعات ،
مذعورات ، ذاهلات ، مرتعدات ، نصف مرفوعات في بعض الاحيان
بنبضات الأبدية العميقة .

الكتاب الثامن

المقابر تأخذ ما يقدم إليها

١

وهو يعالج طريقة الدخول الى الدير

الى هذا البيت بالذات كان جان فالجان قد « هبط من السماء » ، كما قال فوشلوفان .

كان قد اجتاز جدار الحديقة عند زاوية شارع بولنسو . وكانت تلك الترنيسة الملائكية التي سمعها في جوف الليل هي صلاة السَّحَر تؤدِّيها الراهبات ؛ وكانت تلك القاعة التي لمحا في الظلام هي الكنيسة ، وكان ذلك الطيف الذي رآه ممدداً على الارض هو الراهبة المستغفرة ، وكان ذلك الجلبجل الذي أدهشه صوته على نحو غريب جداً هو جلبجل البستاني

المشهود الى ركبة الأب فوشلوفان .

وحين وُضعت كوزيت في الفراش ، كان جان فالجان وفوشلوفان قد احتسبا ، كما رأينا ، زجاجة من خمر وأكلا قطعة من جبن أمام نار ملتهبة . وإذا كانت كوزيت قد شغلت الفراش الأوحـد في الكوخ ، فقد انطرح كل منها على حزمة من قش . وقبل ان يغبض جان فالجان عينيه كان قد قال : « يجب ان أبقى منذ اليوم ، ههنا . » وكانت بعض هذه الكلمات تطارد بعضها الآخر ، في رأس فوشلوفان ، طوال الليل .

وفي الحق ، ان أياً منها لم يكن قد استسلم للرقاد . فأما جان فالجان ، فقد عَلمَ عَلمَ اليقين - وقد استشعر ان أمره قد اقتضح ، وان جافير بطارده - أنه هالك هو وكوزيت اذا ما رجعا الى المدينة . ومنذ ان قذفت به تلك الريح الجديدة التي هبت عليه ، الى هذا الدير لم يَطُفْ في ذهن جان فالجان غير خاطر واحد : أن يبقى هناك . والواقع ان هذا الدير كان ، لرجل في مثل وضعه الشقي ، آمناً مكاناً وأخطر مكان في وقت معاً . كان اخطر مكان لأنه محظورٌ على الرجال دخولُه . فاذا ما اكتشف جان فالجان فيه يُقبض عليه بالجرم المشهود وعندئذ لا يكون عليه إلا ان يخطو خطوة واحدة من الدير الى الجبن . وكان آمناً مكاناً ، لأنه اذا وُفق الى الفوز بأذن يجيز له البقاء هناك ، فمن ذا الذي سوف يُقبل الى ذلك المكان بحثاً عنه ؟ إن العيش في موطنٍ يمتنع على الناس هو السلامة عينها . وأما فوشلوفان فكان يقدح زناد الفكر . لقد بدأ بأن قرر أنه لا يفهم شيئاً من الأمر . كيف تأتسى لمسيو مادلين ان يفد الى هناك برغم هذه الجدران كلها ؟ إن جدران الدير ليس من اليسير تجاوزها . وكيف اتفق أن كان يصطحب طفلة ؟ إن المرء لا يتسلق جداراً شديداً الانحدار وبين يديه طفلة . من هذه الطفلة ؟ من أين أقبلت كلاهما ؟

فمنذ ان دخل فوشلوفان الدير ، لم يسمع ايما حديث عن مونتيروي سور مير ، ولم يعرف شيئاً بما كان قد حدث . وكانت تغلب على مجي الأب مادلين سيما لا تشجع على طرح الاسئلة ؛ وفوق هذا ، فقد قال فوشلوفان مخاطباً نفسه : « إن المرء لا يستجوب قديماً . » وكانت مسيو مادلين قد احتفظ ، عنده ، باعتبارها كله . غير ان البستاني اعتقد ان في ميسوره ان يستنتج ، من بعض الكلمات التي نددت من جانب فالجان ، ان من الجائز ان تكون الازمة قد انتهت بمسيو مادلين الى الافلاس ، وان يكون دائنوه يلاحقونه ، او ان يكون قد تورط في قضية سياسية فهو يلتمس مفرعاً يجتنب فيه ؛ وهو ما لم 'يجزن فوشلوفان ، البتة ، الذي كان مثل كثير من فلاحينا الشماليين ذا قلب بونابرتي عريق . واذ كان مسيو مادلين يبتغي الاختباء فقد اتخذ من الدير مفرعاً له ، وكان من الطبيعي ان يرغب في البقاء هناك . ولكن الشيء الذي لم يجد له تفسيراً ، والذي كان فوشلوفان يعاود النظر فيه ويحطّم في حله رأسه هو ان يكون مسيو مادلين هنا ، وان تكون هذه الفتاة الصغيرة معه . لقد رأهما فوشلوفان ؛ لقد لمسها ؛ لقد تحدث اليها ؛ ومع ذلك فإنه لم يصدق هذا . كان لغز من الالغاز قد اتخذ سبيله الى كوخ فوشلوفان . وكان فوشلوفان يجبط في غمرة من الظنون والأحداث ، ولكنه لم يرَ على نحو واضح غير هذا : لقد أنقذ مسيو مادلين حياتي . ولقد كانت هذه الواقعة اليقينية الوحيدة كافية ، فاذا هي تمسكه على ان يحزم أمره . وقال في ذات نفسه : « لقد جاء دوري الآن . » واضاف في وجدانه : « إن مسيو مادلين لم يفكر طويلاً الى هذا الحد عندما كان الموقف يقتضيه ان يُقيم نفسه تحت العربة لكي يسعيني من هناك . » ووطن العزم على ان ينقذ مسيو مادلين .

ومع ذلك ، فقد طرح على نفسه عدة اسئلة وأجاب عنها عدة أجوبة : « بعد الذي أسداه اليّ من معروف ، أبتعن عليّ ان أنقذه

ولو كان لصاً من الصوص ؟ - - سيان . - - واذا كانت
سفاكاً ، فهل ينبغي لي أن أنقذه ؟ - - سيان . - - وبما أنه
قدّيس ، فهل سأنقذه ؟ - - سيان . - -

ولكنّ ابقاءه في الدير هو المشكل الأكبر ! ولم ينكص فوشلوفان
أمام هذه المحاولة التي توسّك أن تكون وهمية . الواقع أن هذا الفلاح
البيكاردي المسكين ، الذي لم يكن لديه سلّم غير تفانيه واستعداده
للعمل الصالح وقليل من الذكاء الريفيّ القديم الموضوع هذه المرة في
خدمة غرض كريم ، أقدم على تسليق مستحيلات الدير ، ومنعدرات
نظام للقدّيس بينوا الوعرة . فقد كان فوشلوفان رجلاً عجوزاً سلخ حياته
كلها أنانياً ، حتى إذا بلغ أرذل العمر ، أعرج عاجزاً ، ولم يعد له
من أرب في الحياة وجد متعة في أن يكون معترفاً بالجيل . وإذا لمج
محمّدة تغريه بالنهوض بها اندفع نحوها ، مثل رجل يري في متناوله
على عتبة الموت ، كأساً من خمر جيدة لم يذق مثلها قط من قبل ،
فهو يكرعها في نهم . وفي استطاعتنا أن نضيف أن الهواء الذي تنشقّه
طوال سنوات عدة في هذا الدير كان قد حطّم شخصيته ، وقدّم إليه
آخر الامر ، عملاً صالحاً ضرورياً له .

وصاغ قراره : أن يَنذِرَ نفسه لانقاص مسير مادلين .

لقد وصفناه المعطة بقولنا انه فلاح بيكارديّ مسكين . ان هذا
الوصف صحيح ، ولكنه ناقص . وفي هذه المرحلة التي انتهينا اليها من
القصة أمسى من الخير أن نتعرّف الى فوشلوفان تعرّفاً أوثق . كان
فلاحاً ، ولكنه كان قبل ذلك كاتباً عدلاً ، وهو ما اضاف الى ذكائه
حذاقةً ، والى سذاجته أليّة . حتى اذا اخفق في اعماله لأسباب مختلفة ،
هبط من كاتب عدل الى سائق عربة وعامل . ولكنه كان قد احتفظ ،
برغم الشتائم وضربات السياط الضرورية للخيل في ما يبدو ، بشيء من
شبهة الكاتب العدل في نفسه . كان لا يخطئ في تصريف الافعال ،

وكان 'يحسن الحديث' ، وهو شيء نادر في القرية . وكان الفلاحون الآخرون يقولون : انه يتحدث مثل رجل ذي قبعة ، تقريباً . والواقع ان فوشلوفان كان من ذلك الضرب الذي دعتة معجبة القرن الماضي الحفيفة الماجنة « نصف بورجوازي ، نصف وبيي » ، والذي ألصق عليه الاستعارات المأبطة من القصر الى الكوخ ، في خزائن دناءة النسب ، هذه البطاقات : « نصف فظ » ، نصف متحدث - فلفل وملح » . وكان فوشلوفان ، برغم ان القدر ابتلاه كثيراً ، وأبلاه كثيراً حتى أمسى أشبه بنفس هرمة بائسة تهرأت خيوط نسيجها ، كان رجلاً سريعاً الى الانفعال ، ذا قلب مطاوع ، وهي خصلة ثينة تحول بين المرء وبين ان يكون شريراً في يوم من الايام . وكانت عيوبه ونواحي ضعفه ، اذ كان له نصيبه منها ، سطحية غير ذات خطر . واخيراً ، فقد كانت طلعته من ذلك الضرب الذي يلفت انتباه المراقب . فلم يكن في ذلك الوجه المعجوز ايّ من تلك التجاعيد البشعة ، التي تكون في أعلى الجبين والتي تنم عن الحب أو البله .

وعند انبلاج الفجر ، وبعد ان رأى في المنام أحلاماً هائلة ، فتح فوشلوفان عينيه ، فأبصر مسيو مادلين جالساً على كومة قش ، رانياً الى كوزيت المستسلمة للرقاد . ونهض فوشلوفان نصف نهضة ، وقال : - « والآن وقد أصبحت هنا ، ما السبيل التي تعتزم انتهاجها للدخول ؟ »

لقد لحّص هذا السؤال الموقف كله ، وأيقظ جان فالجان من تفكيره الخالم .

وتشاور الرجلان . فقال فوشلوفان :

- « قبل كل شيء » ، انك لن تضع قدماً خارج هذه الغرفة . لا أنت ولا الطفلة الصغيرة . ان خطوة واحدة في الحديقة تعني هلاكنا . - « هذا صحيح . »

واستأنف فوشلوفان حديثه :

— « مسيو مادلين ، لقد وصلت في وقت جيد جداً ، أعني في وقت سيء جداً . ان احدى هاته الراهبات مريضة على نحو خطر . من أجل ذلك تجد أنهم لا ينظرون كثيراً الى ناحتينا . لا شك في انها 'تختصر' . أنهم يتلون صلوات الاربعين ساعة . والجماعة كلها في قلق وارتيابك . ان ذلك يتأثر باهتمامهم . فالمرأة الموشكة على الرحيل هي قديسة . والواقع ، أننا جميعاً قديسون هنا . كل ما بينهن وبينني من فرق هو أنهم يلقن : « قلوبنا » ، في حين اقول أنا : « كوخني » . أنهم يعتزمن اداء صلاة الاحتضار ، ثم صلاة الموت . اننا سوف نكون آمنين اليوم ، في هذا المكان . ولكنني لست ادري ما الذي سيحصله الينا الغد . »

فلاحظ جان فالجان :

— « ومع ذلك ، فهذا الكوخ قائمٌ تحت زاوية الجدار . انه محجوب بضرب من البناء الحربي . ان ثمة اشجاراً . إنهم لا يستطيعون ان يربطوه من الدير . »

— « وانا اضيف ان الراهبات لا يقتربن منه البتة . »

فقال جان فالجان :

— « حسناً ؟ »

وكانت علامة الاستفهام التي تبعت تلك الكلمة تعني : يبدو لي ان في استطاعتنا ان نظل محبسين هنا . وكان جواب فوشلوفان عن علامة الاستفهام هذه ان قال :

— « هناك الفتيات الصغيرات . »

فسأله جان فالجان :

— « أية فتيات صغيرات ؟ »

ولم يكف فوشلوفان يفتح فمه لشرح الكلمات التي نطق بها منذ لحظة

حتى سَمِعَ الناقوس يقرع قرعة واحدة .
وقال :

« لقد ماتت الراهبة . هوذا الناقوس ينعماها . »
وأشار الى جان فالجان بأن يصفي .
وقرع الناقوس مرة ثانية .

« انه النعمي » ، يا مسيو مادلين . ان الناقوس سوف يقرع مرة
كل دقيقة ، طوال اربع وعشرين ساعة ، حتى يغادر الجثمان الكنيسة .
وفي العطل ، لا تكاد الكرة تجري الى هنا حتى يندفعن برغم الأنظمة
ويعتن عنها مبعثرات كل شيء . إن هاته الملائكة الفاتنات شياطين
حقاً . »

فتساءل جان فالجان :

« مَنْ ؟ »

« الفتيات الصغيرات . سوف يُكْتَشَفُ أمرُك في وقت قريب .
انهم سوف يصنعون : « ماذا ؟ رَجُلٌ ؟ » ولكن ليس ثمة خطرٌ ،
اليوم . لن تُعطى الفتيات عطلة . سوف يُخصَّصَ النهار كله للصلاة .
أنت تسمع الناقوس . دقة واحدة كل دقيقة ، كما قلت لك . انه النعمي . »
« لقد فهمت » ، ايها الاب فوشلوفان . هناك طالباتٌ داخلات . »

وفكّر جان فالجان في ما بينه وبين نفسه :

« هنا ، اذن ، تستطيع كوزيت ان تتلقى العلم ايضاً . »

وهتف فوشلوفان :

« وحقّ الآلهة ! لو رأيتك الفتيات الصغيرات ! اي صبيحة
سوف يطلقن حين تقع أعينهن عليك ! وبأية سرعة سوف يولن فراراً .
فلأن يكون المرء ، هنا ، رجلاً ، اشبهُ شيء بالطاعون . ألا ترى
كيف شدّدن الى رجلي جلجلاً وكأنني وحش ضار ؟ »

وفكّر جان فالجان أعمق فأعق . ونتم :

- « الدبر سوف ينقذنا . »

ثم رفع صوته :

- « نعم ، الصعوبة هي في البقاء . »

فقال فوشلوفان :

- « لا . انها في الخروج . »

وأحس جان فالجان بالدم يجري بارداً في عروقه .

- « في الخروج ؟ »

- « أجل يا ميسو مادلين ، لكي تدخل ينبغي ان تخرج . »

وبعد ان انتظر احدى قرعات الناقوس حتى تتلاشى ، استأنف

فوشلوفان حديثه :

- « ليس من الخير ان يجذّتك هنا على هذا الشكل . من أين

أقبلت ؟ اما انا فأعتقد انك سقطت من السماء ، لأنني أعرفك . وأما

الراهبات فسوف يعتقدن أنك دخلت من الباب . »

وفجأة سمعا قرعاً معقداً منبعهاً من ناقوس آخر .

فقال فوشلوفان :

- « اوه ! هذا الناقوس يدعو الأمهات الصوتيات . انهن يذهبن

الى مجلس الراهبات . ذلك انهن يعتقدن مجلأً كلما مات شخصٌ ما . انها

لم تمت مع الفجر . والناس انما يموتون عادة ، مع الفجر . ولكن ألا

تستطيع ان تخرج من حيث دخلت ؟ دعنا نرى . انا لا استجوبك ،

ولكن من أين دخلت ؟ »

وشعب وجه جان فالجان . كان في مجرد التفكير بالهبوط من جديد

الى ذلك الشارع الرهيب ما اوقع الرعدة في اوصاله . أخرج من غابة

ملأى بالأغار ، ثم تحيّل ، بعد ان نجوت بنفسك ، ان صديقاً لك

ينصحك بالعودة ! وتحيّل جان فالجان ان رجال البوليس كلهم لا يزالون

يجوبون الشوارع ، وأن الشرطة تتربّص به ، وان العسس في كل مكان ،

وَأَنْ كَبَخَات رَهِيَّة تَمُدُّ لِلأَخَذ بِخَنَاقِهِ . وَلَعَلَّ جَافِيرَ أَنْ يَكُونَ فِي زَاوِيَةِ
الْمُفَرَّقِ . »

فَقَالَ :

— « مُسْتَحِيلٌ . إِفْتَرَضْتُ أَنِّي هَبَطْتُ مِنَ السَّمَاءِ . »
فَأَجَابَهُ فَوْشَلُوفَانُ :

— « آه ! أَنَا أَصَدَّقُ ذَلِكَ ، أَنَا أَصَدَّقُ ذَلِكَ . لَا دَاعِيَّ إِلَى أَنْ
تُخْبِرَنِي . لَا بَدَّ أَنْ اللَّهَ قَدْ أَخَذَ بِيَدِكَ ، لَكِي يَرَى إِلَيْكَ عَنْ كَثْبٍ ،
ثُمَّ أَفْلَتَكَ . كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَضَعَكَ فِي دَيْرٍ لِلرِّجَالِ .
لَقَدْ أَخْطَأَ . اسْمِعْ ، النَّاقُوسُ يُقْرَعُ مَرَّةً أُخْرَى . هَذَا تَنْبِيْهُهُ لِلْبُؤَابِ
لَكِي يَنْذِعُ إِلَى الْبَلَدِيَّةِ وَيَحِيطُ رِجَالَهَا عِلْمًا بِالْحَادِثِ ، لَكِي يَنْذِعُوا وَيُعْلَمُوا
طَبِيبَ الْأَمْوَاتِ فَيَجِيءُ وَيَتَحَقَّقُ مِنْ أَنْ ثَمَّةَ امْرَأَةٍ مَيِّتَةٍ ، وَهَذِهِ كُلُّهَا
طَقُوسٌ خَاصَةٌ بِالْوَفَاةِ ، وَهَؤُلَاءِ السِّدَاتُ الطَّيِّبَاتُ لَا يَرْحَبْنَ بِهَذِهِ الزِّيَارَةِ
كَثِيرًا ، فَالْأَطْبَاءُ لَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ . أَنَّهُمْ يَرْفَعُونَ الْحِجَابَ ، بَلْ أَنَّهُمْ
يَرْفَعُونَ شَيْئًا آخَرَ ، فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ . وَلَكِنْ مَا أَمْرَعُ مَا أَعْلَنُ
الطَّبِيبِ ، هَذِهِ الْمَرَّةُ ! فَمَا الْقِصَّةُ ، يَا تَرَى ؟ أَنْ صَغِيرَتِكَ لَا تَزَالُ نَائِمَةً .
مَا اسْمُهَا ؟ »

— « كُوزَيْتُ . »

— « أُمِّي بَنَتَكَ ، يَعْنِي أَنَّكَ جَدُّهَا ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

— « نَعَمْ . »

— « أَنْ الْخُرُوجَ مِنْ هُنَا سَهْلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا . أَنْ عِنْدِي بَابًا خَاصًّا بِي
يَنْفَتَحُ عَلَى الْفَنَاءِ . سَوْفَ أَقْرَعُهُ . فَيَفْتَحُ الْبُؤَابَ . وَلَسَوْفَ أَهْمَلُ سَلْتِي
عَلَى ظَهْرِي ، وَفِي جَوْفِهَا الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ . وَلَسَوْفَ أَخْرَجُ . الْآبُ فَوْشَلُوفَانُ
يُخْرِجُ حَامِلًا سَلْتَهُ ، هَذَا كُلُّهُ هَيِّنٌ . وَلَسَوْفَ تَطْلُبُ أَنْتَ إِلَى الْفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ
أَنْ تَلْتَزِمَ السَّكِينَةَ . وَلَسَوْفَ تَكُونُ مَحْبُوبَةً بِغَطَاءٍ . وَلَسَوْفَ أَتْرَكُهَا
بِأَمْرَعُ مَا أَسْتَطِيعُ ، عِنْدَ صَدِيقَةٍ لِي طَبِيبَةٍ عَجُوزٍ ، بَالِغَةٍ خُضْرٌ وَفَاكِهِةٌ ،

في شارع الطريق الأخضر ، . وهذه الصديقة صماء ، وعندها سرير صغير . وسوف اصرخ في اذن بائنة الحضر والفاكهة أنها ابنة اخ لي ، وأسألها ان تحافظ عليها حتى يوم غد . ثم ان الفتاة الصغيرة سوف ترجع معك ، لاني سوف اردّها اليك . يجب ان يتم هذا . ولكن كيف السبيل الى الخروج من هنا ؟ ،
وهز جان فاجان رأسه .

- « لا تدع احداً يراني ؛ هذا كل شيء » ، ايها الاب فوشلوفان .
ابحث عن وسيلة ما لاجراحي انا ايضاً ، مثل كوزيت ، في سلة او تحت غطاء .

وحك فوشلوفان أذنه بالأصبع الوسطى من يده اليسرى ، وهي علامة على الارتباك الشديد .
والهما قرق الناقوس ، سرة ثالثة ، بعض الألمان .
وقال فوشلوفان :

- « هوذا طبيب الأموات يمضي لسبيله . لقد رأها ، وفرر أنها ميتة . هذا حسن . وجن يؤشر الطبيب على الجواز الموصل الى الجنة يبحث متعهدو مواكب الدفن بتابوت . فاذا كانت « أمأ » كفتتها « الامهات » . واذا كانت « أخناً » كفتتها « الأخوات » . حتى اذا تم ذلك دفنت المسامير في النعش . ان هذا جزء من عملي كبستاني . فالبستاني ضرب من حفار القبور . انهن يضعنها في غرفة منخفضة في الكنيسة المتصلة بالشارع ، حيث لا يستطيع رجل ما أن يدخل ، باستثناء طبيب الموتى . أنا لا أعد نفسي وحمة النعش رجلاً . وفي تلك الغرفة أدق المسامير في النعش . ويقبل حمة النعش ويأخذونها ، ويعمل السائق سوطه ! هكذا يذهب الى الجنة . انهم يجيئون بصندوقه ليس فيه شيء ، ثم يعودون به وفي داخله شيء . فلك هي حقيقة

الدفن . *De profundis* *

وشعّ خيط من خيوط الشمس المشرقة ، على وجه كوزيت النائمة التي بدت - وقد فتحت فيها نصف فتحة على نحو حالم - وكأنها ملاك يعبّ الضياء عباً . كان جان فالجان ينظر إليها . انه ما عاد يصغي الى فوشلوفان .

ولكن عدم الاصغاء ليس سبباً كافياً للصمت . وهكذا واصل البستاني العجوز الصالح لغوّه المماد ، في ثؤدة وهدوء :

- « لقد أُعيدَ الجثث في مقبرة فوجيوار . ويدّعون أن مقبرة فوجيوار هذه سوف تُلغى . انها مقبرة عتيقة ، لا تنسجم مع الانظمة ، ولا ترتدي اللباس الموحد ، ولسوف نحال الى التقاعد . أنا آسف من أجل ذلك ، لانها مقبرة ملائكة . ان لي صديقاً هناك ، هو الأب ميتين ، حفار القبور . وللراهبات في هذا الدير امتياز يخولهن الحق في أن يحملن الى تلك المقبرة عندما يهبط الليل . ان ثمة أمراً صادراً عن مديرية الشرطة ، خاصاً بهنّ . ولكنّ أيّ شيء قد حدث منذ أمس ! لقد توفيت الأم كروسييفكيون والأب مادلين ... »
فقال جان فالجان مبتسماً ابتسامة محزونة :

- « قد دُفن . »

ورجع فوشلوفان الكلمة .

- « يا الهي ، لو قضيت حياتك كلها هنا اذن لكان ذلك دفناً حقيقياً . »

وقرّع الناقوس للمرة الرابعة . فسارع فوشلوفان الى نزاع واقية ركبته ذات الجلبجل عن المسمار المعلقة به ، وأعاد شدها حول ركبته .
- « الناقوس يدعوني ، أنا ، هذه المرة . ان الام الرئيسة محتاجة اليّ . حسن ، أنا أخزّ نفسي بلسان ابزيمي . مسيو مادلين ، لا

* تعبير لاتيني معناه : من الاعماق .

تتحرك ؛ انتظري . هناك شيء جديد . وإذا كنتَ جائعاً فهي ذي الحُر ،
والخبز ، والخبز .

وغادر الكوخ وهو يقول :

— « لقد جئتُ ا لقد جئتُ ا »

ورآه جان فالجان يجتاز الحديقة مسرعاً ، على قدر ما تسمح له
رجله العرجاء بذلك ، ناظراً في الوقت نفسه الى بطيخاته نظراً جانبيّاً .
وبعد عشر دقائق ، او اقلّ ، قرع الاب فوشلوفان — الذي كان
جلجله يحمل الراهبات على الفرار فيما هو يتقدم — أحدَ الابواب قرعاً
رفيقاً ، فأجابه صوت عذب : « الى الابد ا الى الابد ا » ، يعني :

« ادخل . »

كان ذلك الباب هو باب غرفة الاستقبال ، المخصص للبستاني يستعمله
حين يحتم الموقف الاتصال به . وكانت غرفة الاستقبال هذه ملاصقة
لقاعة مجلس الراهبات . كانت الرئيسة جالسة على الكرسي الواحد ،
في غرفة الاستقبال ، تنتظر فوشلوفان .

٢

فوشلوفان يواجه الصعوبة

ان سماء قلعة رزينة نميز ، في ساعات الحرج ، بعض الطبايع وبعض
المهن ، ونميز بخاصة رجال الدين وجماعة الرهبان . ولحظة دخل
فوشلوفان غرفة الاستقبال ، كانت آية المهمّ المزدوجة تلك تطبع عينا
رئيسة الدير الآنسة « دو بلومور » الفاتنة الواسعة العلم — الأمّ
اينوسانت التي كانت مبهجة الفؤاد عادة .
وانحنى البستاني بتحية جازعة ، ووقف عند عتبة القليّة . كانت

الرئيسة تَمرَّ حبات سبحتها تحت إبهامها ، فما إن رأتَه حتى رفعت عينيها وقالت :

« آه ! هذا أنت ، أها الاب فوفان . »

كان هذا الاختصار مألوفاً في الدير .

وانحنى البستاني كرة أخرى .

« أها الاب فوفان ، لقد دعوتك . »

« ها أنا ذا ، أيتها الأم الموقرة . »

« أريد ان اتحدث معك . »

فقال فوشلوفان في جراءة اوقعت الرعب في نفسه هو :

« وأنا ، من فأجيتي ، عندي شيء أقوله للأم الموقرة جداً . »

ونظرت الرئيسة اليه :

« آه ، عندك ما تُسر به إليّ . »

« عندي توسل . »

« حسناً ، ما هو ؟ »

كان الرجل الطيب فوشلوفان ، الكاتب العدل السابق ، ينتمي الى ذلك الضرب من الفلاحين الذين لا يعتريهم القلق والاضطراب ابداً . إن مزيجاً معيَّناً من الجهل والبراءة ليؤلف قوة ؛ انك لا ترقاب فيه ، وإنه ليستحوذ عليك . ففي أقل من سنتين سلخهما فوشلوفان في الدير وفتق الى ان يحقق نجاحاً في مجتمع الراهبات ذاك . كان وحده دائماً . وحتى فيما كان يُعنى بجديقه لم يكن لديه في الاعم الاغلب ما يعمله غير أن يكون فضولياً . واذ كان على مبعده من جميع هاته اللسوة الغاديات الرائحات فقليلاً ما كان يرى أمامه غير ظلال مرفوفة . وبفضل حسن الانتباه ونفاذ البصيرة نجح في أن يكسو هذه الاطيان كلها رداءً من اللحم ، فاذا هؤلاء الموتى أحياء في نظره . كان أشبه بأصم اكتسب بصره حديثاً ، وبأعمى غدا سمعه مرهفاً . لقد أفرغ همهته في استكناه

المعاني التي تنطوي عليها مختلف دقات النافوس ، فوقت إلى ذلك حتى لم يعد في ذلك الدير الغامض الصوت شيء مخبوء عنه . لقد نطق أبو المول هذا ، مثرثراً ، مفرغاً امراره كافة في أذنيه . واذ عرف فوشلوفان كل شيء ، فقد أخفى كل شيء . كان ذلك هو فته . لقد حسب الدير كله أبلاً ؛ وتلك ميزة عظيمة في الدين . و « الامهات » كن يقمن وزناً لفوشلوفان . كان أخرس نادر المثال . وكان يرحي بالثقة . وإلى هذا ، فقد كان نظامياً ، ولم يكن ليغادر الدير البتة ، إلا إذا دعت إلى ذلك حاجة ملحوظة من حاجات الحديقة والبستان . وكانت هذا السلوك الرصين موضع إعجاب الراهبات . ومع ذلك فقد اطلع على أسرار رجلين اثنين : بواب الدير ، الذي كان يعرف غرائب غرفة الاستقبال ، وحقار للقبور ، الذي كان يعرف فرائد الجبانة . وعلى هذا النحو فقد كان يملك ضوءاً مزدوجاً ، في ما يتصل بهاته الراهبات . فأما أحدهما فمسلط على حياتهن ، وأما الآخر فمسلط على ممانتهن . ولكنه لم يسيء استعمال ذلك . وكانت جماعة الراهبات شديدة الولوع به . هرم ، اعرج ، لا يرى شيئاً . ولعله ان يكون اصم بعض الشيء - يا لها من سجايا وافرة ! إن من العسير إخلال امريء ما محله .

وفي مثل ثقة الرجل الشاعر بأنه موضع التقدير ، القى الرجل الطيب في حضرة الرئيسة الموقرة خطاباً رقيقاً مطولاً جداً ، حميماً جداً . لقد أصهب في الكلام على عمره ، وعلى أسقامه ، وعلى عبء السنين الذي أمسى منذ اليوم مزدوج الوطأة عليه ، وعلى مطالب عمله المتزايدة ، وعلى اتساع الحديقة ، وعلى الليالي التي يتعين عليه أن يسليها - شأنه الليلة البارحة مثلاً - حين اضطر إلى ان يبسط 'حضر القصب' على مساكب البطيخ من جراء القمر . واخيراً ختم كلامه بقوله إن له أخاً (وهذا اجفلت رئيسة الدير) ، أخاً لبس شاباً (واجفلت الرئيسة إجمالة ثانية ، ولكنها راسخة) وإن في استطاعة هذا الاخ ان يأتي -

إذا كان ذلك مرغوباً فيه - ويعيش معه ويعد إليه يد المساعدة ، وإنه كان بستانياً ممتازاً ، وإن الجماعة تستطيع ان تتوقع منه خدمات افضل من تلك التي يؤديها هو إليها ؛ على حين أنه ، إذا لم يلحق أخوه بالدير ، فسوف يضطر هو - بوصفه الأكبر سنّاً ، وقد استشعر الشيخوخة والعجز عن النهوض بعبء العمل - الى مغادرة الدير ، آسفاً لذلك أعظم الاسف ، وإن لآخيه بنتاً صغيرة سوف تصحبه ، وسوف يكون في ميسورها ان تنشأ تحت راية الله في الدير ، ولعلها ان تصبح - فمن يدري ؟ - في يوم من الايام ، راهبة .

حتى اذا انتهى ، كفتت الرئيسة عن إمرار حبّات السبعة من خلال اصابعها ، وقالت :

- « هل نستطيع ، من الآن حتى المساء ، أن نحصل على قضيب حديدي قوي ؟ »

- « لأي غرض ؟ »

- « لكي نتخذ منه 'مُخلّلاً' . »

فأجابها فوشلوفان :

- « نعم ، ابتها الأم الموقرة . »

ونفضت الرئيسة ، من غير ان تضيف كلمة واحدة ، ومضت الى الغرفة التالية التي كانت قاعة مجلس الراهبات حيث كانت الامهات الصوتيات مجتمعات في اغلب الظن . وبقي فوشلوفان وحيداً .

٣

الأم اينوسانت

وانقضى ربع ساعة تقريباً . ورجعت الرئيسة وجلت على الكرسي

من جديد .

وبدا كلُّ منهما مستغرقاً في التفكير . وها نحن ننقل ههنا ، احسن ما نستطيع النقل ، ذلك الحوار الذي تلا :

- « أيها الأب فوقان ؟ »

- « ايها الام الموقرة ؟ »

- « انت تعرف الكنيسة جيداً ؟ »

- « إن لي قفصاً صغيراً هناك أسمع منه للقداس والخدمات

الدينية . »

- « وهل دعتك امالك الى ان تدخل في يوم من الايام الجزء

الخاص بالجوقة ؟ »

- « مرة او ثلاث مرات . »

- « إن ثمة حجراً ينبغي ان يُرفع . »

- « أهو ثقيل ؟ »

- « إنها البلاطة الموضوعة الى جانب المذبح . »

- « الحجر الذي يغطّي الكهتف ؟ »

- « نعم . »

- « هذه مناسبة تنهض دليلاً على ان من الخير ان يكون ههنا

رُجلان . »

- « الأمّ صمود ، القوية مثل الرجال ، سوف تساعدك . »

- « مهما بلغت المرأة من القوة تظلّ اضعف من ان تضاهي الرجل . »

- « ليس عندها غير امرأة واحدة لتساعدك . وكلّ يعمل على قدر

طاقته . إن المعلم مائبيون يعطينا اربعمئة وسبع عشرة رسالة من

القدّيس برنارد ، في حين يعطينا ميرونوس هورستينوس ثلاثمئة وسبعاً

وستين لبس غير ، ولكن هذا لا بدعوني الى احتقار ميرونوس

هورستينوس . »

- « وانا كذلك . »
- « إن قيمة كل منا تقاس بمقدار مـمـه بالنسبة الى قوـته . إن الدير ليس مصنعاً للفن . »
- « والمرأة ليست رجلاً . إن اخي هو القوي ! »
- « والى هذا فسوف يكون عندك 'محل' . »
- « هذا هو المفتاح الوحيد الذي يناسب ذلك للضرب من الابواب . »
- « هناك حلقة في الحجر . »
- « ولسوف أـمـرّ المحل من خلالها . »
- « ولقد أقيم الحجر بطريقة تجعله يدور على محور . »
- « حسن جداً ، ابتها الأم الموقرة . سوف أفتح الكهـيـف . »
- « والامهات الاربع المرتلات سوف يساعدنك . »
- « وبعد أن يُفتح الكهـيـف ؟ »
- « يجب ان يُغلق من جديد . »
- « أهذا كل شيء ؟ »
- « لا . »
- « أصدرى الى اوارك ، ابتها الأم الموقرة جداً . »
- « فوفان ، إن لنا ثقة فيك . »
- « انا هنا لكي أعمل كل شيء . »
- « ولكي تسكت عن كل شيء . »
- « نعم ، ابتها الأم الموقرة . »
- « وحين يُفتح الكهـيـف ... »
- « أغلقه من جديد . »
- « ولكن قبل ... »
- « ماذا ، أبتها الام الموقرة ؟ »
- « يجب ان يُنـزَل شيء الى هناك . »

وران الصت . وبعد اختلاجة من شفتها الصغيرة بدت اشبه
بالتودد ، أضافت الرئيسة :

- « ايها الأب فوفان ؟ »
- « اينها الأم الموقرة ؟ »
- « انت تعلم ان احدى الامهات ، توفيت هذا الصباح . »
- « لا . »
- « انت لم تسمع للناقوس اذن ؟ »
- « إن المرء لا يسمع شيئاً في أقصى الحديقة . »
- « حقاً ؟ »
- « إني لا أتبيّن دقة الجرس الخاصة بي إلا بشقّ النفس . »
- « لقد ماتت مع الفجر . »
- « وإلى هذا ، فان الريح لم تهبّ صوبي ، هذا الصباح . »
- « إنما الأم كروسيفكيون . احدى الطوباويات . »
- وصمتت رئيسة الدير ، وحركت شفتيها لحظةً وكأنها تصلي صلاة
ذهنية ، ثم استأنفت كلامها :
- « منذ ثلاث سنوات ، ولجرت رؤيتها الأم كروسيفكيون ،
رجعت امرأة ينسينية * الى الطريق القويم . »
- « آه ، أجل . أنا أسمع النعمة الآن ، اينها الأم الموقرة . »
- « لقد حملتها الامهات الى حجرة الموتى ، المؤدية الى الكنيسة . »
- « ادري . »
- « ليس في استطاعة رجل غيوك ان يدخل الى تلك الحجرة ،
ولا يجوز له أن يفعل . انتبه جيداً . فسوف يكون من المستغرب أن
يُرى رجلٌ داخلًا الى حجرة الموتى ! »

* Janséniste من اتباع ينسنيوس Jansénius اللاهوتي الاسباني (١٥٨٥ - ١٦٣٨)
وكان له آراء خاصة في للنمة وحرية الارادة اثارت عليه نامة للكنيسة الكاثوليكية .

- « في الأغلب ! »
- « هيه ؟ »
- « في الأغلب ! »
- « ماذا تقول ؟ »
- « أقول في الاغلب . »
- « اغلب من ماذا ؟ »
- « ابتها الأم الموقرة . انا لا أقول اغلب من ماذا . أنا أقول
في الاغلب . »

- « لست أفهك . »
- « لماذا تقول في الاغلب ؟ »
- « لكي أقول كما تقولين ، ابتها الأم الموقرة . »
- « ولكني لم أقل في الأغلب . »
- « انت لم تقوليها . ولكني قلتها لكي أقول كما تقولين . »
وأعلنت الساعة التاسعة .
فقالت الرئيسة :

- « في الساعة التاسعة من الصباح ، وفي كل ساعة ، الحمد والسجود
لقربان المذبح الأقدس . »
فقال فوشلوفان :
- « آمين ! »

ودقّت الساعة في الوقت المناسب . لقد وضعت حداً للنقاش حول
« في الاغلب » تلك . ولولا ذلك لكان من الجائز ان لا توفق
الرئيسة وفوشلوفان الى الخروج من تلك الورطة أبد الدهر .
ومسح فوشلوفان جبينه .
ونمت الرئيسة نومةً قلبيةً قصيرة اخرى ، لعلها مقدسة ، ثم
رفعت صوتها :

- « كانت الأم كروسيفكيون تردّ الناس ، في حياتها ، الى طريق الدين القويم . وفي ممانها ، سوف تجترح العجائب . »
- « إنها سوف تفعل ! ، كذلك اجاب فوشلوفان ، مصحّحاً خطوته ، باذلاً جهداً لكي لا يخطئ . كرة اخرى . »

- « ايها الأب فوفان ، لقد بورك جماعة الدير بفضل الأم كروسيفكيون . ولا ريب في أنه لم يقيّض بلبيع الناس أن يموتوا مثل الكاردينال دو بيروول وهو يتلو القداس الطاهر ، وان يلفظ نفسه الأخير وهو ينطق بهذه الكلمات : *Hanc igitur oblationem* * . ولكن من غير أن تتم الام كروسيفكيون بهذه السعادة كلها ، فقد حظيت بميتة نفيسة . لقد احتفظت بوعيا حتى النهاية . لقد تحدثت الينا ، ثم تحدثت الى الملائكة . لقد اصدرت اوامرها الاخيرة الينا . ولو كان لك إيمان أكبر بعض الشيء ، ولو كان في ميسورك ان تدخل الى قلبتها إذن لشفت رجليك بجمرها لمها . لقد ابتسمت . ولقد شعرت بأنها تعود الى الحياة بالرب . كان ثمة شيء من الجنة في تلك الميتة . »
وحسب فوشلوفان أنه كان يصفى الى صلاة ، فقال :

- « آمين ! »

- « ايها الأب فوفان ، يجب ان تنفّذ رغبات الموتى . »
وأحست الرئيسة بضع حبات من سبحتها ، وكان فوشلوفان صامتاً . ثم تابعت :

- « لقد استشرت في هذه المسألة عدداً من الاكليركيين العاملين في خدمة الرب ، المنصرفين الى اداء المهام الكهنوتية في نجاح كبير . »
- « ايها الأم الموقرة ، ان المرء يسمع النعي هنا أحسن مما يسمعه في الحديقة بكثير . »

- « وفرق هذا ، فأنها اكثر من ميتة . إنها قديسة . »

« عبارة لاثنية تردد عند الشروع في القداس . ومنهاها مقدمة القربان .

- « مثلك ، أيتها الأم الموقرة . »
- « لقد نأمت في نعشها منذ عشرين عاماً ، بأذن خاص من أبينا المقدس ييوس السابع . »
- « ذلك الذي تَوجَّع الامة بئوؤناوت . »
- وبالنسبة الى رجل حاذق مثل فوشلوفان كانت الذكرى مشؤومة .
- واغلب الظن ان الرئيسة ، المستغرقة في تفكيرها ، لم تسمع .
- وواصلت كلامها :
- « ايها الأب فوفان ؟ »
- « أيتها الأم الموقرة . »
- « لقد رغب القديس ديودوروس ، رئيس اساقفة كبادوسية ، في ان لا تُكتب على قبره غير هذه الكلمة *Acorus* * ، وهي تعني دودة من ديدان التراب . وُنقذت تلك الرغبة . هل هذا صحيح ؟ »
- « أجل ، أيتها الأم الموقرة . »
- « وميزوكان المبارك ، رئيس دير آكيلا ، رغب في ان يدفن تحت المشنقة . وقد نفذت تلك الرغبة . »
- « هذا صحيح . »
- « والقديس تيرانس ، أسقف « بور » عند مصب نهر الرونيير ، في البحر ، رغب في ان تُنحفر على قبره العلامة التي تُوضع على قبور فتنة آبائهم أو امهاتهم ، رجاء ان يصبق المسافرون على قبره . وُنقذت تلك الرغبة . إن علينا ان نطيع الموتى . »
- « ليكون ذلك . »
- « إن جثمان برنارد غويدونيس ، المولود في فرقة قرب « روش آباي » ، قد « حُمِلَ » - بناء على رغبته ، وبرغم معارضة ملك قشتالة - الى كنيسة الدومينيكيين في ليموج ، على حين ان برنارد غويدونيس

« عنة او سومة . »

- كان اسقف تورى في اسبانية . هل يستطيع احد انكار ذلك ؟
- « لا ، ايها الأم الموقرة . »
 - « لقد أثبت ذلك بلانتايت دو لا فوس . »
 - وأمرّت بضع حبات اخرى تحت أصابعها في صمت . ثم استأنفت حديثها :
 - « ايها الاب فوفان ، ان الأم كروسيفكسيون سوف تدفن في النعش الذي ثامت فيه منذ عشرين سنة . »
 - « هذا صحيح . »
 - « إنه استمرار في النوم . »
 - « سوف اضطرّ الى ان استرها في ذلك النعش اذن ؟ »
 - « أجل . »
 - « ولسوف نضع نعش الدفتان جانباً . »
 - « تماماً . »
 - « أنا تحت تصرف جماعة الدير الموقرة جداً . »
 - « إن الامهات الاربع المرتلات سوف يساعدنك . »
 - « لدقّ المسامير في النعش ؟ أنا لست محتاجاً اليهن . »
 - « لا ، لأنزال النعش . »
 - « الى اين ؟ »
 - « الى الكهيف . »
 - « ايّ كهيف ؟ »
 - « الذي تحت المذبح . »
 - وأجفل فوشلوفان :
 - « الكهيف الذي تحت المذبح ! »
 - « تحت المذبح . »
 - « ولكن ... »

- « سوف يكون لديك قضيب حديدي . »
- « اجل ، ولكن ... »
- « وسوف ترفع الحجر بالقضيب بواسطة الحلقة . »
- « ولكن ... »
- « يجب ان نطيع الموتى . لقد كانت أمنية الأم كروسييفكيون ان تدفن في الكهف الذي تحت مذبح الكنيسة - لا أن تذهب الى التربة غير الطاهرة - وان تبقى بعد المئات حيث حلت في الحياة . لقد طلبت ذلك ، يعني لقد اصدرت أمرها بذلك . »
- « ولكن هذا محظور . »
- « لقد حظّرهُ البشر ، وأمر به الله . »
- « واذا اكتشف ذلك ؟ »
- « إن لنا ثقةً فيك . »
- « اوه ، من ناحيتي ، انا مثل حجر من حجارة جدارك . »
- « لقد اجتمع مجلس الراهبات . ولقد قررت الامهات الصوتيات ، اللواتي شاورنهن كرهة اخرى ، واللواتي يتذاكرن الان ، ان تدفن الام كروسييفكيون ، وفقاً لرغبتها ، في نعشها تحت مذبحنا . نحيلُ أيا الاب فوفان الوضع اذا ما اجتُرحت العجائب من هنا ! ايّ مجد في الرب ستعتم به جماعة الدير ! ان المعجزات تنبثق من القبور . »
- « ولكن ، ابتها الأم الموقرة ، واذا أقبل شرطي مفوضة الصحة ؟ ... »
- « لقد قاوم القديس بينوا الثاني ، في مسألة الدفن ، قسطنطين بوجوفاتوس * . »
- « ومع ذلك ، فإن مفوض الشرطة ... »

* هو قسطنطين الرابع ، امبراطور الامبراطورية البيزنطية الشرقية
(٦٤٨-٦٨٥)

- « وإن كونودمير ، أحد الملوك الالمان السبعة الذين دخلوا « غالة »
في عهد الامبراطور كونستانس ، اعترف في صراحة بحقّ الرهبان في
ان يُدفنوا على الطريقة الدينية ، يعني تحت المذبح . »
- « ولكن مفتش الشرطة ... »

- « ان العالم ليس شيئاً أمام الصليب . ولقد أوصى مارتن ،
الرئيس العام الحادي عشر للرهبانية القوطوسية ، أتباعه بهذه الوصية :

Stat crux dum volvitur orbis

- « آمين ! » كذلك قال فوشلوفان ، وهو رابط الجأش في
التعبير عن نفسه على هذا النحو كلما سمع شيئاً من الكلام اللاتيني .
ان جماعة من المستمعين ، مهما يكن عدد افرادها ضئيلاً ، لتُرضي
من سلخ فترة طويلة من الزمان وهو معتصم بالصمت . فيوم غادر
الخطيب جيناستوراس السجن ، مفعماً الصدر بذخيرة مكبونة من
البراهين ذوات الحدين والاقبسة المنطقية ، وقف عند أول شجرة التقاهها ،
وخطب فيها ، وبذل جهداً كبيراً لاقناعها . كذلك نهضت الرئيسة ،
الخاضعة عادة لسدة من الصمت ، بعد أن وجدت في خزائنها فائضاً ،
وهتفت بمثل ثروة سديّة فُتح بابه :

- « ان الى يميني بينوا ، والى شمالي برنارد . من هو برنارد ؟
هو أول رئيس لدير كليرفو . و « فونتسان » في بورغونني بلدٌ
مبارك لانه كان مسقط رأسه . كان اسم أبيه تيسلين ، وكان اسم أمه
آليت . لقد بدأ في « سيتو » وانتهى الى « كليرفو » . لقد أسند اليه
رئاسة الدير اسقف « شالون سور ساوون » غيوم دو شامبو . كان
له سبعة عشر تلميذ ، ولقة أسس مئة وستين ديراً . لقد أفحم آيتار في
جمع سان ، عام ١١٤٠ ، و « بيري دو بروي » وتلميذه هـنوي ،
وجماعة أخرى من الضالين تُعرف بـ « الرسوليين » . لقد ألقم « آرونو

» في اللاتينية ومنها : الصليب ثابت لا يتزعزع ، والدنيا تدور دورانها .

دو بريس ، حجرأ ، وصعق الراهبَ والف ، ذابح اليهود ، ورثس
عام ١١٤٨ بجمع ريمس ، وحمل الكنيسة على أن تدين « جيلبرت دو
لابوريه ، أسقف بواتييه ، وحملها على أن تدين « إيبون دو ليتوال » ،
وأصلح ما بين الامراء ، ونصح الملك لويس الفتي * ، وقدم المشورة
لقابا أوجين الثالث ، ونظّم « الهيكل » ، ودعا الى الحرب الصليبية ،
واجترح متين وخمسين عجيبة في حياته ، تمّ له منها تسع وثلاثون في
يوم واحد . ومن هو بينوا ؟ انه بطريوك مونت كاسينو ؛ انه المؤسس
الثاني « للقديسة الدورية » ؛ انه باسيل ** الغرب . لقد أنجبت رهبانيته
أربعين بابا ، ومثي كاردينال ، وخمسين بطريركاً ، وألفاً وستمئة رئيس أساقفة ،
وأربعة آلاف وستمئة أسقف ، وأربعة أباطرة ، واثنني عشرة امبراطورة ،
وسنة وأربعين ملكاً ، واجدى وأربعين ملكة ، وثلاثة
آلاف وستمئة قديس معلني القديسة ، ولا تزال قائمة منذ
الف واربعمئة سنة . القديس برنارد من ناحية ، وشرطي اللجنة
الصحية من ناحية ! القديس بينوا من ناحية ، ومفتش الصحة من ناحية !
الدولة ؛ دائرة الطرق العمومية ؛ الانظمة الجنائية ؛ القوانين ؛
الادارة ؛ هل ندرك هذه الاشياء ؟ إن كل امرئ لتثور تأثرته حين
يرى الى الطريقة التي 'نعامل' بها . منهم بحرموتنا حتى من حقنا في ان
نقدم رفاتنا الى يسوع المسيح ! إن لجنتك الصحية هي من اختراعات
الثورة . يجب ان يخضع الله لمفوض الشرطة ؛ ذلك هو منطق هذا
العصر . إصمت يا فوقان ! »

ولم يستشعر فوشلوفان الارتياح ، تحت وابل هذا التائب . وقابعت
الرئيسة كلامها :

* Louis le Jeune هو لويس السابع وقد حكم فرنسا من عام ١١٣٧-١١٨٠
** للقديس باسيل ابو الكنيسة اليونانية (٣٢٩ - ٣٧٩) والمقصود انه بالنسبة
الى الغرب بمثابة باسيل بالنسبة الى الكنيسة اليونانية ، الشرقية .

— « إن حقّ الدبر في الدفن لا يمكن أن يشك فيه أحدٌ . وليس
 عمة من يُنكره غير المتعصبين والضالّين . نحن نحيا في عصر بلبلة فظيعة .
 فالتناس يجهلون ما ينبغي لهم أن يعلموه ، ويعلمون ما ينبغي لهم أن
 يجهلوه . انهم أجيال ملحدون . وهناك في هذا العصر اناس لا يميزون
 بين القديس برنارد العظيم وبرنارد المعروف بـ « برنارد الكاثوليك الفقراء » ،
 وهو أحد الرهبان الصالحين من اهل القرن الثالث عشر . وآخرون
 يحدّثون الى حدّ يجعلهم يقارنون ما بين دكة المشتقة التي أعدم بها لويس
 السادس عشر وصليب يسوع المسيح . إن لويس السادس عشر لم يكن
 غير ملك . فلنحدّر الله إذن ! لم يبقَ ثمة لا مستقيمون ولا زائفون .
 انهم يعرفون اسم فولتير ، ولكنهم لا يعرفون اسم « سيزار دو بوس » *
 ومع ذلك فسيزار دو بوس طوباويّ سعيد وفولتير شقيّ منكود
 الحظّ . ورئيس الاساقفة الاخير نفسه ، كاردينال بيرغور ، لم يعرف
 ان شارل دو غوندرين قد خلّف بيرويل ، وان فرانسوا بورغوان قد
 خلّف غوندرين ، وأن جان فرانسوا سينو قد خلّف بورغوان ،
 وان الاب « دو سانت مارثا » قد خلّف جان فرانسوا سينو .
 والناس يعرفون اسم الاب « كوتون » لا لأنه كان أحد الثلاثة الذين
 عملوا في تأسيس رهبانية الـ « أوراتوار » ، ولكن لأنه كان موضوع
 تجديف للملك الهوغونوتي ** هنري الرابع . وإذا كانت القديس فرانسوا
 دو سال قريباً الى نفوس ابناء هذا العالم فلأنه قد غشّ في القمار . ثم
 إن الناس يهاجمون الدين . لماذا ؟ لانه كان ثمة كهان أشرار ، لان
 ساغيتير ، اسقف غابّ ، كان أخاً لسالون ، اسقف امبيرون ، ولأن

* « Clair de Buis مؤسس « رهبانية اخوة العقيدة المسيحية » (١٥٤٤-١٦٠٧)
 وقد تراهب بعد أن سلخ صدر شبابه متشككاً في الملائكة والشهوات .
 ** الهوغونوت لفظ يطلق على البروتستانت الفرنسيين .

كلاً منهما قد اتبع « مامون » * وما الذي يمكن ان ينتج عن هذا ؟ هل يمنع ذلك مارتن التوري من ان يكون قديساً ومن ان يقدم نصف رداؤه الى احد الفقراء ؟ إنهم يضطهدون القديسين . إن الناس ليغمضون أعينهم عن الحق . لقد غدت الظلمة شتياً مألوفاً . وأشد الوحوش ضراوة هي الوحوش المكفوفة البصر . ان احداً لا يفكر في جهنم تفكيراً جدياً . اوه ! يا للشعب الشرير ! إن « باسم الملك » تعني اليوم « باسم الثورة » . ولم يعد الناس يعرفون لا حقوق الاحياء ولا حقوق الاموات . ولقد غدا الموت على نحو مقدس أمراً محظوراً . كما غدا القبر مسألة مدنية . وهذا شيء رهيب ! لقد كتب القديس ليو الثاني رسالتين مسهبتين ، الاولى الى « بيبير نوتير » والثانية الى ملك القوط الغربيين لكي يدفع ويسفه ، في المسائل المتصلة بالموت ، سلطة الأكسرخوس ** وسيادة الامبراطور العليا . ولقد قاوم غوثيه أسقف سالون ، في هذه القضية ، اوثن دوق بورغونني . ولقد سلمت القضاة القدماء بهذا . وفي العهود الماضية كنا نصوت في مجلس الراهبات حتى على المسائل الزمنية . وكان رئيس دير سيتو ، وهو مقدم الرهبانية ، مستشاراً ورائياً لهرمان بورغونني . إننا نفعل بموتانا ما يحلو لنا . أليس جثمان القديس بينوا نفسه في فرنة في دير فلوري المعروف بدير « سان بينوا سور لوار » برغم انه مات في مونت كاسينو بايطالية ، يوم السبت الواقع في الحادي والعشرين من شهر آذار عام ٥٤٣ ؟ إن هذا كله لا يقبل الجدل . أنا امقت جماعة المرتلين ؛ انا اكره رؤساء الاديرة ؛ انا أبغض المراهقة ، ولكني احقد اكثر على أيما شخص يُثبت لي خلاف ما قلت . وليس عليك إلا ان تقرأ « آرئول ويون » ،

* « الآمال عند الاشوريين . وقد أطلق هذا الاسم في « الكتاب المقدس » على شيطان المال خصباً ، وعلى الشيطان بصورة عامة ايضاً .

** نائب امبراطور القسطنطينية في ايطالية أو في افريقية .

و « غابرييل بوسلين » ، و « تريتيم » ، و « موروليكوس » ،
و « دوم لوقا داشري » .

وأخذت رئيسة الدير نقساً ، ثم التفت نحو فوشلوفان :

- « أيها الأب فوقان ، هل 'حسبت المسألة ؟ »

- « لقد 'حسبت ، أيتها الام الموقرة . »

- « هل استطيع ان اتكل عليك ؟ »

- « سوف امثل امرك . »

- « حسن . »

- « إني أقتاني في خدمة الدير كل التفاني . »

- « لقد غدا واضحاً انك سوف 'تغلق النعش . إن الأخوات

سوف يحمله الى الكنيسة . وسوف 'تتلى صلاة الميت . وبعد ذلك

يرجعن الى الدير . وبين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل سوف تأتي

انت ومعك القضيبي الحديدي . ان كل شيء سوف 'يضع في سرية

كاملة . ولن يكون في الكنيسة غير « الأمهات » الاربع المرتلات ،

والأم « صعود » ، وأنت . »

- « والاخت التي ستكون في المركز ؟ »

- « إنها لن تلتفت . »

- « ولكنها سوف تسمع . »

- « انها لن تصغي . والى هذا ، فان ما يعرفه الدير لا يعرفه

العالم . »

وران الصمت لحظة . ثم استأنفت الرئيسة كلامها :

- « سوف تنزع جلجلك . لا داعي الى أن تلمح الاخت التي في

المركز أنك هناك . »

- « أيتها الام الموقرة ؟ »

- « ماذا أيها الأب فوقان ؟ »

« سوف يقوم بها اليوم ، في الساعة الرابعة . لقد قنّرع الناقوس الذي يدعو طبيب الموتى الى المجيء . ولكنك لا تسمع ايّاً من دقات الناقوس ، اذن ؟ »

« أنا لا أنتبه الا لدقاته الخاصة بي . »

« هذا حسن أيها الاب فوفان . »

« أيتها الأم الموقرة ، سوف أحتاج الى غل يبلغ طوله ستة أقدام على الاقل . »

« من أين ستأتي به ؟ »

« حيث تكثر النوافذ المشبكة تكثر القضبان الحديدية . ان عندي كومة من الحداثد العتيقة في مؤخرة الحديقة . »

« قبل منتصف الليل بثلاثة أرباع الساعة . لا تنس . »

« أيتها الام الموقرة ؟ »

« ماذا ؟ »

« اذا احتجت الى القيام بأي عمل آخر مثل هذا ، في المستقبل ،

فان أخي قوي جداً . انه تركي . * »

« سوف تقوم بذلك بأسرع ما يمكن . »

« أنا لا أستطيع أن أسرع . انا عاجز . من أجل ذلك طلبت أن

يكون لي مساعد . اني اعرج . »

« العرج ليس جريمة ؛ انه قد يكون بركة . ان الامبراطور

هنري الثاني الذي قاتل غريغوري ، البابا الزائف ، واعد بينوا الثامن

الى الكرسي الرسولي كان له لقبان (*surnom*) : القديس ، والاعرج . »

فغمغم فوسلوفان الذي كان ثقيل السمع ، في الواقع ، بعض الشيء :

* بطلون لفظ « التركي » في الفرنسية على الرجل القوي جداً .

- « ان معطفين (*surtouts*) اثنين شيء عظيم ! » *
 - « ايها الاب فوفان ، بخيل اليّ ، وقد فكرت في ذلك ، اتنا
 سوف نحتاج الى ساعة كاملة . وهذا ليس بالشيء الكثير . كن قرب
 المذبح العالي ، حاملاً القضيّب الحديدي ، في الساعة الحادية عشرة . إن
 الصلاة ستبدأ عند منتصف الليل . وينبغي ان يتمّ كل شيء قبل ذلك
 بربع ساعة او يزيد . »

- « سوف اعمل كل ما يثبت غيرتي على جماعة الدير . لقد تفاهمنا
 على ما يلي : سوف ادق المسامير في النعش . وعند الساعة الحادية عشرة
 تماماً سوف اكون في الكنيسة . وسوف تكون الامهات المرتلات
 هناك ، وكذلك ستكون الأم « صعود » هناك . لو كان ثمة رجلان
 لكان افضل . ولكن لا بأس ! سوف يكون معي نخلي . سوف
 نفتح الكهيف ، وننزل النعش ، ثم نغلق الكهيف من جديد . وبعد
 ذلك لن يكون ثمة اثر لاي شيء . ان الحكومة لن تتراب في شيء .
 ابتها الأم الموقرة ، اهذا كل ما هنالك ؟ »

- « لا . »

- « وماذا بقي بعد ، اذن ؟ »

- « بقي التابوت الفارغ . »

وران الصمت . وفكر فوشلوفان . وفكرت الرئيسة .

- « ايها الاب فوفان ، ما الذي سوف نعمله بالنعش ؟ »

- « سوف ندمسه في التراب . »

- « فارغاً ؟ »

وران الصمت ككرة اخرى . واوما فوشلوفان بيده اليسرى تلك

* وضعنا اللفظ الفرنسي بعد كلمتي « لقبان » *surnoms* « ومعتطفين » *surtouts*
 حتى يلاحظ القارئ السبب الذي جعل فوشلوفان يفهم بهذا الجواب . ذلك انه
 ظن أن رئيسة الدير قالت *surtouts* لا *surnoms* .

الائمة الخاصة التي تطرد سؤالاً بفيضاً .

— « ايها الام الموقرة ، سوف استمر النعش في الغرفة السفلى من الكنيسة . وليس في استطاعة احد غيري ان يدخل الى هناك ، وسوف اغطي النعش بالكفن . »

— « اجل ، ولكن حاملة النعش سوف يلاحظون من غير شك ، حين يضعونه في عربة الموتى ، وحين ينزلونه الى القبر ، ان ليس في داخله شيء . »

فتنف فوشلوفان :

— « آه ، يا للشئ ... ! »

وشرعت الرئيسة ترسم اشارة الصليب على صدرها ، وحدقت الى البستاني . لقد علقت « ... طان » * في حلقومه .

وسارع الى التفكير بوسيلة تنسيها ذلك التجديف .

— « ايها الام الموقرة ، سوف اضع بعض التراب في النعش . إن ذلك سيجعله ثقيلاً وكأن فيه جثثاً . »

— « انت على صواب . التراب لا يختلف عن الانسان في شيء . واذن فسوف تسوي مسألة النعش الفارغ ؟ »

— « سوف ادبر الامر . »

واستعاد وجه الرئيسة صفاءه ، وكان حتى تلك اللحظة مضطرباً مكفهاً . واومأت اليه ائمة رئيس يسرح مرؤوساً . فتقدم فوشلوفان نحو الباب ، وفيما هو يفادر الغرفة رفعت الرئيسة صوتها في رفق :

— « ايها الاب فوفان ، انا راضية عنك . غداً بعد الدفن ، جئني بأخيك ، وقل له ان يصطحب ابنته . »

* وهي البقية الباقية من كلمة « شيطان » .

حيث يظهر جان فالجان بمظهر من قرأ أوستين كاستيليجو تماماً

ان خطوات الاعرج اشبه شيء بنظرات الاعور ؛ إنها لا تنتهي الى غايتها في سرعة . وإلى هذا فقد كان فوشلوفان مرتبكاً . لقد احتاج الى ربع ساعة تقريباً للعودة الى كوخه في الحديقة . كانت كوزيت يقظي . وكان جان فالجان قد اجلسها قرب النار . ولحظة دخل فوشلوفان ، كان جان فالجان يُربها سلة البستاني معلقة على الجدار ، ويقول لها :

— « أصفي الي جيداً ، يا صغيرتي كوزيت . يجب ان تغادر هذا البيت ولكن سوف نعود ، وسوف نكون سعيدين هنا . ان الرجل الطيب الذي هنا سينقلك على ظهره . وسوف تنتظريني في منزل احدى السيدات . اني سأعود وأصطحبك . وفوق كل شيء ، اذا كنت لا تريدان ان تستردك تيناردييه الزوجة ، فيجب عليك ان تكوني مطيعة ، وان لا تقولي شيئاً . »

واومات كوزيت برأسها وقد غلبت عليها الكتابة .

وحين سمع جان فالجان صوتاً ففتح فوشلوفان الباب التفت وقال :

— « خير ؟ »

فقال فوشلوفان :

— « لقد سؤتي كل شيء ، ولم يسؤ شيء . لقد حصلت على اذن

بادخالك ، ولكن قبل ان ادخلك يتعين علي ان اخرجك . هنا المشكلة .

أما الصغيرة فأمرها هين . »

— « سوف تخرجها ؟ »

— « وهل ستزوم الصمت ؟ »

- « انا واثق من ذلك . »
 — « ولكن انت ، ايها الاب مادلين ؟ »
 وبعد صمت مشوب بالقلق ، هتف فوشلوفان :
 — « ولكن لماذا لا تخرج من حيث دخلت ؟ »
 فاكتفى جان فالجان بأن أجابه ، شأنه من قبل :
 — « مستحيل . »

ونغمم فوشلوفان ، مخاطباً نفسه اكثر منه مخاطباً جان فالجان :
 — « هناك شيء آخر يقض مضجعي . لقد قلت اني سوف أضع
 هناك بعض التراب . ولكني أعتقد أن وضع التراب فيه بدلاً من
 الجثة ، لن يجعله يبدو وكأن فيه جثثاً حقاً . ان هذا العمل لن
 ينجح . ان التراب سوف يهتز . انه سوف يتحرك . وعندئذ يشعر
 الرجال به . أتفهم ، ايها الاب مادلين ؟ ان الحكومة سوف تكتشف
 الامر . »

وحدد جان فالجان اليه ، وظن انه كان يهذي .
 واستأنف فوشلوفان حديثه :

— « ما السبيل ، بحقّ الشيء... طان ، الى خروجك من هنا ؟
 لأن هذا كله يجب ان يتم غداً . غداً ، سوف أدخلك الى هنا . ان
 الرئيسة تنتظرك . »

ثم أوضح جان فالجان ان ذلك كان مكافأة له ، هو فوشلوفان ،
 على خدمة يؤديها الى الجماعة . وان مهمته تقتضيه ، في جملة ما تقتضيه ،
 أن يشارك في اعمال الدفن ، وأن يدقّ المسامير في النعوش ، وأن
 يساعد حفار القبور في الجبّانة . وأن الراهبة التي توفيت ذلك الصباح
 أوصت بأن تدفن في النعش الذي كانت قد اتخذت منه فراشاً ، وأن
 توارى الثرى في الكهيف القائم تحت مذبح الكنيسة . وأن أنظمة
 الشرطة تحظر ذلك ، ولكنها كانت واحدة من هاتيك الاحوال

اللاواتي لا تُردّ لهنّ أمر . وان رئيسة الدير والامهات الصوتيات اعترمن
 إنفاذ رغبة الفقيدة . وأن لأمّ الحكومة المَبَل ! وأنه هو ، فوشلوفان ،
 سوف يستر النعش في القليّة ، ويرفع الحجر في الكنيسة ، ويُنزل
 الجثمان الى الكهيف . وأن الرئيسة سوف تكافئه على ذلك بأن
 تُدخل أخاه الى الدير ، بوصفه بستانياً ، وابنة أخيه بوصفها طالبة
 داخلية . وأن اخاه كان مسيو مادلين ، وان ابنة أخيه كانت كوزيت .
 وأن الرئيسة قالت له ان يجيء بأخيه صباح غدٍ ، بعد ان يتمّ الدفن
 الكاذب في المقبرة . ولكنه لا يستطيع ان يجيء بمسيو مادلين من
 الخارج ، اذا لم يكن مسيو مادلين في الخارج . وان تلك كانت هي
 الصعوبة الأولى . وأنه كانت ثمة ، بعدُ ، عقبة اخرى : النعش الفارغ .

فسأله جان فالجان :

« وما النعش الفارغ ؟ »

فأجابه فوشلوفان :

« نعش الادارة . »

« ايّ نعش ؟ واية ادارة ؟ »

« حين تموت راهبة ، يأتي طبيب البلدية ويقول : لقد ماتت
 راهبة . وتبعث الحكومة بنعش . وفي اليوم التالي ترسل عربة موتى ،
 وبعض الحسمّة ليأخذوا النعش وينقلوه الى المقبرة . ويُقبل حملة النعش
 لينقلوه . فلا يكون في داخله شيء . »

« ضع شيئاً في داخله . »

« مَنْ ؟ شخصاً ميتاً ؟ ليس عندي ايّ ميت . »

« لا . »

« ماذا اذن ؟ »

« شخصاً حياً . »

« أي شخص حيّ ؟ »

فقال جان فالجان :

- « أنا . »

فوثب فوشلوفان - الذي كان قد جلس - وكان حقة بارود قد انفجرت تحت كرسيه .

- « انت ! »

- « ولم لا ؟ »

وانفجرت شفتا جان فالجان عن احدى تلك الابتسامات النادرة التي طفت على محياه مثل وميض في مساء شتاء .

- « انت تعرف ، يا فوشلوفان ، انك قلت : ان الأم كروسيكسيون قد ماتت . واني اضفت : والاب مادلين قد دُفن . ذلك ما سيكون . »

- « آه ، حسن . أنت تهزل . أنت لا تتحدث جاداً . »

- « جاداً الى ابعد الحدود . يجب ان اخرج من هنا . »

- « من غير ريب . »

- « ولقد قلت لك ان تبحث عن سلة وغطاء لي انا ايضاً . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « ستكون السلة من خشب الصوبر ، وسيكون الغطاء من

قماش أسود . »

- « قبل كل شيء ، احب ان اصصح الكلام فأقول : من قماش

ابيض . إن الراهبات يدفنن بالبياض . »

- « حسن ، من قماش ابيض . »

- « انت لست مثل سائر الرجال ، ايها الاب مادلين . »

وكان في رؤية فوشلوفان هذه الحيل التي لم تكن غير مخترعات سجن الاشغال الشاقة ، الضارية المتهورة - نقول كان في رؤية هذه الحيل تذبذب وسط الاشياء الآمنة التي تحيط به وتخرج بما كان يدعوه غطية

الدير التافهة ، ما اوقع في ذات نفسه انشداهاً أشبه بانشداه عابر سبيل
يرى زُمج ماء * يصطاد في ساقية شارع « سان دونيز » .

وتابع جان فالجان :

- « المقصود ان اخرج من هنا من غير ان يراني احد . هذه وسيلة .
ولكن ، قبل كل شيء ، أعلمني . كيف يجري ذلك ؟ اين هذا
النمش ؟ »

- « النمش الفارغ ؟ »

- « نعم . »

- « تحت . في ما يُدعى حجرة الموتى . إنه فوق صقالتين وتحت
الكفن . »

- « ما طول النمش ؟ »

- « ستة اقدام . »

- « وما هي حجرة الموتى هذه ؟ »

- « إنها حجرة في الدور الاسفل ذات نافذة مقضبة تطلّ على
الحديقة ، وتوصد من الخارج بمصراع وبابين ؛ احدهما يؤدي الى الدير ،
والاخر يؤدي الى الكنيسة . »

- « أية كنيسة ؟ »

- « الكنيسة التي على الشارع . الكنيسة التي يدخل اليها كل
انسان . »

- « اعندك مفتاحا هذين البابين ؟ »

- « لا . عندي مفتاح الباب المؤدي الى الدير . أما مفتاح الباب
المؤدي الى الكنيسة فهو مع البواب . »

- « ومتى يفتح البواب ذلك الباب ؟ »

- « حين يقبل الحملة لنقل النمش ، ليس غير . وما يكاد
النمش يخرج حتى يُغلق الباب من جديد . »

* goeland وهو طائر بحري ابيض اللون .

- « ومن الذي يدق الماسير في النعش ؟ »
 -- « أنا . »
 -- « ومن يغطيه بالقماش ؟ »
 -- « أنا . »
 -- « هل انت وحدك . »
 -- « ليس ثمة رجل آخر - غير طبيب الشرطة - يستطيع ان
 يدخل الى حجرة الموتى . بل إن ذلك مكتوب على الجدار نفسه . »
 -- « هل تستطيع الليلة بعد ان ينام كل امرئ في الدير ان تخبني
 في تلك الحجرة ؟ »
 -- « لا . ولكنني استطيع ان اخبئك في حجرة مظلمة تؤدي الى حجرة
 الموتى حيث أحفظ بأدواتي الخاصة بالدفن . إنها حجرة " انا حارسها
 وحامل مفتاحها . »
 -- « ومتى ستقبل عربة الموتى لنقل النعش غداً ؟ »
 -- « حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر . إن الدفن سوف يتم
 في مقبرة فوجيرار ، قبيل المساء . إنها ليست قريبة جداً . »
 -- « سوف ابقى مختبئاً في حجرة ادواتك طول الليل وطول
 النهار . ومساءلة الطعام ؟ سوف أحس بالجوع . »
 -- « اني سأحمل اليك ما تأكله . »
 -- « في استطاعتك ان تأتي وتوصد النعش علي ، بالماسير ، في
 الساعة الثانية . »
 وأجفل فوشلوفان واخذ يقضض عظام اصابعه .
 -- « ولكن هذا مستحيل ! »
 -- « دع عنك ذلك . كل ما عليك ان تفعله هو ان تتناول
 مطرقة وتدق بعض الماسير في لوح خشبي . »
 ونحن نكرر هنا ان ما بدا غريباً لم يُسمع بمثله عند فوشلوفان

كان يسيراً عند جان فالجان . فقد سبق ان وجد جان فالجان نفسه في مأزق اسوأ . وكل من دخل السجن يعرف ذلك الفن الذي يمكن صاحبه من ان ينكمش وفقاً لابعاد المكان الذي يلجأ اليه ابتغاء الهرب . والسجن عرضة للفرار ، كما ان المريض عرضة للأزمة التي تشفيه او تصرعه . والفرار شفاء . واي شيء لا يحتمله المرء لكي يشفى ؟ ولأن 'ندق' عليه المسامير ، ويحمل في صندوق كما 'يحمل الطرد' ، ولأن يعيش فترة طويلة في علبه ، ويجد الهواء حياً . لا هواء ، ويقتصد في التنفس ساعات بكاملها ، ويعرف كيف يحتقن من غير ان يموت - ذلك كان جزءاً من مواهب جان فالجان الكالحة .

وانى هذا فان نعثاً ينطوي على كائن حي ، تلك الحيلة التي ابتدعتها نخيلة المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، هو حيلة امبراطورية ايضاً . فاذا كان لنا أن نصدق الراهب اوستين كاستيليجو كانت هذه هي الوسيلة التي اصطنعها شارل الخامس - وقد رغب بعد تنازله عن العرش في ان يرى « لا بلومب » للمرة الاخيرة - لكي يجيء بها الى دير « سان جوست » ثم يخرجها منه .

وهتف فوشلوفات وقد تاب الى رشده :

- « والتنفس ، كيف تستطيع ان تحلّ عقده ؟ »

- « سوف اتنفس . »

-- « في ذلك الصندوق ؟ ان مجرد التفكير بهذا يميني اختناقاً . »

-- « لا ريب في ان عندك مخزناً . وفي استطاعتك ان تحدث

بعض الثقوب ، حوالى الفم ، وهنا وهناك . وفي استطاعتك ان تسمّر النعش من غير ان تشدّ الارح العلوي شداً محكماً . »

-- « حسن ! واذا اتفق ان سعلت او عطست ؟ »

- « إن الهارب لا يسعل ولا يعطس بحال من الاحوال . »

قال جان فالجان ذلك ثم أضاف :

— « ايها الاب فوشلوفان ، يجب ان اقرر : إما ان أدامَ هنا ، وإما ان ارتضي الخروج بعربة الموتى . »

لقد لاحظ الناس جميعاً ولوع الهررة بالوقوف عند الابواب نصف المغلقة والتردد امامها . ومن منا لم يسبق له ان قال لهررة ما : « لماذا لا تدخلين ؟ » . وثمة اناس ينزعون هم ايضاً ، حين تنفتح الفرصة لهم بعض الشيء ، الى أن يظلموا مترددين بين قرارين اثنين ، معرضين انفسهم بذلك الى ان يُسحقوا بيد القَدَر الذي يُوسِد الفرصة لإصاداً مفاجئاً . والواقع أن المبالغين في التروى ، برغم انهم هررة ، بل لانهم هررة ، كثيراً ما يتعرضون للخطر اكثر من الجسورين . ولقد كان فوشلوفان من اصحاب هذه الطبيعة المترددة . ومع ذلك فأن رباطة جأش جان فالجان أعدته بالرغم منه . فغمغم :

— « هذا صحيح . ليس هناك طريقة اخرى . »

واستأنف جان فالجان كلامه :

— « الشيء الوحيد الذي يقلقني هو ذاك الذي سوف يجري في

المقبرة . »

فهتف فوشلوفان :

— « ذلك هو الشيء الذي لا يقلقني على وجه الضبط . إذا كنتَ

واثقاً من إخراج نفسك من النعش ، فسوف اكون واثقاً من إخراجك من القبر . فحفار القبور سكتير ، وصديق من اصدقائي . إنه الاب ميتين . ابنٌ عجوزٌ من ابناء الكرمه العجوز . إن حفار القبور يضع الموتى في الجذث ، وأنا أضع حفار القبور في جيبي . سأقول لك ما الذي سوف يحدث . إتنا سوف نصل قبل الغسق بقليل ، قبل ان تُغلق ابواب المقبرة بثلاثة ارباع الساعة . وسوف تمضي عربة الموتى الى القبر . وسوف أتبعها : تلك هي مهمتي . وسيكون في جيبي مطرقة وازميل ، وبعض الكلابات . وتقف عربة الموتى ، وبشدت الحملة

وثاق نعشك بجبل ، وينزلونك الى الحفرة . ويتلو الكاهن الصلوات ، ويرسم إشارة الصليب ، وينضح الماء المقدس ، ويمضي لسيبله . وأبقى وحدي مع الاب ميتين . إنه صديقي ، اقول لك . وثمة واحد من امرين : إما ان يكون سكران ، وإما ان لا يكون سكران . فإذا لم يكن سكران ، فسوف اقول له : « تعال واشرب كأساً قبل ان تغلق حانة السفرجلة الطيبة ابوابها » . واذهب به ، وأسكره . إن الاب ميتين لا يحتاج إسكاره الى وقت طويل ، فهو ابدآ في سبيله الى السُّكْر . وأضعه تحت الطاولة ، وأنزع بطاقته لكي اعود بها الى المقبرة ، وارجع بدونه . ولن يكون لك بعدُ أيما عمل مع غيري . وإذا كان سكران ، فسوف اقول له : أغرب من هنا ، سوف أقوم بعملك . ويمضي لسيبله ، وعندئذ أخرجك من الحفرة .

وبط جان فالجان يده ، فطرح فوشلوفان نفسه عليها في دفقة ريفية من التفاني المؤثر .

— « اتفقا ، أيها الاب فوشلوفان . كل شيء سوف يجري على ما يرام . »

وقال فوشلوفان ، في ما بينه وبين نفسه :

— « شرط ان لا يختل شيء . وبإلفظاعة ذلك الاختلال لو حدث ! »

٥

ليس يكفي ان تكون سكيراً

لكي تكون مخلّداً

وفي اليوم التالي ، فيما كانت الشمس تنجح للغروب ، رفع عابرو

السبيل المتناثرون في « بولفار دو مين » قبعاتهم لدث مرور عربية موتى عتيقة الزيّ ، مزدانة برؤوس المنية ، وعظام الساق ، والدموع . وفي عربية الموتى تلك كان نعش مغطى بغطاء ابيض مختال فوقه صليب اسود ضخم أشبه ما يكون بمومياء هائلة تتدلى ذراعها على جانبيها . وكانت تتبع هذه العربية عربية مجللة بالجوخ كان باستطاعة المرء ان يلح فيها كاهناً يرتدي قميصاً من قمصان الاكليروس الفوقية ، وغلاماً من غلمان الجوقة يرتدي بنطلوناً قصيراً احمر . وعن يمين عربية الموتى وشمالها مشى حاملان من حملة النعوش في ملابسهم الرمادية الموحدة ذات الحواشي السوداء ، وفي المؤخرة كان رجل عجوز في ثياب العمال يتقدم في خطى عرجاء . لقد مضى الموكب في اتجاه مقبرة فوجيرار .

وكان في ميسور النظارة ان يروا مقبض مطرقة ، وشفره لإزميل خاص بالحديد البارد ، ومقبضين مزدوجين لزوج من الكلابات ، وقد أطلعت رؤوسها من جيب ذلك الرجل .

كانت مقبرة فوجيرار نسيجاً وحدها بين مقابر باريس . كانت لها تقاليدھا الخاصة ، كما كان لها بابھا الخاص بالعربات ، وبوابيھا النفل الذي كان عجائز الحيّ المتشبثون بالكلمات العتيقة يدعونه باب الفرسان وباب المشاة . وكانت راهبات « بيكبوس الصغير » البرفاريات البنيديكتيات قد حصلن ، كما قلنا سابقاً ، على الحق في ان يُدفنَ هناك في زاوية منفردة ، وتحت جناح الظلام ، باعتبار ان هذه الارض كانت من قبل ملكاً لرهبايتين . واذ حتمّ ذلك على حفاري القبور بأن يعملوا في المقبرة مساءً - أيام الصيف - وليلاً - أيام الشتاء - فقد أخضعوا لنظام فريد . كانت مقابر باريس توصد ابوابها ، في ذلك العهد ، عند الغيب ، واذ كانت اوامر البلدية هي التي قضت بذلك الاجراء ، فقد خضعت له مقبرة فوجيرار مثل سائر المقابر . وكان باب الفرسان وباب المشاة متجاورين مقبضين بالحديد ، وكان في جوارهما

سرادق بناء المهندس المعماري بيرونيه حيث يقطن بواب المقبرة . واذن فقد كان هذان البابان الحديديان يدوران ، في تصلب ، على رزاتهما لحظة تتوارى الشمس خلف قبة الأنفاليد . ولو قد تخلف في تلك اللحظة احد حفاري القبور في المدفن اذن اكانت بطاقته المهنية الصادرة عن ادارة المواكب الجنائزية هي سبيله الاوحد الى الخروج . وكان في شباك البواب ضرب من علة البريد ، فكان حفار القبور يلقي بطاقته في هذه العلة ، فيسبها البواب تسقط ، فيجذب الحبل ، فيفتح باب المشاة . فاذا اتفق ان كان حفار القبور غير حامل بطاقته فعندئذ يذكر اسمه ، فينهض البواب من فراشه - ذلك انه قد يكون نائماً في بعض الاحيان - ويجاوب التحقق من هوية حفار القبور ، ويفتح الباب بالمفتاح . وهكذا يخرج حفار القبور ، ولكن بعد ان يدفع غرامة مقدارها خمسة عشر فرنكاً .

والواقع ان هذه المقبرة ، بفرائدها الخارجية على القاعدة ، عطلت تناعم الادارة واتساقها . ولقد ألغيت بعد سنة ١٨٣٠ بقليل . وإنما خلفتها مقبرة مونبارناس ، المعروفة بمقبرة الشرق ، وورثت عنها تلك الحانة الشهيرة الهاذية لمقبرة فوجيرار ، والتي تعلوها سرجلة رُسمت على صفيحة - فهي 'تطل' من ناحية على موائد الشاربين ، وتطل من ناحية أخرى على القبور - والتي تحمل هذا الاسم : السفوحلة الطيبة .

وكانت مقبرة فوجيرار ما يمكن أن ندعوه مقبرة عفنة . لقد أخفى عليها الدهر ، فالعفن يغزوها ، والرياحين تفارقها . وكان الاثرياء من المواطنين قليلاً ما يرغبون في ان يدفنوا في فوجيرار ، فقد كانت روائح الفقر تفوح منها . أما مقبرة الأب لاسيز فرائعة جداً ! فلأن 'تدفن' في مقبرة الأب لاسيز شبه شيء بامتلاك أثاث مصنوع من خشب البلاذر أو الماهوغاني . إن ذلك لينم عن الاناقة . لقد كانت مقبرة فوجيرار حظيرة ذات جلال منسقة على طريقة الحدائق الفرنسية

القديمة . بمرات مستقيمة ، وشجرات بَيْقُس * ، وشجرات سَندروس ** ،
وشجرات شرابة الراعي ، وقبور عتيقة تحت شجرات طفُّوس ***
هرمة ، وعشب فارغ الطول . وكان الليل رهيباً جداً هناك . كانت
ثمة ظلال تقبض الصدر الى حد يعيد .

ولم تكن الشمس قد غربت عندما دخلت عربية الموتى ذات الغطاء
الابيض والصليب الاسود شارعَ مقبرة فوجيوار . ولم يكن الرجل
الاعرج الذي يتبعها غير فوشلوفان .

وكان دفن الأم كروسيفكسيون في الكهيف الذي تحت المذبح
واخراج كوزيت من المكان ، وادخال جان فالجان الى حجرة الموتى -
كان ذلك كله قد أتمّ من غير ما عائق ومن غير ان يمه الاخفاق .
ونحب ان نقول ، بالمناسبة ، ان دفن الأم كروسيفكسيون تحت
مذبح الدير هو ، في اعتقادنا ، شيء عرضي يمكن اغتفاره ، في كثير
من اليسر . واحد من تلك الاخطاء الشبيهة بواجب من الواجبات .
لقد قامت الراهبات به ، لا من غير قلق فحسب ، ولكن في ضمير
مصفتق ايضاً . فما يدعى «الحكومة» لا يعدو ، في الدير ، ان
يكون تدخلاً في السلطة ، تدخلاً هو أبداً موضع الشك . الانظمة
اولاً ؛ اما القانون ، فسوف نرى . أيها الناس ، ضعوا ما شئتم من
القوانين ، ولكن احتفظوا بها لانفسكم . إن المكوس التي تُدفع
الى قيصر ليست بحال من الاحوال غير البقية الباقية من المكوس التي
تُقدّم الى الله . فالأمير ليس شيئاً في حضرة المبدأ .

وعرجَ فوشلوفان خلف عربية الموتى ، في ارتياح عظيم . كانت
مؤامراته التوأمان ، وإحداهما مع الراهبات والاخرى مع مسيو مادلين ،

* البقس Buis شجر كالآس ورقاً وجباً تُتخذ منه الخالق والابواب لمئاته .

** ضرب من الصنوبريات دائم الخضرة . (Thuya) .

*** ضرب من البرو او الشربين (ife) .

الاولى للدير والثانية ضد الدير ، قد نجحتنا على حد سواء . والواقع ان مسكينة جان فالجان كانت من ذلك الضرب الجبار الذي يُعدي . فلم يبق عند فوشلوفان اياما شك في النجاح . أما الاشياء التي ما يزال من الضروري القيام بها فلم تكن ذات خطر . فلقد أسكر عشر مرات ، خلال سنتين ، حفار القبور الطيب الأب ميتين ، وهو رجل بدين ساذج . لقد كان يعيث بالأب ميتين عبثاً . كان يفعل به ما يشاء . كان يصف له شعره وفقاً لارادته وهواه . وكان ميتين يرى من خلال عيني فوشلوفان . كانت سلامة فوشلوفان كاملة .

ولحظة دخلت الجنازة الشارع المؤدي الى المقبرة نظر فوشلوفان مبهج الصدر الى عربة الموتى ، وفرك يديه الضخمتين قائلًا في صوت خفيض :
- « هي ذي مهزلة ! »

وفجأة وقفت عربة الموتى . لقد انتهت الجنازة الى الباب . وكانت من الضروري أن تُبرَز إجازة الدفن . وتهاشم الدفنان مع بواب المقبرة . وفي اثناء هذه المحادثة ، التي تسبب دائماً تأخرًا يستغرق دقيقة او دقيقتين ، أقبل رجل مجهول ووضع نفسه خلف عربة الموتى ، الى جانب فوشلوفان . كان اشبه بمعامل من العمال يرتدي كساءً طويلاً ذا جيوب واسعة ، ويحمل تحت ذراعه معولاً . ونظر فوشلوفان الى هذا الرجل المجهول .
وسأله :

- « من انت ؟ »

فأجاب الرجل :

- « حفار القبور . »

ولو قد اصابت قذيفة مدفع رجلاً في صدره فلم تقص عليه ، اذن لكان يحياه اشبه بمحيًا فوشلوفان في تلك اللحظة .

- « حفار القبور ؟ »

« نعم . »

« أنت ! »

« آفا . »

« إن حفار القبور هو الأب ميتين . »

« لقد كان . »

« كيف ! لقد كان ؟ »

« لقد مات . »

كان فوشلوفان مستعداً لكل شيء ، ما خلا هذا : أن يكون في استطاعة حفار القبور أن يموت . ومع ذلك ، فهذا صحيح . إن حفاري القبور أنفسهم يموتون . لأنهم بالانصباب على حفر القبور للناس بحفرون قبورهم الخاصة .

ولم يجر فوشلوفان جواباً . إنه لم يجد ، إلا بشقّ النفس ، القوة التي تكّنه من أن يتلجلج :

« ولكن هذا غير ممكن ! »

« هذا هو الواقع . »

فكرر في ذهنه :

« ولكن حفار القبور هو الأب ميتين . »

« بعد نابوليون ، لويس الثامن عشر . وبعد ميتين ، غريبيه .

أيها الفلاح ، إن اسمي غريبيه . »

وغلب الشحوب على وجه فوشلوفان . وحدث الى غريبيه .

كان رجلاً طويل القامة ، مهزولاً ، أزرق ضارباً الى السواد ، مائتياً بكل ما في الكلمة من معنى . كانت تبدو عليه سيما طبيب افتقر فأسمى حفار قبور .

وانفجر فوشلوفان ضاحكاً :

« آه ! يا لها من أحداث مضحكة ! لقد مات الاب ميتين .

الاب ميتين الصغير قد مات ، ولكن فليحيَ الاب لونوار الصغير !

أتدري ما هو الأب لونوار الصغير ؟ إنه كوز الصهاة التي يباعُ نمن
للفالون منها بستة سو. إنه كوز « سورين » . يا سلام ! « سورين »
باريسية حقيقية . وهكذا ، فقد مات ميتين العجوز ! أنا محزون عليه .
كان فتىً طروباً . ولكن أنت أيضاً ، أنت فتىً طروب . أليس
كذلك ، ايها الرفيق ؟ سوف نخفي ونشرب شيئاً من الخمر معاً .
سوف نخفي في الحال . »

وأجاب الرجل :

- « لقد درستُ . لقد تخرجت . أنا لم اثرب الخمر في حياتي قط . »
كانت عربة الموتى قد انطلقت . وكانت تتدحرج على حجار المقبرة
الرئيسي الضيق .
كان فوشلوفان قد تباطأ ، لقد عرج من القلق أكثر مما عرج من
عاهته .

ومشى حفار القبور أمامه .

رحدق فوشلوفان ، كرة أخرى ، الى غريبه غير المنتظر .
لقد كان واحداً من اولئك الناس الذين يبدوون ، رغم فتوتهم ،
شيوخاً ، والذين هم ، برغم هزالهم ، على قوة بالغة .

وصاح فوشلوفان :

- « ايها الرفيق ! »

واستدار الرجل .

- « أنا حفار قبور الدبر . »

فقال الرجل :

- « زميلي . »

وادرك فوشلوفان ، الحاد الذكاء برغم أميته ، أنه يواجه شخصاً
رهيباً ، محدثاً بارعاً .
وضغم :

- « وهكذا اذن . لقد مات الاب ميتين . »
- فأجاب الرجل :
- « تماماً . لقد راجع الرب الرحيم لائحة سন্দاته المستحقة الأداء .
- كان الدور دور الاب ميتين . وهكذا توفي الاب ميتين . »
- فرّدد فوشلوفان على نحو آليّ :
- « الرب الرحيم . »
- فقال الرجل في سلطان :
- « الرب الرحيم . ما يدعوه الفلاسفة الأبّ الأزليّ . وما يدعوه
- اليعاقبة الكائن الأسمى . »
- فتلجلج فوشلوفان :
- « ألن نتعارف ؟ »
- « لقد تم ذلك . أنت فلاح ، وأنا باريبي . »
- « لن نتعارف إلا حين نخنسي الخمر معاً . فمن يفرغ كأسه
- يفرغ قلبه . تعال واشرب معي . انت لا تستطيع ان ترفض . »
- « العمل أولاً . »
- فقال فوشلوفان في ذات نفسه :
- « لقد هلكت . »
- وكان الآن على بضع قصبات ، لبس غير ، من المجاز المؤدي الى
- زاوية الراهبات .
- ولابح حفار القبور :
- « ايها الفلاح ، إن لي سبعة اولاد صغار يجب ان أطعمهم .
- وإذ كانوا مضطرين الى ان يأكلوا فإنني مضطراً الى ان لا اشرب . »
- ثم اضاف في ارتياح رجلٍ جدّي يتكلم في زهو وادّعاء :
- « إن جوعهم عدوّ ظمائي . »
- واستدارت عربة الموتى حول شجرة مرو ضخمة ، وفارقت المجاز

الرئيسي ، وسلكت مجازاً صغيراً ، ودخلت الجزء المشجر من المقبرة ،
وتوارت وسط أحد الادغال . وكان ذلك يؤذن بأن القبر أمسى جدياً
قريب . وخفف فوشلوفان من مرعة خطوره ، ولكنه لم يتطع ان
يخفف من مرعة خطو العرب . ومن حين الطالع ان التوبة الحوارة ،
المنداة بأمطار الشتاء ، دَيقَتْ بالعجلات ، فجعلت جريها ثقيلاً .
واقترب فوشلوفان من حفار القبور .

وغمغم :

- « ان عندهم خرة أرجانتوي فاخرة جداً . »

فتابع الرجل :

- « ايها الرقي ، أنا ما كان ينبغي لي ان اكون حفار قبور .
لقد كان ابي بواباً في بوبتانيه . وكان يُعَدُّني للحياة الادبية . ولكنه
كان سيئ الحظ . لقد ضارب في البورصة ففصر ، وكان عليّ ان أتخلى
عن حرفة الكتابة ، ومع ذلك ، فانا لا ازال كاتباً عمومياً . »
فأجاب فوشلوفان ، متعلقاً بهذه القشة على وَهْنها :

- « ولكنك لست حفار القبور اذن ؟ »

« وإن احدهما لا تتنافى مع الاخرى ؛ انا اجمع بين الوظائف . »
ولم يفهم فوشلوفان هذا التعبير الأخير .
وقال :

- « دعنا نذهب ، ونشرب . »

وهنا لا بدّ من ملاحظة : إن فوشلوفان ، برغم قلقه الشديد ،
اقترح معايرة بنت الحان ولكنه لم يوضح امرأ واحداً ؛ مَنْ الذي
سيدفع ؟

كان من عادة فوشلوفان ان يقترح ، وكان من عادة الأب ميتين
ان يدفع . وواضح ان دعوة الى الشراب قد نشأت عن الحالة الجديدة
التي اوجدها حفار القبور الجديد ، وهي دعوة يتعيّن عليه القيام بها ،

ولكن البستاني العجوز ترك أمر الوفاء بالدين ، عن قصد طبعاً ، غامضاً يكتنفه الظلام . إن فوشلوفان ، برغم ما كان يساوره من اضطراب ، لم يكتوث بمآلة الدفع .

وتابع حفار القبور كلامه ، في ابتسامة من يستشعر الامتياز :
- « يجب ان نعيش . لقد رضيت ان أخلف الاب ميتين . فعين 'يشرف المرء على إنهاء دراسته يصبح فيلسوفاً . لقد أضفت الى حل اليد حمل الذراع . إن عندي دكان كتابتي الصغير في شارع سيفر ، هل نعلم ؟ في سوق المظلات . ان جميع طاهيات « الصليب الاحمر » يَفِدْنَ اليّ . إني أحررُ لهن ، على عجل ، رسائلهن الغرامية الى عشاقهن . في الصباح اكتب رسائل الحب ، وفي المساء أحضر القبور . هكذا هي الحياة ، ايها الرجل الريفى . »

وتقدمت عربة الموتى . وتلفت فوشلوفان ، وقد بلغ اقصى غاية الفلق ، الى يمين وإلى شمال ، وإلى امام وإلى وراه . كانت قطرات ضخام من العرق تتحدّر من جبينه .

وتابع حفار القبور حديثه :

- « ومع ذلك فليس في ميسور المرء ان يخدم سيدتين . يجب ان اختار إما القلم وإما المعول . إن المعول يؤذي يدي . »
ووقفت عربة الموتى .

وترجل غلام الجوقة من العربة المجلّة بالجوخ ، وبعته الكاهن . وارتقت عجلة أمامية من عجلات عربة الموتى كومة من التراب ، ووثي خلفها قبر فاغر الفم .

وكرر فوشلوفان في كتابة باللغة :

- « هي ذي مهزلة ! »

بين اربعة الواح

من كان في النعش ؟ نحن ندري . جان فالجان .
كان جان فالجان قد رتب الاشياء بحيث يستطيع ان يجبا في النعش
وينتفس بعض الشيء .

وفضلاً عن ذلك فعجيب الى أي مدى يستطيع الضمير المطمئن أن
يوقع السكينة في النفس . كان التديير الذي يتيته جان فالجان قد نُفِذَ ،
ونُفِذَ في نجاح ، منذ الليلة البارحة . كان يتكل ، مثل فوشلوفان ،
على الأب ميتين . ولم يساوره وبب في النتيجة ، البتة . إن إما حالة
لم تبلغ قط من الحرج ما بلغته هذه الحالة ، وإن الهدوء لم يكن قط
أكثر كلاً .

كانت ألواح النعش الاربعة تَرفر ضرباً من الأمن الفطيع . لقد بدا
وكان شيئاً من راحة الاموات قد تسرب الى سكينة جان فالجان .
ومن باطن ذلك النعش كان في ميسوره ان يتابع ، ولقد تابع ،
مختلفَ مراحل المأساة الرهيبة التي كان يمثلها مع الموت .

فما إن اتم فوشلوفان تسير اللوح الاعلى حتى استشعر جان فالجان
ان الحيلة قد رفعوه ، وأن العربية قد أنشأت، بعد ذلك تجري به . حتى
اذا خفت الارتجاجات استشعر انه انتقل من البلاط المرصوف الى الارض
الموطأة ؛ يعني أنه غادر الشوارع وانتهى الى الجادات . * ومن خلال
ضجة خافتة قدّر انهم يعبرون جسر اوسترليتز . وعندما وقفت العربية
اول مرة ، أدرك انهم دخلوا المقبرة . وعندما وقفت كرة ثانية ، قال
في ذات نفسه : « هوذا القبر » .

* جمع جادة وهي « البولفار » .

وأحسن بأيدي تسارع الى الامساك بالنعش ، ثم أحسن باحتكاك مبعوح
فوق الألواح . فاستنتج ان ذلك جبل كانوا يطوقون به النعش لكي
ينزلوه الى الحفرة .

ثم انه استشعر ضرباً من الدّوار .

لعل حملة النعش وحفار القبور قد امالوا النعش وانزلوا مقدّمه قبل
مؤخره . واستعاد وعيه كاملاً حين امسى في وضع أفقي ، جامداً
عديم الحركة . كان قد مسّ القعر .
وأحسن بقشعريرة .

وارتفع صوت فوفه مثلوجاً مهيأ . وسمع بضع كلمات لاتينية لم
يفهمها ، تلفظ في بطنه مكثته من ان يلتقطها وأحدة إثر اخرى :

• *Qui dormiunt in terrae pulvere, vigilabunt ;*
alii in vitam aeternam, et alii in
opprobrium, ut videant semper

فقال صوت طفل :

— *De profundis .* **

وأردف الصوت الوقور :

— *Requiem aeternam dona ei, Domine .* ***

فأجاب صوت الطفل :

— *Et lux perpetua luceat ei* ****

وسمع فوق اللوح الذي يغطيه شيئاً مثل تساقط الرذاذ الرفيق .
واغلب الظن ان ذلك كان الماء المقدس .
وقال في ذات نفسه :

* الذين يرقدون في تراب الارض ويسكنون هناك ، بعضهم يعيش في الحياة
الابدية وبعضهم في المذاب المليم .

** من الاصماق .

*** فامنحهم الراحة الابدية ، ايها السيد .

**** ونورك سرمدي .

-- « سوف ينتهي ذلك عما قريب . اصبر فترة اخرى قصيرة . ان الكاهن على وشك ان يمضي . وان فوشلوفان سوف يقود متيين الى الحانة . انهم سيفارقوني . ثم يرجع فوشلوفان وحيداً . ولـ سوف اخرج . ان ذلك سيستغرق ساعة او يزيد . »
 وادف الصوت الوقور :

— *Requiescat in pace . **

وقال صوت للطفل :

— *Amen . ***

وسمع جان فالجان ، 'مرهناً اذنه ، صدىً أشبه بصدى الاقدام المتراجعة .

وقال في ذات نفسه :

— « انهم ينصرفون . لقد امسيت وحدي . »
 وفجأة سمع فوق رأسه صوتاً بدا له وكأنه قصف الرعد .
 كان ملء مسحاة من التراب يسقط على النعش .
 وسقط ملء مسحاة آخر .
 وسدّ احد الثقوب التي كان يتنفس منها .
 وسقط ملء مسحاة ثالث .
 ثم ملء مسحاة رابع .
 اث ثمة اشياء أقوى من اقوى رجل . وأغني على جان فالجان .

* ارقدوا في سلام .

** آمين .

حيث سنكتشف اصل قولهم :

لا تضع بطاقتك ٥

فلنتظر ما الذي حدث فوق النعش الذي ضم جاث فالجان بين جنبايه .

حين مضت عربة الموتى لسبيلها ، وامتنطى الكاهن وغلام الجوفة متن العربة وانصرفا ، بصراً فوشلوفات - الذي لم يرفع عينيه قط عن حفار القبور - بهذا الحفار ينحني ويتناول مسحاته التي كانت مغموسة على نحو مستقيم في ركام التراب .

وهنا اتخذ فوشلوفات قراراً رقيقاً .

لقد أقسم نفسه ما بين الحفرة والحفار ، وقال مصالباً ذراعيه :

- « سوف أدفع أنا ثمنها ! »

فعدّق اليه حفار القبور ، في دهش ، واجذب :

- « ماذا ؟ أيها الفلاح ؟ »

فكرر فوشلوفان :

- « سوف أدفع أنا ثمنها ! »

- « غن ماذا ؟ »

- « الحمر . »

- « أية خمر ؟ »

- « خمر الآرجانتوني »

- « ابن خمر الآرجانتوني هذه ؟ »

« يقولون في الفرنسية : أضع البطاقة perdre la carte بمعنى : اضرب .

- « في حانة السفرجلة الطيبة . »

فقال حفار القبور :

- « اذهب الى الشيطان ! »

وقذف النعش بملء مسحة من التراب .

ورجع النعش صدىً غائراً . واستشعر فوشلوفان أنه يترنح ، وكاد

يهوي الى القبر . وفي صوت اخذ يمتزج به اختناق الحشرة ، صاح :

- « تعال ، ايها الرفيق ، قبل ان تغلق حانة السفرجلة الطيبة

أبوها ! »

ورفع حفار القبور ملء مسحة آخر من التراب . وتابع فوشلوفان :

- « سوف ادفع . »

وأمسك بحفار القبور من ذراعه .

- « إسمع ، ايها الرفيق . أنا حفار القبور في هذا الدير ، ولقد

جئتُ لأساعدك . إنها مهمة نستطيع ان نقوم بها ليلاً . دعنا نشرب

كأساً من الخمر أولاً . »

وفيا هو يتحدث ، وفيا هو يتعلق يائساً بهذا الجهد الملح ، تسأل

في تشاؤم : « وحتى لو شرب ! أوائق أنا من انت السكر سوف

يتبعته ؟ »

وقال حفار القبور :

- « ايها الرفيق ، اذا لم يكن من ذلك بدّ فاني اوافق . سوف

نشرب . ولكن بعد إتمام العمل ، لا قبله على الاطلاق . »

وحرّك مسحاته من جديد . وأمسك فوشلوفان به .

- « إنها خير أرجانتوني التي يُباع ثمن الغالون منها بستة سو ! »

فقال حفار القبور :

- « آه ، هكذا . إنك بملء . دينغ دونغ ، دينغ دونغ ؛ انت

لا تعرف أن تقول شيئاً غير هذا . اذهب ، وانصرف الى عملك . »

وقذف بملء المسحاة الثاني .
وكان فوشلوفان قد بلغ تلك النقطة التي لا يعرف المرء فيها أي شيء يقول .

وأعاد كرة أخرى :
- « اوه ! تعال ، واشرب كأساً ، ما دمت أنا الذي سأدفع . »
فقال حفار القبور :

- « بعد أن نضع الطفل في المهد . »
وقذف بملء المسحاة الثالث .
ثم غرز المسحاة في التراب ، وأضاف :
- « أترى ؟ سوف يكون الجو بارداً ، الليلة ، وسوف تصبح
الميتة في إثرنا اذا زرناها هناك من غير ان تغطيها جيداً . »
وفي هذه اللحظة ، وفيما كان حفار القبور يُثقل مسحاته بالتراب ،
انحنى انحناءً شديداً ، ففغر جيب كسائه فاه .
واستقرت عين فوشلوفان الذاهلة استقراراً آلياً على هذا الجيب ،
وظلت مسخرة هناك .

ولم تكن الشمس قد توارت خلف الافق ، وكان لا يزال ثمة ضوء
كافٍ لرؤية شيء ابيض في الجيب الفاجر فاه .
والنمع كامل البرق الذي يمكن لعين فلاح بيكاردي ان تنطوي
عليه ، في حديقتي فوشلوفان . كانت فكرة جديدة قد خطرت له .
ومن غير ان يلحجه حفار القبور ، الذي كان منهمكاً بمسحاته الملأى
بالتراب ، دس يده من وراء في ذلك الجيب ، واستل منه الشيء
الابيض الذي احتواه .

وقذف حفار القبور بملء المسحاة الرابع الى اللحد .
وفيما كان يستدير ليأخذ الخامس تسأل فوشلوفان وهو ينظر اليه في
هدوء عميق :

- « بالمناسبة ، هل تحمل بطاقتك ايها الصديق الجديد ؟ »
وتوقف حفار القبور :
- « اية بطاقة ؟ »
- « الشمس على وشك المغيب . »
- « حسن . دعه * يضع قلنسوة الليل . »
- « سوف يُفْلَقَ باب المقبرة . »
- « حسن . ثم ماذا ؟ »
- « هل تحمل بطاقتك ؟ »
- فقال حفار القبور :
- « آه ، بطاقتي ! »
- وبحث في جيبه .
- حتى اذا لم يجد فيه شيئاً ، بحث في جيبه الآخر . ثم إنه انتقل الى جيب صدرته ، فتقَّب فيه ، ثم جعل داخلَ جيبه الآخر خارجَه .
- وقال :
- « لا ! لا ! أنا لا أحمل بطاقتي . لا شك في أنني نسيتها . »
- فقال فوشلوفان :
- « خمسة عشر فرنكاً غرامة . »
- وغدا لون حفار القبور أخضر . إن الأخضر هو لون الشحوب عند اصحاب البشرة الزرقاء الضاربة الى السواد .
- وصاح :
- « اوه ، يا الهي الطيب الرحيم ، ايّ مجنون أنا ! خمسة عشر فرنكاً غرامة ! »
- فقال فوشلوفان :
- « ثلاث قطع من ذوات المئة سو . »

* يقصد « الطفل » أي الدين .

وأفلت حفار القبور مسجته .

كان دور فوشلوفان قد جاء .

وقال فوشلوفان :

- « تعال ، تعال ، ايها المجنّد الجديد ، لا داعي للباس . ليس
ثمة ما يملكك على ان تقتل نفسك وتصبح طعاماً للديدان . إن خمسة
عشر فرنكاً هي خمسة عشر فرنكاً ، وإلى هذا فقد تكون غير قادر
على دفعها . أنا عاملٌ عتيق ، وانت عامل جديد . انا أعرف جميع
حيل الصنعة ، وأشراكها ، ومنعطفاتها ، والنوائها . ولسوف أقدم
إليك نصيحة صديق . إن ثمة شيئاً واضحاً ليس غير ، هو ان الشمس
في سبيلها الى المغيّب ، وان المقبرة سوف تغلق بعد خمس دقائق . »
فاجاب حفار القبور :

- « هذا صحيح . »

- « وخمس دقائق لا تكفيك لطمر القبر ، فهو محيق كالشيطان .
من اجل ذلك ارى ان نخرج من هنا قبل ان يُغلق الباب . »

- « انت على صواب . »

- « وفي هذه الحال ستدفع خمسة عشر فرنكاً غرامة . »

- « خمسة عشر فرنكاً ! »

- « ولكن لديك متسعاً من الوقت ... ابن تقطن ؟ »

- « على بُعد خطوتين من باب المدينة . على مسيرة خمس عشرة
دقيقة ؟ رقم ٨٧ شارع فوجيرار . »

- « سوف يكون لديك متسع من الوقت اذا فررت في الحال . »

- « هذا صحيح . »

- « وما تكاد تجتاز الباب حتى تعدو الى البيت ، ونجىء ببطاقتك ،
وترجع الى هنا ، فيدخلك البواب من جديد . وحين تسمي البطاقة في
يدك لا يبقى ثمة داعٍ الى ان تدفع شيئاً . وعندئذ تستطيع ان تدفن

صاحبك الميت * . وسوف ابقى أنا هنا ، فأحرسه ريثما تعود ، لكي لا يولي قراراً . »

- « أنا مدين لك بحياتي ، ايها الفلاح . »
فقال فوشلوفان :

- « أغرب ، إذن ، أسرع ! »
وصافحه حفار القبور ، وقد غلبته هزة من عرفان الجليل ، وأطلق ساقيه للريح .

وحين توارى حفار القبور وسط الأدغال ، أصغى فوشلوفان حتى تلاشى وقع قدميه ، وعندئذ انحنى فوق القبر ، ونادى في صوت مهوس :

- « ايها الاب مادلين . »

فلم يقع على جواب .
وارتعد فوشلوفان . وتدحرج نحو القبر ، ولا نقول هبط ، وطرح نفسه على مقدم النعش ، وصاح :

- « أنت هناك ؟ »

ولكن الصمت كان يسود النعش .

وتناول فوشلوفان إزميله ومطرقته - وقد كاد يعجز عن التنفس بسبب من الرعدة - واقتلع اللوح الفوقي . كان في ميسوره ان يرى وجه جان فالجان في العسق ، وكانت عيناه مغبضتين ، ولونه شاحباً . وقف شعر فوشلوفان . ونهض واقضاً . ثم تقابل مولياً ظهره بجانب القبر ، مستعداً لان يسقط فوق النعش . ونظر الى جان فالجان . كان جان فالجان يرقد هناك شديداً الشحوب ، عديم الحركة . وتمتم فوشلوفان في صوت خفيض كأنه همس :

* واضح ان هذه سقطة من سقطات فوشلوفان ، كاد ان يفضح بها السر كله . وكان ينبغي ان يقول : ان تدفن الميتة ...

- « لقد مات . »

ثم تصدّر ، وصالب ذراعية في عنف بالغٍ حتى لقد رنت قبضته المفلقتان فوق كتفيه ، وصاح :

- « تلك هي الطريقة التي انقذته بها ! »

ثم إن العجوز المسكين شرع ينتعّب ، موجّهاً الكلام الى نفسه في صوت مرتفع ، لأن من الخطأ ان نعتقد أن مخاطبة المرء نفسه ليست شيئاً طبيعياً . إن الانفعالات القوية كثيراً ما تتكلم بصوت عالٍ .

- « إنها غلطة الاب ميتين . لماذا مات ، المجنون ؟ اي فائدة كانت له في ان ينفق * في هذه اللحظة ، حين لم يكن احد يتوقع ذلك ؟ إنه هو الذي قتل مسيو مادلين . الاب مادلين ! انه في الشمس . لقد استقر هنا . انتهى كل شيء . والان ، اي معنى لهذا كله ؟ آه يا الهي ! لقد مات ! أجل ، وبنته الصغيرة ما الذي ساعله بها ؟ أي شيء ستقوله بالغة الفاكهة ؟ ان يموت رجل مثل هذا ميتة مثل هذه ! اينها السماء ، أمكن هذا ؟ حين افكر انه اقيم نفسه تحت عرشي ... ايا الاب مادلين ! ايا الاب مادلين ! رحمتك يا رب ، لقد اختنق ! لقد قلت له ذلك ولكنه لم يجب ان يصدقني . والآن ، هوذا حمل ظريف ! لقد مات ! مات هذا الرجل الطيب ؛ مات اطيب رجل خلقه الرب الطيب ! وبنته الصغيرة ؟ انا لن ارجع الى هناك بعد . سوف أبقى هنا . انا لا استطيع ان افكر اني قمت بعمل كهذا ! يكفي ان نكون شيخين هرمين حتى نكون معنوهين هرمين . ولكن قبل كل شيء ، كيف استطاع ان يدخل الى الدير ؟ من هنا بدأت . مثل هذه الامور يجب ان لا تعمل . ايا الاب مادلين ! ايا الاب مادلين ! ايا الاب مادلين ! مسيو مادلين ! مسيو مادلين ! ايا السيد العمدة ! انه لا يعني . أخرّج نفسك من هنا ، الان ، اذا شئت . »

* نطق : مات . وهي تعطّن في الكلام على البهائم بخاسة .

وانشأ يقطع شعره .
وعلى مسافة ما من خلال الاشجار ، سَمِعَ صريرَ حادّ . كان باب
المقبرة يوصد .

وانحنى فوشلوفان مرة اخرى ، فوق جان فالجان ، ولكنه اراد
فجأة الى الوراء بأقصى ما يُستطاع الاندفاع التراجعيّ في قبر من القبور .
كانت عينا جان فالجان مفتوحتين ، وكان يحدق اليه .
إن مشاهدة الموت لمروعة ، ولكن مشاهدة بعث مفاجيء لا تقلّ
عن ذلك ترويعاً . وأمسى فوشلوفان شاحباً مثولجاً كاللحجارة ، ذاهلاً
مضطرباً النفس بهذه الانفعالات القوية كلها ، غيرَ عالم ما إذا كان امام
حيٍّ ام امام ميت ، مهدّفاً الى جان فالجان المهدق ، بدوّره ،
اليه .

وقال جان فالجان :

« كنتُ نائمًا . »

ونفض جان فالجان متخذاً وضعاً قاعداً .

وركع فوشلوفان على ركبتيه .

« أوه ، ايها العذراء الطيبة ! كم قد روّعتني ! »

ثم نهض وصاح :

« شكراً لك ، ايها الأب مادلين ! »

كان قد أنغمي على جان فالجان ، ليس غير . حتى اذا استنشق

الهواء الطلق ثاب الى رشده .

ان البهجة صنو الذعر . ولقد وجد فوشلوفان في استعادة رشده

مثل ذلك العصر الذي وجده جان فالجان تقريباً .

« واذن فانت لم تمت ! آه ما اعظم ذكائك ! لقد ناديتك

بصوت مرتفع الى حد جعلك تعود الى صوابك . وحين رأيتك مغض

العينين ، قلت : « حسن ، هوذا قد اختنق . وكنت على وشك أن أمسي

مجنوناً .. مجنوناً حقيقياً ذا صدرة كصدرات المعتوهين الفتية الضيقة .
ولقد كان جديراً بهم ان يدخلوني الى بيستر * . ما الذي كنت تريدني ان
اعمل لو انك مت ؟ وفناتك الصغيرة ! كانت بائعة الفاكهة خليقة بأن لا
تفهم شيئاً من ذلك ! طفلة تلتقى فجأة في حضنها ، ثم يموت جدها !
يا لها من قصة ! وحق قديسي السماء كلهم ، يا لها من قصة ! آه !
ولكنك حي - هذا خير ما في المسألة . »

فقال جان فالجان :

- « أنا أحسّ بالبرد . »

وكان في هذه الكلمات ما اعاد فوشلوفان إعادة تأمة الى واقع
الاشياء . الذي كان ملجأً . وإنما استشعر هذان الرجلان من غير
ان يدريا ، حتى بعد ان تابا الى رشدتهما ، احتياجاً فريداً وقلقاً داخلياً
عجيباً لم يكونا غير الانشده المشؤوم الذي أوقعه المكان في نفسيهما .
وقال فوشلوفان :

- « فلنخرج من هنا في الحال . »

وأقحم يده في جيبه ، وأخرج قارورة كان قد تزود بها وقال :

- « ولكن خذ نقطة من هذه ، أولاً ! »

وأتمت القارورة ما كان الهواء الطلق قد بدأه . وتناول جان فالجان

جرعة من العرق ، واستشعر انه استعاد قواه بكاملها .

وخرج من النعش ، وساعد فوشلوفان على تسيير اللوح الملوي

من جديد .

وما أنقضت ثلاث دقائق حتى كانا خارج القبر .

واطمأنت نفس فوشلوفان بعد ذلك . وأخذ بأسباب التمهّل . كانت

المقبرة موصدة . ولم يكن ثمة خوف من ان يعود غريبه حفار

* مأوى شرب المعجائز والهجائين كان في قرية بيستر ، وقد سبق التمرير به

في جزء ماض .

القبور . كان « المجد الجديد » في منزله منهمكاً في البحث عن بطاقته ، وما كان محتسلاً ان يعثر عليها ، لأنها كانت في جيب فوشلوفان . واذ لم يكن يحمل بطاقته تلك فليس في ميسور ان يرجع الى المقبرة . وتناول فوشلوفان المسحاة ، وتناول جان فالجان الممول ودفنهما النعش الفارغ معاً .

وحين طفح القبر ، قال فوشلوفان لجان فالجان :
« تعال ، فلنذهب . سوف أحتفظ أنا بالمسحاة ، وسوف تحتفظ انت بالممول » .

وهبط الليل .

ووجد جان فالجان بعض العُسر في الحركة والمشي . كان التصلب قد اصابه في ذلك النعش ، وكان قد امسى ، الى حد ما ، جثة هامدة . لقد استبدت به عَـسَمٌ * الموت في ذلك الصندوق الحشي الضيق . وكان يتعين عليه ، بمعنى من المعاني ، أن يذيب نفسه من القبر .

وقال فوشلوفان :

« انت خدر . ومن أسفٍ أفي معوج الساقين ، والا لكاث في ميسورنا ان نعدو بعض الشيء . »
فأجابه جان فالجان :

« لا بأس . ان بضع خطوات خليقة^١ بأن تعيد الى رجلي^٢ مرونتها . »

وارتد^٣ سالكين الممرات التي سلكتها عربة الموتى من قبل . حتى اذا انتهيا الى الباب الموحد والى مقر البواب ألقى فوشلوفان بطاقة حفار القبور ، وكان يحملها في يده ، الى العلبة ، فجذب البواب الحبل

* العَـسَمُ : يس في مفصل الرسغ تموج منه اليد والقدم .

ففتح الباب وخرجا .

وقال فوشلوفان :

— « ما احسنَ ما يسير كل شيء ! أية فكرة باعة هذه التي

طلعتَ بها ، ايها الاب مادلين ! »

واجتازا حاجز فوجيرار على أيسر نحو في العالم . ففي ضواحي

مقبرة من المقابر يقوم المعول والمسحاة مقام جواز السفر .

كان شارع فوجيرار مقفراً .

وقال فوشلوفان ، فيما كان يتقدم رافعاً بصره الى البيوت :

— « ايها الاب مادلين ، ان عينيك احسن من عيني . ايها

رقم ٨٧ ؟ »

فقال جان فالجان :

— « ها هو ذا بعينه . »

واردف فوشلوفان :

— « ليس في الشارع احد . أعطني المعول ، وانتظري دقيقتين . »

ودخل فوشلوفان المنزل رقم ٨٧ ، وصعد الى اعلى السلم ، تقوده

الغريزة التي تقود الفقير ، دائماً ، الى العلوية ، وقرع - في الظلام -

باب غرفة قائمة تحت السقف . وأجاب بصوت :

— « أدخل . »

كان صوت غريبه .

وفتح فوشلوفان الباب . كان منزل حفار القبور ، شأن منازل

الموزين جميعاً ، بيتاً حقيراً غير مؤثث ولكنه مزدحم بالاشياء المبعثرة

هنا وهناك . كان صندوق أمتعة من ضربٍ ما - ولعله ان يكون

نعشاً - يقوم مقام خزانة ذات ادراج ؛ وحشية من قش مقام سرير ؛

ولاء للزبدة مقام حوض ماء ؛ وكانت ارض الغرفة تقوم مقام

الكراسي والطاولة . وفي احدى الزوايا ، على خرقه كانت من قبل

مزقة بالية من سجادة ، تكدمت امرأة مهزولة وجهمرة من الأولاد ؛
وكان كل ما في هذا المأوى البائس يحمل آثار بلبلة حديثة العهد . لقد
كان في ميسور المرء ان يزعم ان زلزالاً وقع ثمة « لشخص واحد » .
كانت اغطية الآنية مبعثرة ، والسياب البالية متناثرة ، والابريق
مكسوراً ، والأم تبكي ، والاطفال يتوجعون في أغلب الظن من اثر
الضرب . كان كل شيء يؤذن بأن المكان قد خضع منذ قريب لتفتيش
عنيف شكيس . كان واضحاً ان حفار القبور انهك في البحث عن
بطاقته انهاكاً ضارباً وحمل كل ما في العلانية الخفية ، من الابريق الى
زوجته ، مسؤولية ضياعه . كان اليأس يرين على محياه .

ولكن فوشلوفان كان يتعجل الوصول الى نهاية مغامرته تعجلاً يجعله
لا يلاحظ هذا الجانب المظلم من انتصاره .

لقد دخل وقال :

« اني أحمل اليك مسحاتك وممولك . »

ونظر غريبه اليه في انشده :

« ماذا ؟ هذا انت ، ايا الفلاح ؟ »

« وغداً صباحاً ، سوف تجد بطاقتك عند بواب المقبرة . »

ووضع الممول والمسحات على الارض .

وتساءل غريبه :

« ما معنى ذلك كله ؟ »

« هذا يعني انك سمحت لبطاقتك بأن تنقط من جيبيك ؛ اني

وجدتها على الارض عندما ذهبت ؛ اني دفنت الجثة ؛ اني ردمت

القبور ؛ اني أقممت مهنتك ؛ أن البواب سوف يعطيك بطاقتك ؛ أنك

لن تضطر الى دفع خمسة عشر فرنكاً . هذا ما يعنيه ذلك كله ، ايا

المجتد الجديد . »

فصاح غريبه ، في ذهول :

- وشكراً ، أيها الريفى . في المرة القادمة سوف ادفع افاغنى الخمر .

٨

استجواب ناجح

بعد ساعة ، وفي جوف الليل البهيم ، وقف رجلان وطفلة فجاء ريم ٦٢ ، شارع بيكبوس الصغير . ورفع اكبر الرجلين سنّاً قارعة الباب وخفّفه .

كانوا فوشلوفان ، وجان فالجان ، وكوزيت .
وكان الرجلان قد انطلقا التماساً لكوزيت في دكان بائعة الفاكهة بشارع « الطريق الاخضر » حيث كان فوشلوفان قد وضعها الليلة البارحة . وكانت كوزيت قد سلخت تلك الساعات الاربع والعشرين مفساةً عن معنى ذلك ، ومرتعدةً في صمت . لقد ارتجفت الى درجة ذادت عن عيها الدمع . إنها لم تذق طعاماً البتة ، ولم تلم البتة . وكانت بائعة الفاكهة الفاضلة قد وجهت اليها مئة سؤال وسؤال من غير ان تنوز من الجواب باكثر من نظرة كثيفة لا تتغير على الاطلاق . فقد حرصت كوزيت على ان لا يندّ منها شيء بما سمعته ورأته منذ يومين . كانت قد حزرت ان ازمة قد نشأت . واستشعرت ، في قرارة نفسها ، ان عليها « أن تكون عاقلة » . ومن ذا الذي لم يعرف الاثر الأرفع الذي تنطوي عليه هذه الكلمات الثلاث مبهوساً بها ، بجرس معين ، في أذن كائن صغير مروّع : « حذار أن تتكلم ! » ، إن الحوف أخرس . والى هذا ، فليس ثمة من يصون السرّ مثل طفل صغير . بيد أنها ما إن وقع بصرها كرةً اخرى - بعد هذه الساعات الاربع والعشرين الفاجعة - على جان فالجان حتى اطلقت صيحة فرح .

كان في ميسور أيما امرئ مشغول البال ان يستشف فيها ، اذا ما سمعها ،
نجاة من هاوية .

كان فوشلوفان من اهل الدير ، وكان يعرف كلمات السر . كانت
الابواب كلها تفتح في وجهه .
وكذلك 'حلت تلك المشكلة المزدوجة والمروعة : مشكلة الخروج
ثم الدخول من جديد .

وفتح البواب - وكان قد تلقى الأوامر - البواب الجانبي الذي
يصل ما بين الفناء والحديقة ، والذي كان لا يزال في ميسور المرء ان
يراه ، منذ عشرين سنة ، من جانب الشارع ، في الجدار القائم في
اقصى الفناء تجاه باب العربات . واجاز البواب للثلاثة جميعاً ان
يدخلوا من هذا البواب ، ومن هناك شخصوا الى غرفة الاستقبال
الداخلية الخاصة حيث تلقى فوشلوفان ، الليلة البارحة ، اوامر رئيسة
الدير .

كانت الرئيسة تنتظرهم والسجدة في يدها . وكانت احدى
الامهات الصوتيات واقفة قربها 'مدلة' الحجاب . ولقد اضاءت شمعة
كنوم غرفة الاستقبال ، او لعلها بدت وكأنها تنيرها .
وتأملت الرئيسة جان فالجان . وليس شيء اقدر على الدرس - من
عين مغضوخة .

ثم إنها تقدمت الى سؤاله :

- « أنت اخوه ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

- « نعم ، ايتها الأم الموقرة . »

- « ما اسمك ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

- « أولتيم فوشلوفان . »
 لقد كان له اخ متوفى يدعى اولتيم .
 - « من اي جزء من البلاد أنت ؟ »
 فأجاب فوشلوفان :
 - « من بيكوبيني ، قرب آميان . »
 - « ما عمرك ؟ »
 فأجاب فوشلوفان :
 - « خمسون سنة . »
 - « وما صنعتك ؟ »
 فأجاب فوشلوفان :
 - « بستاني . »
 - « هل أنت مسيحي صالح ؟ »
 فأجاب فوشلوفان :
 - « كل افراد اسرتنا هم كذلك . »
 - « أهذه هي فتاتك الصغيرة ؟ »
 فأجاب فوشلوفان :
 - « نعم . ايتها الأم الموقرة . »
 - « ألنت أبوها ؟ »
 فأجاب فوشلوفان :
 - « جدّها . »
 وقالت الأم للرئيسة في صوت كالهمس :
 - « إنه يجب اجابة حسنة . »
 ولم يكن جان فالجان قد نطق بكلمة ما .
 وأنعمت الرئيسة النظر الى كوزيت ؛ ثم أسرت في أذن الأم
 الصوتية :

- « سوف تغدو بشعة . »

وفي صوت خفيض جداً تحدثت الأمان ، بضع دقائق ، في زاوية من زوايا غرفة الاستقبال ، ثم التفتت الرئيسة وقالت :

- « أيها الأب فوفان ، سوف تُعطى وافية رُكْبٍ أخرى ذات جليل . نحن نحتاج الآن الى اثنين . »

وهكذا سُمِع ، في الصباح التالي ، جليجلان يرتان في الجنيْنة . ولم تمالك الراهبات أن يرفعن إحدى زوايا 'مُجْبِهِن' . لقد رأين رجلين يحفران جنباً الى جنب ، في اقصى الحديقة ، تحت الاشجار : فوفان وشخصاً آخر .

حدث ضخم ! وقطع جبل الصمت الى حدّ القول :

- « إنه يستانيّ مساعد ! »

واضافت الأمهات للصوتيات :

- « إنه آخر الأب فوفان . »

والواقع ان جان فالجان 'قلّد عمله على نحو نظامي . لقد حُمِّلَ وافية الرُكْبِ الجلدية والجلجل . ومن ذلك الحين أمسى موظفاً رسمياً . وكان يُعرف باسم أولتيم فوشوفان .

وكان أقوى الاسباب التي قرّرت قبول كوزيت ملاحظة الرئيسة : سوف تغدو بشعة .

وما إن لفظت الرئيسة هذا الحُدى حتى غمرت كوزيت بمودتها وافسحت لها مكاناً في المدرسة الداخلية بوصفها طالبة مجانية . وليس ثمة شيء غير منطقيّ ، البتة ، في ذلك .

وعبناً 'نقصى المرابا عن الأديرة . فالنساء يَعِيْنُ طَلَعَاتهن . والفتيات اللواتي يعرفن أنهن جيلات لا يتوهّبن عن رضا وطيب نفس . واذ كانت النزعة الى الحياة الرهبانية متناسبةً تناسباً عكسياً مع الجمال ، فطبيعيّ ان يُعقد الأمل على القبيحات اكثر مما يُعقد على المليحات . ومن هنا ذلك الولوع

الشديد بالفتيات البشعات .

ورفعت هذه المسألة كلها من معنوية فوشلوفان الطيب المعجوز . كان قد أحرز نصراً مثلثاً - في عيني جان فالجان بعد ان انقذه وآواه ؛ وعند حفار القبور ، غريبية ، الذي قال : لقد خلصني من دفع الغرامة ؛ وفي الدير الذي استطاع بفضله - من طريق الاحتفاظ بنعش الأم كروسيكسيون تحت المذبح - ان يحتبب قيصر ، ويرضي الرب . كان ثمة نعش ينطوي على جثمان في « بيكبوس الصغير » ، ونعش من غير جثمان في مقبرة فوجيرار . لقد انتهكت حرمة النظام العام من غير ريب ، ولكن احداً لم يلمح ذلك . اما الدير فكان عرفانه جميل فوشلوفان عميقاً . لقد غدا فوشلوفان أحسن الخدم ، وأعلى البستانيين . فعندما قام رئيس الاساقفة بزيارته التالية للدير قصّت الرئيسة الحادثة على سامع عظمته من باب الاعتراف ، من ناحية ، ومن باب الاعتزاز من ناحية . حتى اذا غادر رئيس الاساقفة الدير أسراً بذلك ، في إطرء ، في أذن مسيو دو لاثيل ، معرف الشقيق الثاني من أشقاء الملك ، الذي اصبح في ما بعد رئيس اساقفة ريمس وكاردينالاً . وانطلق هذا الثناء على فوشلوفان والاعجاب به الى ابعد من ذلك ، اذ بلغ رومة نفسها . ولقد وقعت تحت عينيّ مذكرة وجهها البابا المتربع على الكرسي الرسولي آنذاك ، ليو الثاني عشر ، الى احد انسابه ، السفير البابوي في باريس ، الذي كان يدعى مثله ديلاً جانفا . لقد انطوت على هذه الطور : « يبدو ان ثمة في احد اديرة باريس ، بستانياً ممتازاً ذا قداسة ، يدعى فوفان . ، ولم يبلغ فوشلوفان في كوخه شيء من هذه الشهرة التي نمت له . لقد واصل تطعيم بطيخانه واقتلاع الاعشاب الضارة من حولها وتغطينها ، من غير ان يعي امتياز وقداسته اقل الوعي . إنه لم يستشعر مجده اكثر مما يستشعر مجده اي ثور من ثيران دورهام أو دو سوري 'تنشر صورته في مجلة « لندن الاسترايتد

نيوز ، وقد كُتِبَ فتحها : الثور الذي قال الجائزة في معرض
الماشية . ،

٩

الخاتمة

وفي الدير ، واصلت كوزيت صمتها .
لقد اعتقدت ، على نحو طبيعي جداً ، انها بنت جان فالجان . والى
هذا ، فقد كانت لا تعرف شيئاً . ومن هنا لم يكن في ميسورها ان
تبوح بشيء . وعلى اية حال ، فقد كان خليقاً بها ، حتى لو عرفت ،
ان لا تتكلم . فليس ثمة ما يعود الاطفال للصمت ، كما سبق أن قلنا ،
مثل الشقاء . فقد لقيت كوزيت من البلاء قدراً جعلها تخشى كل شيء .
حتى الكلام ، حتى التنفس . فكم من مرة اسقطت كلمة واحدة وابلاً
من الاذى على رأسها ! وكانت قد بدأت ، وما كادت ، تستشعر الطمأنينة
منذ ان رافقت جان فالجان . وسرعان ما ألفت حياة الدير . ومع ذلك
فقد ظلت تحزن الى كاترين ، ولكنها لم تجرؤ على التصريح بذلك . بيد
انها قالت لجان فالجان ذات يوم :

« أبت ، لو كنت عارفة ، لملتئها معي . »

وكان على كوزيت ، وقد اصبحت طالبة داخلية في الدير ، ان
ترتدي ملابس الطالبات . ووفقاً لجان فالجان الى إقناع جماعة الدير
بأن يُعطوه الثياب التي اطرحتها . كانت هي الثياب الحدادية نفسها
التي جاءها بها لترتديها يوم فارقت تيناردييه وزوجته . ولم يكن البلى
قد أصابها . ولفَّ جان فالجان هذه الثياب ، وأضاف اليها الجورب
الصوفي والحذاء ، ومقداراً وافراً من الكافور وغيره من ضروب

الطبيب التي تكثر في الأديرة ، ثم وضعها في حقيبة صغيرة 'وفتق الى الحصول عليها . ووضع هذه الحقيبة على كرسي قرب فراشه ، وحرص على الاحتفاظ بفتحها في جيبه .

وسألته كوزيت ذات يوم :

- « أبت ، ما هذا الصندوق الذي تفوح منه هذه الرائحة الزكية جداً ؟ »
وكوفي الأب فوشلوفان - الى جانب هذا المجد الذي وصفنا ، والذي لم يكن يعبه ، على صنيعه الحسن . لقد أوقع عمله ذلك السعادة في قلبه ، أولاً ، وخفف عنه وطأة الشغل ، بعد ان تقاسمه مع جان فالجان . واذ كان شديد الولوج بالتبغ فقد وجد في هذه الزمالة الجديدة نفعاً من ناحية اخرى . لقد اخذ ثلاثة اخفاف نصيبه للقديم من التبغ ، وعلى نحو أكثر شراهة الى حد بعيد ، ما دام مسير مادلين هو الذي كان يدفع الثمن .

ولم تتبنّ الراهبات اسم أوليم . لقد دعون جان فالجان فوفان الآخر .

ولو قد كان لهاته النسوة القدسيات عين كمين جافير ، اذن للاحظن ، على مرّ الأيام ، أن فوشلوفان الاكبر سناً ، فوشلوفان المعجوز ، العاجز ، الأعرج ، كان هو الذي يهرع الى الخارج كلما قضت مصلحة الحديقة بذلك ، لا الرجل الآخر بحال من الاحوال . ولكن سواء اكانت الاعين المحدقة ابداً الى الله عاجزة عن التجسس ، أم كانت منهكة على نحو موصول في مراقبة بعضها بعضاً ، فانهن لم يلاحظن شيئاً البتة .

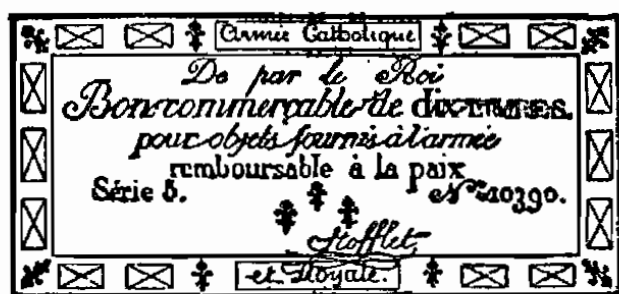
وأياً ما كان ، فقد ارتاح جان فالجان الى الاعتصام بالهدوء والسكينة . وراقب جافير الحيّ شهراً أو يزيد .

كان الدير بالنسبة الى جان فالجان أشبه بجزيرة تحيط بها اللجج . ومن ذلك الحين أمست هذه الجدران الاربعة هي العالم عنده . فضمتها

كان في ميسوره ان يرى السماء الى حدّ يوقع الطمانينة في نفسه ،
وكوزيت الى حد يُبليج فؤاده .

لقد استهلّ ، من جديد ، حياةً سعيدة جداً .

وعاش مع فوشلوفان المعجوز في الكوخ الذي في أقصى الجنيّة . وكان
هذا المأوى الحقيّر ، المبنيّ من حطام الجبس ، والذي كان لا يزال قائماً
عام ١٨٤٥ ، يتألف كما نذكر ، من ثلاث غرف كلها عارية فليس فيها
غير الجدران . وكان فوشلوفان قد ضغط على مسبو مادلين حتى أقنعه ،
بعد معارضة مخففة ، بالنزول في الغرفة الرئيسية منها . وكان يزيّن
جدار هذه الغرفة بالاضافة الى المسارين التحصين لتعليق الرُكّبة والسلة
الكبيرة ، نموذجٌ ملكيّ من الاوراق النقدية الصادرة عام ٩٣ ،
والمصقّة فوق الموقد ، والتي تقدّم هنا صورة طبق الاصل عنها :



كانت هذه الورقة النقدية التي أصدرت في فاندیه قد ممرّتها على
الجدار يدُ البستاني السابق - وهو احد المتمردين القدماء على الجمهوريّة-
الذي توفي في الدير فخلّقهُ فوشلوفان .

وعمل جان فالجان كل يوم في الحديقة ، وكان عظيم الغناء هناك .
كان من قبلُ مشدّب أغصان ، فانقلب الى بستانيّ عن رضا وطيب
خاطر . والقراء يذكرون أنه كان يعرف جميع ضروب الوصفات

والاسرار الخاصة بالزراعة . ولقد أفاد من ذلك في عمله الجديد . كانت جميع شجرات الحديقة ، تقريباً ، شجرات بوية . فلحقها وجعلها 'تعطي ثراً ممتازاً .

وأجيز لكوزيت أن تفد عليه كل يوم ، وتقضي ساعة معه . وإذا كانت الراهبات مكتئبات ، وإذا كان هو لطيفاً ، فقد قارنت الطفلة ما بينه وبينهن ، وهامت به هياماً شديداً . ففي الساعة المعينة ، من كل يوم ، كانت تهرع الى الكوخ . حتى اذا دخلت ذلك المأوى العتيق ملأته بالجة . لقد تهلل جان فالجان ، وأحسن بصادته تتعاطف بسبب من السعادة التي أضفاها على كوزيت . والواقع ان للبهجة التي تدخلها الى قلوب الناس هذه الخاصة الساحرة ، وهي أنها - وهي التي لا تعرف للنقصان مثل أي انعكاس آخر - ترفع الينا اكثر اشراقاً من ذي قبل . وفي ساعات العطلة ، كان جان فالجان يراقبها - من بعيد - تلعب وتعدو ، وكان في ميسوره ان يميز ضحكها من ضحك رفيقاتها جميعاً .

ذلك بأن كوزيت عرفت الضحك الآن .

وحتى محباً كوزيت تغير بعض الشيء . كان الطابع الكئيب قد زال . فالضحك شمس . إنه يطرد الشتاء من الوجه البشري . وهكذا غدت كوزيت ، وهي التي لم تكن جميلة في يوم من الايام ، فاتنة من ناحية اخرى . كانت تقبل اشياء صغيرة معقولة بصوتها الطفلي العذب .

حتى اذا انتهت العطلة ، وفارقت كوزيت ، كان من دأب جان فالجان ان يراقب نوافذ غرفة صفها . أما في الليل ، فكان ينهض من فراشه ، ويلقي نظرة على نوافذ المجمع الذي كانت تنام فيه .

إن فة طرائقه . فقد أسهم الدير ، كما أسهمت كوزيت ، في تثبيت محل الاسقف وإكاله في نفس جان فالجان . وليس في استطاعة المرء ان

يُنكر ان وجهاً من أوجهِ الفضية ينتهي الى الغرور . وعند تلك النقطة تمتد جسر بناء الشيطان . ولقد كان جان فالجان ، في ما يبدو ، من غير أن يستشعر ذلك ، على مقربة من وجه الفضية ذاك عينه ، ومن ذلك الجسر عينه ، حين قدفت العناية الالهية به الى دير بيكبوس الصغير . كان خليقاً به ، ما دام لا يقارن نفسه إلا بالاسقف ، أن يجد نفسه غير كفؤ ، وان يظل متواضعاً . ولكنه بدأ ، منذ فترة من الزمان ، يقارن ما بينه وبين سائر الناس ، ومن هنا راح الغرور يُطلع رأسه في نفسه . ومن يدري ؟ لعله كان خليقاً بأن ينتهي الى الارتداد ، تدريجياً ، نحو البغض .

لقد أوقفه الدير عند هذا المنحدر .

كان هذا هو ثاني موطن من مواطن الأمر 'قدر له ان يراه . ففي شبابه ، في ما كان بالنسبة اليه بدء الحياة ، وبعد ذلك ، منذ فترة قريبة جداً ، رأى موطناً آخر ، موطناً رهيباً ، موطناً فظيعاً كانت ضروب القسوة التي ينطوي عليها تبدو له دائماً جوارِ العدالة ، وجريمة القانون . والآن ، بعد ان رأى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، رأى الدير . وإذا فكّر انه كان في ما مضى جزءاً من سجن الأشغالين ، وانه امسى اليوم ، اذا جاز التعبير ، مشاهداً في الدير فقد قابل ما بينها ، في تأملاته ، بقلق شديد .

وفي بعض الاحيان كان يتكىء على مسحاته ، ويهبط شيئاً بعد شيء معارج الاحلام اللولبية التي ليس لها قرار .

لقد تذكر رفيقه القدماء ، ومبلغ ما كانوا يعانونه من بؤس . كانوا ينهضون منذ الضحى ، ويكدهون حتى يهبط الليل . وما كان يُسمح لهم بالنوم الا نادراً . كانوا ينامون على سرر عسكرية ، ولم يكن ليجاز هم ان يتخذوا غير حشايا تبلغ سماكتها إنشبين ليس غير ، في قاعات ما كانت تدفأ الا في أشهر الشتاء القارسة . كانوا يلبسون أروية حمراء ،

وكانوا يُعْطَوْنَ ، تَكْرِماً ، وتلطفاً ، بنطلوناً من نسيج قتيّ حين يبلغ القِيْظُ أشدّه ، ورقعة مربعة من نسيج صوفي يضعونها على ظهورهم في أيام الزمهرير . لم يكن عندهم خمر يجتسونها ، ولا لحم يأكلونه الا يوم يساقون الى عمل « شاق فوق العادة » . لقد عاشوا من غير أسماء - فهم لا يميزون إلا بالارقام ، وقد حوّلوا بمعنى ما الى أصفار - مطرقي الأبصار ، خافضي الاصوات ، حليقي الرؤوس ، تحت العصي ، وفي حاة العار .

ثم ارتدت افكاره الى الكائنات اللاواتي كنّ أمام عينيه .

لقد عاشت هذه الكائنات ، ايضاً حليقات الرؤوس ، مطرقات الابصار ، مكبوحات الأصوات . انهن لم يتمرغن في حاة العار ولكنهن كن محوطات بسخریات العالم . ان ظهورهن لم تتقّع من هراوة السجان ، ولكن اکتافهن كانت ممزقة بالكفارة التي تُزَلِّها كل منهن بنفسها . واسماؤهن ايضاً قد زالت من بين أسماء الناس ، فهنّ يعشن الآن بنعوت كالحة ليس غير . انهن لا يأكلن اللحم أبداً ولا يشربن الخمر أبداً . وكثيراً ما يقين حتى المساء من غير طعام . انهن لم يكنّ يلبسن اردية حمراء ، ولكنّ أكفاناً سوداء من صوفٍ ، غليظٍ في الصيف ، رقيقٍ في الشتاء ، غير قادرات على أن يزدنها او ينقصن منها ؛ غير مالكات حتى حق استبدال معطف من الصوف بثوب من القطن او ثوب من القطن بمعطف من الصوف ، تبعاً للفصول . وطوال ستة اشهر كن يرتدين قمصاناً من انسجة صوفية غليظة تورثن ضروراً من الحمى . وكنّ يسكنّ لا في قاعات تدفأ أيام الزمهرير فحسب ، ولكن في قلابا لا توقد النار فيها البتة . وكن ينمن على حشايا تبلغ ممالكها إنشين ، ولكن على التبن . وفوق هذا فلم يكن ليُسمح لهن حتى بالنوم . فما إن يُتمنن كدح النهار ، ويرزحن تحت وطأة النعاس ، حتى يُدْعَوْنَ كل ليلة - لحظة تكون الواحدة منهن قد بدأت تستسلم للرقاد وأوقعت في جسدها قليلاً

من الدفء - الى الاستيقاظ ، فينهضن ويجتمعن للصلاة في كنيـسة مثـلـوجة مظلمة ، حيث تمس رُكـبـهن الارض الحـجـرية .

وفي بعض الأيام كان يتعين على كل من هاته المخلوقات ، واحدة اثر الاخرى ، ان تظل اثنتي عشرة ساعة متعاقبات راكمةً على البلاط ، او مكبةً على وجهها متصالبة الذراعين .

لقد كان اولئك رجالاً ؛ اما هؤلاء فنساء . ما الذي فعله اولئك الرجال ؟ لقد سرقوا ، واغتصبوا ، وسلبوا ، وقتلوا ، وسفكوا الدماء . كانوا قطاع طرق ، ومزورّين ، ومسمّين ، ومحرقين ، وقتلة ، ومريقي دم آبائهم وامهاتهم . وما الذي فعلته هاته النسوة ؟ لهنّ لم يفعلن شيئاً .

في ناحية ، كانت السرقة ، والغدر ، والخديعة ، والعنف ، والفسق ، والقتل ، وكل ضرب من ضروب تدنيس القدسيات ، وكل صنف من صنوف انتهاك الحرمات . وفي الناحية الاخرى لم يكن غير شيء واحد : - البراءة .

البراءة الكاملة التي تكاد ترتفع ، في انتقال مقدس ، الى الاعالي ، فهي لا تزال مشدودة الى الارض بالفضيلة ، ولكنها توشك ان تمس السوء بالقداسة .

في ناحية ، كان الاعتراف بالجرائم يُرسل في صوت مهموس . وفي الناحية الاخرى كان يُعترف بالخطايا جهاراً . ويا لها من جرائم ! ويا لها من خطايا !

وفي ناحية كانت أنجرة عفتة ، وفي الاخرى كان الطيب الذي يمنع على الوصف . في ناحية كان الطاعون الاخلاقي ، المراقب ليلاً ونهاراً ، المسلطة عليه افواه المدافع ، المفتوس ضحاياه في بطنه . وفي الاخرى ، كانت الارواح كلها تتعانق عناقاً عفيفاً على منبثق الاشعاع نفسه . هناك الظلمات ؛ وهنا الظلّ ، ولكنه ظلّ مفعم بالنور ، النور المفعم بالاشعة

المتوهجة .

موطنان من مواطن العبودية . ولكن في اولهما اعتقافاً ممكناً ،
فهناك نصب العيون ابدأ حدّ قانوني ، ثم هناك الفرار . اما في ثانيهما
فليس غير الخلود ، وليس من أمل ، عند أقصى حدود المستقبل ، سوى
شعاع الحرية الذي يدعوه الناس الموت .

في الموطن الأول ، كان الامر يُصفّدون بالاغلال فحسب . وفي
الموطن الثاني كنّ يصفّدون بالايمان ليس غير .

ما الذي نشأ عن الموطن الأول ؟ لعنة هائلة ، وصرير الأسنان ،
والكراهية ، والحبابة اليائسة ، وصرخة غيظ في وجه المجتمع البشري ،
وسخرية من السماء .

وما الذي نشأ عن الموطن الثاني ؟ البركة والحب .

وفي هذين الموطنين ، المتشابهين جداً المختلفين جداً ، كان هذان
الضربان من الخلوقات ، الشديدة التباين ، يقومان بالعمل نفسه :
التكفير .

وفهم جان فالجان احسن الفهم تكفير الفئة الاولى ؛ التكفير الشخصي ؛
التكفير من اجل النفس . ولكنه لم يفهم تكفير الفئة الاخرى ، تكفير
هذه المخلوقات المتزهات عن اللوم ، المعصومات عن الدنس . وساءل
نفسه في ارتعاد : « التكفير عن ماذا ؟ أيُّ تكفير هذا ؟ »

فأجابه صوت في وجدانه يقول : « انه أقدس ضروب الجود
الانساني ، التكفير من اجل الآخرين . »

وهنا نحتفظ بنظرياتنا جميعاً . فلننا غير قاصٍ من القصّاص . وإنما
نقول ما نقوله من وجهة نظر جان فالجان ، ونعبّر عن انطباعاته
بمجرد تعبير .

كانت نصب عينيه القمة العليا لانكار الذات ، فئة الفضيلة الاكثر
سجواً ؛ والبراءة الغافرة للناس آثامهم المكفرة عنها بالنيابة عنهم ؛

والعبودية محتمة ؛ والعذاب مقبولا ؛ والعقوبة والشفاء وقد ألت في طلبهما نفوس لم تأثم ، لكي تُنجي منهما نفوساً آتمة ؛ وحب الإنسانية فانياً في حب الله ولكنه باقٍ هناك متميزاً متضرعاً ؛ وكائنات ضعيفات لطيفات تحمّل كل عذاب أولئك الذين أنزلت العقوبة بهم ، وتحفظ رغم ذلك بابتسامة أولئك الذين فازوا بالمكافأة .

وتذكر أنه تجرّأ على الشكوى !

وكان كثيراً ما ينهض من فراشه ، في جوف الليل ، ليصني الى الانشاد الشكور المنطلق من حناجر هاته المخلوقات البريئة ، المثقلة بضروب القوة . ولقد استشعر الدم يجري بارداً في عروقه حين فكّر ان أولئك المعاقين بحق لا يرفعون اصواتهم نحو السماء أبداً إلا لكي يجتفوا ؛ وانه هو - برغم شقائه كله - قد هزّ جمع كفه في وجه الرب !

وشيء آخر غريب جعله يعن في التفكير والتأمل وكأنه وحياً همست به في أذنه العناية الالهية نفسها : إن تسوّر الجدران ، واجتياز الأسبجة ، والهاطرة بالحياة حتى الموت ، والصعود العسير المؤلم ، جميع هذه الجهود التي بذلها في سبيل الخروج من موطن التكفير الاول هي عينها التي بذلها من أجل الدخول الى موطن التكفير الثاني . أليكون هذا رمزاً على قدره ؟

لقد كان هذا البيت سجنأ ايضاً ، وكان يشبه شبيهاً كثيراً ذلك المأوى الآخر الذي فرّ منه ؛ ومع ذلك فلم يتخيّل قط من قبل شيئاً مثله .

لقد بهرّ كرة اخرى بالابواب والنوافذ المقضبة ، وبالمزاج ، وبالقضبان الحديدية . ولكن لتعجب من ؟ الملائكة . وهذه الجدران السامقة التي وآها في ما مضى تطوّق أنثاراً ، أمسى يراها ، اليوم ، تطوّق حملاتاً .

كان موطن تكفير ، لا موطن قصاص . ومع ذلك فقد كان اكثر جهامة ، واكثر كآبة ، واكثر قسوة ، من الموطن الآخر . كانت ظهور هؤلاء العذارى مخنية في خشونة دونها الحشونة التي حُشيت بها ظهور المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . كانت ريح باردة عنيفة ، الريح التي جعلت شبابه مثلوجاً ، تخترق الخندق المحصن بالحديد ، وتكبّل العقبان . ولكن ريحاً أشدّ لذعاً واكثر وحشية هبت على قفص الحمام . لماذا ؟

حين فكّر في هذه الاشياء تراجع كل ما كان يعتلج في ذاته أمام سرّ السمّ هذا .

وفي هذه التأمّلات ، تلاشى الغرور . لقد عاد الى نفسه مرةً ومرة . لقد استشعر حقارته البالغة . وسفح الدمع في كثير من الاحيان . كان كلُّ ما دخل حياته ، منذ ستة اشهر ، قد رذّه نحو وصايا الاستشف القدسية ؛ كوزيت بالحبّ ، والدير بالحشوع .

وبعض الاحيان ، حين يهبط الليل عند الفسق ، في تلك الساعة التي تُففر فيها الحديقة ، كان يُرى راکعاً وسط المجاز المحاذي للكنيسة ، أمام النافذة التي نظر من خلالها ليلة وصوله ، متجهاً الى حيث كانت الاخت المستغفرة ساجدةً مصلية على ما يعلم . وهكذا صلى راکعاً امام هذه الاخت .

لقد بدا وكأنه لا يجرؤ على الركوع امام الله مباشرة . ولم يلبث كل ما حوله : هذه الحديقة المطمّنة ، هذه الرياحين العاطرة ، هؤلاء الاطفال الصائحون صيحات البهجة ، هاته النسوة الوقورات البسيطات ، هذا الدير الصامت - لم يلبث كل هذا ان داخل كيانه كله تدريجياً . شيئاً بعد شيء . تكونت نفسه من صمتٍ مثل هذا الدير ، ومن عطرٍ مثل هذه الرياحين ، ومن طمأنينةٍ مثل هذه الحديقة ، ومن بساطةٍ مثل هاته النسوة ، ومن بهجةٍ مثل هؤلاء الاطفال . ثم فكر ان بيتين من

بيوت الله قد استقبله ، على التعاقب ، في لحظتي حياته العصيتين :
الاول حين أوصد في وجهه كل باب ونبذه المجتمع البشري ؛ والثاني
حين طارده المجتمع البشري من جديد وفغر سجنُ الاشغال الشاقة فمه
لابتلاءه . وانه لولا الاول لتودى في مهاوي الجريمة كرة اخرى ،
ولولا الثاني لتودى في مهاوي العقاب .
وذاب فؤاده كله اعترافاً بالجميل ، وتعلق بأهداب الحب اكثر فأكثر .
وانقضت على هذا النحو عدة سنوات . وكبرت كوزيت .

فهرست القسم الثاني : « كوزيت »

الكتاب الاول : واترلو

ص	
٧	١ . ما الذي تلتقيه وانت مقبل من نيفيل
١٠	٢ . هوغومون
٢٠	٣ . ١٨ حزيران ، ١٨١٥
٢٤	٤ . A
٢٧	٥ . « الشيء المظلم » في الحارك
٣٢	٦ . الساعة الرابعة بعد الظهر
٣٦	٧ . نابوليون طلق الحيا
٤٥	٨ . الامبراطور يوجه سؤالاً الى الدليل لاكوست
٤٩	٩ . ما لم يكن مترقياً
٥٥	١٠ . نجد « مون سان جان »
٦٢	١١ . دليل رديمي لنابوليون ودليل جيه لبولوف
٦٥	١٢ . الحرس
٦٧	١٤ . النكبة
٧٠	١٤ . الربع الاخير
٧٢	١٥ . كامبرون
٧٦	١٦ . كم بارة في الليرة ؟
٨٤	١٧ . أينبغي لنا ان نتحسن واترلو ؟
٨٦	١٨ . نكبة الحق الالهي
٩١	١٩ . ساحة المركبة لبلأ

الكتاب الثاني : الدارعة « اوريون »

ص	
١٠١	١ . رقم ٢٤٦٠١ يصبح رقم ٩٤٣٠
١٠٥	٢ . حيث تقرأ بيتين من الشعر لملها من عمل الشيطان
	٣ . وفيه يظهر ان سلسلة الطوق الحديدي لا بد
	ان تكون قد خضعت لعمل إعدادي ما لكى
١١٢	تنكسر على هذا النحو بضربة مطرقة

الكتاب الثالث : الوفاء بالعهد المقطوع للراحلة

١٢٤	١ . مسألة المياه في مونفيرماي
١٢٩	٢ . رثمان يكتملان
١٣٦	٣ . يجب ان يشرب الرجال الخمر وأن تشرب الخيل الماء
١٤٠	٤ . دخول دمية الى المسرح
١٤٧	٥ . الصغيرة فريسة الوحدة
١٥٤	٦ . وهو ما قد ينهض دليلاً على ذلك بولاتروويل
١٦١	٧ . كوزيت مع المجهول جنباً الى جنب ، وفي غمرة الظلام
١٦٦	٨ . ما أبغض ان تضيف فقيراً ربما كان غنياً
١٩١	٩ . تيناورديه يناور
٢٠٣	١٠ . من يلتبس الأحسن قد يقع على الاسوأ
٢١٠	١١ . رقم ٩٤٣٠ يظهر كرة اخرى وكوزيت ترجمه في اليانصيب

الكتاب الرابع : بيت غوربو العتيق

٢١٣	١ . الاستاذ غوربو
٢٢٢	٢ . عشّ لبوم ودُخلة
٢٢٤	٣ . بؤسان يمتزجان فيولدان سمادة
٢٣٠	٤ . ملاحظات المتأجرة الرئيسية
	٥ . قطعة نقدية من فئة الخمسة فرنكات
٢٣٣	تقع على الارض فتحدث ضجة

الكتاب الخامس : المطاردة السوداء تحتاج الى كلاب قنص صامتة

٢٣٨	١ . خطوط الستراتيجية المترجمة
-----	---

٢	من حسن الطالع ان في ميسور المرات
٢٤٣	ان تجتاز جسر اوسترليتز
٣	انظر مخطط باريس عام ١٧٢٧
٤	جان فالجان يلتصق في الظلام سبيله الى النجاة
٥	وهو ما كان متذكراً لو ان الشوارع اضيئت بالغاز
٦	بدء أحجية
٧	الأحجية تستمر
٨	الأحجية تنمقد
٩	الرجل ذو الجليل
١٠	وفيه يتضح كيف أضع جافير الطريدة

الكتاب السادس : بيكبوس الصغير

١	شارع بيكبوس الصغير ، رقم ٦٢
٢	راهبات الطاعة لمارتن فيرغا
٣	ضروب من القسوة والصرامة
٤	مباهج
٥	شواغل
٦	الدير الصغير
٧	بعض الصور المظلمة في هذا الظلام
٨	« بدم القلوب الحجارة »
٩	قرن من الزمان في زيّ راهبات
١٠	أصل « السجود السرمدى »
١١	نهاية « بيكبوس الصغير »

الكتاب السابع : بين هلالين

١	الدير بوصفه فكرة مجردة
٢	الدير بوصفه واقعة تاريخية
٣	بأي شرط نستطيع ان نحترم الماضي
٤	الدير من وجهة النظر المبدئية
٥	الصلاة

٦	تخيرية الصلاة المطلقة	٣٥١
٧	احتياطات يجب أن تتخذ في اليوم	٣٥٥
٨	الايمان - القانون	٣٥٦

الكتاب الثامن : المقابر تأخذ ما يُقدّم إليها

١	وهو يعالج طريقة الدخول الى الدبر	٣٦٠
٢	فوشلوفان يواجه الصعوبة	٣٧١
٣	الأم اينوسانت	٣٧٤
٤	حيث يظهر جان فالجان بظهر من فرأ	
	اوسن كاستيلجو تماماً	٣٩١
٥	ليس يكفي ان تكون مكبراً	
	لكي تكون غلداً	٣٩٩
٦	بين اربعة الواح	٤٠٩
٧	حيث نكتشف اصل قولهم : لا تضع بطاقتك	٤١٢
٧	استجواب فاجع	٤٢٤
٩	الحاشية	٤٢٩

قالوا ...

● « ... وكان آخر ما أنحفتنا به » قصة مدينتين « لشارلز ديكنز . فما هالك منها ضخامة في حجمها ، ولا مشقة في تذليل أوابدها . بل آليت على نفسك ان تنقلها « كاملة غير منقوصة » ، فأحسنت بذلك الى نفسك ، والى العربية ، والى ديكنز . وكنت اميناً في عملك منتهى الامانة . فلا تحوير ولا تزوير كما هي الحال مع الكثيرين من المترجمين . وكنت حذقاً ولبقاً في تغلبك على القصص من التعابير والمصطلحات الانكليزية ثم في خلعتك على الترجمة كلها حلة عربية محكمة النسيج ، لطيفة التفاصيل ، مشرقة اللون ...

وها انك منصرف في هذه الايام الى ترجمة « البؤساء » لميغو في نصها الكامل . وهو عمل ضخم ، ولكنه ضروري . اذ من الحيف ان لا يعرف العرب تلك الرواية الشهيرة الا في ترجمة حافظ ابراهيم المسموخة . ولست اعرف من هو اقدر منك على إنصاف الرواية وصاحبها لدى القاري العربي ... »

بسكتنا - ميخائيل نعيمة

● « ... والذي يعجبني في ترجمة البعلبكي هو انه قد يفتش عن الكلمة الملائمة بالفتيلة والسراج ، واذا لم يجد فوراً صبر عليها حتى تأتي . فمن فائته مطالعة الاثار الادبية بلغتها الأم يمكنه ان يعتمد على ترجمة منير فهي اقرب ما

يُترجم اليوم الى الأصل. قلت « اقرب » لان لكل لغة حلاوتها وطعمها ولونها.
أما سلامة عبارته فقد تكون ، لا بل هي ، اسلم تعبير عن الفكرة الاجنبية
التي ينقلها الاستاذ الى العربية ، فلا حشو ولا ثثرة ، بل امانة كلية في التأدية ... »

بيروت ، « المجالس المصورة » - مارون عبود

● «... اذا كان المؤلف فضل فللمترجم في اعتقادي فضلان ! لانه متى اراد
القيام بالترجمة كما يجب تحتم عليه ان يكون المؤلف عينه من جهة ثم ان يكون
هو نفسه من جهة ثانية ... هذه الفكرة خطرت لي غيب قراءتي لترجمة كتاب
« الشيخ والبحر » فقد أعجبتُ بالتعريب اعجاباً يفوق اعجابي بالقصة . ومنذ
ذلك الحين بدأت ارافق صديقي الاستاذ منير البعلبكي في ما ينتج من ترجمات ،
واصبحت اقرأ بالعربية ما كنت اقرأه من ادب الانكليزي والالمان والروس
والاميركان . ثم اعدت النظر في بعض ما كان منير البعلبكي قد ترجمه قبل
« الشيخ والبحر » مما فاتني الاطلاع عليه ، فزاد يقيني بأن الترجمة ايضاً من الفنون
العالية ما دام عنصر التعب فيها جلياً بمقدار ما هو في الشعر والموسيقى ... »

بيروت - « جريدة الجريدة » - رفيق المعلوم

● «... انت كاتب تربطك بكرامة التعبير ومسؤولية الفكر اسباب واعية ،
ومن هنا كانت امانتك في الترجمة ، وانت رجل واعٍ لوظيفة الفكر والفن في
المرحلة الراهنة من مراحل قوميتنا العربية ، ومن هنا فانت تختار ترجماتك بما
يتلاءم مع حاجات الوجدان العربي والذهن العربي على السواء ، مما يساعد على
خلق الفرد الواعي لوجوده ، لمشكلاته الحقيقية ، لأبعاد ماضيه وحاضره
ومستقبله ... »

القاهرة - رجاء النقاش

● «... اما الاستاذ منير فأن رأيي في انتاجه الرائع هو رأي كل منصف يتذوق ويميز الغث من السمين . إن ترجماته أشبه بالهضاب الوطيدة الشاخة ، بناءً ولغة وفكرة » ، الى جانب غبار من الترجمات تشويه اقلام لو عرفت قدرها لتلذذت طويلاً على انتاج الأستاذ منير قبل أن تحطّ جملة عربية او تمسك يزمام فكرة ...»

حلب - سليمان العيسى

● «... ولا يكتفي منير البعلبكي بمجرد الترجمة ولكن يضيف اليها من الحواشي والتعليقات والشروح ما يرتفع بجهد الى حيث يغدو مشاوكة فعلية في التأليف وليس مجرد نقل من لغة الى لغة فحسب . وهو بهذه الهوامش الكثيرة جداً التي تنتشر في كل صفحة من صفحات الكتاب تقريباً انما ييسر للقاري العربي ان لا تقوته صغيرة ولا كبيرة من الاسماء والاماكن والحوادث التي في الكتاب ... وجهد البحث والتنقيب مضافاً اليه جهد الترجمة والمقارنة بين النسخة الفرنسية والنسخة الانكليزية هو الذي أغنيه بالمشاركة الفعلية في التأليف ...»

عمان - « جريدة فلسطين » ، عيسى الناعوري

● «... حري بنا اذن ان نكبر في المترجم هذا الدأب الموصول وان نقدّر له فضله في تعريف القاري العربي الى شوامخ القصص العالمي التي كان احداثها ترجمة « الشيخ والبحر » لارنست همنغواي ترجمة تكاد ان تكون كاملة بامانتها وصفائها وتلك الروعة التي اضافها المترجم على اسلوبه ، وما كنت لأقع على مثلها في ترجمة الكتاب نفسه الى اللغة الفرنسية ! »

بيروت - « جريدة الحياة » ، ابن يقطان

انتهى المجلد الثاني
ويليه المجلد الثالث

٢٤٧ / ١٠ / ٥٥ / ٣٠٠٠